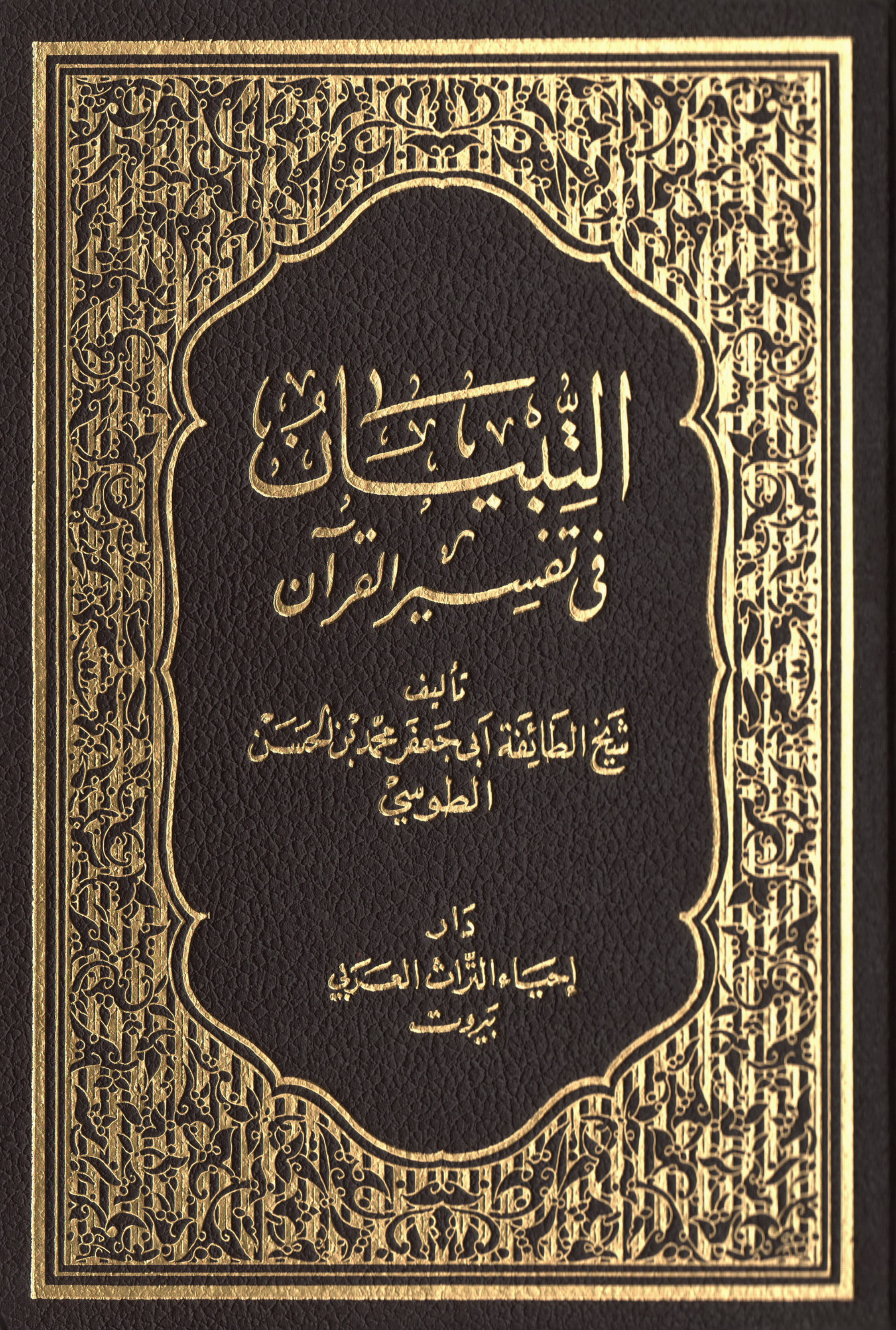


الطوسي

التبيان في تفسير القرآن

٦

دار إحياء التراث العربي



التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥-٤٦٠هـ

تحقيق وتصحيح

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد السادس

دار

احياء التراث العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وفقنا لأتمام طبع المجلد الخامس من هذا السفر النفيس ، وسهل لنـا السبل لانجاز المجلد السادس والشكر له وحـده فانه المتفضل باصول النعم والحمد له على إلهامنا الحمد ، والشكر له على إلهامنا الشكر ، ولا حول لنا ولا قوة إلا بـه ومآبنا اليه واتكالنا عليه نسأله أن يلهمنا الصواب ، ويوفقنا الى ما فيه مرضاته ، وصلى الله على نبينا محمد وآله الذي أرسله الله لهداية خلقه وتبليـغ كتابه وتطبيق تشريعه في الارض وإظهار كلمة التقوى، وكلمة الله العليا ، فقام باداء الرسالة خير قيام ، وقد بلغ عن ربه ما أمر به على تمام وكمال ، وقام بعده أهل العلم بما وجب عليهم، ومنهم المؤلف قدس الله روحه الطاهرة (راجع ترجمته في المقدمة بقلم اية الله الآغا بزرك الطهراني – مد ظله العالي –) .

وبالختام ابتهل الى الله – جل شأنه – أن يوفقنا وجميع المؤمنين لما فيه السداد انه أرحم الراحمين .

أحمد حبيب قصير العاملي



قوله تعالى :

(وَإلى عادٍ أخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إلٰهٍ غَيْرُهُ إنْ أنْتُمْ إلّا مُفْتَرُونَ) (٥٠) آية بلا خلاف

قوله « اخاهم » نصب بتقدير (ارسلنا) كأنه قال : وأرسلنا إلى عاد أخاهم ودل عليه ما تقدم من قوله «ولقد ارسلنا نوحاً » و (عاد) مصروف ، لأن المراد به الحي وقد يقصد به القبيلة ، فلا يصرف قال الشاعر :

لو شهد عاد في زمان عاد لابتزهـا مبارك الجلاد [1]

وإنما سمى هوداً أخا عاد مع انهم كفار ، وهو نبي لان المراد بذلك الاخوة في النسب ، لا في الدين ، فحذف لدلالة الحال عليه .

وقوله « ما لكم من إله غيره » حكاية ما قال هود (ع) لهم وأمرهم ان يوجهوا عبادتهم الى الله ونفى ان يكون معبود يستحق العبادة غيره .

ومن ضم الراء حمله على الموضع ، لأن فيها معنى الاستثناء ، فكأنه قال ما لكم من إله إلا هو ، ولا يجوز في هذا الاستثناء الحمل على اللفظ ، لأن الواجب لا يدخله (من) الزائدة .

ومن جره حمله على اللفظ . وقال بعضهم تقديره ما لكم إله غيره و (من) زائدة ، فلذلك رفع .

وقوله « ان انتم إلا مفترون » أخبار من الله تعالى : حكاية ما قال هود لهم بأنه ليس انتم إلا متخرصون . وإنما سماهم مفترين بعبادة غير الله ، لأنهم في حكم من قال هي جائزة لغير الله ، فلذلك قال لهم ذلك . ومساكن عاد كانت بين بلاد الشام واليمن تعرف بالأحقاف ، وكانوا أصحاب بساتين وزروع ، ويسكنون

(١) مجمع البيان ٣ : ١٦٩ وروايته (لاقبرها) بدل (لابتزها) .

الرمال ، دعاهم هود الى الايمان بالله وتوجيه العبادة اليه ، فكفروا به فأهلكهم الله بالريح، فذكر انهـــا كانت تدخل في أفواههم فتخرج من استاههم فتقطعهم عضواً عضواً، نعوذ بالله منها .

قوله تعالى :

(يا قَوْمِ لاٰ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلٰى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعقِلُونَ (٥١) آية بلا خلاف

اخبر الله تعالى في هــذه الآية عن هود أنه قــال لقومه : لست أطلب منكم – على دعائي لكم الى عبادة الله – أجراً ، لأنه ليس جزائي في ذلك إلا على الله الذي خلقني ، فهلا تتفكرون – بعقولكم – في ذلك ، فتعلمون أن ذلك محض النصيحة لأنه لو كان لغيره لطلبت عليه الأجر .

اللغة

والسؤال والطلب معناهما واحــد ، الا ان الطلب قد يكون في غير معنى السؤال ، لأن من ضاع منه شيء يطلبه ، او طلب المــاء اذا استعذبه أو طلب المعادن ، لا يقال فيه (سأل) ولا هو سائل . و (الاجر) هو الجزاء على العمل على عمل الخير بالخير . وقد يستحق الاجر على الشكر ، كالاجر الذي يعطيه الله العبد عــلى شكره لنعمه . و (الفطر) الشق عن أمر الله ، كما ينفطر الورق عن الثمر ، ومنه فطر الله الخلق . ومنه قوله « اذا السماء انفطرت »[١] و « هل ترى من فطور »[٢] ومنه فطر الله الخلق لأنه بمنزلة مــــا شق عنه فظهر . وقوله « افلا تعقلون » يقال لمن عدل عن الاستدلال: لا يعقل، لأنه بمنزلة من لا يعقل ،

---

(١) سورة الانفطار آية ١ .
(٢) سورة الملك آية ٣ .

في انه لا ينتفع بموجب العقل . وقيل ان المعنى « أفلا تعقلون » أني اطلب بذلك نصحكم وصلاحكم فتقبلوه ولا تردوه .

قوله تعالى :

(وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) (٥٢) آية بلا خلاف.

هذه الآية عطف على ما قبلها ، وفيها حكاية ايضاً عما قال هود لقومه ، فانه ناداهم ، وقال «يا قوم استغفروا ربكم » اي اطلبوا منه المغفرة «ثم توبوا اليه» وانما قدم الاستغفار قبل التوبة ، لأنه طلب المغفرة التي هي الغرض ، ثم بين ما به يتوصل اليها هو التوبة ، والغرض مقدم في النفس ، لان الحاجة اليه ثم السبب ، لأنه يحتاج اليه من اجله . وقيل ان (ثم) في الآية بمعنى الواو ، كما قال «خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها»[1] وكان جعل الزوج منها قبل جميع البشر . وقيل ان المعنى استغفروا ربكم من الوجه الذي يصح ، من الايمان به وتصديق رسله ، والاقلاع عن معاصيه ، والتوبة من القبائح «ثم توبوا اليه» بمعنى استديموا على ذلك وجددوا التوبة بعد التوبة ، لئلا يكونوا مصرين . وكل ذلك جائز .

وظاهر هذه الآية يقتضي أن الله تعالى يجعل الخير بالتوبة ترغيباً فيها ، لأنه وعد متى تاب العاصي يرسل السماء عليهم مدراراً وهو الدرر الكثير المتتابع على قدر الحاجة اليه دون الزائد المفسد المضر ، ونصبه على الحال .

وروي انهم كانوا أجدبوا ، وانهم متى تابوا أخصبت بلادهم واثمرت اشجارهم وانزل عليهم الغيث الذي يعيشون به .

---

(١) سورة الزمر آية ٦ .

و (مفعال) صفة للمبالغة كقولهم : منجار، ومعطار، ومغزار. ومثله « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً. ويرزقه من حيث لا يحتسب »[1] ولولا هذا الوعد لما وجب ذلك . واما الثواب على التوبة فمعلوم عقلاً .

وقوله « ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » معنا ان الله تعالى اذا تبتم « يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى » القوة التي فعلها فيكم ، ويجوز ان يريد بذلك تمكينهم من النعم التي ينتفعون بها ويلتذون باستعمالها ، فان ذلك يسمى قوة .

وقوله «ولا تتولوا مجرمين» تمام الحكاية عنه انه قال لقومه لا تتولوا من عصا الله وترك عبادته .

قوله تعالى :

(قَالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) (٥٣) آية بلا خلاف.

في هذه الآية حكاية عما قاله قوم هود له حين دعاهم الى عبادة الله وترك ما سواه بأنهم قالوا له يا هود لم تجئنا ببينة يعني بحجة دالة على صدقك ولسنا نترك عبادة آلهتنا لأجل قولك ولسنا مصدقيك، ولا معترفين بعبادة إلهك الذي تدعي انك رسوله ، فالبينة الحجة الواضحة التي تفصل بين الحق والباطل . والبيان فصل المعنى من غيره حتى يظهر للنفس متميزاً مما سواه ، ويجوز ان يكون حملهم على رفع البينة مع ظهورها أمور :

احدها ـ تقليد الآباء والرؤساء فدفعوها لذلك .

ومنها اتهامهم لمن جاء بها حيث لم ينظروا فيها .

---

(١) سورة الطلاق اية ٢ - ٣ .

ومنها انهم دخلت عليهم الشبهة في صحتها .
ومنها اعتقادهم لاصول فاسدة تدعوهم الى جحدها .
واما الداعي الى عبادة الاوثان فيحتمل ان يكون احد اشياء :
احدها – انهم ظنوا انها تقربهم الى الله زلفى اذا عبدوها .
الثاني – ان يكونوا على مذهب المشبهة فجعلوا وثناً على صورته فعبدوه .
الثالث – ان يكون القي اليهم ان عبادتها تحظي في دار الدنيا .

وقوله « عن قولك » معناه بقولك ، وجعلت (عن) مكان الباء ، لان معنى كل واحد من الحرفين يصح فيه . وقال الرماني : من عبد إلهاً في الجملة هو ممن عبد غير الله ، لان كل واحد منها لم تخلص العبادة له ولا اوقعها على وجه يستحق به الثواب .

قوله تعالى :

(إِنْ نَقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ إِنِّي أُشْهِدُ ٱللهَ وَٱشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشرِكونَ) (٥٤) آية .

في هذه الاية تمام الحكاية عن جواب قوم هود لهود ، وهو انهم قالوا مع جحدهم لنبوته « ان نقول » لسنا نقول « إلا اعتراك » أصابك من قولهم عراه يعروه إذا اصابه ، قال الشاعر :

من القوم يعروه اجترام ومأثم [1]

وقيل «اعتراك» اصابك بجنون خبل عقلك، ذهب اليه ابن عباس، ومجاهد. وانما جاز ان يقول «إلا اعتراك» مع انهم قالوا اشياء كثيرة غير هذا، لان المعنى

(١) قائله ابو خراش : مجمع البيان ٣ : ١٦٩ ، وتفسير الطبري ١٢ : ٣٥ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٠ وصدره: (تذكر داخلا عندنا وهو فاتك)

ما نقول في سبب الخلاف الا اعتراك ، فحذف ، لان الحال يقتضي ان كلامهم في الخلاف وسببه .

وقوله « قال اني اشهد الله » اخبار عما اجابهم به هود بأن قال : اشهد الله على اداثي اليكم ونصحي اياكم ، وعلى ردكم ذلك علي وتكذيبكم اياي و«اشهدوا» انتم ايضاً اني بريء مما تشركون ، وانما اشهدهم – على ذلك وان لم يكونوا اهل شهادة من حيث كانوا كفاراً فساقاً – اقامة للحجة عليهم لا لتقوم الحجة بهم ، فقيل هذا القول اعذاراً وانذاراً ، ويجوز ان يكون يريد بذلك اعلموا كما قال « شهد الله » بمعنى علم الله .

قوله تعالى :

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنظِرُونَ (٥٥) آية بلا خلاف .

في هذه الاية دلالة على صحة النبوة ، لانه قال لقوم من اهل البأس والنجدة « كيدوني جميعاً ثم لا تنظرون » اي لا تمهلوني ثقة بأنهم لا يصلون اليه بسوء ، لما وعده الله (عز وجل) من العز والغلبة . ومثله قال نوح لقومه « فاجمعوا امركم وشركاءكم ثم لا يكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون »[(١)] وقال نبينا ﷺ « فان كان لكم كيد فكيدون »[(٢)] .

والفرق بين الانظار والتأخير ان الانظار امهال لينظر صاحبه في امره ، والتأخير خلاف التقديم من غير تضمين .

وفي هذه الاية تضمين بما قبلها، لان التقدير اني بريء مما تشركون من دونه، وههنا يحسن الوقف ويحسن ايضاً ان يقف على قوله « تشركون» كان ذلك وقفاً كافياً ، لانه يحسن الوقف عليه، ولا يحسن استئناف ما بعده . واما الوقف التام

---

(١) سورة يونس آية ٧١

(٢) سورة المراسلات آية ٣٩

فهو الذي يحسن الوقف عليه ويحسن استئناف ما بعده نحو قوله «واياك نستعين» ثم يستأنف « اهدنا الصراط المستقيم »[١].

والكيد طلب الغيظ بالسر وهو الاحتيال بالسر ، تقول : كاده يكيده كيداً وكايده مكايدة مثل غايظه مغايظة .

قوله تعالى :

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٥٦) آية بلا خلاف.

هذه الآية فيها حكاية ما قال هود لقومه بعد ذكر ما قدم من القول فيه اني توكلت على الله . والتوكل تفويض الامر الى الله تعالى على طاعته فيما امر به، لان ذلك من تسليم التدبير له ، لان افعاله كلها جارية على ما هو اصلح للخلق .

وقوله « ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها » فمعناه ليس من حيوان يدب الا وهو تعالى آخذ بناصيته اي قادر على التصرف فيه ، وتصريفه كيف شاء . و (الناصية) قصاص الشعر ومنه قوله « فيؤخذوا بالنواصي والاقدام »[٢] وفي جر الرجل بناصيته اذلال له . واصل الناصية الاتصال من قولهم : (مفازة بناصي مفازة) اذا كانت الاخيرة متصلة بالاولى قال الشاعر :

في‌ء تناصيها بلا دفي‌ء[٣]

وقال ذو الرمه :

ينصو الجماهين[٤]

ونصوته انصوه نصواً اذا اتصلت به .

---

(١) سورة الفاتحة اية ٥ – ٦

(٢) سورة الرحمن اية ٤١

(٣) مجمع البيان ٣ : ١٦٩

(٤) لم اجده

وقال ابو النجم :

ان يمس رأسي اشمط العناصي كأنما فرقه مناصي [1]

اي يجاذب ليتصل به في مره ، وانما قال اخذ بناصيتها مع انه مالك لجميعها لما في ذلك من تصوير حالها على عادة معروفة من امرها في اذلالها ، فكل دابة في هذه المنزلة في الذلة لله تعالى . وقوله « ان ربي على صراط مستقيم » معناه أن أمر ربي في تدبير خلقه على صراط مستقيم لا عوج فيه ولا اضطراب، فهو يجري على سبيل الصواب لا يعدل الى اليمين والشمال والفساد . والفائدة هنا ان ربي وإن كان قادراً على التصريف في كل شيء فانه لا يفعل إلا العدل ولا يشاء الا الخير .

قوله تعالى :

(فإنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلى كُلِّ شَيءٍ حَفِيظٌ (٥٧) آية بلا خلاف .

معنى الاية حكاية ما قال هود لقومه من قوله لهم ان توليتم ، فليس ذلك لتقصير في ابلاغكم وانما هو لسوء اختياركم في الاعراض عن نصحكم ، ويجوز ان يكون ذلك حكاية ما قال الله لهود انهم ان تولوا فقل لهم فقد ابلغتكم . وقال الزجاج : التقدير فان تتولوا فحذف احدى التائين ، لدلالة الكلام عليها ، فعلى هذا تقديره قل لهم فان تتولوا ، ومثله قال الجبائي . والتولي الذهاب الى خلاف جهة الشيء وهو الاعراض عنه . والمعنى هنا التولي عما دعوتكم اليه من عبادة الله ، واتباع امره ، والابلاغ إلحاق الشيء بنهايته ، وذلك انه قد يلحق الحرف بالحرف على جهة الوصل ، فلا يكون إبلاغاً ، لانه لم يستمر الى نهايته .

---

(١) اللسان (نصا) ومجمع البيان ٣ : ١٦٩

وقوله «ويستخلف ربي قوماً غيركم» فالاستخلاف جعل الثاني بدل الاول يقوم مقامه فيما كان عليه الاول، فلما كانوا قد كلفوا، فلم يجيبوا، جعل الثاني بدلاً منهم في التكليف .

وقوله « ولا تضرونه شيئاً » معناه انه اذا استخلف غيركم ، لا تقدرون له على ضر ولا نفع . وقيل ان معناه لا ينقصه هلاككم شيئاً ، لانه يجل عن الحاق المنافع والمضار به .

وقوله « ان ربي على كل شيء حفيظ » لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها . وقيل معناه يحفظني من ان تنالوني بسوء .

قوله تعالى :

(وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنا هُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ) (٥٨) آية.

المعنى ولما جاء امرنا بهلاك عاد ، ودلائله « نجينا هوداً ، والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ » يعنى من عذاب الدنيا والآخرة فسلموا من الامرين .

والنجاة السلامة من الهلاك ، وقد تكون السلامة من اصابة الم ما ، والرحمة قد تكون مستحقة بدلالة قوله « ونجيناهم برحمة منا » ويجوز ان يكون المراد بما اريناهم من الهدى والبيان الذي هو رحمة . والرحمة مستحقه بالوعد وحسن التدبير في الفصل بين الولي والعدو. والغليظ عظيم الجثة والكثيفة ، وانما وصف به العذاب لانه بمنزلته في الثقل على النفس وطول المكث .

قوله تعالى :

(وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) (٥٩) آية بلا خلاف.

قوله «وتلك» اشارة الى من تقدم ذكره ، وتقديره و « تلك » القبيلة « عاد جحدوا بآيات ربهم » والجحد الخبر بأن المعنى ليس بكائن على صحة ، فعلى هذا جحدوا هؤلاء الكفار بآيات الله، اي اخبروا بأن المعنى لا نعرف صحته، والنفي خبر بعدمه .

وقال صاحب العين : الجحد انكارك بلسانك ما تستيقنه نفسك .

وقوله « وعصوا رسله» فيه أخبار انهم مع جحدهم دلالة رسل الله، وانكارهم آيات الله ، خالفوا ما اراده الدعاة الى الله ، على طريق الايجاب بالترغيب والترهيب فالرسول دعاهم الى عبادة الله ، فخالفوه وانما قال « عصوا رسله » وهم عصوا هوداً ، لأن الرسل قد تقدمت عليهم بمثل ذلك ، وذلك عصيان لهم فيما امروا به ودعوا اليه من توحيد الله وعدله وان لا يشركوا به شيئاً .

وقوله «واتبعوا امر كل جبار عنيد» والعنيد العاتي الطاغي، عند يعند عنداً وعنوداً اذا حاد عنه كثيراً قال الشاعر .

اني كبير لا اطيق العندا[1]

قوله تعالى :

(وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَاداً

---

(١) مجاز القرآن ١ : ٢٩١ وتفسير الطبري ١٢ : ٣٥ والقرطبي ٩ : ٥٤ وصدره : اذا رحلت فاجعلوني وسطا .

كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ) (٦٠) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان عاداً لما عصوه ، وكفروا به ، وكذبوا هوداً ألحق الله بهم الهلاك واتبعهم في دار الدنيا لعنة ، بمعنى انه اخبر نبينا والأمم المستقبلة باهلاكهم وانه لعنهم وامر بلعنهم ، وعرفهم انه ابعدهم من رحمته .

واللعنة الدعاء بالابعاد من قولك لعنه اذا قال عليه لعنة الله ، واصله الابعاد من الخير يقال ذئب لعين اي طريد ، ولا يجوز ان يلعن شيء من البهائم ، وان كانت مؤذية ، لأنه لا يجوز ان يدعى عليها بالابعاد من رحمة الله .

وقوله « ويوم القيامة » اي ويتبعون لعنة يوم القيامة ، يعني يوم يقوم الناس من قبورهم للجزاء والحساب ، كما قال « يوم يخرجون من الاجداث سراعاً كأنهم الى نصب يوفضون »(١) وقوله « ألا ان عاداً كفروا ربهم » (ألا) معناها التنبيه ، وما بعدها أخبار بأن قوم عاد كفروا ربهم .

وقوله « الا بعداً لعاد قوم هود » نصب (بعداً) على المصدر ، والمعنى ابعدهم الله بعداً ، ووقع (بعداً) موضع ابعاد ، كما وقع نبات موضع انبات في قوله «انبتكم من الارض نباتاً »(٢) .

قوله تعالى :

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) (٦١) آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى في هذه الآية أنه أرسل «إلى ثمود أخاهم صالحاً» ونصب

---

(١) سورة المعارج آية ٤٣ .
(٢) سورة نوح آية ١٧ .

(أخاهم) بأرسلنا ، عطف على ما تقدم ، وانه « قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، وقد فسرناه[١] . وقوله «هو انشاكم من الارض» قيل في معناه قولان :

احدهما – انه خلقكم من آدم وآدم من تراب .

الثاني – انهخلقكم من الارض، والاول اختيارالجبائي وهو الأقوى. والانشاء الايجاد ابتداء من غير استعانة بشيء من الاسباب ، وهما نشأتان الاولى في الدنيا والثانية في الآخرة .

وقوله «واستعمركم فيها» اي جعلكم قادرين على عمارة الأرض ، ومكنكم من عمارتها والحاجة الى سكناها. والاستعمار جعل القادر يعمرالارض كعمارة الدار. وقال مجاهد معنى «استعمركم فيها» أي اعمركم بأن جعلها لكم طول اعماركم. ومنه العمرى المسألة المعروفة في الفقه .

وفي الآية دلالة على فساد قول من حرم المكاسب ، لانه تعالى امتن على خلقه بأن مكنهم من عمارة الأرض فلو كان ذلك محرماً لم يكن لذلك وجه، والعبادة لا تستحق إلا بالنعم المخصوصة التي هي أصول النعم فلذلك لا يستحق بعضنا على بعض العبادة ابتداء ، وان استحق الشكر ، ولذلك لا تحسن العبادة ابتداء ، كما لا يحسن الشكر إلا في مقابلة النعم .

وقوله «فاستغفروا ربكم ثم توبوا اليه» قد بينا معناه[٢] وقوله «ان ربي قريب مجيب» معناه أنه قريب الرحمة لا من قرب المكان، لكنه خرج هذا المخرج لحسن البيان في المبالغة . وقيل ان بلاد ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام ، وكانت عاد باليمن .

---

(١) في تفسير آية . ٥ من هذه السورة صفحة ٥ من هذا المجلد .

(٢) انظر ٥ : ٥١٤ في تفسير آية ٣ من هذه السورة .

قوله تعالى :

(قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذَا أَتَنْهٰينا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِليهِ مُرِيبٍ) (٦٢) آية بلا خلاف .

في هذه الآية حكاية ما أجاب به قوم صالح له حين قالوا له يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ، ومعناه قد كنا نرجو منك الخير ، ونطمع فيه من جهتك قبل هذا لما كنت عليه من الاحوال الجميلة ، فالآن يئسنا منك .

والرجاء تعلق النفس بمجيء الخير على جهة الظن ، ومثله الأمل والطمع .

وقوله «اتنهانا ان نعبد ما يعبد آباؤنا» معناه تحظر علينا عبادة كان يعبدها أباؤنا .

وقوله «اننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب» معناه إن الذي أتيتنا به لا يوجب العلم بل يوجب الشك فنحن في شك مما جئتنا به . والريبة هي الشك إلا ان مع الريبة تهمة للمعنى ليست في نقيضه ، والشك قد يعتدل فيه النقيضان .

قوله تعالى :

(قالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ) (٦٣) آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى في هذه الآية ما أجاب به صالح قومه ثمود بأن قال لهم «أريتم ان كنت على بينة» أي حجة من ربي ودليل من جهته . ولا مفعول

لـ (رأيتم) لانه يلغى كما يلغى اذا دخـل عليه لام الابتداء في قولك (رأيت لزيد خير منك) فكذلك الجزاء . وجواب (إن) الاولى الفاء ، وجواب (إن) الثانية محذوف ، وتقديره ان عصيته فمن ينصرني ، إلا انه يستغني بالاول ، فلا يظهر . وقوله «فمن ينصرني من الله ان عصيته» صورته صورة الاستفهام ، ومعناه النفي كأنه قال فلا ناصر لي من الله ان عصيته ، ومعنى الكلام أعلمتم من ينصرني من الله ان عصيته بعد بينة من ربي ونعمة، وانما جاز إلغاء (رأيت) لانها دخلت على جملة قائمة بنفسها من جهة انها تفيد لو انفردت عن غيرها ، و (من) يتعلق بمعناها دون تفصيل لفظها .

وقوله «فما تزيدونني غير تخسير» قيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها – ليس تزيدونني باحتجاجكم بعبادة آبائكم اي مـا تزدادون انتم الا خساراً ، هذا قول مجاهد .

والثاني – قال قوم : تزيدونني لانهم يعطونه ذاك بعد اول امرهم .

الثالث – قال الحسن معناه ان اجبتكم الى ما تدعونني اليه كنت بمنزلة من يزداد الخسران .

وقال اخرون معناه ما تزيدونني على ما انا عندكم الا خساراً .

قوله تعالى :

(ويَا قَوْمِ هٰذِهِ نَاقَةُ ٱللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) (٦٤) .

في هذه الآية حكاية ما قال صالح لقومه بعد ان انذرهم وخوفهم عبادة غـير الله ، وحذرهم معاصيه . «ويا قـوم هذه ناقة الله لكم اية» واشار الى ناقته التي جعلها الله معجزة ، لان الله تعالى اخرجها لهم من جوف صخرة وهم يشاهدونها على تلك الصفة ، وخرجت وهي حامل كما طلبوا، انها كانت تشرب يوماً فتنفرد به ولهم يوم وتأتي المرعى يوماً والوحش يوماً .

وقوله «ولا تمسوها بسوء» نهي منه لهم ان يمسوا الناقة بسوء اي بعقر او ضرر. والمس واللمس متقاربان. وفرق بينهما الرماني بان المس يكون بين جمادين واللمس لا يكون إلا بين حيين لما فيه من الادراك، وقوله «فيأخذكم عذاب قريب» جواب النهي بالفاء وكذلك نصبه. والمعنى ان مستموها بضر اخذكم عذاب عاجل.

قوله تعالى

(فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيّامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ) (٦٥) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى عن قوم صالح بانهم عصوه فيما امرهم وارتكبوا ما نهاهم عنه من اذى الناقة وانهم عقروها والعقر قطع العضو الذي له سراية في النفس قال امرؤ القيس:

يقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يا امرء القيس فانزل[1]

وكان سبب عقرهم لها انهم كرهوا أن يكون لها يوم، ولهم يوم في الشرب لضيق الماء عليهم والمرعى على ماشيتهم فعقرها (احمر ثمود) وضربت به العرب المثل في الشؤم، فلما فعلوا ذلك قال لهم صالح «تمتعوا في داركم ثلاثة ايام» أي تلذذوا، فيما يريدون من المدركات الحسان من المناظر والاصوات وغيرها مما يدرك بالحواس، ويقال للبلاد: دار، لانها تجمع اهلها كما تجمع الدار. ومنه قولهم: ديار ربيعة، وديار مضر.

وقيل معنى «في داركم» اي في دار الدنيا. وايام اصله (ايوام) فقلبت الواو ياء وادغمت الياء الاولى فيها فصارت ايام لاجتماعها وسكون الاولى وانما وجب ذلك لاشتراكهما في انهما حرفا علة. وقوله «ذلك وعد غير مكذوب» معناه إن

(١) ديوانه ١٢٧ (الطبعة المصرية).

ما وعدتكم به من نزول العذاب بعد ثلاثة ايام وعد صدق ليس فيها كذب .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صالحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ) (٦٦) آية بلا خلاف .

قرأ اهل المدينة إلا اسماعيل والكسائي والبرجمي والسموني «يومئذ» بفتح الميم ، هنا وفي المعارج . الباقون بكسر الميم على الاضافة . قال أبو علي قوله «يومئذ» ظرف - كسرت او فتحت - في المعنى إلا انه اتسع فيه فجعل اسماً كما اتسع في قوله « بل مكر الليل والنهار »[١] فاضيف المكر اليهما وإنما هو فيهما ، فكذلك العذاب والخزي والفزع اضفن الى اليوم ، والمعنى على ان ذلك كله في اليوم كما ان المكر في الليل والنهار .

ومن كسر الميم من «عذاب يومئذ» فلان يوماً اسم معرب اضاف اليه ما اضافه من العذاب والخزي والفزع ، فانجر بالاضافة ، ولم تفتح اليوم فتبنيه لاضافته الى المعنى ، لان المضاف منفصل عن المضاف اليه ولا يلزمه الاضافة ؛ والمضاف لم يلزم البناء .

ومن فتح فقال : من عذاب يومئذ فيفتح معانه في موضع جر ، فلان المضاف يكتسب من المضاف اليه التعريف والتنكير ، ومعنى الاستفهام والجزاء في نحو غلام من تضرب اضربه ، فلما كان يكتسب من المضاف اليه هذه الاشياء اكتسب منه الاعراب والبناء ايضاً ، اذا كان المضاف من الاسماء الشائعة المبنية نحو (اين . وكيف) ولو كان المضاف مخصوصاً نحو (رجل وغلام) لم يكتسب منه البناء كما اكتسبت من الاسماء الشائعة . ومن اضاف على تقدير من عذاب يومئذ ومن خزي

---

(١) سورة سبأ اية ٣٣ .

يومئذ ، فلانها معارف تعرفت بالاضافة الى اليوم .

اخبر الله تعالى انه لمـــا جاء امره باهلاك قوم صالح الذين هم ثمود نجا صالحاً والمؤمنين معه برحمة منه تعالى .

وقوله «ومن خزي يومئذ» فالخزي العيب الذي تظهر فضيحته ويستحي من مثله ، خزي يخزى خزياً اذا ظهر له عيب بهذه الصفة .

وقوله «ان ربك هو القوي العزيز» فالقوي هو القادر، والعزيز هو القادر على منع غيره من غير ان يقدر أحد على منعه . واصله المنع فمنه عز علي الشيء اذا امتنع بقلبه ومنه العز الارض الصلبة المتنعة بالصلابة ، ومنه تعزز بفلان اي امتنع به ويقال (من عزّبز) اي من غلب سلب .

وكانت علامة العذاب في ثمود ما قال لهم صالح : آية ذلك ان وجوهكم تصبح في اليوم الاول مصفرة وفي اليوم الثاني محمرة وفي الثالث مسودة، ذكره الحسن، هذا من حكمته تعالى وحسن تدبيره في الانذار بما يكون من العقاب قبل ان يكون ، للمظاهرة في الحجة .

ولم يختر ابو عمرو بناء (يوم) إذا اضيف الى مبني كما اختير في قوله «على حين غفلة»[1] لأن هذا اضيف الى اسم مبني، وذلك اضيف الى فعل مبني فباعده عن التمكن باكثر مما باعده الاول .

قوله تعالى :

(وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ)

(٦٧) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى أنه لما نجا صالحا والمؤمنين وأراد اهلاك الكفار أخذ الذين ظلموا الصيحة ، وهي الصوت العظيم من الحيوان . وقـــال الجبائي لا تكون

(١) سورة القصص اية ١٥ .

الصيحة إلا حدوث صوت في فم وحلق حيوان . وقيل ان جبرائيل عليه السلام صاح بهم ، ويجوز ان يكون الله تعالى احدث الصيحة في حلق حيوان ، وانما ذكر اللفظ لأنه حمله على المعنى، لان الصيحة والصياح واحد . ويجوز تأنيثه حملا على اللفظ، كما جاء في موضع آخر[١] . وقوله «فاصبحوا في ديارهم جاثمين» معناه أنه لما اتتهم الصيحة ليلا أصبحوا في ديارهم خامدين على هذه الصفة ، والعرب تقول في تعظيم الأمر: (واسوأة صباحاه)». والجثوم السقوط على الوجوه. وقيل هو القعود على الركب ، يقال : جثم على القلب إذا ثقل عليه، وذكرهم الله بالظلم هنا دون الكفر ليعلم أن الكفر ظلم النفس إذ يصير الى أعظم الضرر بعذاب الأبد .

قوله تعالى :

(كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ) (٦٨) آية بلا خلاف .

قرأ الكسائي وحده «لثمود» بخفض الدال وتنوينها. والباقون بغير صرف. وقرأ حمزة وحفص ويعقوب «ألا إن ثمود» وفي الفرقان . و «عاداً وثمود» وفي العنكبوت «وثمود فما ابقى» بغير تنوين فيهن وافقهم يحيى والعليمي والسموني في سورة (النجم) .

قال الفراء قلت للكسائي : لم صرفت (ثمود) هنا ؟ فقال : لانه قرب من المنصوب ، وهو مجرور ، وانما صرف ثمود في النصب دون الجر والرفع ، لأنه لما جاز الصرف اختير الصرف في النصب ، لانه اخف .

قال ابو علي الفارسي : الاسماء التي تجري على القبائل والاحياء على اضرب

---

(١) سورة هود اية ٩٥ وسورة الحجر اية ٧٣ ، ٨٣ ، وسورة المؤمنون اية ٤١ وغيرها كثير والآيات التي ذكرناها الفعل فيها مؤنث .

احدها – ان يكون اسماً للحي او للاب .

والثاني – ان يكون اسماً للقبيلة .

الثالث – ان يكون غلب عليه الاب دون الحي والقبيلة .

والرابع – ان يستوي ذلك في الاسم فيجري على الوجهين، ولا يكون لاحد الوجهين مزية على الآخر في الكثرة ، فما جاء اسماً للحي قولهم ثقيف وقريش ، وكلما لا يقال فيه بنو فلان . واما ما جاء اسماً للقبيلة فنحو تميم بنت مرة قال سيبويه سمعناهم يقولون : قيس ابنة عيلان ، وتميم صاحبة ذلك، وقال تغلب ابنة وابل . واما ما غلب عليه اسم ام الحي او القبيلة ، فقد قالوا باهلة ابن اعصر ، وقالوا يعصر ، وباهلة اسم امرأة ، قال سيبويه جعل اسم الحي ، ومحوس لم يجعل اسم قبيلة، وسدوس اكثرهم يجعله اسم القبيلة، وتميم اكثرهم يجعله اسم قبيلة. ومنهم من يجعله اسم الأب . واما ما يستوي فيه اسم قبيلة ، وان يكون اسماً للحي ، فقال سيبويه نحو ثمود وعاد، وسماهما مرة للقبيلتين ومرة للحيين، فكثرتهما سواء. قال : وعاداً وثموداً، وقال «ألا إن ثمود كفروا ربهم» وقال «واتينا ثمود الناقة» فاذا استوى في ثمود ان يكون مرة للقبيلة ومرة للحي ولم يكن لحمله على احد الوجهين مزية في الكثرة :

فمن صرف في جميع المواضع كان حسناً ، ومن لم يصرف ايضاً كذلك ، وكذلك ان صرف في موضع ولم يصرف في موضع آخر إلا انه لا ينبغي ان يخرج عما قرأت به القراء لان القراءة سنة ، فلا يجوز ان تحمل على ما يجوز في العربية حتى تنضم اليه الرواية .

معنى قوله «كان لم يغنوا» أي كأن لم يقيموا فيها لانقطاع آثارهم بالهلاك وما بقي من اخبارهم الدالة على الخزي الذي نزل بهم ، يقال غنى بالمكان اذا اقام به والمغاني المنازل قال النابغة :

غنيت بذلك اذ هم لك جيرة منها بعطف رسالة وتودد[١]

واصل الغنى الاكتفاء فمنه الغنى بالمال والغناء الصوت الذي يتغنى به، والغناء الاكتفاء بحال الشيء وغنى بالمكان اذا اقام به، لاكتفائه بالاقامة فيه، والغانية الشابة المتزوجة . و (ألا) معناها التنبيه وهي الف استفهام دخلت على (لا) فالالف يقتضي معنى و (لا) ينفي معنى ، فاقتضى الكلام بهما معنى التنبيه مع نفي الفعلية .

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ) (٦٩) آية بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي «قال سلم» بكسر السين وسكون اللام من غير الف هنا ، وفي الذاريات . قال محمد بن يزيد المبرد (السلام) في اللغة يحتمل اربعة اشياء ، منها مصدر سلمت ، ومنها جمع سلامة ، ومنها اسم من اسماء الله ، ومنها اسم شجرة ، ومنه قول الاخطل :

الاسلام وحرمل

وقوله «دار السلام»[٢] يحتمل ان يكون مضافاً الى الله تعظيماً لها ، ويجوز ان يكون دار السلام من العذاب لمن حصل فيها . واما انتصاب قوله «سلاماً» فانه لا يحك شيئاً تكلموا به فيحكى كما تحكى الجمل ، ولكن هو ما تكلمت به الرسل ، كما ان القائل اذا قال لا اله الا الله ، فقلت له قلت حقاً او قلت اخلاصاً اعملت القول في المصدر لانك ذكرت معنى ما قال ، فلم يحك نفس الكلام الذي هو جملة يحكى ، فكذلك نصب سلاماً هنا ، لما كان معنى ما قيل ولم يكن نفس

---

(١) ديوانه : ٦٥ ومجمع البيان ٣ : ١٧٨ وتفسير الطبري ١٥ : ٥٦ ، ٤٦٥ .
(٢) سورة الانعام ١٢٧ وسورة يونس اية ٢٥ .

القول بعينه . وقوله «اذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً»[١] قال بسيبويه زعم ابو الخطاب : ان مثله يراد به مثل قولك سبحان الله الذي ، تفسيره براءة الله من السوء ، وقولك للرجل سلاماً تريد مسلماً منك لا ابتلي بشيء من امرك . وقوله «سلام» مرفوع ، لانه من جملة الجملة المحكية ، وتقديره سلام عليكم فحذف الخبر كما حذف من قوله «فصبر جميل»[٢] اي فصبر جميل امثل او يكون المعنى امري سلام وشأني سلام ، كما يجوز ان يكون في قوله «فصبر جميل» المحذوف منه المبتدا ، ومثله على حذف المبتدا قوله تعالى «فاصفح عنهم وقل سلام»[٣] او حذف الخبر ويكون سلام مبتدأ واكثر ما يستعمل (سلام) بغير الف ولام لأنــه في معنى الدعاء ، فهو مثل قولهم خير بين يديك ، فمن ذلك قوله «قال سلام عليك سأستغفر لك ربي»[٤] وقوله «سلام عليكم بما صبرتم»[٥] وقوله «سلام على نوح»[٦] و «سلا. على ابراهيم»[٧] وقوله «سلام على عباده الذين اصطفى»[٨] وقد جاء بالالف والا قال تعالى «والسلام على من اتبع الهدى»[٩] و «السلام علي يوم ولدت»[١٠] وز ابو الحسن ان من العرب من يقول : السلام عليكم ، ومنهم من يقول سلام عليـ فمن ألحق فيه الالف واللام حمله على المعهود . ومن لم يلحقه حمله على غير المعهود وزعم أن منهم من يقول سلام عليكم بلا تنوين ، وحمل ذلك على وجهين :

أحدهما – انه حذف الزيادة من الكلمة كما يحذف الاصل في نحو لم يـك ولا ادر ويوم يأت .

(١) سورة الفرقان اية ٦٣ .
(٢) سورة يوسف اية ١٨ ، ٨٣ .
(٣) سورة الزخرف اية ٨٩ .
(٤) سورة مريم اية ٤٧ .
(٥) سورة الرعد اية ٢٦ .
(٦) سورة الصافات اية ٧٩ .
(٧) سورة الصافات اية ١٠٩ .
(٨) سورة النمل اية ٥٩ .
(٩) سورة طه اية ٤٧ .
(١٠) سورة مريم اية ٣٣ .

والآخر – انه لما كثر استعمال هذه الكلمة، وفيها الالف والام جاز حذفها منها لكثرة الاستعمال كما حذفوا من اللهم فقالوا: لا هم كما قال الشاعر :

لا هم لا هم ان عامر العجوز   قد حبس الخيل على يعمور

ومن قرأ (سلم) بلا الف احتمل امرين : احدهما – ان يكون بمعنى (سلم) والمعنى أمرنا سلم وسلم عليكم ، ويكون سلام بمعنى سلم ، كقولهم حل وحلال ، وحرم وحرام ، انشد الفراء :

وقفنا فقلنا ايه سلم فسلمت   كما اكيل بالبرق الغمام اللوائح[1]

وروي كما انكل . ثم قال الفراء في رفع سلام انه حين نكرهم ، قال هو سلم ان شاء الله ، من أنتم ؟ فعلى هذا القراءتان بمعنى واحد . والآخر أن يكون (سلم) خلاف العدو ، والحرب. كأنهم لما كفوا عن تناول ماقدم اليهم فنكرهم واوجس منهم خيفة، قال انا سلم، ولست بحرب ولا عدو، فلا تمتنعوا من تناول طعامي، كما يمتنع من تناول طعام العدو ، وقوله «ولقد» دخلت اللام لتأكيد الخبر ، كما يؤكد القسم، ومعنى (قد) هنا ان السامع لقصص الأنبياء يتوقع قصة بعد قصة، و (قد) للتوقع فجاءت لتؤذن أن السامع في حال توقع . أخبر الله تعالى أنه لما جاءت رسل ابراهيم يبشرونه .

وقيل في البشارة بماذا كانت قولان :

احدهما – قال الحسن كانت بأن الله تعالى يهب له اسحاق ولداً ويجعله رسولا الى عباده .

وقال غيره كانت البشارة باهلاك قوم لوط . وقوله «قالوا سلاماً» حكاية ما قال رسل الله لابراهيم مجيباً لهم «سلام» .

---

(١) تفسير الطبري ١٢ : ٣٩ واللسان (سلم) وقد روى ايضاً :

وقفنا فقلنا ايه سلم فسلمت   فما كان الا ومؤها بالحواجب

وقوله « فما لبث ان جاء بعجل حنيذ » معنى ذلك لم يتوقف حتى جاء – على عادته في اكرام الاضياف وتقديم الطعام اليهم – بعجل، وهو ولد البقرة يسمى بذلك لتعجيل امره بقرب ميلاده . ويقال : فيه عجول وجمعه عجاجيل، و « الحنيذ » المشوي ومعناه محنوذ ، فجاء « فعيل » بمعنى « مفعول » كطبيخ ومطبوخ ، وقتيل ومقتول تقول : حنذه حنذاً ويحنذه قال العجاج :

ورهبا من حنذه أن يهجرا[1]

يعني الحمراء الوحشية أي حنذها حر الشمس على الحجارة. وقال الحسن حنيذ بمعنى نضيج مشوي . وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد : نضيج .

وحكى الزجاج أن الحنيذ هو الذي يقطر ماؤه تقول العرب أحنذ هذا الفرس أي جلله حتى يقطر عرقاً .

وانما قدم الطعام اليهم وهم ملائكة لأنه رآهم في صورة البشر ، فظنهم أضيافاً .

وقال الحسن : جاؤوه فاستضافوه، والا لم يخف عليه أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون . وقوله « أن جاء » في موضع نصب بوقوع لبث عليه ، كأنه قال فما ابطأ عن مجيئه بعجل ، فلما حذف حرف الجر نصب .

قال الفراء: ويحتمل « ان جاء بعجل » أن يكون في موضع رفع بأن تجعل (لبث) فعلا له كأنك قلت فما أبطأ مجيئه بعجل حنيذ، قال الفراء : (الحنيذ) ما حفرت له في الأرض ثم عمته وهو فعل أهل البادية . قال الفراء وغيره : وانما

(١) ديوانه : ٩ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٢ وتفسير الطبري ١٢ : ٤١ واللسان (حنذ) ، (هرج) .

خافهم ابراهيم من حيث لم ينالوا طعامه ، لان عادة ذلك الوقت اذا قدم الطعام إلى قوم فلا يمسونه ظنوا أنهم أعداء .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لوطٍ) (٧٠) آية بلا خلاف.

قيل في وجه اتيان الملائكة ابراهيم عليه السلام في صورة الاضياف قولان :

احدهما - قال الحسن أنهم اتوه على الصفة التي كان يحبها ، لانه كان يقري الضيف .

والآخر - انهم أروه معجزاً من مقدور الله في صورتهم مع البشارة له بالولد على الكبر، فاخبر الله تعالى ان ابراهيم لما رآهم ممتنعين من تناول الطعام وان ايديهم لا تصل اليه، والعقل لم يكن مانعاً من أكل الملائكة الطعام وإنما علم ذلك بالاجماع وبهذه الآية ، والا ما كان يجوز أن يقدم ابراهيم الطعام مع علمه بانهم ملائكة. ويجوّز بأن يأكلوه وانما جاز ان يتصور الملائكة في صورة البشر مع ما فيه من الايهام لأنهم أتوه به دلالة، وكان فيه مصلحة فجرى مجرى السراب الذي يتخيل انه ماء من غير علم انه ماء .

وقوله «نكرهم» يقال نكرته وانكرته بمعنى. وقيل نكرته اشد مبالغة وهي لغة هذيل واهل الحجاز ، وانكرته لغة تميم قال الاعشى في الجمع بين اللغتين :

وانكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث الا الشيب والصلعا[1]

---

(١) ديوانه: ٧٢ القصيدة ١٣ وتفسير الطبري ١٢: ٤١ والاغاني ٦ : ١٨ ؛ والصحاح ، والتاج واللسان (نكر) وتفسير القرطبي ٩ ، ٦٦ . ومجمع البيان ٣ : ١٧٧ وتفسير الشوكاني ٢ : ٤٨٦ .

وقال ابو ذؤيب :

فنكرنه فنفرن وافترست به   هوجاء هاربة وهـــاد خرسع[١]

وقوله « اوجس منهم خيفة » اي اضمر الخوف منهم ، والايجاس الاحساس قال ذو الرمة :

وقد توجس ركزاً مغفراً ندســا   بنبأة الصوت ما في سمعه كذب[١]

اي تجسيس . وقيل أوجس أضمر ، وانما خافهم حين لم ينالوا من طعامه لانه رآهم شباباً اقوياء وكان ينزل طرفاً من البلد لم يأمن -من حيث لم يتحرموا بطعامه ان يكون ذلك البلاء حتى قالوا له لا تخف يا ابراهيم « انا ارسلنا الى قوم لوط » بالعذاب والاهلاك وقيل انهم دعوا الله فاحيا العجل الذي كان ذبحه ابراهيم وشواه فظهر ورعى ، فعلم حينئذ انهم رسل الله .

قوله تعالى :

وَٱمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحٰقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحٰقَ يَعْقُوبَ (٧١) آية بلا خلاف

قرأ ابن عباس وحمزة وحفص ويعقوب (فبشرناها) بنصب الباء . الباقون بالرفع . قال ابو علي من رفع فباحد امرين : احدها بالابتداء ، والآخر بالظرف على مذهب من رفع وذلك بين . ومن فتح احتمل ثلاثة اشياء :

احدها – ان يكون في موضع جر والمعنى فبشرناها باسحاق ويعقوب ، وقال ابو الحسن : وهو قوي في المعنى ، لانها قد بشرت به قال وفي اعمالها ضعف ، لانك فصلت بين الجار والمجرور بالظرف كما لا يجوز مررت بزيد في الدار والبيت

---

(١) مجمع البيان ٣ : ١٧٨

(٢) مجمع البيان ٣ : ١٧٨

عمرو . وقال الرماني لا يجوز ذلك لانه يجب منه العطف على عاملين ، وذلك لا يجوز ، لأنه أضعف من العامل الذي قام مقامه وهو لا يجر ولا ينصب .

الثاني – بحمله على موضع الجار والمجرور كقول الشاعر :

اذا ما تلاقينا من اليوم او غدا [١]

وكقراءة من قرأ « حوراً عيناً » بعد قوله « يطـــاف عليهم » بكذا [٢] ومثله قوله :

فلسنا بالجبال ولا الحديدا [٣]

وكقول الشاعر:

جئني بمثل بني بدر لقومهم او مثل اسرة منظور بن سيار
او عامر بن طفيل في مراكبه او حارثاً حين نادى القوم يا جار [٤]

فنصب (عامراً) و(حارثاً) كأنه قال او جئني بعامر فلما اسقط حرف الجر نصب.

الثالث – أن تحمله على فعل مضمر ، كأنه قال فبشرناه باسحاق ، ووهبنا له يعقوب .

قال ابو علي الفارسي: والوجه الاول نص سيبويه في فتح مثله نحو مررت بزيد اول امس وأمس عمرو ، وكذلك قال ابو الحسن قال: لو قلت مررت بزيد اليوم وامس عمرو ، كان حسناً ولم يحسن الحمل على الموضع على حد مرربزيدوعمراً ، فالفصل فيها ايضاقبيح كما قبح الحمل على الجار وغير الجار ، فهذا في القياس مثل الجار في القبح لأن الفعل يصل بحرف العطف وحرف العطف هو الذي يشرك في الفعل ، وبه يصل

(١) لم اجده
(٢) سورة الصافات اية ٤٥ وسورة الزخرف اية ٧١ وسورة الدهر اية ١٥
(٣) مر هذا البيت في ٣ : ٥٥٤ تاما
(٤) تفسير الطبري ١٢ : ٤٣ (الطبعة الاولى)

الفعل الى المفعول به ، كما يصل الجار فاذا قبح الامران وجب أن تحمل قراءة من قرأ بالنصب على تقدير فعل آخر مضمر يدل عليه (بشرنا) .

وقيل في معنى قوله « وامرأته قائمة » ثلاثة اوجه :

أحدها – انها كانت قائمة بحيث ترى الملائكة فضحكت سروراً بالسلامة وأردف ذلك السرور بما كان من البشارة .

والثاني – انها كانت قائمة من وراء الستر تستمع الى الرسل .

والثالث – انها كانت قائمة تخدم الاضياف وابراهيم جالس .

وقال مجاهد : معنى فضحكت حاضت ، قال الفراء : لم أسمع ذلك من ثقة وجدته كتابة قال الكميت .

واضحكت السباع سيوف سعد لقتلى ما دفن ولا ودينا[1]

يعني بالحيض وقالوا لحرب بن كعب : تقول ضحكت النخلة إذا أخرجت الطلع والبسر، وقالوا الضحك الطلع وسمع من يحكى أضحكت حوضك إذا ملأته حتى فاض، وانشد بعضهم في الضحك بمعنى الحيض قول الشاعر :

وضحك الأرانب فوق الصفا كمثل دم الجوف يوم اللقا[2]

وقال قوم : الضحك العجب وانشد لابي ذؤيب .

فجاء بمزج لم يرَ الناس مثله هو الضحك إلا انه عمل النحل[3]

وقيل في معنى « ضحكت » ثلاثة اقوال :

(١) تفسير الطبرى ١٢ : ٤٢ ومجمع البيان ٣ : ١٨٠ .
(٢) مجمع البيان ٣ : ١٨٠ وتفسير القرطبي ٨ : ٦٦ والطبري ١٢ : ٤٢ والشوكاني ٢ : ٤٨٦ .
(٣) تفسير القرطبي ٨ : ٦٧ والطبرى ١٢ : ٥٤٣ .

احدها – انها ضحكت تعجباً من حال الاضياف في امتناعهم من اكل الطعام مع أن ابراهيم وزوجته سارة يخدمانهم .

وثانيها – قال قتادة : ضحكت تعجباً من حال قوم لوط اتاهم العذاب وهم في غفلة .

وثالثها – قال وهب بن منبة : انها ضحكت تعجباً من ان يكون لها ولد ، وقد هرما ، فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير ، كأنه قال فبشرناها باسحاق فضحكت بعد البشارة .

قوله «فبشرناها» يعني امرأة ابراهيم سارة باسحاق انها تلده ومن بعد اسحاق يعقوب من ولده فبشرت بنبي بين نبيين ، وهو اسحاق أبوه نبي وابنه نبي .

وقال الزجاج : انما ضحكت لأنها كانت قالت لابراهيم اضمم لوطاً ابن اخيك اليك فاني أعلم ان سينزل على هؤلاء القوم عذاب فضحكت سروراً لما اتى الأمر على ما توهمت .

وقال ابن عباس والشعبي والزجاج يقال لولد الولد هذا ابني من ورائي هو ابن ابني .

قوله تعالى :

(قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَانا عَجُوزٌ وَهٰذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هٰذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) (٧٢) آية بلا خلاف .

في هذه الآية اخبار عما قالت امرأة ابراهيم حين بشرت بانها تلد اسحاق وهو ان قالت يا ويلتى . ومعنى يا ويلتى الانذار بورود الأمر الفظيع تقول العرب يا للدواهي اي تعالين فانه من ازمانك بحضور ما حضر من اشكالك . والف (يا ويلتى) يجوز ان يكون الف ندبة . ويحتمل ان يكون للاضافة انقلبت من الياء

وكان هذا القول من امرأة ابراهيم على وجه التعجب بطبع البشرية ، إذ ورد عليها ما لم تجربه العادة قبل ان تفكر في ذلك كما ولى موسى مدبراً حين انقلبت العصاحية حتى قيل له « أقبل ولا تخف »[1] وإلا هي كانت مؤمنة عارفة بأن الله تعالى يقدر على ذلك .

قال الرماني : والسبب في ان العجوز لا تلد أن الماء – الذي يخلق الله (عز وجل) منه الولد مع نطفة الرجل – قد انقطع بدلالة ارتفاع الحيض ، فجعل الله الولد على تلك الحال معجزاً لنبيه ابراهيم (ع) .

وقال مجاهد : كان لابراهيم في ذلك مئة سنة ولها تسع وتسعون سنة .

وقال ابن اسحاق : كان لابراهيم مئة وعشرون سنة، ولسارة تسعون سنة .

والبعل الزوج ، واصله القائم بالأمر ، فيقولون للنخل الذي يستغني بماء السماء عن سقي الانهار والعيون : بعل ، لأنه قائم بالأمر في استغنائه عن تكلف السقي له ، ومالك الشيء القيم بتدبيره : بعل ، ومنه قوله تعالى «اتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين »[2] .

و (شيخاً) نصب على الحال ، والعامل فيه ما في هذا من معنى الاشارة أو التنبيه . وفي قراءة ابن مسعود بالرفع . ويحتمل الرفع في قوله سيبويه والخليل أربعة أوجه ، فيرفع (هذا) بالابتداء ، و (بعلي) خبره، و (شيخ) خبر ثاني، كأنه قال هذا شيخ ، ويجوز ان يكونا خبرين لهذا ، كقولك هذا حلو حامض ، ويجوز ان يكون (بعلي) بدلاً من (هذا) وبياناً له و (شيخ) خبره .

وقوله « ان هذا لشيء عجيب » ان يكون الولد بين عجوزين شيخين شيء يتعجب منه .

---

(١) سورة القصص آية ٣١ .
(٢) سورة الصافات آية ١٢٥ .

قوله تعالى :

(قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَةُ ٱللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) (٧٣) آية بلا خلاف .

في هذه الآية حكاية عما قالت الملائكة لامرأة ابراهيم حين تعجبت من ان تلد بعد الكبر ، فانهم قالوا لها «أتعجبين من أمر الله» وهذه الألف للاستفهام ومعناها ههنا التنبيه ، وليست الف انكار ، وانما هي تنبيه وتوقيف . والعجب يجري على المصدر وعلى المتعجب منه كقولك : هذا أمر عجب ، ولا يجوز العجب من أمر الله ، لأنه يجب ان يعلم انه قادر على كل شيء من الاجناس ، لا يعجزه شيء ، وما عرف سببه لا يعجب منه .

وقوله « رحمة الله وبركاته عليكم » يحتمل معنيين :

احدهما – الدعاء لهم بالرحمة والبركة .

الثاني – التذكير بنعمة الله وبركاته عليهم ، والإخبار لهم بذلك .

وقوله « اهل البيت » يدل على ان زوجة الرجل تكون من أهل بيته في – قول الجبائي – وقال غيره إنما جعل سارة من أهل البيت لما كانت بنت ، عمه على ما قاله المفسرون .

وقوله « انه حميد مجيد » معناه مستحمد الى عباده . وقال ابو علي : يحمد المؤمنين من عباده ، والمجيد الكريم – في قول الحسن – يقال: مجد الرجل يمجد مجداً اذا كرم قال الشاعر :

رفعت مجد تميم باهلال لها   رفع الطراف على العلياء بالعمد[1]

---

(١) لم اجده في ما حضرني من المصادر .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ) (٧٤) آية في الكوفي والمدني .

أخبر الله تعالى انه حين ذهب عن ابراهيم الروع، وهو الافزاع، يقال : راعه يروعه روعاً اذا افزعه قال عنترة :

ما راعني الا حمولة اهلها وسط الديار تسف حب الخمخم[1]

أي ما افزعني ، وارتاع ارتياعاً اذا خاف . و (الروع) بضم الراء النفس ، يقال ألقي في روعي ، وهو موضع المخافة و « جاءته البشرى » يعني بالولد « يجادلنا » وتقديره جعل يجادلنا ، فجواب (لما) محذوف لدلالة الكلام عليه ، لان (لما) تقتضيه، والفعل خلف منه . وقال الاخفش (يجادلنا) بمعنى جادلنا . وقال الزجاج : يجوز ان يكون ذلك حكاية حال قد جرت ، والا فالجيد ان تقول : لما قام قمت، ولما جاء جئت . ويضعف ان تقول : لما قام اقوم، والتقدير في الآية لماذهب عن ابراهيم الروعوجاءته البشرى اقبل يجادلنا، واخذ يجادلنا .

وقوله « يجادلنا » يحتمل معنيين احدهما يجادل رسلنا من الملائكة – في قول الحسن – الثاني – يسألنا في قوم لوط. والمعنى انه سأل الله، إلا انه استغني بلفظ (يجادلنا) لأنه حرص في السؤال حرص المجادل .

وقيل في ما به جادل ثلاثة اقوال :

احدها – قال الحسن : انه جادل الملائكة بأن قال لهم: «ان فيها لوطاً»[2] كيف تهلكونهم ، فقالت له الملائكة « نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله »[3] .

---

(١) ديوانه (دار بيروت) : ١٧ والمعلقات العشر : ١٢٤ وتفسير الطبري ١٥ : ٤٠١ .
(٢ ، ٣) سورة العنكبوت آية ٣٢ .

الثاني – قال قتادة انه سألهم : أتعذبون خمسين من المؤمنين ان كانوا ؟ قالوا: لا، ثم نزل الى عشرة فقالوا : لا .

الثالث – قال ابو علي : جادلهم ليعلم بأي شيء استحقوا عذاب الاستئصال وهل ذلك واقع بهم لا محالة أم على سبيل الاخافة ؟ ليرجعوا الى الطاعة .

قوله تعالى :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) (٧٥) آية في الكوفي والمدني وهذا آخر الآية مع الاولى في البصري .

هذا إخبار من الله تعالى عن حال ابراهيم ، وصفه بانه كان اوّاها . وقيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها ـ قال الحسن : الاوّاه الرحيم . وقال مجاهد هو الرّجاع ، وقال الفراء : هو كثير الدعاء .

وقال قوم : هو المتأوه . وقال قوم : هو الرّجاع المتأوه خوفاً من العقاب ، ولمثل ذلك حصل له الامان لتمكين الاسباب الصارفة عن العصيان . و (الحليم) هو الذي يمهل صاحب الذنب ، فلا يعاجله بالعقوبة .

وقيل : كان ابراهيم ذا احتمال لمن آذاه وخنى عليه لا يتسرع الى المكافأة ، وان قوي عليه . والاناة السكون عند الحال المزعجة عن المبادرة ، وكذلك التأني : التسكن عند الحال المزعجة من الغضب، ويوصف الله تعالى بانه حليم من حيث لا يعاجل العصاة بالعقاب الذي يستحقونه لعلمه بما في العجلة من صفة النقص .

و (المنيب) هو الراجع الى الطاعة عند الحال الصارفة، ومنه قوله «وانيبوا الى ربكم»[١] والتوبة الانابة ، لانها رجوع الى حال الطاعة ، وكون ابراهيم منيباً

(١) سورة الزمر آية ٥٤ .

الى طاعة الله لا يدل على انه كان عاصياً قبل ذلك ، بل انه يفيد أنه كان يرجع الى طاعته في المستقبل ، وان كان على طاعته أيضاً فيما مضى، وقال ابو علي: كان يرجع الى الله في جميع أموره ويتوكل عليه .

قوله تعالى :

(يا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدودٍ (٧٦) آية .

في هذه الآية حكاية ما قالت الملائكة لابراهيم (ع) فانها نادته بأن قالت « يا ابراهيم اعرض عن هذا» القول . والاعراض الذهاب عن الشيء في جهة العرض، ويكون انصرافاً عنه بالوجه والتفكر .

والاشارة بقوله « عن هذا » الى الجدال ، وتقديره يا ابراهيم اعرض عن هذا الجدال في قوم لوط ، لان العذاب نازل بهم لا محالة .

وقوله « جاء أمر ربك » يحتمل أمرين : احدهما – جاء امره لنا بالعذاب . والثاني – جاء اهلاكه لهم بما لا مردّ له .

وقوله « غير مردود » اي غير مدفوع ، والرد اذهاب الشيء الى حيث جاء منه، تقول ردّه يرده رداً، فهو راد والشيء مردود والردوالدفع واحد، ونقيضه الاخذ . والفرق بين الدفع والرد، ان الدفع قد يكون الى جهة القدام والخلف، والرد لا يكون إلا الى جهة الخلف .

قوله تعالى :

(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالَ هٰذا يَوْمٌ عَصِيبٌ) (٧٧) آية بلا خلاف .

في هذه الآية إخبار من الله تعالى أنه لما جاءت رسله لوطاً سيء بهم ، معناه ساءه مجيؤهم ، وأصله سوىء بهم فنقلت حركة الواو الى السين ، وقلبت همزة ، والضمير في « بهم » عائد الى الرسل ، ويجوز تخفيف الهمزة بإلقاء الحركة على ما قبلها ، ومنهم من يشدد على الشذوذ .

وقوله « وضاق بهم ذرعاً » قال ابن عباس ساء بقومه « وضاق بهم ذرعاً » أي باضيافه ، وانه لما رأى لهم من جمال الصورة ، وقد دعوه إلى الضيافة ، وقومه كانوا يسارعون الى امثالهم بالفاحشه ، فضاق بهم ذرعاً ، لهذه العلة .

والمعنى انه ضاق بهم ذرعه: ضاق بأمره ذرعاً اذ لم يجد من المكروه مخلصاً .

وقوله « ضاق » بحفظهم من قومه ذرعه . حيث لم يجد سبيلاً الى حفظهم من فجّار قومه .

والفرق بين السوء والقبيح ان السوء ما يظهر مكروهه لصاحبه ، والقبيح ما ليس للقادر عليه ان يفعله .

وقوله « وقال هذا يوم عصيب » حكاية ما قاله لوط في ذلك الوقت بأن هذا يوم شديد الشر ، لان العصيب الشديد في الشر خاصة ، كأنه التف على الناس بالشر اويكون التف شره بعضه على بعض يقال يوم عصيب ، قال عدي بن زيد :

وكنت لزاز قومك لم اعرد وقد سلكوك في يوم عصيب[1]

وقال الراجز :

---

(١) تفسير الطبري ١٥ : ٤٠٩ والاغاني (دار الثقافة) ٢ : ٩٣ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٤ وقد روى (خصمك) بدل (قومك) والبيت من قصيدة قالها وهو في حبس النعمان بن المنذر . و (اللزاز) هو شدة الخصومة. ومعنى (لم اعرد) لم احجم ، ولم انكص .

يوم عصيب يعصب الأبطالا   عصب القوي السلم الطوالا[١]

وقال آخر :

فانك إن لا ترض بكر بن وائل   يكن لك يوم بالعراق عصيب[٢]

وقال كعب بن جعيل :

ويلبون بالحضيض قيـــام   عارفات منه بيوم عصيب[٣]

قوله تعالى :

(وَجَـــاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجلٌ رَشِيدٌ) (٧٨) .

اخبر الله تعالى عن قوم لوط أنهم حين أحسوا بمن نزل بلوط، وظنوهم أضيافه جاءوا لوطاً «يهرعون» أي يسرعون ، والاسراع : الاهراع في الشيء – في قول مجاهد ، وقتادة ، والسدي – وانما أهرعوا لطلب الفاحشة ، لما اعلمتهم عجوز السوء : امرأة لوط بمكان الاضياف ، فقالت ما رأيت احسن وجوهاً ، ولا اطيب ريحاً ، ولا انطق لساناً وثنايا منهم . وقال الشاعر :

بمعجلات نحوه مهارع[٤]

---

(١) تفسير الطبري ١٥ : ٤١٠ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٤ وروح المعاني ١٢ : ٩٥ ولم يعرف قائله .

(٢) تفسير الطبري ١٥ : ٤١٠ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٤ .

(٣) تفسير الطبري ١٥ : ٤١٠ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٤ وروايته (قيام) .

(٤) تفسير الطبري ١٥ : ٤١٢ ومجاز القرآن ١ : ٢٩٤ .

وقال مهلهل :

فجاؤا يهرعون وهم أسارى نقودهم على رغم الأنوف [١]

وقوله « ومن قبل كانوا يعملون السيّئات » وهي اتيان الذكور في الادبار ، ومعناه انهم كانوا قبل هذا المجيء يعملون ذلك . وقيل من قبل ألفوا الفاحشة ، فجاهروا بها ، ولم يستحيوا منها

وقوله « قال يا قوم » يعني لوطاً لمـا رآهم هموا باضيافه عرض عليهم النكاح المبـاح ، وأشار الى نساء فقال « هؤلاء بناتي هن اطهر لكم » قال قتادة . كنّ بناته لصلبه . وقال مجاهد كنّ بنات امتّه فكنّ كالبنات له ، فـان كل نبيّ ابو أمّته وأزواجه امهاتهم وهو أب لهم .

وقوله « فاتقوا الله » امر من لوط لهم بتقوى معاصي الله وأن لا يفضحوه في أضيافه . وقوله « أليس منكم رجل رشيد » خرج مخرج الانكار عليهم وان كان لفظه لفظ الاستفهام . والرشيد هو الذي يعمل بما يقتضيه عقله ، لانه يدعو الى الحق ، ومنه الارشاد في الطرق، فقال : أما منكم من يدعو الى الحق ويعمل به . ونقيض الرشد الغي .

ولا يجوز نصب (أطهر) في – قول سيبويه واكثر النحويـين – لأن الفصل إنمـا يدخله مع الخبر ليؤذن بأنه معتمد الفائدة دون ما هو زائد في الفائدة ، او على معنى الصفة ، فلهذا لم يخبر في الحال . وأجمعوا على انه لا يجوز (قدم زيد هو ابنك) الا بالرفع. ومن اجازه فانما يجيزه مع المبهم من (هذا) ونحوه تشبيهاً بخبر (كان) . وقرأ الحسن وعيسى بن عمرو بالنصب .

وقيل في وجه عرض المسلمة على الكفار قولان :

قال الحسن : ان ذلك كان جائزاً في شرع لوط ، وفي صدر الاسلام أيضاً ،

---

(١) اللسان (هرع) وتفسير الطبري ١٥ : ٤١٢ وتفسير روح المعاني ١٢ : ٩٥، وغيرها.

ولذلك زوج النبي ﷺ بنته بابي العاص قبل أن يسلم. ثم نسخ بقوله «ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا»[1] .

والثاني - قال الزجاج إن ذلك عرض بشرط ان يؤمنوا ، على ما هو شرط النكاح الصحيح .

والضيف يقع على الواحد والاثنين والجماعة .

قوله تعالى :

(قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) (٧٩) آية بلا خلاف.

هــذا حكاية ما أجاب به قوم لوط حين عرض عليهم بنـاته ونهاهم عن الفواحش ، ودعاهم الى النكاح المباح؛ بأن قالوا «ما لنا في بناتك من حق» وقيل في معناه قولان :

قال ابن اسحاق والجبائي : معناه انهنّ لسن لنا بازواج .

والآخر - اننا ليس لنا في بناتك من حاجة ، فجعلوا تناول ما ليس لهم فيه حاجة بمنزلة ما لا حق لهم فيه . فمن قال بالاول ردّه على ظاهر اللفظ . ومن قال بالثاني حمله على المعنى . وقوله « وانك لتعلم ما نريد » تمام حكاية مــا قالوه للوط ، كأنهم قالوا له انك تعلم مرادنا من اتيان الذكران دون الاناث .

قوله تعالى :

(قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) (٨٠) آية بلا خلاف.

هذه حكاية ما قال لوط عند أياسه من قبول قومه ، بأنه قال «لو ان لي بكم قوة»

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢١ .

ومعناه اني لو قدرت على دفعكم وقويت على منعكم من اضيافي لحلت بينكم وبين ما جئتم له من الفساد ، وحذف لدلالة الكلام عليه .

وقوله «او آوي الى ركن شديد» معناه لو كان لي من استعين به في دفاعكم. وقيل معناه لو كان لي عشيرة ، قال الراجز :

يأوي الى ركن من الاركان ... في عدد طيس ومجد بان[١]

والركن معتمد البناء بعد الاساس ، وركنا الجبل جانباه . وإنما قال هذا القول مع انه كان يأوي الى الله تعالى ، لأنه انما أراد العدة من الرجال ، وإلا ، فله ركن وثيق من معونة الله ونصره ، إلا انه لا يصح التكليف إلا مع التمكين. والقوة القدرة التي يصح بها الفعل، ويقال للعدة من السلاح قوة، كقوله «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة»[٢] والشدة تجمع يصعب معه التفكك ، وقد يكون بعقد يصعب معه التحلل .

قوله تعالى :

(قالوا يَا لوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) (٨١) آية بلا خلاف .

القراءة والحجة :

قرأ أهل الحجاز (فاسر) بوصل الهمزة من سريت . الباقون بقطعها . وقرأ ابن كثير وابو عمرو «إلا امرأتك» بالرفع . الباقو بالنصب .

---

(١) مجاز القرآن ١ : ٢٩٤ وتفسير الطبري ١٥ : ٤٢٢ ومعنى (عدد طيس) عدد كثير.
(٢) سورة الانفال آية ٦١ .

فحجة من قرأ بقطع الهمزة قوله تعالى «سبحان الذي اسرى بعبده»[١] ومن وصل الهمزة فالمعنى واحد .

اللغة والمعنى :

يقال اسرى يسري وسرى يسري، فهو سار لغتان بمعنى واحد . والاسراء: سير الليل قال امرؤ القيس :

مريت بهم حتى تكلّ مطيهم وحتى الجياد ما يقدن بارسان [٢]

وقال النابغة :

اسرت عليه من الجوزاء سارية تزجي الشمال عليه جامد البرد[٣]

اخبر الله تعالى عما قالت الملائكة رسله للوط حين رأته كئيباً بسببهم « انا رسل ربك » بعثنا الله لاهلاك قومك ، فلا تغتم ، فانهم لا ينالونك بسوء (فاسر باهلك » اي امض ومعك اهلك بالليل .

وقوله «بقطع من الليل» والقطع القطعة العظيمة تمضي من الليل . وقال ابن عباس : طائفة من الليل. وقيل هو نصف الليل كأنه قطع نصفين، ذكره الجبائي وقيل معناه في ظلمة الليل .

وقوله « ولا يلتفت منكم احد » قيل في معناه قولان :

احدهما – قال مجاهد لا ينظر احد وراءه ، كأنهم تعبدوا بذلك للنجاة بالطاعة في هذه العبادة .

والآخر – قال أبو علي لا يلتفت منكم احد الى ماله ولا متاعه بالمدينة، وليس

---

(١) سورة الاسرى آية ١ .

(٢) ديوانه : ٢١٠ وروايته (مطوت) بدل (سريت) والمعنى واحد لأن المطو: هو امتداد السير . و(مطيهم) ما يركبونه من خيل او جمال . والارسان هي الحبال التي يقودون الخيل بها.

(٣) ديوانه ٣١ ومجمع البيان ٣ : ١٨٢ .

المعنى لا يلتفت من الرؤية ، كأنه أراد ان في الرؤية عبرة ، فلم ينهوا عنها وانما نهوا عما يفترهم عن الجد في الخروج من المدينة .

ومن رفع (امراتك) جعله بدلاً من قوله « ولا يلتفت منكم أحد » ومن نصبه جعله استثناء من قوله «فأسر بأهلك» كأنه قال فأسر بأهلك إلا امرأتك،وزعموا ان في مصحف عبدالله وأبي « فاسر باهلك بقطع من الليل إلا امرأتك » ، وليس فيه « ولا يلتفت منكم احد » وجاز النصب على ضعفه . والرفع الوجه . وقيل ان لوطاً لما عرف الملائكة اذن لقومه في الدخول الى منزله ، فلما دخلوه طمس جبرائيل (ع) اعينهم فعميت - هكذا ذكره قتادة - وعلى أيديهم ، فجفت حكاه الجبائي .

وقوله « ان موعدهم الصبح اليس الصبح بقريب » معناه إن موعد اهلاكهم عند الصبح. وإنما قال « اليس الصبح بقريب » لأنه لما اقتضى عظيم ما قصدوا له – من الفحش – إهلاكهم ، فقالت الملائكة هذا القول تسلية له .

وقيل انه قال لهم اهلكوهم الساعة ، فقالت الملائكة له ان وقت اهلاكهم الصبح «اليس الصبح بقريب» .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ* مَنْضودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَما هِيَ مِنَ الظَّالِمينَ بِبَعِيدٍ) (٨٣) آيتان تمام الآية الاولى في المدني قوله « سجيل » وعند الباقين قوله « منضود » .

قيل في قوله « فلما جاء امرنا » ثلاثة أقوال .

احدها – جاء امرنا الملائكة باهلاك قوم لوط .

الثاني – جاءامرنا يعني العذاب، كأنه قيل (كن) على التعظيم وطريق المجاز، كما قال الشاعر:

فقالت له العينان سمعاً وطاعة وحدرتا كالدر لمـــا يثقب[1]

والثالث – ان يكون الأمر نفس الاهلاك، كما يقال: لأمر ما، أي لشيء ما وقال الرماني: انما قال أمرنا بالاضافة ولم يجز مثله في شيء، لان في الأمر معنى التعظيم، فمن ذلك الأمر خلاف النهي، ومن ذلك الامارة، والتأمر.

وقوله «جعلنا عاليها سافلها» معناه قلبنا القرية أسفلها أعلاهـــا «وامطرنا عليها» يعني أرسلنا على القرية حجارة بـــدل المطر حتى أهلكتهم عن آخرهم. والامطار إحدار المطر من السماء.

وقوله «من سجيل» قيل في معنى سجيل ثمانية أقوال:

احدها – انها حجارة صلبة ليست من جنس حجارة الثلج والبرد. وقيل هو فارسي معرب (سنل، وكل) ذكره ابن عباس وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير.

والثاني – قال الفراء من طين قد طبخ حتى صار بمنزلة الآجر، ويقويه قوله «لنرسل عليهم حجارة من طين»[2]. وقال ابو عبيدة انها شديدة من الحجارة وانشد لابن مقبل:

ضرباً تواصى به الابطال سجينا[3]

إلا ان النون قبلت لاماً.

الثالث – من مثل السجيل في الارسال، والسجيل الدلو، وقال الفضل ابن العباس:

من يساجلني يساجل ماجداً يملأ الدلو الى عقد الكرب[4]

---

(١) مر تخريجه في ١ : ٤٣١ وهو في مجمع البيان ٣ . ١٨٥ .

(٢) سورة الذاريات آية ٣٣ .

(٣) مجمع البيان ٣ . ١٨٣ ومجاز القرآن ١ . ٢٩٦ واللسان (سجل) ، (سجن) وتفسير الطبري ١٥ . ٤٣٤ .

(٤) تفسير الطبري ١٥ . ٤٣٥

الرابع – من اسجلته أذا أرسلته، فكأنه مثل مايرسل فيسرعة الارسال .

الخامس – من اسجلته اذا اعطيته ، فتقديره مرسل من العطية في الادرار.

السادس – من السجلّ وهو الكتاب، فتقديره من مكتوب الحجارة، ومنه قوله « كلا ان كتاب الفجار لفي سجين وما ادراك ما سجين كتاب مرقوم »[1] وهي حجارة كتب الله ان يعذبهم بها ، اختاره الزجاج .

السابع – من سجين اي من جهنم ثم ابتدلت النون لاماً .

الثامن – قال ابن زيد من السماء الدنيا ، وهي تسمى سجيلاً .

ومعنى « منضود » قيل فيه قولان :

احدهما – قال الربيع نضد بعضه على بعض حتى صار حجراً ، وقال قتادة مصفوف في تتابع ، وهو من صفة سجيل ، فلذلك جره .

وقوله « مسومة » يعنى معلمة ، وذلك انه جعل فيها علامات تدل على انها معدة للعذاب ، فاهلكوا بها ، قال قتادة : كانوا أربعة آلاف الف . وقيل : كانت مخططة بسواد وحمرة ذكره الفراء فتلك تعليمها ، ونصب (مسومة) على الحال من الحجارة .

وقوله « عند ربك » معناه في خزائنه التي لا يتصرف في شيء منها إلا باذنه، فاذا أمر الملك ان يمطرها على قوم فعل ذلك باذنه . واصل المسوّمة من السماء ، وهي العلامة ، وذلك ان الابل السائمة تختلط في المرعى ، فيجعل عليها السماء لتمييزها .

وقوله « وما هي من الظالمين ببعيد » قيل في معناه قولان :

احدهما – ان مثل ذلك ليس ببعيد من ظالمي قومك يا محمد اراد به اذهاب قريش، وقال ابو علي ذلك لايكون إلا فيزمان نبي أو عند القيامة، لأنه معجز.

والثاني – قال « وما هي من الظالمين ببعيد» يعنى من قوم لوط انها لم تكن تخطيهم. وقال مجاهد: إنجبرائيل (ع) ادخل جناحه تحت الارض السفلى منقوم

---

(١) سورة المطففين آية ٧ – ٩ .

لوط ثم أخذهم بالجناح الايمن فاخذهم مع سرحهم ومواشيهم . ثم رفعها الى سماء الدنيا حتى سمع اهل السماء نباح كلابهم . ثم قلبها ، فكان اول ماسقط منها شرافها ، فذلك قول الله تعالى « فجعلنا عاليها سافلها » قال السدي وهو قوله « والمؤتفكة اهوى »[1] وإنما أمطر الله عليهم الحجارة بعد أن قبلت قريتهم تغليظاً للعذاب وتعظيماً له ، وقيل قتل بها من كان بقي حياً ، وقرية قوم لوط يقال لها : سدوم ، بين المدينة والشام . وقيل إن إبراهيم (ع) كان يشرف عليها فيقول : سدوم يوم ما لك .

قوله تعالى :

(وَإِلَى مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ) (٨٤) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى انه أرسل شعيباً – أخا مدين – اليهم نبياً ، وانما سمى شعيباً أخاهم ، لأنه كان من نسبهم . وقيل : انهم من ولد مدين بن ابراهيم . وقيل ان مدين اسم القبيلة او المدينة التي كانوا فيها – في قول الزجاج – فعلى هذا يكون التقدير ، والى أهل مدين أخاهم كما قال «واسأل القرية» فقال لهم شعيب : يا قوم اعبدوا الله وحده لا شريك له ، فانه ليس لكم إلـه يستحق العبادة سواه ، ونهاهم ان يبخسوا الناس فيما يكيلوا به لهم ويزينونه لهم ، وقال لهم إني أراكم بخير ، يعني برخص السعر ، وحذرهم الغلاء – في قول ابن عباس والحسن – وقال قتادة وابن زيد : اراد بالخير زينة الدنيا والمال . وقال لهم « إني أخاف عليكم عذاب يوم محيط » يعني يوم القيامة ، لانه يحيط عذابه بجميع الكفار في قول الجبائي ، فوصف اليوم بالاحاطة ، وهو من نعت العذاب في الحقيقة ، لأن اليوم

---

(١) سورة النجم آية ٥٣ .

محيط بعذابه بدلاً من إحاطته بنعيمه، وذلك أظهر في الوصف وأهول في النفس. والنقصان اخذ الشيء عن المقدار والزيادة ضم الشيء الى المقدار ، وكله خروج عن المقدار أو نقصه عنه . والوزن تعديل الشيء بغيره في الخفة والثقل بآلة التعديل ، وإذا قيل شعر موزون معناه معدل بالعروض .

قوله تعالى :

(وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)(٨٥) آية بلا خلاف.

وهذا أيضاً حكاية ما قال شعيب لقومه ، وإنه امرهم ان يوفوا المكيال والميزان بالقسط يعني بالعدل والسوية ، « ولا تبخسوا الناس اشياءهم » أي لا تنقصوهم « ولا تعثوا في الارض مفسدين » أي لا تضطربوا بالقبيح .

اللغة :

يقال عثى يعثي عثاء ، وعاث يعيث عيثاً ، بمعني واحد، والوفاء تمام الحق . والوفاء به إتمامه يقال: وفى يفي وأوفى لغتان، ونقيض الوفاء البخس . والفرق بين البخس والظلم أن الظلم أعم ، لأن البخس نقصان الحق اللازم ، وقد يكون الظلم الألم بغير حق .

قوله تعالى :

(بَقِيَّتُ ٱللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنُونَ * وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) (٨٦) آية .

البقية تركه شيء من شيء قد مضى ، والمعنى بقية الله من نعمه . وقيل « بقية الله » طاعة الله – في قول الحسن ومجاهد – لانه يبقى ثوابها أبداً، وكانت هذه البقية خيراً من تعجيلهم النفع بالبخس في المكيال والميزان، وانما شرط أنه خير بالايمان في قوله « ان كنتم مؤمنين » وهو خير على كل حال ، لأنهم إن كانوا مؤمنين بالله

عرفوا صحته. ووجه آخر – ان المراد « إن كنتم مؤمنين » فهو ثابت .

وقوله «وما انا عليكم بحفيظ» معناه ههنا ان هذه النعمة التي انعمها الله عليكم لست أقدر على حفظها عليكم وإنما يحفظها الله عليكم . إذا اطعتموه ، فان عصيتموه أزالها عنكم .

وقال قوم « وما انا عليكم بحفيظ » احفظ عليكم كيلكم ووزنكم حتى توفوا الناس حقوقهم ، ولا تظلموهم ، وإنما علي ان انهاكم عنه .

قوله تعالى :

(قَالُوا يا شُعَيْبُ أَصلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (٨٧) آية بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر «أصلاتك» على التوحيد . الباقون على الجمع .

هذا حكاية ما قال قوم شعيب له (ع) حين نهاهم عن بخس المكيال والميزان وأمرهم بايفاء الحقوق « يا شعيب اصلاتك تأمرك » بهذا ، قال الحسن وأرادوا بالصلاة الدين أي ادينك . وقال الجبائي يريدون ما كانوا يرونه من صلاته لله وعبادته إياه ، وانما اضاف ذلك الى الصلاة ، لانها بمنزلة الامر بالخير ، والتناهي عن المنكر ، وقيل أدينك ، على ما حكيناه عن الحسن .

وقوله « ان نترك ما يعبد اباؤنا » كرهوا الانتقال عن دين آبائهم ودخلت عليهم شبهة بذلك ، لأنهم كانوا يعظمون آباءهم وينزهونهم عن الغلط في الأمر ، فقالوا لولم يكن صواباً ما فعلوه ، وان خفي عنا وجهه . وقوله « انك لانت الحليم الرشيد » قيل في معناه قولان :

احدهما – أنهم قالو ذلك على وجه الاستهزاء – في قول الحسن وابن جريج وابن زيد . والآخر – أنهم ارادوا «أنت الحليم الرشيد» عند قومك ، فلا يليق هذا الأمر بك، وقال المؤرج «الحليم الرشيد» معناه الاحمق السفيه ، بلغة هذيل، والحليم الذي لا يعاجل مستحق العقوبة بها ، والرشيد المرشد .

قال الزجاج «او ان نفعل» موضع (أن) نصب والمعنى او تأمرك ان نترك او ان نفعل في اموالنا ما نشاء ، والمعنى إنا قد تراضينا بالبخس فيما بيننا . وقال الفراء : معناه اتامرك ان نترك ان نفعل في اموالنا ما نشاء، ف (ان) مردودة على نترك . ووجه آخر ، وهو ان يجعل الأمر كالنهي ، كأنه قال أصلاتك تأمرك بذا أو تنهانا عن ذا ، فهي حينئذ مردودة على (ان) الاولى ولا اضمار فيه ،كانك قلت تنهانا ان نفعل في اموالنا ما نشاء ، كما تقول اضربك ان تسيء ، كأنه قال انهاك بالضرب عن الاساءة . ويقرأ «ان نفعل في اموالنا ما تشاء» . والذي نقوله ان قوله «ان نفعل» ليس بمعطوف على (ان) الاولى ، وانما هو معطوف على (ما) وتقديره فعل ما نشاء في اموالنا ، وليس المعنى اصلاتك تأمرك ان نفعل في اموالنا ما نشاء ، لأنه ليس بذلك امرهم .

و «الرشيد» معناه رشيد الأمر ، في امره إياهم ان يتركوا عبادة الاوثان . وقيل ان قوم شعيب عذبوا في قطع الدراهم وكسرها وحذفها .

قوله تعالى :

(قَالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) (٨٨) آية بلا خلاف .

جواب (أن) في الاية محذوف، والتقدير يا قوم إن كنت على حجة ودلالة من ربي ، ومع ذلك رزقني منه رزقاً حسناً ، وانما وصفه بأنه حسن مع ان جميع رزق الله حسن لامرين :

احدهما – انه اراد بـ (حسناً) حسن موقعه لجلالته وعظمته .

والثاني – انه اراد ما هو عليه على وجه التأكيد . وقيل إن الرزق الحسن ههنا النبوة. وقال البلخي معناه الهدى والايمان، لانهما لا يوصل اليهما إلا بدعائه وبيانه ومعونته ولطفه،وتريدون أن أعدل عما انا عليه من عبادته مع هذه الحال الداعية اليها ؟، وانما حذف لدلالة الكلام عليه ، والرزق عطاء الخير الجاري في حكم المعطي، والعطية الواصلة من الانسان رزق من الله. وصلة من الانسان، لإدرار الخير على العبد في حكمه .

وقوله « وما أريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه » . قيل في معناه قولان :

احدهما – ليس نهيي لكم لمنفعة اجرّها الى نفسي بما تتركون من منع الحقوق.

والثاني – أنا لا انهى عن القبيح وافعله مثل من ليس بمستبصر في امره ، كما قال الشاعر :

لا تنه عن خلق وتاتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم[1]

وقوله « ان أريد الا الاصلاح » معناه لست أريد بما آمركم به وانهاكم عنه الا اصلاح حالكم ما قدرت عليه .

وقوله « وماتوفيقي الا بالله » والتوفيق عبارة عن اللطف الذي تقع عنده الطاعة وذلك بحسب ما يعلم الله تعالى . وانما لم يكن الموفق للطاعة الا الله ، لان احداً لا يعلم ما يتفق عنده الطاعة – من غير تعليم – سواه تعالى .

وقوله « عليه توكلت » معناه على الله توكلت وفوضت أمري اليه على وجه الرضا بتدبيره مع التمسك بطاعته « واليه أنيب » قيل في معناه قولان :

(١) مر هذا البيت في ١ : ١٩١ و ٢ : ١٩٣ و ٣ : ٤ و ٥ : ١٢٥

احدهما - قال مجاهد : اليه ارجع . والثاني - قال الحسن : اليه ارجع بعملي وبنيتي اي اعمل اعمالي لوجه الله .

قوله تعالى :

﴿ ويا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْم صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ (٨٩) آية بلا خلاف .

هذا حكاية ما قال شعيب لقومه حين لم يقبلوا أمره ونهيه « يا قوم لا يجرمنكم » وقيل في معناه قولان :

احدهما - قال الحسن وقتادة لا يحملنكم .

والثاني - قال : الزجاج معناه لا يكسبنكم ، كانه قال لا يقطعنكم اليه بحملكم عليه .

والشقاق والمشاقة المباعدة بالعداوة الى جانب المباينة ، وشقها . وكان سبب هذه العداوة دعاؤه لهم الى مخالفة الاباء والاجداد في عبادة الاوثان . وما يثقل عليهم من الايفاء في الكيل والميزان .

وقوله « ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح او قوم هود او قوم صالح » قيل اهلك الله قوم نوح بالغرق ، وقوم هود بالريح العقيم ، وقوم صالح بالرجفة ، وقوم لوط بالإئتفاك ، فحذرهم شعيب ان يصيبهم مثل ذلك .

وقوله « وما قوم لوط منكم ببعيد » قيل في معناه قولان :

احدهما - قريب منكم في الزمان الذي بينهم وبينكم ، في قول قتادة .

والاخر - ان دارهم قريبة من دارهم فيجب ان يتعظوا بهم .

قوله تعالى :

﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيم

وَدُودٌ) (٩٠) آية بلا خلاف .

في هذه الآية حكاية ما قال شعيب أيضاً لقومه بعد تحذيره اياهم عذاب الله وحثهم على ان يطلبوا مغفرة الله . ثم يرجعوا الى طاعته ، واخبرهم ان الله رحيم بعباده ، يقبل توبتهم ويعفو عن معاصيهم ، ودود بهم أي محب لهم ، ومعناه مريد لمنافعهم .

وقيل في معنى « استغفروا ربكم ثم توبوا اليه » قولان :

احدهما اطلبوا المغفرة من الله بأن يكون غرضكم . ثم توصلوا اليها بالتوبة .

الثاني – استغفروا ربكم ثم اقيموا على التوبة .

ووجه ثالث – ان معناه استغفروا ربكم على معاصيكم الماضية . ثم ارجعوا اليه بالطاعات في المستقبل .

والمودة على ضربين : احدهما – بمعنى المحبة ، تقول وددت الرجل اذا احببته ، والثاني – وددت الشيء اذا تمنيته أود فيهما مودة وانا واد ، والودود المحب لاغير .

قوله تعالى :

(قَالُوا يا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ) (٩١) آية بلا خلاف .

في هذه الآية حكاية ما اجاب به قوم شعيب له (ع) فقالوا له حين سمعوا منه الوعظ والتخويف : لسنا نفقه أي لسنا نفهم عنك معنى كلامك ، والفقه : فهم الكلام على ما تضمن من المعنى ، وقد صار علماً لضرب من علوم الدين ، فصار الفقه عبارة عن علم مدلول الدلائل السمعية ، واصول الدين علم مدلول الدلائل العقلية .

وقوله « وانا لنراك فينا ضعيفاً » قيل في معناه اربعة اقوال : قال الحسن : معناه مهينا ، وقال سفيان: معناه ضعيف البصر ، وقال سعيد بن جبير وقتادة: كان اعمى . قال الزجاج ويسمى الاعمى بلغة حمير ضعيفاً .

وقال الجبائي معناه : ضعيف البدن .

وقوله « ولولا رهطك » فالرهط عشيرة الرجل وقومه ، واصله الشد ، والترهط شدة الاكل، ومنه الرهطاء جحر اليربوع لشدته وتوثيقه ليخبىء فيه ولده.

وقوله « لرجمناك » فالرجم الرمي بالحجارة ، والمعنى لرميناك بالحجارة .

وقيل معناه لسبّيناك « وما انت علينا بعزيز » اي علينا لست بمتنع ، فلا نقدر عليك بالرجم، ولا أنت بكريم علينا، وانما تمتنع لمكان عشيرتك. وعشيرته كانوا على دينه .

قوله تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ ٱللهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) (٩٢) آية .

هذا حكاية ما قال شعيب لقومه حين قالوا « لولا رهطك لرجمناك » يا قوم اعشيرتي وقومي أعز عليكم من الله. والاعز الأقوى الا منع. والاعز نقيض الاذل، والعزة نقيض الذلة والعزيز نقيض الذليل .

وقوله « واتخذتموه وراءكم ظهريا » فالاتخاذ اخذ الشيء لامر يستمر في المستأنف كاتخاذ البيت واتخاذ المركوب ، والظهري جعل الشيء وراء الظهر قال الشاعر:

وجدنا نبي البرصاء من ولد الظهر[1]

---

(١) قائله ارطاة ابن سيهة ، انظر نسبه في الاغانى ١٣ : ٢٧ (دار الثقافة) . والبيت في اللسان (ظهر) ومجاز القرآن ١ : ٢٩٨ وتفسير الطبري (دار المعارف) ١٥ : ٤٥٩ وصدره:
فمن مبلغ ابناء مرة أننا ...

وقال آخر :

تميم بن قيس لا تكونن حاجتي بظهر ولا يعيا علي جوابها[١]

وقيل فيما تعود الهاء اليه من قوله « اتخذتموه » ثلاثة اقوال : فقال ابن عباس والحسن : انها عائدة على الله . وقال مجاهد : هي عائدة على ما جاء به شعيب . وقال : الزجاج : هي عائدة على أمر الله .

وقوله « ان ربي بما تعملون محيط » قيل في معناه ههنا قولان :

احدهما – انه محص لاعمالكم لا يفوته شيء منها .

الثاني – انه خبير باعمال العباد ليجازيهم بها – ذكره الحسن – قال سفيان كان شعيب خطيب الأنبياء .

قوله تعالى :

(وَيا قَوْمِ اعْمَلوا على مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ(٩٣) مَنْ يَأْتِيهِ عَـذَابٌ يُخْزِيـهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) (٩٤) آيتان .

فقال لهم شعيب ايضاً «يا قوم اعملوا على مكانتكم» والمكانة الحال التي يتمكن بها صاحبها من عمل ما ، فقال لهم قد مكنتم في الدنيا من العمل، كما مكن غيركم ممن عمل بطاعة الله ، وسترون منزلتكم من منزلته . وهذا الخطاب وإن كان ظاهره ظاهر الأمر فالمراد به التهديد ، وتقديره كأنكم انما أمرتم بأن تكونوا على هذه الحال من الكفر والعصيان . وفي هذا نهاية الخزي والهوان .

وقوله « سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه» معناه انكم تعلمون في المستقبل

---

(١) قائله الفرزدق ديوانه ١ : ٩٥ وقد مر في ٣ : ٧٤ وهو في اللسان (ظهر) ورواية الديوان (زيد لا تهونن) بدل (قيس لا تكونن) .

من يحل به العذاب الذي يخزيه اي يفضحه ويذله ، وهو أشد من العذاب الذي لا يفضح « ومن هو كاذب » وتعرفون من هو الكاذب مني ومنكم .

وقوله « وارتقبوا » معناه انتظروا ما وعدتكم به من العذاب ، يقال رقبه يرقبه رقوباً وارتقبه ارتقاباً وترقبه ترقباً « اني معكم رقيب » اي منتظر لنزول ذلك بكم. وموضع «من يأتيه» ان جعلت (من) بمعنى الذي نصب ، وقوله «ومن هو كاذب » عطف عليه، وان جعلتها للاستفهام كان موضعها الرفع ، ذكره الفراء وادخلوا (هو) في قوله «ومن هو» لانهم لا يقولون: من قائم؟ ولا من قاعد؟، وانما يقولون : من قام؟ ومن يقوم؟ أو من القائم؟ فلما لم يقولوا إلا المعرفة او يفعل ، ادخلوا (هو) مع قائم، ليكونا جميعاً في مقام (فعل، ويفعل) لانهما يقومان مقام اثنين ، وقد ورد في الشعر من قائم ? قال الشاعر :

من شارب مربح بالكأس نادمني لا بالحصور ولا فيها بسؤار[1]

قال الفراء: وربما خفضوا بعدها، فيقولون: من رجل يتصدق عليّ? بتأويل هل من رجل ?

قوله تعالى :

(وَلَمَّا جَــاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحَوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ)(٩٥)

آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى انه « لما جاء أمر » الله باهلاك قوم شعيب، وقد بينا معناه فيما مضى[2] « نجينا شعيباً » اي خلصناه ، ونجينا معه من كان مؤمناً من قومه برحمة

---

(١) قائله الاخطل ديوانه ١٠٧ واللسان (سور) وروايته : (وشارب مرج) .
(٢) في ٤ : ٤٦٢ — ٥٠٤ .

من جهته تعالى ، ويجوز ان يكون في نجاة شعيب، ومن آمن معه لطف لمن سمع بأخبارهم فيؤمن، كما انه متى كان في نجاة الظالمين لطف وجب تخليصهم، وكذلك ان كان المعلوم من حال الكافر انــه يؤمن فيما بعد وجب تبقيته – عند أبي علي ومن وافقه – وعند قوم آخرين لا يجب .

وقوله «وأخذت الذين ظلموا الصيحة» انث الفعل ههنا لانه رده الى الصيحة، وفيما قبل[1] ذكــّر، لانه رده الى الصياح.

وقوله «فاصبحوا في ديارهم جاثمين» قال الجبائي: معناه منكبين على وجوههم. وقال قوم : الجثوّ على الركب . وقال قوم : معناه خامدين موتى . قال البلخي يجوز ان تكون الصيحة صيحة على الحقيقة ، كما روي ان الله تعالى امر جبرائيل فصاح بهم صيحة ماتوا كلهم من شدتهـــا ، ويجوز ان يكون ضرباً من العذاب اهلكهم واصطلمهم تقول العرب : صاح الزمان بآل فلان إذا هلكوا. قال امرؤ القيس :

دع عنك نهبـــاً صيح في حجراته ولكن حديث ما حديث الرواحل[2]

(معنى صيح في حجراته) اي اهلك وذهب به .

قوله تعالى :

(كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ) (٩٦)

آية بلا خلاف.

شبه الله تعالى هلاك قوم شعيب وانقطاع آثارهم منها بحالهم لو لم يكونوا فيها يقال: غنى بالمكان إذا اقام به على وجه الاستغناء بــه عن غيره . واتخاذه وطناً ومأوى يأوي اليه ، ولذلك قيل للمنازل المغاني ، وانما شبه حالهم بحـــال ثمود خاصة ، لانهم أهلكوا بالصيحة كما اهلكت ثمود مثل ذلك مع الرجفة .

---

(١) آية ٦٧ من هذه السورة .

(٢) ديوانه : ١٧٤ واللسان (حجر) .

وقوله « ألا بعداً لمدين » دعاء عليهم بانتفاء الرحمة عنهم كما أهلك الله تعالى ثمود ، فلم يرحمهم ، وجعل انتفاء الرحمة بعداً من الرحمة ، لانه أظهر فيما يتصور ، فكأنهم يرونها حسرة لانها لا تصل اليهم منها منفعة لما يحصلون عليه من مضرة الحسرة ، و (كأن) هذه يحتمل ان تكون مخففة من الثقيلة على ان يضمر فيها ، كالاضمار في (ان) من قوله «وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين»[1] ويجوز ان تكون (ان) التي تنصب الفعل بمعنى المصدر . وبعدت وبعُدت بالكسر والضم لغتان . وكانت العرب تذهب بالرفع الى التباعد ، وبالكسر الى الدعاء ، وهما واحد . وقرأ ابو عبد الرحمن السلمي كما بعدت بضم العين . والآخر بعداً فنصب على المصدر ، وتقديره ألا أهلكهم الله فبعدوا بعداً .

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسَى بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (٩٧) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمـا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ) (٩٨)

آيتان بلا خلاف .

اخبر الله تعالى واقسم انه ارسل موسى نبياً بالآيات، وهي الحجج والمعجزات الدالة على نبوته « وسلطان مبين » اي وحجة ظاهرة مخلصة من تلبيس وتمويه ، على اتم ما يمكن فيه . والسلطان، والآيات وإن كان معناهما الحجج، فأنما عطف احداهما على الأخرى، لاختلاف اللفظ، ولان معناهما مختلف، لان الآيات حجج من وجه الاعتبار العظيم بها ، والسلطان من جهة القوة العظيمة على المبطل، وكل علم له حجة يقهر بها شبهة من نازعه من اهل الباطل تشبهه ، فله سلطان . وقد قيل إن سلطان الحجة انفذ من سلطان المملكة ، والسلطان متى كان محقاً حجة

---

(١) سورة يونس آية ١٠ .

وجب اتباعه ، واذا كان بخلافه لا يجب اتباعه .

وقال الزجاج . سمي السلطان سلطاناً ، لانه حجة الله في ارضه ، واشتقاقه من السليط وهو مما يستضاء به ، ومن ذلك قيل للزيت السليط .

وقوله « الى فرعون وملائه » معناه انــه ارسل موسى الى فرعون واشراف قومه الذين تملأ الصدور هيبتهم .

وقوله « فاتبعوا أمر فرعون » فالاتباع طلب الثاني للتصرف بتصرف الاول في اي جهة اخذ ، والأمر هو قول القائل لمن دونه : (افعل) . وفيه أخبار ان قوم فرعون اتبعوه على ما كان يأمرهم به . ثم اخبر تعالى ان أمر فرعون لم يكن رشيداً . والرشيد هو الذي يدعو الى الخير ويهدي اليه فـأمر فرعون بضد هذه الحال ، لانه يدعو الى الشر ويصد عن الخير .

واستدل قوم بهذه الآية على ان لفظة الأمر مشتركة بين القول والفعل ، لأنه قال « وما أمر فرعون برشيد » يعني ومـــا فعل فرعون برشيد ، وهذا ليس بصحيح ، لانه يجوز ان يكون اراد بذلك الأمر الذي هو القول ، او يكون مجازاً .

قوله تعالى :

(يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّـــارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ) (٩٩) آية بلا خلاف .

هذا اخبار من الله تعالى ان فرعون يوم القيامة يقدم قومه ، ومعناه يمشي على قدمه يقودهم الى النار ، ولو قال يسبق ، لجاز ان يوجده الله (عز وجل) قبلهم في النار . والقيامة هو وقت قيام الناس من قبورهم للجزاء والحساب باعمالهم .

وقوله « فاوردهم النار » معناه اوجب ورودهم الى النار ، والايراد ايجـــاب الورود الى الماء او ما يقوم مقامه . قال ابو علي : انما لم يقل يوردهم النار ، لانــه

ذكر ليوم القيامة انه يقدمهم فيه ، يدل على انه فعل مستقبل فأجرى الماضي مجرى المستقبل لدلالة الكلام عليه .

وقوله « وبئس الورد المورود » قال ابو علي : انه مجاز ، والمعنى بئس وارد النار . وقال البلخي : بل هو حقيقة ، لانه تعالى وصف النار بانها بئس الورد المورود ، وهي كذلك . والورد الماء الذي ترده الابل ، والورد الابل التي ترد الماء، والورد ما يجعله عادة لقراءة أو تلاوة للقرآن. والورد ورد الحمى، كل ذلك بكسر الواو، وحكي عن ابن عباس ان الورد الدخول. والمعنى ان ما وردوه من النار هو المورود بئس الورد لمن ورده . ويقال إنهم اذا وردوه عطاشاً فيردون على الحميم والنيران ولا يزيدون بذلك إلا عذاباً وعطشاً. وانما وصف بأنه بئس، وان كان عدلاً حسناً لما فيه من الشدة مجازاً .

قوله تعالى :

(وَأُتْبِعُوا فِي هَـٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰامَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ) (١٠٠) آية بلا خلاف .

معنى قوله «واتبعوا في هذه لعنة» ان الله لعنهم والملائكة والمؤمنون، فاختصر على وجه ما ذكرنا على ما لم يسم فاعله ؛ لان الايجاز لا يخل بهذا المعنى . واللعن من العباد الدعاء والمسألة لله تعالى بالابعاد من الرحمة – في قولهم لعنة الله – والذم الوصف بالقبيح على وجه التحقير .

ومعنى الآية انهم كيف تصرفوا، وحيث كانوا ، فاللعنة تتبعهم . واللعنة من الله الابعاد من رحمته بان يحكم بذلك، فمن لعنه الله فقد حكم بابعاده من رحمته وانه لا يرحمه .

وقوله « ويوم القيامة بئس الرفد » والرفد العون على الأمر ، وانما قيل

هـهنا – رفد ، لان اللعنة جعلت بدلا من الرفد بالعطية ، ويقال : رفده وهو يرفده رفداً ، ورفد – بفتح الراء وكسرها – قال الزجاج كل شيء جعلته عوناً لشيء واسندت به شيئاً فقد رفدته ، يقال عهدت الحائط ورفدته بمعنى واحد ، والرفد القرح العظيم ، وروي – بفتح الراء – في الاية وهي لغة شاذة .

قوله تعالى :

(ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ) (١٠١) آية بلا خلاف .

قوله « ذلك » اشارة الى النبأ كأنه قال النبأ من انباء القرى ، وقد تقدم ذكره . ثم وقعت الاشارة اليه ، والانباء جمع نبأ كالاخبار جمع خبر الا انه لا يقال نبأ الا في خبر عظيم ، يقال لهذا الأمر نبأ اي خبر عظيم .

قوله « نقصه عليه » فالقصص الخبر عن الامور التي يتلو بعضها بعضاً ، يقال قص قصصاً وهو يقص اثره اي يتبع اثره ، واقتص منه اي يتبعه بجنايته .

وقوله « منها قائم وحصيد » فالقائم المعمور ، والحصيد الخراب من تلك الديار ، لان الاهلاك قد اتى عليها ولم تعمر فيما بعد . وقيل « منها قائم » على بنائه وان كان خالياً من اهله ، والحصد قطع الزرع من الاصل ، فالحصيد منهم كالزرع المحصود ، وحصدهم بالسيف اذا قتلهم .

قوله تعالى :

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى انه بما فعله بالامم التي أهلكها لم يظلم احـداً منهم ، ولكن ظلموا هم انفسهم بأن ارتكبوا المعاصي التي استحقوا بها الهلاك فكان ذلك ظلمهم لانفسهم ، وبين انه « ما أغنت عنهم آلهتهم » يعني الاوثان التي كانوا يعبدونها من دون الله ما دفعت عنهم ولا اعانتهم بشيء لما جاء امر الله واهلاكه وعذابه « وما زادوهم غير تتبيب » بمعنى غير تخسير – في قول مجاهد وقتادة – مأخوذ من تبت يده أي خسرت ، ومنه تبا له ، وقال جرير :

عرادة من بقية قوم لوط ألا تباً لما فعلوا تبابا [1]

وانما قال يدعون من دون الله ، لانهم كانوا يسمونها آلهة ويطلبون الحوائج منها ، كما يطلب الموحدون من الله . ومعنى « من دون الله » مَن منزلته ادنى من منزلة عبادة الله ، لانه من الأدون ، وهو الأقرب الى جهة السفلى .

قوله تعالى :

(وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (١٠٣) آية بلا خلاف .

وجه التشبيه في قوله « وكذلك اخذ ربك » ان اخذه الظالم الذي يساوي من تقدمه في ظلمه وحاله في بطلان الفلاح ببقائه ، كأخذه الذي قبله ، لانه ليس هناك محاباة لاحد من خلقه . والاخذ نقل الشيء الى جهة الآخذ ، فلما نقلهم الله الى جهة عقابه كان قد اخذهم به ، والظالم الفاعل للظلم والعادل الفاعل للعدل . ثم اخبر تعال ان اخذه للظالم مؤلم شديد ، والشدة تجمع يصعب معه التفكك ، ويقال للنقص شدة ، وشدة الألم لجمعه على النفس بما يعسر زواله .

---

(١) ديوانه : ٧٢ من قصيدة في هجاء الراعي النميري ، وهو في تفسير الطبري ١٥ : ٤٧٢

قوله تعالى :

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) (١٠٤) آية بلا خلاف.

أخبر الله تعالى ان فيما أخبر به ـ من إهلاك من ذكره على وجه العقوبة لهم على كفرهم ـ آية أي علامة عظيمة بما فيها من البيان عن الامر الكثير قال الشاعر :

بآية تقدمون الخيل زوراً   كأن على سنابكها مداماً [1]

قوله « لمن خاف عذاب الاخرة » أي لمن خشي عقوبة الله يوم القيامة ، والخوف انزعاج النفس بتوقع الشر ونقيضه الامن ، وهو سكون النفس بتوقع الخير . والفرق بين العذاب والالم أن العذاب استمرار الالم قال عبيد :

فالمرؤ ما عاش في تكذيب   طول الحياة له تعذيب [2]

وقوله « ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » معناه ان يوم القيامة يوم يجمع فيه الناس ويشهده جميع الخلائق ، وليس يوصف في هذه الصفة يوم سواه ، والجمع ضم احد الشيئين الى الآخر . وقيل هو جعل الشيئين فصاعداً في معنى ، والقبض ضم الشيء الى الوسط كقبض البساط ، وهو نقيض بسطه من غير تبري اجزائه .

قوله تعالى :

(وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٥) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ) (١٠٦) آيتان بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلاّ الكسائي وابن عامر يوم (يأت) بغير ياء. الباقون بياء في

---

(١) اللسان (أيا) وروايته (شعثا) بدل (زورا)

(٢) مر هذا البيت في ٥ : ٢١٦

الوصل دون الوقف ، إلا ابن كثير ، فانه أثبت الياء في الحالين .

قال أبو علي : من أثبت الياء في الوصل ، فهو القياس البين ، لأنه لا شيء – ههنا – يوجب حذف الياء في الوصل ، ومن حذفها في الوقف شبهها بالفاصلة ، وان لم يكن فاصلة ، لأن هذه الياء تشبه الحركات المحذوفة بدلالة انهم قد حذفوها كما حذفوا الحركة ، فكما ان الحركة تحذف في الوقف ، فكذلك ما يشبهها من هذه الحروف ، فكان في حكمها ، ومن اثبتها في الحالين فقد أحسن ، لأنها أكثر من الحركة في الصوت ، فلا ينبغي اذا حذفت الحركة للوقف ان تحذف الياء له ، كما لا تحذف سائر الحروف ، ومن حذف الياء في الحالين جعلها في الحالين بمنزلة ما يستعمل محذوفاً مما لم يكن ينبغي في القياس ان يحذف نحو (لم يك ، ولا أدر) وهي لغة هذيل ، قال الشاعر :

كفاك كفاً لا تليق درهماً جواداً وأخرى تعط بالسيف الدما[1]

فحذف الياء في تعط ، وليس هذا ما يوجب حذفها .

والضمير في قوله « وما نؤخره » عائد على قوله « يوم مشهود » وهو يوم الجزاء . ومعناه الاخبار بأنه تعالى ليس يؤخر يوم الجزاء إلا ليستوفي الاجل المضروب لوقوع الجزاء فيه . وانما قال « لأجل » ولم يقل الى اجل ، لان قوله « لاجل » يدل على الغرض ، وان الحكمة أقتضت تاخيره . ولو قال الى اجل لما دل على ذلك . وقوله « يوم يأتي » يعني يوم القيامة الذي تقدم ذكره بأنه مشهود . والضمير في (ياتي) حين الجزاء ، لانه قد تقدم الدليل عليه في قوله « يوم مشهود » واحسن الاضمار ما يدلّ الكلام عليه ، وانما أضاف (يوم) الى الفعل ، لانه اسم زمان فناسب الفعل للزمان من حيث انه لا يخلو منه ، وانه يتصرف بتصرفه • وانه لا يكون حادثاً الا وقتاً ، كما ان الزمان لا يبقى .

ومعنى قوله « لا تكلم نفس إلا باذنه » أي لا تتكلم فحذف أحدى التائين

---

(١) تفسير القرطبي ٩ : ٩٨ واللسان (ليق)

لدلالة الكلام عليه . وقيل في معنى « لاتكلم » قولان :

احدهما – ان فيه وقتاً يمنعون من التكلم إلا بالحق فهو باذنه تعالى .

والاخر – انه لا يتكلم بكلام ينفع إلا بإذنه : من شفاعة ووسيلة ، بدلالة قولهم « والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على انفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون [1] » .

وقال الجبائي : الاذن الجاؤم الى الحسن ، لانه لا يقع منهم ذلك اليوم قبيح .

وقوله « فمنهم شقي وسعيد » اخبار منه تعالى بأنهم ينقسمون قسمين منهم الاشقياء ، وهم المستحقون للعقاب ، ومنهم السعداء وهم المستحقون للثواب .

والشقاء قوة أسباب البلاء ، والشقي من شقي بسوء عمله في معاصي الله ، والسعيد من سعد بحسن عمله في طاعة الله ، وانما وصف الاجل بأنه معدود ، لانه متناه منقض ، لان كل معدود قد وجد عدده ، لا يكون ذلك الا متناهياً .

فان قيل كيف قال – ههنا – « يوم يأتي لاتكلم نفس إلا باذنه » وقال في موضع آخر « هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون » [2] وقال في موضع آخر « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها » [3] وقال « وقفوهم انهم مسؤلون [4] وقال في موضع آخر « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان » [5] وهل هذا إلا ظاهر التناقض ؟! .

قلنا : لا تناقض في ذلك لان معنى قوله «وقفوهم انهم مسؤلون» انهم يسألون سؤال توبيخ وتقرير وتقريع ، لايجاب الحجة عليهم لا سؤال استفهام ، لانه تعالى

---

(١) سورة الانعام آية ٢٤ – ٢٥
(٢) سورة المرسلات ٣٥ – ٣٦
(٣) سورة النحل آية ١١١
(٤) سورة الصافات آية ٢٤
(٥) سورة الرحمن آية ٣٩

عالم بذلك لنفسه . وقوله « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان »[١] اي لا يسأل ليعلم ذلك منه حيث انه تعالى قد علم اعمالهم قبل ان يعملوها . وقيل ان معناه إنه لا يسأل عن ذنب المذنب إنس ولا جان غيره ، وانما يسأل المذنب لا غير ، وكذلك قوله « يوم لا ينطقون »[٢] أي لا ينطقون بحجة ، وانما يتكلمون بالاقرار بذنوبهم ولوم بعضهم بعضاً ، وطرح بعضهم على بعض الذنوب ، فاما المتكلم بحجة ، فلا . وهذا كما يقول القائل لمن يخاطبه بخطاب كثير فارغ من الحجة : ما تكلمت بشيء ، وما نطقت بشيء ، فسمي من يتكلم بما لا حجة فيه له : غير متكلم ، كما قال « صم بكم عمي فهم لا يعقلون »[٣] وهم كانوا يبصرون ويسمعون إلا انهم لا يقبلون ولا يفكرون فيما يسمعون ، ولا يتأملون ، فهم بمنزلة الصم ، قال الشاعر :

أصم عما ساءه سميع[٤]

وقال بعضهم ان ذلك اليوم يوم طويل له مواضع ، ومواطن ، ومواقف ، في بعضها يمنعون من الكلام ، وفي بعضها يطلق لهم ذلك بدلالة قوله « يوم يأتي لا تكلم نفس إلا باذنه » وكلاهما حسن والاول احسن .

قوله تعالى :

(فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٧) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ ٱلسَّمَواتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ) (١٠٨) آيتان بلا خلاف.

أخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذين شقوا باستحقاقهم عذاب النار جزاء بسوء اعمالهم داخلون في النار، وانما سمي الشقي شقياً قبل دخوله في النار، لانه

---

(١) سورة الرحمن آية ٣٩ (٢) سورة المرسلات ٣٥

(٣) سورة البقرة آية ١٧١ (٤) مر تخريجه في ٢ : ٨٠، ٤ : ١٣٤، ٥ : ٤٣٩

على حال تؤديه الى دخولها ، من قبائح اعماله . فاما ما روي من قوله (ع) (إن الشقي شقيّ في بطن امه) ، فجاز ، لان المعنى ان المعلوم من حاله انه سيشقى بارتكاب المعاصي التي تؤديه الى عذاب النار ، كما يقال لولد شيخ هرم هذا يتيم ومعناه انه سيتيتم .

وقوله « لهم فيها زفير وشهيق » قال أهل اللغة : الزفير أول نهاق الحمير ، والشهيق آخر نهاقها ، قال رؤبة :

حشرج في الجوف سحيلاً أو شهق حتى يقال ناهق ومـــا نهق [1]

والزفير ترديد النفس مع الصوت من الحزن حتى تنتفخ الضلوع قال الجعدي :

خيط على زفـــيرة فتم ولم يرجع الى دقة ولا هضم [2]

وأصل الزفير الشدة من قولهم للشديد الخلق المزفور ، والزفر الحمل عـــلى الظهر خاصة لشدته ، قال الشاعر :

طوال انضية الاعناق لم يجدوا ريح الاماء إذا راحت بأزفار[3]

والزفر السيد ، لانه يطيق عمل الشدائد ، وزفرت النار اذا سمع لها صوت في شدة توقدها ، والشهيق صوت فظيع يخرج من الجوف عند النفس . واصله الطول المفرط من قولهم : جبل شاهق أي ممتنع طولا .

وقوله « خالدين فيها ما دامت السموات والارض » فالخلود الكون في الامر أبداً ، والدوام البقاء أبداً ، ولهـــذا يوصف الله تعالى بأنه دائم ، ولا يوصف بأنه خالد .

وقوله « إلا ما شاء ربك » اختلفوا في هذا الاستثناء على عدة أقوال :
فالذي نختاره – ويليق بمذهبنا في الارجاء – ان الله تعالى أخبر ان الاشقياء

---

(١) ديوانه ١٠٦ وتفسير القرطبي ٩ : ٩٨ واللسان (حشرج) وتفسير الطبري ١٥: ٤٧٩
(٢) اللسان (زفر) (٣) اللسان (زفر)

المستحقين للعقاب يحصلون في النار ثم استثنى من أراد من فساق أهل الصلاة إذا أراد التفضل باسقاط عقابه، أو من يشفع فيه النبي ﷺ فانه عند ذلك لا يدخله النار وتكون على هذا - (ما) معناها (من) كأنه قال الا من شاء ربك، فلا يدخله النار ، وهو قول ابن عباس وقتادة والضحاك ، وجابر بن عبد الله ، وابي سعيد الخدري وجماعة من المفسرين. ويجوز على هذا المذهب أن يكون استثناء من الخلود، فكأنه قال إلا ما شاء ربك بأن لا يخلدهم في النار بل يخرجهم عنها.

وقال قتادة : ذكر لنا أن ناساً يصيبهم سفع من النـــار بذنوب اصابوا ، ثم يدخلهم الله الجنة بفضله ورحمته يقال لهم الجهنميون، قال قتادة وحدثنا أنس ابن مالك أن رسول الله ﷺ قال يخرج قوم من النار . وقال قتادة : ولا نقول ما يقول اهل حروراء .

وروي عن ابن عباس أنه قال قوله « لابثين فيها أحقابا » [1] وقوله « خالدين فيها إلا ما شاء ربك » في اهل التوحيد . وروي عن ابن مسعود أنه قـــال : ليأتين على جهنم زمان تخفق ابوابها ليس فيها أحد . وذلك بعد أن يلبثوا فيها أحقابا . وقال الشعبي : جهنم أسرع الدارين عمرانا ، واسرعها خراباً .

ثانيها – قال ابن زيد وحكاه الرماني : إن المعنى خالدين فيها مـــا دامت السموات سموات ، والارض أرضاً إلا ما شاء ربك ، من الزيادة المضاعفة.

وثالثها – قال الجبائي: إن المعنى ما دامت السموات لاهل الآخرة وأرضهم إلا ما شاء ربك مما كان قبل أن يدخلوها من أوقات وقوفهم في صدر يومهم في الموقف ، لان الله تعالى قال « يوم تبدل الارض غير الارض والسموات » .

ورابعها – ما ذكره كثير من أهل العربية كالفراء والزجاج وغيرهم: ان (إلا) في الاية بمعنى (سوى) والتقدير ما دامت السموات والارض سوى ما شاء ربك كما يقول القائل: لو كان معنا رجل إلا زيد أي سوى زيد، ولك عندي ألف درهم

---

(١) سورة النبأ آية ٢٣

الا الألفين التي لك عندي، أي سوى الألفين. ومثله قوله « ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم من النساء إلا ما قد سلف »[١] أي سوى مـا قد سلف ، لأن قوله « ولا تنكحوا » مستقبل « وإلا ما شاء ربك » ماض، والمعنى على هذا «خالدين فيها» مقدار دوام السموات والأرض سوى « ما شاء ربك » من الخلود والزيادة .

وخامسها – ما قال الفراء : إن (الا) بمعنى الواو كما قال الشاعر :

وكل أخ مفـارقه أخوه لعمر أبيك الا الفرقدان[٢]

وعلى هـذا لو قال القائل لك عندي ألف الا الفين لزمه ثلاثة آلاف درهم ، لأنه أستثناء الزائد من الناقص ، فكأنه قال الا ألفين منفردين. ولو قال ما لك عندي الف الا الفين فانما أقر بألفين كأنه قال مـا لك عندي سوى الفين . ولو قال لك عندي ألف الا ألفان بالرفع أقر بألف فقط ، لأنهـا صفة مثبتة ، كأنه قال الف لا الفان .

وسادسها – أن ذلك تعليق لما لا يكون بما لا يكون ، كأنه قال « الا مـا شاء ربك » وهو لا يشاء ان يخرجهم منها وتكون الفائدة أن لو شاء أن يخرجهم لقدر ، ولكنه قد أعلمنا انهم خالدون أبداً .

وسابعها – ذكره الزجاج : ان الاستثناء وقع على أن لهم زفيراً وشهيقاً إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب التي لم يذكرها .

وثامنها – ذكره البلخي : ان المراد بذلك الا ما شاء ربك من وقت نزول الآية الى دخولهم النار ، ولولا هذا الاستثناء لوجب ان يكونوا في النـــار من وقت نزول الآية أو من يوم يموتون .

فان قيل كيف يستثنى من الخلود فيها ما قبل الدخول فيها ؟!
قلنا : يجوز ذلك إذا كان الاخبار به قبل دخولهم .

---

(١) سورة النساء آية ٢٢ .
(٢) امالي السيد المرتضي ٢ :٨٨ وسيبويه ١ :٣٧١ وتفسير القرطبي ٩ :١٠١ وقد نسب الى عمرو بن معد كرب .

وتاسعها - ما ذكره قوم من اصحابنا في التفسير إن المعنى انهم فيها يعني في النار في حال كونهم في القبور دائمين فيها ما دامت السموات والارض ، فانها اذا عدمت انقطع عقابهم الى أن يبعثهم الله للحساب .

وقوله « الا ما شاء ربك » مما يكون في الآخرة .

وقوله « إن ربك فعال لما يريد » معناه انه كلما أراد شيئاً فعله ، لانه لا يجوز عليه البداء بالرجوع عما أراده ، ولا المنع من مراده ولا يتعذر عليه شيء منه مع كثرته بارادة من أفعاله .

قوله تعالى :

(وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) (١٠٩) آية بلا خلاف.

القراءة واللغة :

قرأ أهل الكوفة الا أبا بكر « سعدوا » بضم السين . الباقون بفتحها .

قال ابو علي : حكى سيبويه : سعد يسعد سعادة ، فهو سعيد . وينبغي أن يكون غير متعد، كما أن خلافه الذي هو (شقي) كذلك ، واذا لم يكن متعدياً لم يجب أن يبني منه المفعول به ، وإذا كان كذلك، ضم السين مشكل الا ان يكون سمع فيه لغة خارجة عن القياس أو يكون من باب (فعل وفعلته) نحو غاض الماء وغضته ، وحزن وحزنته ، ولعلهم استشهدوا على ذلك بقولهم (مسعود) فانه على سعد فهو مسعود ، ولا دلالة في ذلك ، لأنه يجوز ان يكون مثل أجنه الله فهو مجنون، واحبه فهو محبوب، فالمفعول جاء في هذا على أنه حذفت الزيادة منه ، كما حذف من اسم الفاعل في نحو (ويكشف جمانة دلو الدالي) وانما هو المدلي ،

ومثله « وارسلنا الرياح لواقح »[١] يعني ملاقح فجـاء على حذف الزيادة ، فعلى هذا يكون أصله أسعدوا بحذف الزائد. وحكى البلخي انها لغتان - ضم السين - لغة هذيل ، وفتحها لغة سائر العرب .

المعنى :

لما اخبر الله تعالى أن الذين شقوا بفعلهم المعاصي واستحقوا الخلود في النار ، اخبر ان الذين سعدوا بطاعات الله والانتهاء عن معاصيه يكونون في الجنة « ما دامت السموات والارض إلا ما شاء ربك » ومعنى ما دامت السموات والارض المصدر، كأنه قال دوام السموات والارض الا مشيئة ربك، وفيه حسن التقابل، وفيه جميع ما ذكرناه في الاستثناء من الخلود في النار إلا الوجهين الذين ذكرناهما في جواز إخراج بعض الاشقياء ممن تناول الوعيد لهم وإخراجهم من النار بعد دخولهم فيها ، فان ذلك لا يجوز - ههنا - لاجماع الأمة على أن كل مستحق للثواب لا بد أن يدخل الجنة ، ولا يخرج منها بعد دخوله فيها .

وقيل فيه وجه آخر يوافق ما قلناه في الآية الاولى ، وهو أن يكون المعنى «ان الذين سعدوا» بطاعات الله يدخلون الجنة خالدين فيها، واستثنى من جملتهم من كان مستحقاً للنار ، واراد الله عقابهم . ثم إخراجهم منها فكأنه قال خالدين فيها الا مدة مـا كانوا معاقبين في النار ، ذهب اليه الضحاك وهو يليق بقولنا في الارجاء .

وقوله « عطاء غير مجذوذ» يعني غير مقطوع - في قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك - يقال جذّه يجذه جذّاً فهو جاذ، وجذ الله أثرهم قال النابغة :

يجذّ السلوقي المضاعف نسجه ويوقد بالصفاح نار الحباحب[٢]

---

(١) سورة الحجر آية ٢٢ .

(٢) ديوانه : ٤٤ وتفسير القرطبي ٩ : ١٠٣ واللسان (حبحب) ، (سلق) ، (صفح) وروايته (تقد) بدل (يجذ) و (توقد) بدل (يوقد) .

ويقال جذه الله جذ الصليانة، وهي نبات. وقوله (عطاء) نصب على المصدر بما يدل عليه الأول كأنه قال اعطاهم النعيم عطاء غير مجذوذ .

قوله تعالى :

(فَلاَتَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ) (١١٠)

آية بلا خلاف .

نهى الله تعالى نبيه - والمراد به أمته - ان يكونوا في شك من عبادة هؤلاء يعني الكفار الذين تقدم ذكرهم، وانه باطل . و (المرية) - بكسر الميم وضمها - الشك مع ظهور الدلالة البينة . وأصله مري الضرع ليدر بعد دروره، فلا معنى له إلا العبث بفعله .

وقوله « مـا يعبدون إلا كما يعبد اباؤهم من قبل » أنهم مقلدون في عبادتهم الأوثان، كما كان آباؤهم كذلك .

وقوله « وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص » أخبـار منه تعالى انه يعطيهم - على جهة الوفاء - قسمتهم من خير أو شر على قدر استحقاقهم - في قول ابن عباس - وقال ابن زيد : ما يستحقونه من العذاب من غير ان ينقص منه شيء على وجه العقوبة بعد أن يوفوا ما حكم لهم به من الخير في الدنيا .

و (النصيب) القسم المجعول لصاحبه ومنه انصباء الورثة . والنصيب الحظ والنقص البخس والمنقوص المبخوس .

قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١١١) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى أنه أعطى موسى الكتاب يعني التوراة وإن قومه اختلفوا فيه يعني في صحة الكتاب الذي انزل اليه ، وأراد بذلك تسلية النبي ﷺ عن تكذيب قومه إياه وجحدهم للقرآن المنزل عليه ، فبين له أنه كذلك فعل قوم موسى بموسى ، فلا تحزن لذلك ، ولا تغتم له . ثم قال « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم » معناه ولولا خبر الله السابق بأنه يؤخر الجزاء الى يوم القيامة لما في ذلك من المصلحة ، لعجل الثواب والعقاب لأهله . (والكلمة) واحدة الكلم ولذلك ، يقال للقصيدة : كلمة . ثم أخبر عن حال كفار قوم النبي ﷺ أنهم لفي شك مما اخبرناك به مريب ، و(الريب) أقوى الشك . (والاختلاف) ذهاب كل واحد الى جهة غير جهة الآخر ، وهو على ثلاثة أوجه :

احدها – اختلاف النقيضين فهذا لا يجوز أن يصحا معاً ، فاحدهما مبطل لصاحبه .

والآخر اختلاف الجنسين ، كاختلاف المجتهدين في جهة القبلة ، فهذا يجوز أن يصحا ، لانه تابع للمصلحة ولا تناقض في ذلك ، ومنه اختلاف المجتهدين في الفروع على مذهب من قال بجوازه .

قوله تعالى :

(وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (١١٢) آية بلا خلاف .

القراءة :

اختلف القرّاء في قوله « وان كلا لما » على اربعة اوجه :

قرأ ابن كثير ونافع بتخفيف (إن) وتخفيف (لما) وقرأ ابن عامر وحمزة

وحفص عن عاصم بتشديدهما معـاً . وقرأ أبو عمرو والكسائي بتشديد الأولى وتخفيف الثانية .

وقرأ أبو بكر عن عاصم بتخفيف الاولى وتشديد الثانية .

اللغة والاعراب والمعنى :

وقيل في معنى (لمّا) بالتشديد خمسة أوجه :

أوّلهـا – قول الفراء إنها بمعنى (لمن ما) فاجتمعت ثلاث ميمات ، فحذفت واحدة ثم ادغمت الاولى في الثانية ، كما قال الشاعر :

وانـّي لمّا أصدر الامر وجهه اذا هو أعيا بالسبيل مصادره[١]

ثم تخفف ، كما قرأ بعض القراء : « والبغي يعظكم »[٢] فحذف احدى اليائين ذكره الفراء .

والثاني– ما اختاره الزجاج:أن(لمّا) بمعنى (إلا) كقولهم سألتك لما فعلت، ومثله « إن كل نفس لما عليها حافظ »[٣] لأنه دخله معنى ما كلهم إلا لنوفينّهم . وقال الفراء هذا لا يجوز إلا في التمييز ، لأنه لو جاز ذلك لجاز ان تقول جاءني القوم لمّا زيداً بمعنى الاّ زيداً ، هذا لا يجوز بلا خلاف .

الثالث – اختاره المازني : أنـّها هي المخففة شددت للتأكيد . قال الزجاج : هذا لا يجوز ، لانه انما يجوز تخفيف المشددة عند الضرورة، فأما تشديد المخففة، فلا يجوز بحال .

الرابع – حكاه الزجاج : لانها من لممت الشيء ألمه لمّاً إذا جمعته إلا أنهـا

---

(١) قائله العجاج تفسير الطبري ١٥ : ٤٩٤ وتفسير القرطبي ٩ : ١٠٥ ومجمع البيان ٣ : ٢٠٠
(٢) سورة النحل آية ٩٠ .
(٣) سورة الطارق آية ٤ .

بنيت على (فعلى) فلم تصرف نحو (تترى) كأنه قال وإن كلا جميعاً ليوفينهم .

الخامس - قراءة الزهري (لما) بالتنوين بمعنى شديداً ، كقوله « وتأكلون التراث اكلا لما » (١) .

واللام في قوله (لمـــا) يحتمل أن تكون لام القسم دخلت على (ما) التي للتوكيد ، ويحتمل أن تكون لام الابتداء دخلت على (ما) بمعنى الذي، كقوله « فانكحوا ما طاب لكم من النساء »(٢) ومثله « وان منكم لمن ليبطئن »(٣) قال الشاعر :

فلو ان قومي لم يكونوا أعزة   لبعد لقد لاقيت لا بد مصرعا (٤)

وحكي عن العرب اني لبحمد الله لصالح قال أبو علي من قرأ بتشديد (إن) وتخفيف (لما) فوجهه بين ، وهو انه نصب (كلا) بـ (إن) و (إن) تقتضي أن يدخل على خبرها أو اسمها لام ، فدخلت هذه اللام وهي لام الابتداء على الخبر في قوله « وان كلا لما » وقد دخلت الخبر لام اخرى وهي التي يتلقى بها القسم ، وتختص بالدخول على الفعل ويلزمها في اكثر الامر النونين، فلما اجتمعت اللامان واتفقا في تلقى القسم ، واتفقا في اللفظ فصل بينهما ، كما فصل بين (إن) واللام ، فدخلت (ما) لهذا المعنى، وان كانت زائدة للفصل ، كما جاءت النون - وإن كانت زائدة - في قوله « فاما ترين من البشر »(٥) وكما صارت عوضاً من الفعل في قولهم : أما لي ، فهذا بين ، ويلي هذا الوجه في البيان قول من خفف (ان) ونصب (كلا) وخفف (لما) ، كما قال الشاعر :

كأن ثدييه حقان (٦)

(١) سورة الفجر آية ١٩
(٢) سورة النساء آية ٣
(٣) سورة النساء آية ٧٢
(٤) تفسير الطبري ١٥ : ٤٩٨
(٥) سورة مريم آية ٢٦
(٦) الكتاب لسيبويه ١ : ٢٨٠ والفية ابن عقيل ١ : ٣٣٤ الشاهد ١٠٨ وتفسير الطبري ١٥ : ٤٩٧، وتمام البيت :

وصدر مشرق النحر   كأن ثدياه حقـــان

وأراد (كأنْ) المشددة ، فخفف ، واعمل ، لان سيبويه حكى عمن يثق به أنه سمع من العرب من يقول : ان عمراً لمنطلق ، قال وأهل المدينة يقرؤن « وان كلا لما جميع لدينا محضرون »[١] يخفون وينصبون ، ووجه النصب بها مع التخفيف ان (ان) مشبهة في نصبها بالفعل ، والفعل يعمل محذوفاً كما يعمل غير محذوف في نحو (لم يك زيد منطلقاً ، فلا تك منطلقاً) وكذلك « فلا تك في مرية » فاما من خفف (ان) ونصب (كلا) وشدد (لما) فقراءته مشكلة لأن (أن) اذا نصب بها وكانت مخففة كانت بمنزلة الثقيلة و(لما) اذا شددت كانت بمنزلة (إلا) فكذلك قراءة من شدد (لما) وثقل (ان) مشكلة، لانه كما لا يحسن أن تقول: ان زيد إلا منطلقاً فكذلك لا يحسن تثقيل(ان) وتخفيفها ويراد الثقيلة مع تثقيل(لما) فاما قولهم : نشدتك الله لما فعلت ، والا فعلت، فقال الخليل: معناه لتفعلن ، كما تقول : أقسمت عليك لتفعلن وإنما دخل (إلا ولما) لان المعنى الطلب، فكأنه قال : ما أسألك إلا فعل كذا ، فلم يذكر حرف النفي في اللفظ ، وإن كان مراداً، وليس في الآية معنى نفي ولا طلب، وضعف ابو علي الوجه الذي حكيناه من ان اصله (لمن ما) فادغم النون في الميم بعد ما قلبت ميماً . قال : لان الحرف المدغم ، إذا كان قبله ساكن نحو (يوم مالك) لم يقوّ الادغام فيه على أن يحرك الساكن الذي قبل الحرف المدغم، فاذا لم يجز ذلك فيه، وكان التغيير أسهل من الحذف، فانه لا يجوز الحذف الذي هو أجدر، في باب التغيير من تحريك الساكن على أنّ في هذه السورة ميمات أجتمعت في الادغام، أكثر مما اجتمعت في (لمن ما) ولم يحذف منها شيء نحو قوله «وعلى امم ممن معك»[٢] ولم يحذف شيء منها فبأن لا يحذف – ههنا – اجدر وحكي عن الكسائي أنه قال لا أعرف وجه التثقيل في (لما) قال ابو علي : ولم يبعد في ذلك ، قال أبو علي : ولو خفف مخفف (ان) ورفع (كلا) وثقل (لما) ويكون المعنى ما كل الا ليوفينهم ، كما قال « وان كلُّ ذلك لما متاع الحياة الدنيا»[٣] لكان ذلك أبين من النصب في (كل) وتثقيل

---

(١) سورة يس آية ٣٢
(٢) سورة هود آية ٤٨
(٣) سورة الزخرف آية ٣٥

(لما) و (كل) في الآية معرفة ، والمعنى وإن كل المكلفين ليوفينهم ربك أعمالهم أو كل المختلفين على ما تقدم ذكره كما يقولون: مررت بكل قائماً ، والتوفية بلوغ المقدار من غير نقصان ، والتوفية مساواة المقدار في معناه ، لأنه اذا ساواه في جنسه لم يجب به توفية .

المعنى

أخبر الله تعالى في هذه الآية انه يوفي جميع المكلفين ما يستحقونه على اعمالهم من الثواب والعقاب، لانه عالم بما فعلوه خبير به، لا يخفى عليه شيء من ذلك ومن ليس بعالم لا يمكنه ذلك ، لانه يجوز ان يكون قد خفي عليه كثير منه ، وهو تعالى لا يخفى عليه خافية .

قوله تعالى :

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (١١٣) آية بلا خلاف.

أمر الله النبي ﷺ وأمته أن يستقيموا كما أمرهم الله ، وكذلك من رجع الى الله والى نبيه « ولا تطغوا » يعني في الاستقامة ، فيخرجوا عن حدها بالزيادة على ما أمرهم فرضاً كان أو نفلاً . وقيل : معناه لا تطغينكم النعمة ، فتخرجوا من الاستقامة .

و (الاستقامة) الاستمرار في جهة واحدة ، وان لا يعدل يميناً وشمالاً . و (الطغيان) تجاوز المقدار في الفساد . والطاغي كالباغي في صفة الذم، وطغى الماء مشبه بحال الطاغي، وانما خص من تاب دون ان أسلم من أول حاله للتغليب في الاكثر ويدخل فيه الأقل على وجه التبع .

وقوله « انه بما تعملون بصير » اخبار منه تعالى أنه عالم بأعمالهم لا يخفى عليه شيء منها .

قوله تعالى :

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ) (١١٤) آية بلا خلاف.

نهى الله تعالى في هـذه الآية عباده المكلفين عن أن يركنوا الى الذين ظلموا نفوسهم وغيرهم . و(الركون) الى الشيء هو السكون اليه بالمحبة اليه والانصات اليه ، ونقيضه النفور عنه . وانمـا نهاهم عن الركون الى الظلمة لما في ذلك من الاستئناس به «فتمسكم النار» جواب النهي وبيان، لانهم متى خالفوا هذا النهي ، وسكنوا الى الظالمين نالتهم النار، ولم يكن لهم ناصر من دون الله يدفع عنهم ثم لا يجدون من ينصرهم ، ويدفع عنهم عـلى وجه المغـالبة ، والولي ضد العدو ، وجمعه أولياء . وقال الجبائي معنى « ثم لا تنصرون » انكم إن ركنتم الى الكفار والظالمين ، وسكنتم اليهم مستكم النار في الآخرة ثم لا تنصرون في الدنيـا على الكفار .

قوله تعالى :

(وَأَقِمِ الصَّلٰوةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ ٱللَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ ذٰلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) (١١٥) آية بلا خلاف .

قرأ أبو جعفر (زلفا) بضم اللام . أمر الله تعالى في هذه الآية نبيه ﷺ وأمة نبيه باقامة الصلاة ، واقامتهـا هو الاتيان بأعمال الصلاة عـــلى وجه التام في ركوعها وسجودها وسائر فروضها . وقيل اقامة الصلاة هو عمل على استواء كالقيام الذي هو الانتصاب في الاستواء . وقيل هو الدوام على فعلها من قولهم: ما قائم اي دائم واقف .

وقوله « طرفي النهار » يريد بها صلاة الفجر والمغرب – في قول ابن عباس والحسن وابن زيد والجبائي – وقال الزجاج يعني الغداة الظهر والعصر، وبه قال مجـاهد ، ومحمد بن كعب القرطي ، والضحاك . ويحتمل أن يريد بذلك صلاة الفجر والعصر ، لان طرف الشيء من الشيء وصلاة المغرب ليست من النهار .

وقوله « وزلفاً من الليل » قال ابن عبّاس ومجاهد وابن زيد : يريد العشاء الآخرة وقال الزجاج يعني المغرب والعشاء الآخرة . و (الزلفة) المنزلة وجمعها زلف قال العجاج :

ناج طواه الاين ممّا وجفا   طي الليالي زلفاً فزلفا[1]

قال الزجاج: ويجوز زلفاً بضم اللام، ونصبه على الظرف وهو واحد مثل الحلم، ويجوز أن يكون جمع زليف مثل قريب وقرب ، ومنه اشتقـاق المزدلفة لأن ازدلاف الناس اليها منزلة من عرفات .

ومن قال : المراد بـ (طرفي النهار) الفجر والمغرب ، قال ترك ذكر الظهر والعصر لأحد أمرين :

احدهما ترك ذكرهما لظهورهما في انها صلاة النهار ، والتقدير أقم الصلاة طرفي النهار مع الصلاة المعروفة من صلاة النهار .

والآخر – انها ذكرا على التبع للطرف الاخير، لانها بعد الزوال، فهي أقرب اليه . وقد قال الله تعالى « أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل »[2] ودلوكها زوالهـا .

---

(١) ديوانه : ٨٤ ومجاز القرآن ١/٣٠٠ وسيبويه ١ : ١٨٠ واللسان (زلف ، حقف ، سما ، وجف) والصحاح ، والتاج (زلف) يصف الشاعر بعيره . وبعده :

★ سماوة الهلال حتى احقوقفا ★

والاين التعب ، والوجف السرعة في السير . شبهه بالهلال . لعوجاجه ، عند علوه وصعوده .

(٢) سورة الاسرى آية ٧٨ .

وقوله «ان الحسنات يذهبن السيئات» قيل فيه وجهان :

احدهما - تذهب به على وجه التكفير اذا كانت المعصية صغيرة .

والآخر - ان المراد بالحسنات التوبة تذهب بالسيئة أي تسقط عقابها ، لانه لاخلاف في ان سقوط العقاب عند التوبة. وقد قيل ان الدوام على فعل الحسنات يدعو الى ترك السيئات فكأنها اذهبت بها .

وقوله «ذلك ذكرى للذاكرين» يعني ما ذكره من قوله « ان الحسنات يذهبن السيئات » فيه تذكار لمن تذكر به وفكّر فيه .

قوله تعالى :

(وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ) (١١٦)

آية بلا خلاف.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر على أذى قومه وتكذيبهم اياه ، والتجلد عليه ، وعلى القيام بما افترض عليه من اداء الواجب ، والامتناع من القبيح ، وبين له انه لا يضيع ولا يهمل أجر المحسنين على احسانهم بل يكافيهم عليه أتم الجزاء وأكمل الثواب ، و(الصبر) حبس النفس عن الخروج الى ما لا يجوز من ترك الحق ، وضده الجزع قال الشاعر :

فان تصبرا فالصبر خير مغبة وان تجزعا فالامر ما تريان[٣]

والصبر على الباطل مذموم ، قال الله تعالى « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم»[٢] ويعين على الصبر شيئان :

---

(١) مرهذ البيت في ١ : ٢٠٢ .
(١) سورة ص آية ٦ .

احدهما – العلم بما يعقب من الخير في كل وجه وعادة النفس له .

والثاني - استشعار ما في لزوم الحق من العز والأجر بطاعة الله . والصبر مأخوذ من الصبر المر ، لأنه تجرع مرارة الحق بحبس النفس عن الخروج الى المشتهى .

قوله تعالى :

(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٧) آية بلا خلاف .

معنى « فلولا كان » هلا كان ، ولم لا ، وألا كان، ومعناه النفي وتقديره لم يكن من القرون من قبلكم ، فهو تعجيب وتوبيخ لهؤلاء الذين سلكوا سبيل من كان قبلهم في الفساد نحو عاد وثمود ، وسائر القرون الذين مرّ ذكرهم في القرآن ، وأخبر الله بهلاكها « أولوا بقية ينهون عن الفساد في الارض » أي كان يجب أن يكون منهم قوم باقون في الارض ينهون عن الفساد في الارض مع إنعام الله عليهم بكمال العقل والقدرة ، وبعثة الرسل اليهم ، واقامة الحجج . وأولوا بقية هم الباقون ، فعجب الله نبيه كيف لم يكن منهم بقية في الارض يأمرون فيها بالمعروف وينهون فيها عن المنكر ، وكيف اجتمعوا على الكفر حتى استأصلهم الله بالعذاب والعقوبات لكفرهم بالله ومعاصيهم له ثم استثنا بقوله « الا قليلاً » والمعنى انهم هلكوا جميعاً الا قليلاً ممن انجى الله منهم ، وهم الذين آمنوا مع الرسل ، ونجوا معهم من العذاب الذي نزل بقومهم .

وقوله « واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين » معناه أنهم اتبعوا

التلذذ والتنعم بالاموال والنعم التي أعطاهم الله اياها، وقضوا الشهوات وذلك من الحرام . وبين انهم كانوا بذلك مجرمين عاصين لله تعالى .

وقال الفراء والزجاج: ان قوله « الا قليلاً » استثناء منقطع ، لأنه ايجاب لما تقدم فيه صيغة النفي وإنما تقدم تهجين لمخرج السؤال ، ولو رفع لجاز في الكلام. ومعنى « اترفوا فيه » اي عوّدوا الترفة بالتنعيم واللذة ، وذلك ان الترفة عادة النعمة قال الشاعر :

يهدي رؤس المترفين الصداد الى أمير المؤمنين الممتاد[1]

اي المسؤل، وأبطر بهم النعمة حتى طغوا وبغوا، وفي الآية دلالة على وجوب النهي عن المنكر ، لأنه تعالى ذمهم بترك النهي عن الفساد ، وانه نجا القليل بنهيهم عنه ، فلو نهى الكثير كما نهى القليل لما اهلكوا ، ومعنى « أولوا بقية » اصحاب جماعة تبقى من نسلهم ، والبقية ممدوحة يقال في فلان بقية أي فيه فضل وخير ، كأنه قيل بقية خير من الخير الماضي .

قوله تعالى :

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(١١٨) آية بلا خلاف.

أخبر الله تعالى انه لم يهلك أهل قرية فيما مضى ، ممن ذكر إهلاكهم مع أن أهلها او اكثرهم يفعلون الصلاح ، وانما اهلكهم اذا افسدوا كلهم او اكثرهم والاصلاح فعل الصلاح. وقوله «بظلم» فيه ثلاثة أوجه: اولها بظلم صغير ، فيكون منهم لأنه يقع مكفراً بما معهم من الثواب الكثير .

---

(١) قائلة رؤبة وقد مر في ٤ / ٦٣ من هذا الكتاب وهو تفسير الطبري ١٢ / ٧٩ (الطبعة الاولى) .

الثاني - بظلم كثير من قليل منهم، مع أن اكثرهم المصلحون، لان القليل لا يعتد به في جنب الكثير .

الثالث - ان المعنى بظلم منا، كاقال الله تعالى «إن الله لا يظلم الناس شيئاً»[١].

قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ★ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١١٩) آيتان في الكوفي والبصري تمام الاولى عند قوله مختلفين وهي آية فيما سوى ذلك .

هذه الآية تتضمن الاخبار عن قدرته تعالى بأنه لو شاء تعالى لجعل الناس أمة واحدة أي على دين واحد ، كما قال « إنا وجدنا آباءنا على أمة »[٢] وقال « ولو لا ان يكون الناس أمة واحدة»[٣] أي على دين واحد بأن يلجئهم الى الاسلام بأن يخلق في قلوبهم العلم بأنهم لو داموا على غير ذلك لمنعوا منه ، لكن ذلك ينافي التكليف ويبطل الغرض بالتكليف لأن الغرض به استحقاق الثواب .

وقوله « ولا يزالون مختلفين » معناه في الاديان كاليهود والنصارى والمجوس وغير ذلك من اختلاف المذاهب الباطلة في قول مجاهد وقتادة وعطا والاعمش والحسن في رواية، وفي رواية أخرى عن الحسن أنهم يختلفون بالارزاق والاحوال ويتحيز بعضهم لبعض . والاول أقوى .

---

(١) سورة يونس آية ٤٤ .
(٢) سورة الزخرف آية ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) سورة الزخرف آية ٣٣ .

والاختلاف هو اعتقاد كل واحد نقيض ما يعتقده الآخر ، وهو ما لا يمكن أن يجتمعا في الصحة وان امكن ان يجتمعا في الفساد ، ألا ترى أن اليهودية والنصرانية لا يجوز أن يكونا صحيحين مع اتفاقهما في الفساد، ويجوز ان يكون في اختلاف اهل الملل المخالفة للاسلام حق، لأن باعتقاد اليهودي ان النصرانية باطلة واعتقاد النصراني ان اليهودية فاسدة حق .

وقوله «الا من رحم ربك» استثناء منقطع، ولذلك جعل رأس آية، ولو كان متصلاً لم يجز ذلك ، وانما كان استثناء منقطعاً ، لان الاول على انهم يختلفون بالباطل ، وليس كذلك من رحم لاجتماعهم على الحق . والمعنى « ولا يزالون مختلفين » بالباطل « الا من رحم ربك » بفعل اللطف لهم الذي يؤمنون عنده ويستحقون به الثواب ، فان من هذه صورته ناج من الاختلاف بالباطل .

وقوله « ولذلك خلقهم » قيل في معناه قولان :

احدهما - قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ان المراد وللرحمة خلقهم وليس لاحد ان يقول لو أراد ذلك لقال: ولتلك خلقهم لأن الرحمة مؤنثة اللفظ وذلك ان تأنيث الرحمة ليس بتأنيث حقيقي، وما ذلك حكمه جاز ان يعبر عنه بالتذكير ، ولذلك قال الله تعالى « ان رحمة الله قريب من المحسنين »[١] ولم يقل قريبة على انه لا يمتنع ان يكون المراد : ولأن يرحم خلقهم ، لأن الرحمة تدل على ذلك ، فعلى هذا يكون التذكير واقعاً موقعه .

الثاني - ان يكون اللام لام العاقبة ، والتقدير أنه خلقهم وعلم أن عاقبتهم تؤل الى الاختلاف المذموم ، كما قال « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً »[٢] وكما قلنا في قوله « ولقد ذرانا لجهنم »[٣] وهو المروي عن ابن عباس والحسن وعطاء ومالك ، وقد يكون اللام بمعنى (على) كقولك اكرمتك على

---

(١) سورة الاعراف آية ٥٦ . (٢) سورة القصص آية ٨ .
(٣) سورة الاعراف آية ١٧٩ .

برّك بي اي لبرّك بي ، فيكون التقدير ، وعلى ذلك خلقهم، ولا يجوز ان يكون اللام لام الغرض ، ويرجع الى الاختلاف المذموم ، لان الله تعالى لا يخلقهم ويريد منهم خلاف الحق ، لانــه صفة نقص يتعالى الله عن ذلك . وايضاً فلو أراد منهم ذلــك الاختلاف ، لكانوا مطيعين له ، لأن الطاعة هي موافقة الارادة والأمر ، ولو كانوا كذلك لم يستحقوا عقاباً . وقد قال تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »[١] . فبيّن تعالى انه خلقهم وأراد منهم العبادة ، فكيف يجوز مع ذلك ان يكون مريداً لخلاف ذلك ، وهل هذا الا تناقض؟! يتعالى الله عن ذلك .

على ان في اختلاف أهل الضلال مايريده الله، وهو اختلاف اليهود والنصارى في التثليث، واختلاف النصارى لليهود في تأبيد شرع موسى .

وقيل ان معنى الاختلاف ههنا هو مضي قوم ومجيء قوم آخرين، كما قال «هو الذي جعل الليل والنهار خلفة»[٢] . وهذا الاختلاف يجوز ان يريده الله .

وقال الحسن قوله « ولذلك خلقهم» مردود على قوله « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون»[٣] والمعنى خلقهم ليكون عدله فيهم ، هذا، لا أن يهلكهم وهم مصلحون .

وقوله « ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة » على الايمان ، وهذه مشيئة القدرة « ولذلك خلقهم » ان تكون مشيئته وقدرته عليهم، «ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم » قال ليخالف اهل الحق اهل الباطل ، وهو كقوله « لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير »[٤] .

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ .
(٢) سورة الفرقان آية ٦٢ .
(٣) سورة هود آية ١١٨ .
(٤) سورة الشورى آية ٧ .

ويقوي هذا التأويل قوله « وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وانا بريء مما تعملون »[١] . وقوله «قل يا ايها الكافرون لا اعبد ما تعبدون ولا انتم عابدون ما اعبد »[٢] ، فيكون الله خلقهم ليخالفوا الكافرين والمبطلين. وقال عمر عن الحسن: ان معنى «ولذلك خلقهم» ليكون أمر الكفار مختلفاً بكفرهم وتكذيبهم . وقال البلخي: أخبر أنهم لا يزالون مختلفين إلا من رحم ، فانهم غير مختلفين ، هذا معنى الآية ، والا فلا معنى لها . ثم قال «ولذلك خلقهم » اي لان يكونوا أمة واحدة متفقين غير مختلفين .

وقوله « وتمت كلمة ربك لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين » ، معناه التحذير لكل احد ان يكون ممن تملأ جهنم به، وتمامها وقوع مخبرها على ما تقدم بها، وهذا يمين أقسم الله به، وتقديره يميناً لا ملأن ، كما تقول : حلفي لا ضربنك، وبدا لي لأضربنك . وكل فعل كان تأويله كتأويل بلغني ، أو قيل لي أو انتهى الي ، فان (اللام) و (ان) يصلحان فيه ، فتقول بدا لي لأضربنك ، وبدا لي ان اضربك ، فلو قيل وتمت كلمة ربك أن يملأ جهنم من الجنة والناس كان صواباً .

قوله تعالى :

(وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هٰذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وذِكْرَى لِلمُؤْمِنِينَ) (١٢٠) آية بلا خلاف .

قوله « وكلا » نصب على المصدر ، وتقديره، كل القصص نقص عليك . وقال قوم : نصب على الحال ، فقدم الحال قبل العامل ، كما تقول: كلا ضربت، ويجوز ان يكون نصباً على انه مفعول به، وتقديره: وكل الذي تحتاج اليه نقص عليك،

---

(١) سورة يونس آية ٤١ .
(٢) سورة الكافرون آية ١ - ٢ .

ويكون «ما نثبت به فؤادك» بدلاً منه – في قول الزجاج - والقصص الخبر عن الأمور بما يتلو بعضه بعضاً ، مأخوذاً من قصه يقصه اذا اتبع أثره ، ومنه قوله «قالت لاخته قصيه»[1] أي اتبعي اثره . والانباء جمع نبأ ، وهو الخبر بما فيه عظم الشأن ، وكذلك يقولون لهذا الأمر نبأ ، والتثبيت تمكين اقامة الشيء ثبته تثبيتاً اذا مكنه ، ومعنى «ما نثبت به فؤادك» يحتمل ان يكون ذلك بتسكينه ، ويحتمل ايضاً ان يكون بالدلالة على وجوده . والفؤاد القلب مأخوذ من المفتاد ، وهو المشوي قال النابغة :

كان خارجاً من حيث صفحته سفود شرب نسوه عند مفتأد[2] .

ومعنى «وجاءك في هذه الحق» قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد : يعني في هذه السورة . وقال الجبائي يعني جاءك في هذه الأنباء . وقال الزجاج : يعني في هذه الأزمان . وقال قتادة : معناه في هذه الدنيا . والأول أصح ، والتقدير وجاءك في هذه السورة الحق مع ما جاءك في سائر السور .

ومعنى (الآية) الاعتبار بقصص الرسل لما فيه من حسن صبرهم على أمتهم واجتهادهم في دعائهم الى عبادة الله مع الحق الذي من عمل عليه نجا، ومع الوعظ الذي يلين القلب لسلوك طريق الحق ، ومع تذكر الخير والشر ، وما يدعو اليه كل واحد منهما في عاقبة النفع أو الضرر .

وقوله «وموعظة» يعني جاءك موعظة تعظ الجاهلين بالله .

وقوله (وذكرى للمؤمنين » معناه تذكرة تذكر المؤمنين بالله ورسله كي لا يفعلوا غير الواجب .

---

(١) سورة القصص آية ١١ .

(٢) اللسان (فأد) ومجمع البيان ٣ / ٢٠٣ .

قوله تعالى :

(وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ) (١٢١) وَٱنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢). آيتان في الكوفي والبصري ، وإحدى المدنيين تمام الاولى انا عاملون ، وآية فيما سوى ذلك .

أمر الله نبيه ﷺ ان يقول للكفار الذين لا يصدقون بتوحيد الله ولا يعترفون بنبوة نبيه ﷺ « اعملوا على مكانتكم » والمكانـة الطريقة التي يتمكن من العمل عليها ، ويقال : له مكانة عند السلطان - أي جاه ، وقدر - وهذا خرج مخرج التهديد ، وهو مثل قوله « اعملوا ما شئتم »[١] .

وقوله « إنا عاملون » معناه إنا عاملون على الايمان الذي أمرنا الله بـه ودعانا اليـه .

وقوله « وانتظروا » أي توقعوا ، وقد فرق بينهما بأن التوقع طلب ما يقدر أنه يقع ، لأنه من الوقوع . والانتظار طلب ما يقدر النظر اليه ، لأنه من النظر . والفرق بين الانتظار والترجي ، أن الترجي للخير خاصة ، والانتظار في الخير والشر . ولو دخلت الفاء في قوله «إنا» لأفاد أن الثاني لأجل الأول وحيث لم تدخل لم تفد ذلك .

ومتعلق الانتظار يحتمل أمرين :

احدهما - انتظروا ما يعدكم الشيطان من الغرور ، فانا منتظرون ما يعدنا ربنا من النصر والعلوّ ، في قول ابن جريج .

---

(١) سورة حم السجدة آية ٤٠ .

الثاني - انتظروا ما يعدكم ربكم على الكفر من العذاب ، فانا منتظرون ما يعدنا على الايمان من الثواب .

قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمٰوات وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (١٢٣) آية بلا خلاف .

قرأ نافع وحفص يرجع - بضم الياء وفتح الجيم – وقرأ أهل المدينة ، وابن عامر ، وحفص، ويعقوب (يعملون) بالياء – ههنا، وفي النمل . الباقون بالتاء .

من ضم الياء فلقوله « ثم ردوا الى الله مولاهم الحق »[1] ، والمعنى رد أمرهم الى الله .

ومن فتح الياء فلقوله « والأمر يومئذ لله »[2] ، والمعنيان متقاربان .

ومن قرأ بالتاء في « تعملون » جعل الخطاب للنبيّ ولأمته ، وهو أعمّ فائده .

ومن قرأ باليـــاء في « يعملون » جعل ذلك متوجهاً الى من تقدم ذكره من الكفار ، وفيه ضرب من التهديد .

أخبر الله تعالى في هذه الآية بأن له غيب السموات والارض ، وخص الغيب بذلك لاحد امرين :

احدهما – لان ذلك يدل على ان له شهادة ايضاً .

---

(١) سورة الانعام اية ٦٢ ، وفي سورة يونس آية ٣٠ «وردوا الى الله» .
(٢) سورة الانفطار آية ١٩ .

الثاني – لعظم شأن الغيب الذي له . ومن كان له الغيب كان له الشهادة ، والغيب كون الشيء بحيث لا يلحقه الحس ، ومنه « عالم الغيب والشهادة »[١] . أي عالم الموجود والمعدوم ، وما يغيب عن احساس الناس وما يظهر لها، ومعنى « واليه يرجع الأمر كله » أي يذهب الى حيث ابتدأ منه، فرجوع الأمر الى الله بالاعادة بعد النشأة الاولى . وقيل ترجع الأمور الى ان لا يملكها سواه تعالى – في قول أبي علي الجبائي .

وقوله « فاعبده » أي وجه عبادتك اليه وحده « وما ربك بغافل عما تعملون» فالغفلة السهو ، الا ان الغفلة يغلب عليها ان تكون بعد اليقظة، كالنوم بعد الانتباه، والسهو نقيض الذكر من غير علة في الصفة. والمعنى انه ليس ربك يا محمد ﷺ بساه عن اعمال عباده ، بل هو عالم بها ومجاز كلا على ما يستحقه من ثواب أو عقاب ، فلا يحزنك إعراضهم عنك ، وترك قبولهم منك . وقال كعب الا حبار خاتمه التوراة خاتمه هود .

---

(١) سورة التوبة آية ٩٥ ، ١٠٦ وسورة المؤمنون آية ٩٣ ، وسورة الزمر آية ٤٦ ، وسورة الجمعة آية ٨ .

(١٢) سورة يوسف

مكية في قول مجاهد ، وقتادة ،
وهي مئة واحدى عشر آية بلا خلاف في ذلك

بسم الله الرحمن الرحيم

(الٓر تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ) (١) آية بلا خلاف.

لم يعدوا (الر) آية ، لأنه على حرفين ، ولا يشاكل رؤوس الآي ، فيعد من الفواصل بالوجهين ، لأنه بالحرفين يجري مجرى الاسماء الناقصة . وإنما يؤمّ بالفواصل التام ، وانما يعد (طه) لأنه يشبه رؤوس الآي . وقد بينا فيما تقدم اختلاف المفسرين في مبادىء السور بهذه الحروف [١] . وقلنا أن أقوي الأقوال قول من قال إنها اسماء للسور ، فلا وجه ، لاعادة القول فيها .

قوله «تلك آيات» قال قوم : هو اشارة الى مــا تقدم من ذكره السورة في قول « الر » كأنه قال سورة يوسف « تلك آيات الكتاب المبين » .

الثاني - انه اشارة الى ما يأتي من ذكرها على وجه التوقع لها . وقال قوم :

---

(١) انظر ١ / ٤٧ - ٥٠ ، ٢ / ٣٨٨ ، ٤ / ٣٦٧ ، ٥ / ٣٨١ ، ٥١١ .

معناه هذه تلك الآيات التي وعدتم بها في التوراة ، كما قال «الم ذلك الكتاب المبين» معناه المظهر لحلال الله وحرامه والمعاني المرادة به، وهو قول مجاهد وقتادة، ويروي عن معاذ أنه قـــال (المبين) قال بين الحروف التي سقطت عن ألسن الاعاجم ، وهي ستة يعني حروف الحلق .

والبيان هو الدلالة . وقال الرماني البيان : إظهار المعنى من الطريق التي من جنسه . والبرهان إنما هو إظهار صحة المعنى بما يشهد به ، وإنما سميت (آيات) لما فيها من الدلالة القاطعة على صحة ما تضمنته الآية الدالة .

قوله تعالى :

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنـــاً عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونـ) (٢)

آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى أنه انزل هـــذا الكتاب قرآناً عربياً لكي يعقلوا معانيه وأغراضه ، وسمّاه (قرآناً) لما تضمن بمجموع خبر يوسف وغير ذلك . و(القرآن) كلام في أعـــلا طبقة البلاغة ، ووجه بلاغة القرآن كونه في نهاية التلاؤم المنافي للتنافر في تأليف اللفظ والمعنى: مع تشاكل المقاطع في الفواصل بمايقتضيه المعنى ومع تصريف القول على احسن ما تصرف به المعنى .

والعقل مجموعة علوم يتمكن معهـــا من الاستدلال بالشاهدين على الغائب ، ويفصل به بين الحسن والقبيح . ثم يجري على كل مـــا يعقله الانسان في نفسه من المعاني .

وفي الآية دليل على ان كلام الله محدث، لانه وصفه بالانزال وبأنه عربي، ولا يوصف بذلك القديم .

وفيه دلالة على أن القرآن غير الله ، لأنه وصفه بأنه عربي، ومن يزعم أن الله عربي ، فقد كفر، وما كان غير الله فهو محدث .

والهاء في قوله « انا أنزلناه » كناية عن الكتاب الذي تقدم ذكره . قال الزجاج: ويجوز ان يكون المعنى إنا انزلنا خبر يوسف، وقصته، لأن علماء اليهود، قالوا لكبراء المشركين : سلوا محمداً صلى الله عليه وآله لم انتقل يعقوب من الشام الى مصر، وعن قصة يوسف ، فانزل الله الآية ودليله قوله « لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين .

قوله تعالى :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذَا ٱلْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلْغَافِلِينَ) (٣) آية بلا خلاف .

أخبر الله انه يقص على نبيه احسن القصص، و(القصص) يتعدى بحرف الجر في عليك لان معناه يتلو بعض الحديث بعضاً ، ولو قال : نخبرك ، لتعدى بنفسه وقوله « أحسن القصص » يدل على ان الحسن يتفاضل ويتعاظم ، لأن لفظ أفعل حقيقتها ذلك ، وانما يتعاظم بكثرة استحقاق المدح عليه .

وقوله « بما أوحينا اليك هذا القرآن » دخلت الباء في بما اوحينا ، لتبين أن القصص يكون قرآناً وغير قرآن ، والقصص - ههنا - بالوحي : القرآن كأنه قال أوحينا اليك هذا القرآن ، ونصب القرآن بايقاع الوحي عليه ، وكان يجوز فيه الجر على البدل من (ما) والرفع على ان يكون جواب (ما) (هذا) في قول الزجاج ، ولم يقرأ بغير النصب .

وقوله «وان كنت من قبله لمن الغافلين » بمعنى كنت يا محمد صلى الله عليه وآله قبل وحينا اليك غافلاً عن الاحكام التي ذكرناها في القرآن حتى أتيناك بها، ودللناك عليها ، ولم تكن تهتدي اليها . وقيل معناه من الغافلين عن قصة يوسف وأخوته ، حتى أخبرناك بها .

قوله تعالى :

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) (٤) آية بلا خلاف.

قرأ ابن عامر وابو جعفر «يا أبت» بفتح التاء في جميع القرآن. الباقون بكسر التاء، وابن كثير يقف بالهاء. الباقون يقفون بالتاء، وقرأ ابو جعفر أحد عشر وتسعة عشر بسكون العين فيها. الباقون بفتحها.

العامل في (إذ) أحد أمرين: احدهما - اذكر «اذ قال يوسف». والثاني - نقص عليك «اذ قال»، في قول الزجاج، ولا يكون على هـذا الوجه ظرفاً للقصص في معنى نذكره، ويجوز في «يا أبت» ثلاثة أوجه من الاعراب:

احدها - الكسر على حذف ياء الاضافة.

الثاني - (ياأبت) بفتح التاء على حذف الألف المنقلبة عن ياء الاضافة، كأنه أراد يا أبتا، فحذف الالف كما تحذف الياء، فتبقى الفتحة دالة على الالف، كما ان الكسرة دالة على الياء، قال رؤبة:

* يا أبتا علّك أو عساكا [1] *

فلما كثرت هذه الكلمة في كلامهم ألزموه القلب، قال ابو علي الفارسي: ويحتمل ان يكون مثل يا طلحة اقبل، ووجهه ان الاسماء التي فيها تاء التأنيث أكثر ما ينادى مرخماً، فلما كان كذلك رد التاء المحذوفة في الترخيم وترك الامر يجري على ما كان يجري عليه في الترخيم من الفتح، فلم يعتد بالهاء، واقحامها كما قالوا: واجمعت اليمامة يريدون أهل اليمامة، قالوا: أجمعت أهل اليمامة، فلم يعتدوا برد اهل.

---

(١) تفسير القرطبي ٩ : ١١٩ وصدره :

★ تقول بنتي قد انى اناكا ★

الثالث – يا أبة بضم الهاء في قول الفراء ولم يجره الزجاج ، قال : لأن التاء عوض من ياء الاضافة . قال الرماني هذا جائز لأن العوض لا يمنع من الحذف ، والوقف يجوز على التاء، لان الاضافة مقدّرة بعدها، وان قدر على حذف الالف لم يجز الوقف ، الا بالتاء وان قدر على الاقحام جاز الوقف كقول النابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل اقاسيه بطيء الكواكب[1]

وانما دخلت الهاء في (يا أبت) للعوض من ياء الاضافة اذ يكثر في النداء ، مع لزوم معنى الاضافة، فكان أحق بالعلامة لهذه العلة. وقال أبو علي: إنما وقف ابن كثير بالهاء ، فقال يا أبة ، لأن التاء التي للتأنيث تبدل منها الهاء في الوقف ، ولم يجز على تقدير الاضافة ، لأنه اذا وقف عليها سكنت للوقف واذا سكنت كانت بمنزلة ما لا يراد به الاضافة فأبدل منها الهاء كما إذا قال يا طلحة أقبل بفتح التاء ، واذا وقف عليها أبدل الهاء ياء .

وإنما – أعاد ذكر «رأيتهم» لامرين: احدهما – للتوكيد حيث طال الكلام. الثاني – ليدل انه رآهم ورأى سجودهم ، وفي معنى سجودهم قولان :

احدهما – هو السجود المعروف على الحقيقة تكرمة له لا عبادة له .

الثاني – الخضوع – في قول ابي علي – كما قال الشاعر:

ترى الا كم فيه سجدا للحوافر[2]

وهو ترك للظاهر، وقال الحسن: الاحد عشر اخوته، والشمس والقمر أبواه، وانما قال ساجدين بالياء والنون ، وهو جمع ما لا يعقل ، لأنه لما وصفها بفعل ما يعقل من السجود أجرى عليها صفات ما يعقل ، كما قال «يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم»[3] لما أمروا امر من يعقل .

---

(١) مر تخريجه في ٥ : ٣٦٨ .
(٢) مر هذا الشعر في ١ : ١٤٨ ، ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٤ : ٢٣٣ ، ٣٨٣ .
(٣) سورة النمل اية ١٨ .

و(كوكباً) منصوب على التمييز و (أحد عشر) الاسمان جعلا اسماً واحداً ، وكذلك الى تسعة عشر ، واللغة الجيدة عند البصريين فتح العين ، وحكي سكون العين ، وحكى الزجاج احدى عشر وهي لغة ردية .

قوله تعالى :

(قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (٥) آية بلا خلاف .

قرأ الكسائي الا أبا الحارث وقتيبة، والعبسي ،وابن اليزيدي بامالة «رؤياك» والرؤيا في جميع القرآن، وروى ابو الحارث فتح « رؤياك» وامالة الباقي . وقرأ قتيبة امالة «الرؤيا» ونصب «رؤياك» .

وقرأ خلف في اختياره بامالة ما فيه ألف ولام . الباقون بالتفخيم .

وخفف الهمزة في جميع ذلك أبو جعفر ، وورش ، والسموني ، وشجاع والترمذي في الادراج ، إلا ان أبا جعفر يدغم الواو في الياء فتصير ياء مشددة ، قال ابو علي النحوي (الرؤيا) مصدر كالبشرى والسقيا والبقيا والشورى إلا انه لما صار اسماً لهذا التخيل في المنام جرى مجرى الاسماء ، كما أن (درّ) لما كثر في كلامهم في قولهم لله درك جرى مجرى الاسماء، وخرج من حكم الاعمال: فلا يعمل واحد منهما اعمال المصدر ، ومما يقوي خروجه عن أحكام المصادر تكسيرهم لها (دري) فصادر بمنزلة (ظلم) والمصادر في الاكثر لا تكسر ، والرؤيا على تحقيق الهمزة ، فان حذفت قلبتها في اللفظ واواً ولم يدغم الواو في الياء ، لان الواو في تقدير الهمزة فهي لذلك غير لازمة ، فلا يقع الاعتداد بها فلم تدغم ، وقد كسر اوّلها قوم فقالوا (ريا) فهؤلاء قلبوا الواو قلباً لا على وجه التخفيف ، ومن ثم كسروا الفاء ، كما كسروا من قولهم : قرن لوى وقرون لي .

في هذه الآية حكاية ما أجاب به يعقوب يوسف حين قصّ عليه رؤياه ومنامه، فقال له «يا بنيّ لا تقصص رؤياك على أخوتك» أي لا تخبرهم بها فانك إن أخبرتهم بذلك حسدوك وكادوك واحتالوا عليك، وانما قال ذلك لعلمه بأن تأويل الرؤيا أنهم يخضعون له .

وقوله «يا بني» فيه ثلاث يا آت، الياء الاصلية، وياء الاضافة، وياء التصغير. وحذفت ياء الاضافة اجتزاء بالكسرة وادغمت احدى اليائين في الاخرى. وفتح الياء وكسرها لغتان . وانما صغر (بني) مع عظم منزلته ، لانه قصد بذلك صغر السن ، ولم يقصد به تصغير الذم .

والرؤيا تصور المعنى في المنام على توهم الابصار، وذلك أن العقل مغمور بالنوم، فاذا تصور الانسان المعنى توهم أنه يراه .

والاخ المساوي في الولادة من أب او أم أو منهما، ويجمع أخوة وآخاء. والكيد طلب الغيظ بأذى الطالب لغيره كاده يكيد كيداً ، فهو كائد .

وقوله «ان الشيطان للانسان عدوّ مبين» اخبار منه تعالى بأن الشيطان معاد للانسان، ويلقى العداوة بينهم ، واللام في قوله (لك كيداً) لام التعدية، كما يقال قدمت له طعاماً ، وقدمت اليه طعاماً . وقال قوم: هو مثل قولهم شكرته وشكرت له ، لانه يقال كاده يكيده ، وكاد له .

وحكى الكسائي أن قوماً يقولون : (الرّيا) بكسر الراء وتشديد الياء فيقلبون الهمزة واواً ويدغمون الواو في الياء . و (رؤيا) فيها أربع لغات بضم الراء مع الهمزة وبالواو بلا همزة. وقد قرىء بهما، وبضم الراء والادغام. وبكسر الراء ، ولا يقرأ بهاتين .

قوله تعالى :

(وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ

وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْحٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(٦) آية بلا خلاف .

هذه حكاية ما قال يعقوب لابنه يوسف (ع) وقوله له ان الله يجتبيك ، ويختارك ، ويصطفيك ويكرمك بذلك ، كما أكرمك بأن اراك في منامك هذه الرؤيا ، فوجه التشبيه وهو اعطاء الرؤيا باعطاء الاجتباء مع ما انضاف اليه من الصفات الكريمة المحمودة التي ذكرها . والاجتباء إختيار معالي الأمور للمجتبى مثل ما اختاره الله تعالى ليوسف من الخصال الكريمة والأمور السنية ، وقال الحسن: اجتباه الله بالنبوّة، وبشره بذلك . وأصله من جبيت الشيء اذا اخلصته لنفسك ، ومنه جبيت الماء في الحوض .

وموضع الكاف من و (كذلك) نصب ، والمعنى مثل ما رأيت تأويله يجتبيك ربك .

« ويعلمك من تأويل الاحاديث » معناه أنه تعالى يعرفك عبارة الرؤيا – في قول قتادة ، ومجاهد – وذلك تأويل أحاديث الناس عما يرونه في منامهم ، وقيل كان أعبر الناس للرؤيا، ذكره ابن زيد . وقال الزجاج ، والجبائي : معناه يعلمك تأويل الاحاديث في آيات الله تعالى ودلائلة على توحيده ، وغير ذلك من أمور دينه . والتأويل في الأصل هو المنتهى الذي يؤل اليه المعنى . وتأويل الحديث فقهه الذي هو حكمه ، لأنه اظهار ما يؤل اليه أمره مما يعتمد عليه وفائدته .

وقوله « ويتم نعمته عليك » فاتمام النعمة هو أن يحكم بداومها على اخلاصها من شائب بها فهذه النعمة التامة بخلوصها مما ينغصها، ولا تطلب الا من الله تعالى لانه لا يقدر عليها سواه . وقوله « كما اتمها على ابويك من قبل ابراهيم واسحاق » اخبار من يعقوب ليوسف أن الله تعالى يديم عليه هذه النعمة ، كما أدامها على أبويه قبله : ابرهيم وإسحق، واصطفائه إياهما وجعله لهما نبيين رسولين الى خلقه

ثم أخبر مع ذلك أن الله تعالى عليم بمن يصلح أن يجتبى، حكيم في اجتبائه من يجتبيه واضع للشيء في موضعه، وفي غير ذلك من افعاله. قال الفراء: قوله «وكذلك يجتبيك ربك» جواب لقوله إني رأيت أحد عشر كوكبا، فقيل له، وهكذا يجتبيك ربك (فكذلك، وهكذا) سواء في المعنى، وقال ابن اسحاق إنما قص الله تعالى قصة يوسف علي محمد (ﷺ) ليعلمه أنه بغى عليه أخوته وحسدوه، فيسليه بذلك من بغي قومه عليه وحسدهم اياه.

قوله تعالى:

(لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ) (٧)

آية بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وحده «آية للسائلين» على التوحيد الباقون «آيات» على الجمع. قال أبو علي النحوي من أفرد جعل شأنه كله آية. ويقوي ذلك قوله «وجعلنا ابن مريم وامه آية»[١]، فأفرد، وكل واحد منهما على انفراده يجوز أن يقال آية، فافرد مع ذلك، ومن جمع جعل كل واحد من احواله آية، ومن جمع على ذلك على أن المفرد المنكر في الايجاب يقع دالا على الكثرة كما يكون ذلك في غير الايجاب قال الشاعر:

فقتلا بتقتيل وضرباً بضربكم جزاء العطاش لاينا م من الثار[٢]

اللام في قوله «لقد» هي اللام التي يتلقى بها القسم. أقسم الله تعالى في هذه الآية أنه كان في يوسف وفي اخوته آيات. والآية الدلالة على ما كان من الامور العظيمة. والآية والعلامة والعبرة نظائر في اللغة. وقال الرماني: الفرق بين الآية والحجة: أن الحجة معتمد البينة التي توجب الثقة بصحة المعنى. والآية تكشف عن المعنى

---

(١) سورة المؤمنون آية ٥١

(٢) مجمع البيان ٣ : ٢١٠

الذي فيه أعجوبة . ووجه الآية في يوسف واخوته أنهم نالوه للحسد بالأذى مع أنهم أولاد الانبياء : يعقوب واسحاق وابراهيم ، فصفح وعفا ، وأحسن ورجع الى الأولى ، وكان ذلك خروجا عن العادات .

وقال الزجاج : معناه بصيرة للذين سألوا النبي ﷺ فانبأهم بقصة يوسف — وهو ﷺ لم يقرأ كتاباً ، ولم يعلمه إلا من جهة الوحي — جوابا لهم حين سألوه . وفي يوسف لغتان ضم السين وكسرها ، وكذلك يونس بضم النون ، وكسرها ، والقراء على الضم فيهما ، وحكى قطرب فتح النون في يونس وهي شاذة .

قوله تعالى :

(إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ) (٨) آية بلا خلاف.

قرأ ابن كثير ونافع والكسائي «مبين اقتلوا» بضم التنوين . الباقون بكسره قال أبو علي: من ضم التنوين اتبع حركة التنوين ضمة الهمزة بعده ، لان تحريكه ملزم لالتقاء الساكنين ، كما قالوا مذ به وفي ظلمات فاتبعوا الضمة وكذلك « مبين اقتلوا » « وقالت اخرج » ، ومن كسر لم يتبع، وكسر على أصل الحركة لالتقاء الساكنين في الامر الاكثر .

والعامل في (اذا) اذكر ، وتقديره اذكر إذ قالوا ليوسف . ويحتمل أن يكون العامل فيه ما في الآية الاولى من قوله « لقد كان في يوسف وأخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف » .

وفي الآية اخبار عما قـــالت أخوة يوسف حين سمعوا منام يوسف وتأويل يعقوب إياه . وقولهم : ان يوسف وأخاه لابيه وأمه ، وهو ابن يامين « احب الى أبينا » يعقوب « منا » مع انا عصبة أي جماعة ، والحب ضد البغض ، والحب

– بفتح الحاء – سمي به ، لانه مما يحب ، والحب – بكسر الحاء – المفرط لما فيه من الحب ، والاحباب ان يبرك البعير فلا يثور ، لانه يحب البروك والمحبة ، على ضربين :

احدهما – المحبة التي هي ميل الطباع .

والثاني – ارادة المنافع .

والفرق بين المحبة والشهوة أن الانسان يحب الولد ، ولا يشتهيه بأن يميل طبعه اليه ويرق عليه ويريد له الخير . والشهوة منازعة النفس الى ما فيه اللذة . والعصبة الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض ، وقولهم « ونحن عصبة » أي جماعة يعين بعضها البعض ، وكانوا عشرة . والعصبة يقع على الجماعة من عشرة إلى خمسة عشر ، ولا واحد له من لفظه ، كالرهط والقوم والنفر .

وقوله « ان ابانا لفي ضلال مبين » معناه الاخبار عن قولهم ان ابانا في ذهاب عن طريق الحق والصواب الذي فيه التعديل بيننا في المحبة . وقيل : انهم أرادوا انه غلط في تدبير أمر الدنيا إذ كانوا انفع له من يوسف وأخيه من أمه وأبيه إذ كانوا يقومون بأمواله ومواشيه ، ولم يريدوا الضلال في الدين ، لأنهم لو أرادوا ذلك ، لكانوا كفاراً ، وذلك خلاف الاجماع .

واكثر المفسرين على ان اخوة يوسف كانوا انبياء ، وقال قوم : لم يكونوا كذلك ، وهو مذهبنا ، لأن الأنبياء لا يجوز ان تقع منهم القبائح ، وخاصة ما فعلوه مع أخيهم يوسف من طرحه في الجب ، وبيعهم إياه بالثمن البخس ، وادخالهم الغم به على أبيهم يعقوب ، وكل ذلك يبين أنهم لم يكونوا أنبياء . وقال البلخي : ذهب قوم الى أنهم لم يكونوا في تلك الحال بلغوا الحلم ، وقد يقع مثل ذلك ممن قارب البلوغ ، وان لم يبلغ ، ويعاتب عليه ويذم ، ويضرب على فعله .

ومن قال : كانوا بالغين غير انهم لم يكونوا انبياء استدل على بلوغهم بقوله « وتكونوا من بعده قوماً صالحين » ، وقولهم « يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا » وقال الانبياء الاسباط من بني يعقوب غير هؤلاء .

قوله تعالى :

(أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ) (٩) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى عن اخوة يوسف انهم قال بعضهم لبعض « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم، وتكونوا من بعده قوماً صالحين» ومعناه اطرحوه في أرض تأكله السباع او يهلك بغير ذلك من الأمور . وقيل : معناه اطرحوه في أرض يبعد عن أبيه ، ولا يقدر عليه .

وقوله «يخل لكم وجه أبيكم» جواب الأمر في قوله «اقتلوا يوسف» ولايجوزفيه غير الجزم، لأنه ليس فيه ضمير، والمعنى انكم متى قتلتموه او طرحتموه في أرض اخرى خلا لكم أبوكم وحن عليكم « وتكونوا من بعده قوماً صالحين » معناه إنكم اذا فعلتم ذلك وبلغتم أغراضكم تبتم مما فعلتموه ، وكنتم من جملة الصالحين الذين يفعلون الخيرات ، فيكفر عنكم عقاب ما فعلتموه . وقال الحسن : معناه تكونوا قوماً صالحين في أمر دنياكم ، ولم يريدوا أمر الدين .

قوله تعالى :

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) (١٠) آية بلا خلاف.

قرأ نافع وابو جعفر «غيابات» على الجمع. الباقون «غيابة» على التوحيد، وقرأ الحسن تلتقطه بالتاء ، كما قالوا ذهبت بعض اصابعه ، قال ابو علي : وجه قول من أفرد، أن الجب لا يخلوا ان يكون له غيابة واحدة او غيابات، فغيابة المفرد يجوز ان يعنى به الجمع ، كما يعنى به الواحد ، ووجه قول من جمع : انه يجوز ان يكون له غيابة واحدة،فجعل كل جزء منه غيابة ، فجمع على ذلك ، كقولهم

شابت مفارقة ، ويجوز ان يكون عنده للجب غيابات ، فجمع على ذلك .

اخبر الله تعالى في هذه الآية عن واحد من جملة القوم أنه قال على وجه المشورة عليهم «لا تقتلوا يوسف» ولكن اطرحوه في جب عميق قليل الماء. وقيل إنه كان اسم القائل لذلك (روبيل) وكان ابن خالة يوسف – في قول قتادة وابن اسحاق – وقال الزجاج : كان يهوذا، والغيابة الموضع الذي يغيب فيه صاحبه وغيابة البئر شبه الجاف او طاف فوق الماء وضعوه فيها . وكلما غيب شيء عن الحس بكونه، فهو غيابة . وقال الحسن يعني في قعر الجب قال المنخل :

فـــان انا يوم غيبتني غيابـــتي فسيروا بسيري في العشيرة والأهل[١]

والجب البئر التي لم تطوَ ، لانه قطع عنها ترابها حتى طغى الماء من غير طي، ومنه المجبوب قال الأعشى :

لئن كنت في جب ثمانين قامة ورقّيت أسباب السماء بسلم[٢]

و (السيارة) الجماعة المسافرون ، لانهم يسيرون في البلاد . وقيل : هم مارة الطريق . و (الالتقاط) تناول الشيء من الطريق ، ومنه اللقطة واللقيطة . وقيل : انهم أشاروا عليه بأن يقعد في دلو المدلي إذا استسقى ليخرجه من البئر ففعل . ومعنى التقاطه أن يجدوه من غير ان يحسبوه ، يقال وردت الماء التقاطاً إذا وردته من غير ان تحسبه .

قوله تعالى :

(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)

(١١) آية بلا خلاف.

---

(١) الشاعر هو المنخل بن نسيع العنبري . تفسير القرطبي ٩ / ١٣٢ والتاج (غيب) ومجاز القرآن ١ / ٣٠٢ .

(٢) ديوان (دار بيروت) ١٨٢ والصبح المنير ٨٤ ومجـــاز القرآن ١ / ٣٠٢ وتفسير القرطبي ٩ / ١٣٢ والكتاب لسيبويه ١ / ٢٣١ .

كلهم قرأ «تا منا» بفتح الميم وادغام النون الأولى في الثانية، والاشارة الى اعراب النون المدغمة بالضم اتفاقاً، قال ابو علي وجه ذلك ان الحرف المدغم بمنزلة الموقوف عليه من حيث جمعها السكون، فمن حيث اشموا الحرف الموقوف عليه إذا كان مرفوعاً في الادراج اشموا النون المدغمة في (تامنا) وليس ذلك بصوت خارج الى اللفظ، وانما هي هيئة العضو لاخراج ذلك الصوت به ليعلم بذلك أنه يريد ذلك المتهيأ له.

حكى الله تعالى عن أخوة يوسف لما تآمروا على ما يفعلونه بيوسف أنهم، قالوا لأبيهم لم «لا تأمنا على يوسف» قال الزجاج: يجوز في (تأمنا) أربعة أوجه: تأمننا بالاظهار ورفع النون الأولى، لان النونين من كلمة، و «تأمنا» بالادغام وهي قراءة القراء لالتقاء المثلين، و (تأمنا) بالادغام والاشمام، وهو الذي حكاه ابن مجاهد عن الفراء، للاشمار بالضمة، و (تئمنا) بكسر التاء وهي قراءة يحيي ابن وثاب، لأن ماضيه فعل، كما قالوا تعلم ونعلم إلا ان القراءة بالادغام والاشمام. والأمن سكون النفس الى إنتفاء الشرّ، وضده الخوف، وهو انزعاج النفس لما يتوقع من الضر. وقوله «وانا له لنا صحون» تمام الحكاية عنهم أنهم قالوا إنا ليوسف لنا صحون مشفقون عليه. والنصح إخلاص العمل من فساد يتعمد، ونقيضه الغش. والنصح في التوبة اخلاصها مما يفسدها. وذلك واجب فيها وهي التوبة النصوح.

قوله تعالى:

(أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (١٢)

آية بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو «نرتع ونلعب» بالنون فيهما. وكسر العين من «يرتع» من غير بلوغ الى الياء أهل الحجاز، إلا المالكي. والعطار عن الزبيبي اثبات (ياء) في الوصل، والوقف بعد العين. الباقون بسكون العين، ولم

يختلفوا في سكون الباء من ويلعب، وقرأ نافع يرتع، ويلعب بالياء فيهما، وكسر العين. وقرأ أهل الكوفة بالياء فيهما، وجزم العين والباء . قال ابو علي : قراءة ابن كثير حسنة ، لأنه جعل الارتعاء القيام على المال لمن بلغ وجاوز الصغر ، واسند اللعب الى يوسف لصغره ، ولا لوم على الصغير في اللعب ، ولا ذم . والدليل على صغر يوسف قول أخوته « وانا له لحافظون » ولو كان كبيراً ما احتاج الى حفظهم . وايضاً قال يعقوب أخاف ان يأكله الذئب ، ولو لم يكن صغيراً ما خاف عليه، وانما يخاف الذئب على من لا دفاع فيه، ولا ممانعة له : من شيخ ، فانٍ او صبي صغير قال الشاعر :

اصبحت لا أحمل السلاح ولا　　املك رأس البعير ان نفرا
والذئب اخشاه ان مررت به　　وحدي واخشى الرياح والمطرا[1]

فأما اللعب فمما لا ينبغي ان ينسب الى اهل النسك والصلاح، ألا ترى الى قوله : « أجئتنا بالحق ام انت من اللاعبين »[2] فقوبل اللعب بالحق فدل على انه خلافه، وقال «ولئن سألتهم ليقولنّ انما كنا نخوض ونلعب»[3]وقال «وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهوا» فأما الارتعاء فهو افتعال من رعيت مثل سويت واستويت وكل واحد منهما متعد الى مفعول به ، قال الشاعر :

ترتعي السفح فالكثيب فذا قا　　ر فروض القطا فذات الرّئال[4]

وقال ابو عبيدة : ويجوز ان يقال نرتع ويراد ترتع إبلهم ووجه ذلك انه كان الاصل ترتع إبلنا ثم حذف المضاف وأسند الفعل الى المتكلمين ، فصار نرتع وكذلك نرتعي على ترتعي إبلنا ، ثم يحذف المضاف فيكون نرتعي . وقال أبو عبيدة : نرتع نلهو ، وقد تكون هذه الكلمة على غير معنى النيل من الشيء كقولهم في المثل العبد والرتعة، فكان على هذا النيل والتناول مما يحتاج اليه الحيوان.

---

(١) قائله الربيع بن ضبيع الفزاري . سيبويه ١ : ٤٦ ومجمع البيان ٣ : ٢١٤ .
(٢) سورة الانبياء آية ٥٥ ، (٣) سورة التوبة ٩ آية ٦٥
(٤) قائله الاعشى ، ديوان : ١٦٣ واللسان (سفح) ، (رأل) .

واما قراءة ابي عمرو ، وابن عامر ، فعلى أن معناه نرتع أبلنا ، او على اننا ننال ما نحتاج اليه ومعناه ننال. فأما قوله « ونلعب » فحكي ان ابا عمرو قيل له كيف يقولون نلعب ، وهم انبياء ؟ فقال لم يكونوا يومئذ أنبياء ، فعلى هذا سقط الاعتراض ولا يجوز ان يكون المراد به مثل ما قال الشاعر :

حدّت حداد تلاعب وتقشعت غمرات قالت ليسه حيران[١]

فكان اللعب هنا الذي لم يتشمّر في امره ، فدخله بعض الهوينا ، فهذا أسهل من الوجه الذي قوبل بالحق ، وقد روي عن النبي ﷺ انه قال لجابر : (فهلاّ بكراً تلاعبها وتلاعبك) وانما اراد بذلك التشاغل بالمباح والعمل بما يتقوى به على العبادة والطاعة . وقد روي عن بعض السلف انه كان اذا اكثر النظر في مسائل الفقه قال احمضونا ، وقد روي عن النبي ﷺ انه قال ان هذا الدين متين فاوغلوا فيه برفق فان المبتت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى . فليس هذا اللعب من الذين « قال انما كنا نخوض ونلعب » في شيء .

ومن قرأ بالياء فإن كان يرتع من اللهو ، كما فسّره ابو عبيدة ، فلا يمتنع ان يخبر به عن يوسف لصغره ، كما لا يمتنع ان ينسب اليه اللعب كذلك إن كان «يرتع» من النيل من الشيء، فلذلك ايضاً لا يمتنع عليه ايضاً، فوجهها بيّن، وهو أبين من قول من قال «ونلعب » بالنون ، لانهم سألوا ارساله ليتنفس بلعبه ، ولم يسألوا ارساله ليلعبوا هم .

والرتع الاتساع في البلاد بالذهاب في جهاتها من اليمين والشمال ، فلان يرتع في المال وغيره من ضروب الملاذ ، واصل الرتعة التصرف في الشهوات رتع فلان في ماله اذا انفق في شهواته قال القطامي :

أكفراً بعد رد الموت عني وبعد عطائك المائة الرّتاعا[٢]

---

(١) مجمع البيان ٣ : ٢١٤ وروايته :
جدت جداد بلاعب وتقشعت عمرات قالت ليسه حيران

(٢) مر في ٢٦/١ وتفسير الطبري (دار المعارف) ١٥ : ٥٦٩، والطبعة الاولى ٨٨/١٢.

وقال مجاهد معنى « نرتع » يحفظ بعضنا بعضاً من الرعاية . واللعب يحتمل ما يستهجن ويسترذل لطلب الفرح من غير مراعاة شيء من الحلم كفعل الصبي اذا قصد هذا القصد .

أخبر الله تعالى عن اخوة يوسف انهم قالوا لابيهم ارسل يوسف معنا ينال الملاذ ويتفرّح ، ونحن حافظون له ومراعون لاحواله فلا تخشى عليه .

قوله تعالى :

(قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) (١٣) آية بلا خلاف .

قرأ الكسائي وخلف في اختياره ، وابو جعفر وورش والاعشى واليزيدي في الادراج إلا سجادة ، ومدين من طريق عبد السلام « الذّيب » بتخفيف الهمزة في المواضع الثلاثة . الباقون بالهمزة . والهمز وترك الهمز لغتان مشهورتان قال ابو علي : والاصل فيه الهمزة ، فان خفف جاز ، وان وقع في مكان الردف قلب قلباً كما قال الشاعر :

كأن مكان الردف منه على رال [١]

فقلب الهمزة الفاً .

أخبر الله تعالى حكاية عن يعقوب انه قال حين طلب اخوة يوسف انفاذ يوسف معهم ، واحتيالهم في ذلك . واشفق من ذلك ، قال « اني ليحزنني » اي يؤلم قلبي . يقال حزّنتك وأحزنتك لغتان ، والحزن ألم القلب بفراق المحب ويعظم اذا كان فراقه الى ما يبغض « أن تذهبوا به » اي ليحزنني اذهابكم به ، والذهاب

---

(١) قائله امرؤ القيس ، ديوانه : ١٦٥ وامالي الشريف المرتضى ١ : ٢٢٩ وصدره :

وصم صلاب ما يقين من الوجى

وهو يصف حوافر الفرس بانها (صم) اي صلبة (لا يقين) ليس فيها تجويف (من الوجى) وهو الحفاء . و (مكان الردف) الموضع الذي يردف عليه الراكب . و (الرال) فرخ الغزال.

والمرور والانطلاق نظائر وبيّن انه يخاف عليه الذئب ان يأكله لان الذئاب كانت ضارية في ذلك الوقت . والذئب سبع معروف ، واشتقاقه من تذاءب الريح اذا جاءت من كل جهة ، فالذئب يختل بالحيلة من كل وجه .

وقوله « وانتم عنه غافلون » جملة في موضع الحال وتقديره اخاف ان يأكله الذئب في حال كونكم ساهين عنه ، والخوف والفزع والقلق نظائر ونقيضه الأمن .

قوله تعالى :

(قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ)

(١٤) آية بلا خلاف .

لما قال لهم يعقوب ما ذكره في الآية الاولى ، قالوا في الجواب عن ذلك «لئن اكله الذئب ونحن جماعة متعاضدون متناصرون نرى الذئب قد قصده ، فلا نمنع عنه « انا اذاً لخاسرون » أي بمنزلة الخاسر الذي ذهب رأس ماله على رغم منه ، والخسران ذهاب رأس المال ، والربح زيادة على رأس المال . واللام في قوله « لئن » هي التي يتلقى بها القسم ، فكأنهم أقسموا على ما قالوه . وأعظم الخسران ما يذهب بالثواب ، ويؤدي الى العقاب ، فلذلك أقسموا عليه ، وقال المؤرج : معناه إنا اذاً لمضيّعون بلغة قيس عيلان .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (١٥)

آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى انه لما أذن يعقوب ليوسف في المضي معهم ، وذهبوا به « وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب » اي عزموا على فعل ذلك ، ولا يقال : أجمع الا اذا قويت الدواعي الى الفعل من غير صارف وأما من دعاه داع واحد ، فلا يقال فيه أنه أجمع ، فكأنه مأخوذ من اجتماع الدواعي ، ويجوز ان يكون المراد انهم اتفقوا على إلقائه في غيابة الجب ، والجعل والتصيير والعمل نظائر في اللغة. والغيابة البقعة التي يغيب فيها الشيء عن الحس . وقيل طلبوا بئراً قليلة الماء تغيبه ولا تغرقه . وقيل بل جعلوه في جانب جبها ، وسمّى البئر التي لم تطو جبا لأنه جبّ ترابها عنها فقط ، كأنه ليس فيها إلا قطع التراب . وجواب (لمّا) محذوف وتقديره عظمت فتنتهم أو كبر ما قصدوا له. وقال قوم: الواو في وأجمعوا مقحمة . والمعنى أجمعوا أن يجعلوه وهو مذهب الكوفيين ، وأنشدوا قول أمرىء القيس :

فلمّا اجزنا ساحة الحيّ وانتحى بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل[1]

يريد، فلما اجزنا ساحة الحي انتحى ، وقال آخر :

حتى اذا قملت بطونكم ورأيتم ابناءكم شبّوا
وقلبتم ظهر المجن لنا ان اللئيم العاجز الخبُ[2]

يريد قلبتم ، فادخل الواو . والبصريون لا يجيزونه . وقوله «واوحينا اليه» يعني إلى يوسف ، قال الحسن أعطاه الله النبوة ، وهو في الجب « لتنبئنهم بأمرهم هـذا » معناه ستخبرهم بذلك في المستقبل و « هم لا يشعرون » قال ابن عباس والحسن وابن جريج لا يشعرن بأنه يوسف . وقال مجاهد وقتادة : لا يشعرون بأنه اوحي اليه .

والشعور ادراك الشيء بمثل الشعرة في الدقة ، ومنه المشاعر في البدن . وقال

---

(١) ديوانه : ١٤٩ من معلقته الشهيرة وتفسير الطبري ١٥ : ٥٧٥ وفي المعلقات العشر (حقاف) بدل (قفاف) وقال وروي (حقف ذي ركام) .
(٢) انظر ٣ : ١٩ تعليقة ٤ .

قوم : معنى قوله «لتنبئنهم بأمرهم» لتجازينهم على فعلهم، تقول العرب للرجل: تتوعده بمجازاة سوء فعله : لأنبئنك ، ولأعرفنك ، يعني لأجازينك .

قوله تعالى :

(وَجَاؤُا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) (١٧) آيتان بلا خلاف .

في الكلام حذف ، لان التقدير إنهم أجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وفعلوا ذلك ، فلما فعلوه جاؤوا حينئذ « أباهم عشاء يبكون » والمجيء والمصير الى الشيء واحد، وقد يكون المصير بالانقلاب، كمصير الطين خزفاً، وقد يكون بمعنى الانتقال . والعشاء آخر النهار . ونصبه لانه من ظروف الزمان . ومنه اشتق (الاعشى) لانه يستضيء ببصر ضعيف . والبكاء جريان الدمع من العين عند حال الحزن ، فكانوا يعلمون أن اباهم يحزن لما جاؤا من خبر يوسف ، فبكوا مع بكائه عليه ، وفي حال خبره لما تصوروا تلك الحال . وقيل : إنهم أظهروا البكاء ليوهموا أنهم صادقون فيما قالوه .

وقوله « إنا ذهبنا نستبق » قيل في معناه قولان :

احدهما – قال الزجاج : ذهبنا نتنصل مشتق من السباق في الرمي . وقال الجبائي: نستبق في العدو لنعلم اينا أسرع عدواً « وتركنا يوسف عند متاعنا » يعني تركناه عند الرحل ليحفظه .

وقوله « ومـــا أنت بمؤمن لنا » أي لست بمصدق لنا « ولو كنا صادقين » وجواب (لو) محذوف ، وتقديره : ولو كنا صادقين ما صدقتنا ، لاتهامك لنا في أمر يوسف ، ودل الكلام عليه . ولم يصفوه بأنه لا يصدق الصادق ، لان المعنى

انه لا يصدقهم إتهاماً لهم لشدة محبته ليوسف يسيء الظن بهم ، ولا تسكن نفسه الى خبرهم .

قوله تعالى :

(وَجَاءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) (١٨)

آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن أخوة يوسف انهم جاؤا أباهم ، ومعهم قميص يوسف ملطخ بدم . وقالوا له هذا دم يوسف حين أكله الذئب . وقال ابن عباس ومجاهد كان دم سخلة ، قال الحسن : لما رأى يعقوب القميص صحيحاً ، قال : يا بني والله ما عهدت الذئب عليماً .

قال عامر الشعبي : كان في قميص يوسف ثلاث آيات :

احدها – حين ألقي على وجه أبيه ، فارتد بصيراً ، وحين قدّ من دبر ، وحين جاؤا على قميصه بدم كذب. ومعنى (كذب) مكذوب فيه ، كما قيل الليلة الهلال فيرفع ، وكما قال « فما ربحت تجارتهم »[1] أي ما ربحوا في تجارتهم إلا انه وصف في المصدر ، وتقديره بدم ذي كذب ، لكن إذا بولغ في الصفة اجري على هذه الصفة ، وقال الفراء يجوز ان يكون المصدر وقع موقع مفعول ، كما يقع مفعول موقع المصدر في مثل قول الراعي القطامي :

حتى اذا لم يتركوا لعظامه لحماً ولا لفـؤاده معقولا [2]

---

(١) سورة البقرة آية ١٦ .

(٢) تفسير الطبري ١٥ : ٥٨٣ ، وجمهرة اشعار العرب : ١٧٥ ومجاز القرآن ١ : ٣٠٣ واماني الشريف المرتضى ١ : ١٠٦ .

ولا يجيزه سيبويه ، ويقول مفعول لا يكون مصدراً ، ويتأول قولهم : خذ ميسوره ، ودع معسوره أي خذ ما يسر ودع ما عسر عليه ، وكذلك : ليس لفؤاده معقولاً أي ما يعقل به .

وقوله «قال بل سولت لكم انفسكم امراً» حكاية ماقال يعقوب لهم. والتسويل تزيين النفس ما ليس بحسن – في قول قتادة – وقيل معناه تقرير معنى في النفس على الطبع في تمامه ، وهو تقدير معنى في النفس على توهم تمامه .

وقوله « فصبر جميل » فالصبر الجميل هو الصبر الذي لا شكوى فيه على ما يدعو إليه العقل ، ويحتمل رفع الصبر أمرين : احدهما – ان يكون خبر ابتداء وتقديره فأمري صبر جميل. الثاني – ان يكون مبتدأ، وخبره محذوف، وتقديره فصبر جميل أولى من الجزع الذي لا ينبغي لي ، قال الشاعر :

يشكوا الي جملي طول السرى صبر جميل فكلانا مبتلى[1]

ولو نصب لجاز ، ولكن الأحسن الرفع ، لأنه موصوف . وقوله « والله المستعان على ما تصفون » حكاية ما قال يعقوب عند ذلك ، بأن الله تعالى هو الذي يطلب منه المعونة على ما ذكروه ؛ وتقديره استعين بالله على احتمال ما تصفونه ، وعلى الصبر كله .

قوله تعالى :

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) (١٩)

آية بلا خلاف .

---

(١) امالي الشريف المرتضى ١ : ١٠٧ ، وروايته :

شكا الي جملي طول السرى يا جملي ليس الي المشتكى

الدرهمان كلفان ما ترى صبر جميل فكلانا مبتلى

قرأ أهل الكوفة « يا بشري » بغير الف . الباقون بالالف والياء ، وكان يجوز أن يقرأ بياء مشددة « بشريّ » وهي لغة هذيل غير انه لم يقرأ به احد ، قال أبو ذؤيب :

سبقوا هويّ واعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع[1]

قال ابو علي: من قرأ (يا بشراي) فاضافه الى الياء التي للمتكلم، كأن الألف التي هي حرف الاعراب موضعان من الاعراب :

احدهما – ان تكون في موضع نصب لانه منادى مضاف .

والآخر – ان تكون في موضع كسر، لأنه بمنزلة حرف الاعراب في غلامي.

ومن قرأ « يا بشرى » احتمل وجهين :

احدهما – ان يكون في موضع ضم مثل يارجل بالنداء لاختصاصه كاختصاص الرجل .

والآخر – ان يكون في موضع النصب لأنك اشعت النداء ولم تخص به ، كما فعلت في الوجه الاول كقوله « يا حسرتا على العباد »[2] .

اخبر الله تعالى أنه حين ألقى أخوة يوسف يوسف في غيابة الجب جاءت سيارة، وهم جماعة مسافرون مارة فبعثوا واردهم ، وهو الذي يصير الى الماء ليستسقي منه « فأدلى دلوه » يعني أرسل دلوه ليملأ ، يقال ادليت الدلو إذا ارسلتها لتملأ ، ودلوتها إذا اخرجتها مملأة ، وقيل انه لما ارسل الدلو تعلق بها يوسف ، فقال المدلي « يا بشراي » هذا غلام، في قول قتادة والسدي .

وقيل في معنى (بشراي) قولان :

---

(١) ديوانه ١ : ٢ وامالي الشريف المرتضى ١ : ٢٩٣ ورواية الامالي (لسبيلهم) بدله (لهواهم) . (٢) سورة يس آية ٣٠ .

احدهما – انه بشر اصحابه بأنه وجد عبداً .

الثاني – قال السدي كان اسمه (بشرى) فناداه .

وقوله « واسرّوه بضاعة » قيل في معناه قولان :

احدهما – قال مجاهد والسدي أسره المدلي ، ومن معه من باقي التجار لئلا يسألوهم الشركة فيه .

الثاني – قال ابن عباس اسره اخوته يكتمون أنه أخوهم وتابعهم على ذلك يوسف لئلا يقتلوه . والبضاعة قطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت الشيء اذا قطعته ، ومنه المبضع ، لأنه يبضع به العرق . ومعنى « وأسرّوه » أنهم لما وجدوه أحبوا أن لا يعلم أنه موجود ، وان يوهموا أنه بضاعة دفعها اليهم أهل الماء ، ونصب بضاعة على الحال .

وقوله « والله عليم بما يعملون » اخبار منه تعالى بأنه عالم بافعالهم ، فيجازيهم على جميعها ، وان اسروا بها ، وفي ذلك غاية التهديد .

قوله تعالى :

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّاهِدِينَ) (٢٠) آية بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن اخوة يوسف أنهم باعوا يوسف. يقال شريت أشري اذا بعت . ومنه قوله « ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون »[١] وقال يزيد ابن مفرغ الحميري :

وشريت برداً ليتني من بعد برد كنت هامه[٢]

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٢ (٢) مرهذا البيت في ١ : ٣٤٨ ، ٣ : ٢٥٧

وقوله « بثمن بخس دراهم معدودة » أي بثمن ذي بخس أي ناقص . وقيل بثمن ذي ظلم، لانه كان حرّاً، لا يحل بيعه ، فالثمن هو بدل الشيء من العين أو الورق . ويقال في غيرهما أيضاً مجازاً. والبخس النقص من الحق، يقال: بخسه في الوزن او الكيل إذا نقصه من حقه فيها . ومعنى « معدودة » اي قليلة ، لان الكثير قد يمنع من عدده لكثرته . وقيل : عدوها ولم يزنوها . وقيل: انهم كانوا لايزنون الدراهم حتى تبلغ أوقية، وأوقيتهم أربعون درهماً. وقال عبدالله بن مسعود وابن عباس وقتادة : إنها كانت عشرين درهماً . وعن ابي عبدالله (ع) إنها كانت ثمانية عشر درهماً . وقال ابن عباس ومجاهد: ان الذين باعوه اخوته ، وانهم كانوا حضوراً ، فقالوا هذا عبد لنا ابق ، فباعوه . وقال قتادة الذين باعوه السيارة .

وقوله « وكانوا فيه من الزاهدين » يعني الذين باعوه ، زهدوا فيه ، فلذلك باعوه بثمن بخس ، وتقديره وكانوا زاهدين فيه من الزاهدين بجهلهم بما له عند الله من المنزلة الرفيعة ، وانما قدموا الظرف ، لانه أقوى في حذف العامل من غيره، ولا يجوز قياساً على ذلك (وكانوا زيداً من الضاربين)

قوله تعالى :

(وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْاَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) (٢١) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى عن من اشترى يوسف (ع) من بايعه من أهل مصر أنه قال : لامرأته حين حمله اليها « أكرمي مثواه » يعني موضع مقامه، وانما امرها باكرام مثواه دون اكرامه في نفسه ، لان من أكرم غيره لاجله كان اعظم منزلة ممن يكرم في نفسه فقط ، والاكرام اعطاء المراد على جهة الاعظام ، وهو يتعاظم

فأعلاه منزلة ما يستحق بالنبوة، وادناه ما يُستحق لخصلة من الطاعة أدناها كإماطة الاذى من الطريق وغيره .

وقوله « عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ، بين أنه إنما يأمرها باكرامه لما يرجو من الانتفاع به فيما بعد أو للتبني به. وقال ابن مسعود: احسن الناس فراسة ثلاثة: العزيز حين قال لامرأته « اكرمي مثواه عسى ان ينفعنا » وابنة شعيب حين قالت في موسى « يا أبت استأجره »[١] وأبو بكر حين ولى عمر .

وقوله « وكذلك مكنا ليوسف في الارض » ووجه التشبيه فيه انه تعالى شبه التمكين له في الارض بالتوفيق للاسباب التي صار بها الى ما صار بالنجاة من الهلاك والاخراج الى اجلّ حال .

وقوله « ولنعلمه من تأويل الاحاديث » اللام فيه محمولة على تقدير دبرنا ذلك لنمكنه في الارض ، ولنعلمه من تأويل الاحاديث .

وقوله « والله غالب على امره » معناه أنه قادر عليه من غير مانع حتى يقع ما أراد، ومنه وقوع المقهور بالغلبة في الذلة . وقيل غالب على امر يوسف يدبره ويحوطه .

وقوله « ولكن اكثر الناس لا يعلمون » اخبار منه تعالى ان اكثر الخلق غير عالمين بحسن تدبير الله لخلقه، وما يجريه اليهم من مصالحهم وانه قادر لا يغالب؛ بل هم جاهلون بتوحيده ، ولا يدل ذلك على ان من فعل ما كرهه الله يكون قد غالب الله ، لان المراد بذلك ما قلناه من انه غالب على ما يريد فعله بعباده . فاما ما يريده على وجه الاختيار منهم فلا يدل على ذلك ، ولذلك لا يقال إن اليهودي المقعد قد غلب الخليفة حيث لم يفعل ماأراده الخليفة من الايمان ، وفعل ما كرهه من اليهودية وهذا واضح .

---

(١) سورة القصص آية ٢٦

قوله تعالى :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (٢٢) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى ان يوسف لما بلغ أشده ، وهو كمال القوة . وقال قوم هو من ثماني عشرة سنة الى ستين سنة ، وقال ابن عباس من عشرين . وقال مجاهد من ثلاث وثلاثين سنة ، والاشد جمع ، لا واحد له من لفظه مستعمل . وفي القياس واحده شد ، كواحد الاضرّ ضرّ ، وواحد الاشر شر قال الشاعر :

هل غير ان كثر الا شر واهلكت   حرب الملوك اكاثر الاموال [1]

وقوله « آتيناه حكماً وعلماً » يعني أعطيناه ذلك ، والحكم القول الفصل الذي يدعو الى الحكمة ويقال تقديراً لما يوتى له بعلة : يعلم من دليل الحكم ومن غير دليل الحكم . والاصل في الحكم تبيين ما يشهد به الدليل ، لأن الدليل حكمة من اجل أنه يقود الى المعرفة. وقيل: معناه آتيناه الحكم على الناس. وقيل آتيناه الحكمة في فعله بألطافنا له ، والحكيم العامل بما يدعو اليه العلم. والعلم ما اقتضى سكون النفس . وقال قوم هو تبيين الشيء على ما هو به ، وزاد فيه الرماني: ما يحل في القلب تحرزا من الرؤية ، لانها يبين بها الشيء على ما هو به ، لكنه معنى يحل في العين . ومن قال الادراك ليس بمعنى لا يحتاج الى ذلك .

وقوله « وكذلك نجزي المحسنين» معناه مثل ما جازينا يوسف نجازي كل من أحسن وفعل الافعال الحسنة من الطاعات . والاحسان هو النفع بالحسن الذي يستحق به الحمد، فعلى هذا يصح أن يحسن الانسان الى نفسه كما يصح أن يسيء الى

---

(١) مجمع البيان ٣ : ٢٢١ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٢ : ٩٨ وروايته (الاشد) بدل (الاشر) .

نفسه ، ولا يصح ان ينعم على نفسه ، لأن النعمة تقتضي استحقاق الشكر عليها ، ولا يصح ذلك بين الانسان ونفسه .

قوله تعالى :

(وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّالِمُونَ) (٢٣) آية بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو ، وعاصم وحمزة والكسائي (هيت) بفتح الهاء والتاء ، وقرأ ابن كثير بفتح الهاء، وضم التاء. وقرأ نافع وابن عامر (هيت) بكسر الهاء وفتح التاء . وروى هشام بن عامر عن ابن عامر (هئت) بالهمز من تهيأت ، وكسر الهاء ، وضم التاء ، وانكر الهمزة أبو عمرو بن العلاء والكسائي، قال طرفة :

ليس قومي بالابعدين إذا ما قال داع من العشيرة هيت
هم يجيبون ذا هلم سراعاً كالابابيل لا يغادر بيت[1]

فهذا شاهد لابن كثير قال ابو عبيدة : « هيت لك » معناه هلم، قال: وقال رجل لعلي (ع) :

أبلغ أمير المؤمنين أخا العراق إذا أتيتا
ان العراق واهله سلم اليك فهيت هيتا[2]

قال ابو الحسن : وكسر الهاء لغة ، وقال بعضهم بالهمز من تهيأت لك، وهي حسنة إلا ان المعنى الاول أحسن ، لأنها دعته، والمفتوحة أكثر اللغات ، ففيه ثلاث لغات .

---

(١) مجاز القرآن ١ : ٣٠٣ ، وتفسير القرطبي ٩ : ١٦٤ ، وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ : ١٥ ، وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٢ : ١٠٠ .

(٢) انظر تخريجه في الصفحة التي بعدها .

ومعنى قوله « وراودته » أي طالبته ، والمراودة المطالبة بأمر للعمل بـه ، ومنه المرود لانه يعمل به، ولا يقال في المطالبة بدين راوده. ومعنى «التي هو في بيتها» يعني امرأة العزيز «وغلقت الأبواب » فالتغليق اطباق الباب بما يعسر فتحة . وانما قيل (غلقت) لتكثير الاغلاق او المبالغة في الاغلاق، وألف (باب) منقلبة من الواو لقولهم : بويب وأبواب .

ومعنى « هيت لك » تعال وهلم الى ما هو لك ، أنشد ابو عمرو بن العلاء :

أبلغ أمير المؤمنين اخـــا العراق اذا اتيت
ان العراق واهله سلم اليك فهيت هيت[1]

ويقال للواحد والاثنين والجمع والذكر والانثى (هيت) بلفظ واحد . وقال ابن عباس والحسن وابن زيد معنى «هيت لك» هلم لك .

وقوله «معاذ الله» حكاية عن يوسف أنه قال ذلك . والمعنى أعوذ عياذاً بالله أن أجيب الى هذا أو ان يكون هذا أي اعتصم بالله من هذا . وقوله « ان ربي احسن مثواي » معناه ان الملك الذي هو زوجها ، مالكي في الحكم « أحسن مثواي » باكرامي وبسط يدي ورفع منزلتي ، وهو قـول مجاهد وابن اسحاق والسدي والجبائي، وقال الحسن يعني العزيز، وقال الزجاج يجوز ان يكون اراد ان الله ربي احسن مثواي أي في طول مقامي. وقوله «انه لا يفلح الظالمون» حكاية ان يوسف قال : ان من ظلم نفسه بارتكاب المعاصي لا يفلح ولا يفوز بشيء من الثواب .

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَا ٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذٰلِكَ

---

(١) اللسان (هيت) ومجـــاز القرآن ١ : ٣٠٥ ، وتفسير القرطبي ٩ : ١٩٤ وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ : ١٥ ، وتفسير الطبري ١٢ : ٩٩ .

لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ) (٢٤)

آية بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة ، ونافع «المخلصين» بفتح اللام . الباقون بكسرها . قال أبو علي حجة من كسر اللام قوله « اخلصوا دينهم »[١] ومن فتح اللام، فيكون بنى الفعل للمفعول به ، ويكون معناه ومعنى من كسر اللام واحد ، فاذا أخلصوا هم دينهم فهم مخلصون ، واذا أُخلصوا فهم مخلصون .

ومعنى (الهمّ) في اللغة على وجوه ، منها: العزم على الفعل ، كقوله « إذ همّ قوم ان يبسطوا اليكم أيديهم »[٢] ، أي أرادوا ذلك وعزموا عليه . ومثله قول الشاعر :

هممت ولم افعل وكدت وليتني ترکت على عثمان تبكي حلائله[٣]

وقال حاتم طي :

ولله صعلوك تساور همه ويمضي على الأيام والدهر مقدما[٤]

ومنها : خطور الشيء بالبال، وان لم يعزم عليه . كقوله « اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليها»[٥] والمعنى ان الفشل خطر ببالهم، ولو كان الهم ههنا عزماً لما كان الله وليها ، لأنه قال « ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال او متحيزاً الى فئة فقدباء بغضب من الله »[٦] ، وارادة المعصية والعزم عليها معصية بلا خلاف، وقال قوم: العزم على الكبير كبير ، وعلى الكفر كفر ،ولا يجوز أن يكون الله وليّ من عزم على الفرار عن نصرة نبيه ﷺ ويقوى ذلك ما قال كعب ابن زهير :

---

(١) سورة النساء آية ١٤٥ .
(٢) سورة المائدة آية ١٢ .
(٣) تفسير القرطبي ٩ : ١٦٦ ومجمع البيان ٣ : ٢٢٣
(٤) مجمع البيان ٣ : ٢٢٣ .
(٥) سورة آل عمران آية ١٢٢
(٦) سورة الانفال آية ١٦ .

فكم فيهم من سيد متوسع ومن فاعل للخير إن هم أو عزم

ففرق بين الهم والعزم وظاهر التفرقة يقتضي اختلاف المعنى، ومنها المقاربة يقولون : هم بكذا ، وكذا أي كاد يفعله قال ذو الرّمة :

أقول لمسعود بجرعـاء مالك وقد هم دمعي ان تسيح اوائله(١)

والدمع لا يجوز عليه العزم ، وانما أراد كاد ، وقارب ، وقـال ابو الاسود الدؤلي :

وكنت متى تهمم يمينك مرة لتفعل خيراً يعتقبها شمالكا(٢)

وعلى هذا قوله تعالى « جداراً يريد ان ينقض »(٣) أي يكاد وقال الحارثي :

يريـد الرمح صدر ابي براءٍ ويرغب عن دماء بني عقيل(٤)

ومنها الشهوة وميل الطباع ، يقول القائـل فيما يشتهيه ويميل طبعه ونفسه اليه هذا من همي ، وهذا أهم الاشياء الي . وروي هذا التـأويل في الآية عن الحسن . وقال : اما همها وكان اخبث الهم ، واما همه فما طبع عليه الرجال من شهوة النساء، واذا احتمل الهم هذه الوجوه نفينا عنه (ع) العـــزم على القبيح واجزنا باقي الوجوه ، لان كل واحد منها يليق بحاله ، ويمكن ان يحمل الهم في الآية على العزم ، ويكون المعنى ، وهم بضربها ودفعها عن نفسه ، كما يقول القائل كنت هممت بفلان اي بأن اوقع به ضرباً او مكروهاً ، وتكون الفـائدة على هذا الوجه في قوله « لولا ان رأى برهان ربه » مع ان الدفع عن نفسه طاعة لا يصرف البرهان عنها، إنه لما هم بدفعها اراه الله برهاناً على انه ان اقدم على ما يهم به، اهلكه اهلها وقتلوه ، وانها تدّعي عليه المراودة لها على القبيح وتقذفه بأنه دعاها اليه وضربها لامتناعها منه ، فأخبر تعالى انـه صرف بالبرهان عنه السوء

---

(١) الاغاني (دار الثقافة) ١٧ : ٣٠٨ . (٢) مجمع البيان ٣ : ٢٢٤ ،
(٣) سوررة الكهف آية ٧٨ .
(٤) تأويل مشكل القرآن : ١٠٠ ، ومجمع البيان ٣ : ٢٢٤ .

والفحشا اللذين هما القتل والمكروه او ظن القبيح واعتقاده فيه .

فان قيل هذا يقتضي ان جواب (لولا) تقدمها في ترتيب الكلام ، ويكون التقدير : لولا ان رأى برهان ربه لهمّ بضربها ، وتقدم جواب (لولا) قبيح او يقتضي ان تكون (لولا) بغير جواب !.

قلنا : اما تقدم جواب (لولا) فجائز مستعمل وسنذكر ذلك فيما بعد ، ولا نحتاج اليه في هذا الجواب ، لان العزم على الضرب والهم به وقعا إلا انه انصرف عنها بالبرهان الذي رآه ، ويكون التقدير ولقد همت به وهم بدفعها لولا ان رأى برهان ربه ، لفعل ذلك، فالجواب المتعلق بـ (لولا) محذوف في الكلام ، كما حذف في قوله «ولولا فضل الله عليكم ورحمته . وان الله رؤف رحيم»[1] معناه ، ولولا فضل الله عليكم لهلكتم ومثله «كلا لو تعلمون علم اليقين»[2] لم تنافسوا في الدنيا وتحرصوا على حطامها ، وقال امرؤ القيس :

فلو انها نفس تموت سويّة ولكنها نفس تساقط انفسا[3]

والمعنى فلو انها نفس تموت سوية لنقصت وفنيت، فحذف الجواب تعويلاً على ان الكلام يقتضيه، ولا بد لمن حمل الآية على انه هم بالفاحشة ان يقدر الجواب، لان التقدير ، ولقد همت بالزنا وهم بمثله ، و«لولا ان رأى برهان ربه» لفعله . وانما حمل همّها على الفاحشة وهمّه على غير ذلك، لأن الدليل دلّ من جهة العقل والشرع على ان الانبياء ، لا يجوز عليهم فعل القبائح ، ولم يدل على انه لا يجوز عليها ذلك بل نطق القرآن بأنها همت بالقبيح ، قال الله تعالى «وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه . وقوله حاكياً عنها «الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين وقال «قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم» واجمعت الأمة من المفسرين واصحاب الاخبار

---

(١) سورة النور آية ٢٠ . (٢) سورة التكاثر آية ٥ .

(٣) ديوانه : ١١٧ واللسان «جمع» وامالي السيد المرتضى ١ : ٤٧٩ . ورواية اللسان «جميعه» بدل «سوية» .

على انها همت بالمعصية، وقد بين الله تعالى ذلك في مواضع كثيرة ان يوسف لم يهم بالفاحشة . ولا عزم عليها منها قوله « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء » وقوله « انه من عبادنا المخلصين » ومن ارتكب الفاحشة لا يوصف بذلك وقوله « ذلك ليعلم اني لم أخنه بالغيب » ولو كان الأمر على ما قاله الجهال من جلوسه مجلس الخائن وانتهائه الى حل السراويل ، لكان خائناً ، ولم يكن صرف عنه السوء والفحشاء . وقال ايضاً « ولقد راودته عن نفسه ، فاستعصم » وفي موضع آخر حكاية عنها « أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين » وقوله حكاية عن العزيز حين رأى القميص قد من دبر « انه من كيد كن إن كيدكن عظيم » فنسب الكيد اليها دونه ، وقوله ايضاً «يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين» فخصها بالخطاب وأمرها بالاستغفار دونه . وقوله « رب السجن احب اليّ مما يدعونني اليه . وإلا تصرف عني كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن » والاستجابة تقتضي براءة ساحته من كل سوء، ويدل على انه لو فعل ما ذكروه ، لكان قد صبا ولم يصرف عنه كيدهن . وقوله « قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء » والعزم على المعصية من اكبر السوء . وقوله حاكياً عن الملك «ائتوني به استخلصه لنفسي، فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين امين» ومن فعل ما قاله الجهال لا يقال له ذلك. ووجه آخر في الآية : إذا حمل الهم على ان المراد به العزم ، وهو ان يحمل الكلام على التقديم والتأخير ، ويكون التقدير ولقد همت به ولولا ان رأى برهان ربه لهم بها ويجري ذلك مجرى قولهم : قد كنت هلكت، لولا اني تداركتك، وقتلت لولا اني خلصتك ، والمعنى لولا تداركي لك لهلكت ولولا تخليصي لك لقتلت ، وان لم يكن وقع هلاك ولا قتل قال الشاعر :

فلا يدعني قومي صريحاً لحرة لئن كنتُ مقتولاً ويسلم عامر [١]

(١) الكتاب لسيبوية ١ / ٢٧ : واماني الشريف المرتضى ١ / ٤٨٠ ومجمع البيان ٣ /٢٢٦

وقال آخر :

فلا يدعني قومي صريحاً لحرّة لئن لم أُعجل طعنة أو اعجل[٩]

فقدم جواب (لئن) في البيتين جميعاً . وقال قوم : لو جاز هـــذا لجاز أن تقول : قـام زيد لولا عمرو ، وقصد زيد لولا بكر ، وقد بينا ان ذلك غير مستبعد ، وان القائل قد يقول : قد كنت قمت لولا كذا ، وكذا ، وقد كنت قصدتك لولا ان صدني فلان ، وان لم يقع قيام ولا قصد . عـــلى ان في الكلام شرطاً ، وهو قوله « لولا ان رأى برهان ربه » فكيف يحمل على الاطلاق .

والبرهان الذي رآه ، روي عن ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد : انه رأى صورة يعقوب عاضاً على أنامله .

وقال قتادة: انه نودي يا يوسف أنت مكتوب في الانبياء وتعمل عمل السفهاء .

وروي في رواية أخرى عن ابن عباس : انه رأى الملك .

وهذا الذي ذكروه كلّه غير صحيح، لان ذلك يقتضي الالجاء وزوال التكليف، ولو كان ذلك لما استحق يوسف على امتناعه من الفاحشة مدحاً ولا ثواباً ، وذلك ينافي ما وصفه الله تعالى . من انه صرف عنه السوء والفحشاء ، وانه من عبادنا المخلصين .

ويحتمل ان يكون البرهان لطفاً لطف الله تعالى له في تلك الحال او قبلها، اختار عنده الامتناع من المعاصي ، وهو الذي اقتضى كونه معصوماً ويجوز ان تكون الرؤية بمعنى العلم، وقال قوم: البرهان هو ما دل الله تعالى يوسف على تحريم ذلك الفعل، وعلى ان من فعله استحق العقاب، لان ذلك صارف عن الفعل ومقوّي لدواعي الامتناع ، وهذا ايضا جائز، وهو قول محمد بن كعب القرطي واختيار الجبائي .

(٩) مجمع البيان ٣ / ٢٢٥ واماني السيد المرتضى ١ / ٤٨٠

قوله تعالى :

(وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَدَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٢٥) آية بلا خلاف.

معنى قوله « واستبقا الباب » اي طلب كل واحد من يوسف وامرأة العزيز السبق الى الباب، والسبق تقدم الشيء لصاحبه في مجيئه .

وقوله «وقدت قميصه من دبر» اي شقته طولاً، والقد شق الشيء طولاً، ومنه: قد الاديم يقده قداً ، فهو مقدود ، إذا كان ذاهبا في جهة الطول على استواء .

وقوله « من دبر » اي من جهة الخلف . والقبل جهة القدام ، يقال اتاه قبلاً ، ودبراً ، اذا أتاه من الجهتين ومعنى « الفيا سيدها » صادفاه ، ألفى يلفي الفاً قال ذو الرمة :

ومطعم الصيد هبّال لبغيته الفى اباه بذاك الكسب يكتسب[1]

وقوله «قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً» حكاية ما قالت المرأة للملك ، وما في مقابلة من اراد باهلك سوءاً ، والجزاء مقابلة العمل بما هو حقه من خير او شر يقال : جازاه يجازيه مجازاة ، وجزاءاً « إلا ان يسجن او عذاب أليم » معناه انه ليس مقابلته إلا سجنه أو يعذب على فعله عذاباً مؤلماً موجعاً . وعطف العذاب – وهو إسم – على الفعل ، وهو قوله «ان يسجن» لأن تقديره إلا السجن أو عذاب اليم .

قوله تعالى :

(قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ

---

(١) اللسان « طعم »

قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) (٢٨) ثلاث آيات بلا خلاف.

حكى الله تعالى في الاية الأولى عن يوسف انه قال للملك حين قذفته زوجته بالسوء: هي طالبتني عن نفسي، وانا بريء الساحة، وشهد له بذلك شاهد من أهل المرأة. قال ابن عباس، وسعيد بن جبير - في رواية عنهما - وابو هريرة: انه كان صبياً في المهد. وفي رواية اخرى عن ابن عباس، وابن جبير، وهو قول الحسن وقتادة: انه كان رجلاً حكيما، واختاره الجبائي، قال: انه لو كان طفلاً لكان قوله معجزاً لا يحتاج معه الى الثاني، فلما قال الشاهد إن كان قميصه كذا، وكذا ذهب الى الاستدلال بأنه لو كان هذا المراود، لكان القميص مقدوداً من قبل، وحيث هو مقدود من دبر علم أنها هي المراودة ومع كلام الطفل لا يحتاج الى ذلك.

وقوله «ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين» حكاية ما قال الشاهد، وكذلك قوله «وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين» تمام الحكاية عن الشاهد.

و(من) في قوله «قد من دبر ... و ... من قبل» لابتداء الغاية، لان ابتداء القد كان منها. والتي في قوله «من الكاذبين» للتبعيض، لانه بعض الكاذبين واسقط (أن) من شهد أنه ان كان لانه ذهب مذهب القول في الحكاية، كما قال «يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين»[1] لان التقدير يوصيكم الله في اولادكم ان المال، وقال ابو العباس المبرد: معنى «ان كان

«١» سورة النساء آية ١١

قميصه » ان يكن ، وجاز ذلك في كان ، لانها ام الباب ، كما جاز ما كان ابردها. ولم يجز ما أصبح أبردها . وقال ابن السراج : إن يكن بمعنى ان يصح قد قميصه من دبر .

وقوله « فلما رأى قميصه قد من دبر » حكاية من الله ان الملك لما سمع قول الشاهد ورأى قميصه قد من دبر اقبل عليها وقال: «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » وقال قوم إن ذلك من قول الشاهد . والكيد طلب الشيء بما يكرهه ، كما طلبت المرأة يوسف بما يكرهه ويأباه .

وقوله « فلما رأى » تحتمل الرؤية أمرين :

احدهما ــ ان يكون المعنى رؤية العين، فلا يكون رؤية للقد، لانه حال، وإنما بين رؤية القميص .

والاخر – ان يكون بمعنى العلم فيكون رؤية للقد، لانه خبر. والهاء في قوله (إنه) يحتمل ان تكون عائدة الى السوء ، ويحتمل ان تكون عائدة الى ما تقدم ذكره من معنى الكذب .

والنون في قوله « كيدكن » نون جماعة النساء ، وشددت لتكون على قياس نظيرها من المذكر في ضربكموا في انه على ثلاثة احرف. وقال قوم ان ذلك من قول الزوج . وقال آخرون من قول الشاهد

قوله تعالى :

(يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ) (٢٩) آية بلا خلاف .

هذا حكاية ما نادى زوج المرأة يوسف ، فقال له يا يوسف ، ولذلك قال قوم: إنه لم يكن له غيرة . وروي عن ابن عباس انه قال ذلك من قول الشاهد واسقط حرف النداء لانه اسم علم ولم يجز ذلك في المبهم « اعرض عن هذا » اي اصرف وجهك عنه . والاغراض صرف الوجه عن الشيء الى جهة العرض ،

فكأنه قال اجعله بمنزلة ما تصرف وجهك عنه بأن لا تذكره « واستغفري لذنبك » اي اطلبي المغفرة من الله من خطيئتك ، والذنب الخطيأة ، والخطيأة العدول عما تدعوا اليه الحكمة الى ما تزجرعنه، ويقال لصاحبه خاطيء اذا قصد ذلك ، فاذا وقع عن غير قصد قيل اخطأ المقصد ، فهو مخطيء ، وان لم يكن صفة ذم . واصل الخطأ العدول عن الغرض الحكمي بقصد أو غير قصد ، فان كان بقصد قيل خطيء يخطأ خطأ فهو خاطيء قال أمية :

عبادك يخطئون وانت ربّ بكفيك المنايا والحياة[1]

وانما قال «من الخاطئين» ولم يقل من الخاطئات تغليبا للمذكر على المؤنث اذا اختلطا ، كما تقول عبيدك واماءك جاؤني .

قوله تعالى

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (٣٠) آية بلا خلاف .

اخبرالله تعالى انه «قال نسوة في المدينة» التي كان فيهاالملك وزوجته ويوسف إن امرأة العزيز تطلب فتاها عن نفسه ، والعزيز المنيع بقدرته عن ان يضام في أمره وسمي بذلك لانه كان ملكاً ممتنعا بملكه واتساع قدرته قال أبو داود :

درة غاص عليها تاجر حليت عند عزيز يوم ظل[2]

والفتى الغلام الشاب والمرأة فتاة قال الشاعر :

---

(١) مجمع البيان ٣ / ٢٢٦ ، وتفسير الطبرى « الطبعة الاولى » ١٢ / ١٠٩ وروايته « الحتوم » بدل « الحياة »

(٢) تفسير الطبري ١٢ / ١١٠ ومجمع البيان ٣ / ٢٢٩ . ورواية الطبرى « عاص » بدل « غاص » و « جليت » بدل « حليت »

كأنا يوم قريّ انمـا يقتل ايانا قتلنا منهم كل فتى ابيض حسانا[١]

ومعنى « شغفها حباً » بلغ الحب شغاف قلبها، وهو داخله . وقوله « انا لنراها في ضلال مبين » معناه إنا لنعلمها في عدول عـن طريق الرشد ، فعابوها بذلك وذلك ان تصير الى ما يذهلها ويبلغ صميم قلبها بحب إنسان . وإنما حذف حرف التأنيث في قوله « وقال نسوة » لانه تأنيث جمع قدم عليه الفعل ، وتأنيث الجمع تأنيث لفظ يبطل تأنيث المعنى ، لانه لا يجتمـــع في اسم واحد تأنيثان ، وكما يبطل تذكير المعنى في رجال ، فاذا صار كذلك جاز فيه وجهان، ان حمل على اللفظ انث ، وان حمل على المعنى ذكر .

وقيل في معنى الشغاف ثلاثة اوجه: شغاف القلب غلافه ، وهو جلدة عليه تقول دخل الحب الجلد حتى أصاب القلب -في قول السدي وابي عبيدة - الثاني - قال الحسن: هو باطن القلب. الثالث – قال ابو علي الجبائي: هو وسط القلب قال النابغة :

وقد حال همّ دون ذلك داخل مكان الشغاف تبتغيه الاصابع[٢]

وروي شعفها بالعين اي ذهب بها الحب كل مذهب من شعف الجبال وهي رؤسها قال امرؤ القيس :

اتقتلني وقد شعفت فؤادهـــا كما شعف المهنؤة الرجل الطالي[٣]

قال ابو زيد هما مختلفان فالشعف بالعين في البغض وبالغين في الحب .

---

(١) الكتاب لسيبويه ١/ ٢٧١ ، ٣٨٣

(٢) ديوانه ٧٩ وروايته (شاغل) بدل (داخل) وتفسير القرطبي ٩/ ١٧٩ وتفسير الطبرى (الطبعة الاولى) ١٢ / ١١٠

(٣) ديوانه ١٦٢ ، وتفسير الطبرى ١٢ / ١١١ والقرطبى ٩ / ١٧٧ والشوكاني (الفتح القدير) ٣ / ١٩ ورواية الديوان :

ليقتلني اني شغفت فؤادها كما شغف المهنوءه الرجل الطالي

قوله تعالى :

(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) (٣١) آية بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو ونافع في رواية الأصمعي عنه «حاشا» بألف. الباقون بلا الف، فمن حجة أبي عمرو ، قول الشاعر :

حاشى ابي ثوبان إن به ضنّاً عن الملحاة والشّتم [١]

قال ابو علي الفارسي لا يخلوا قولهم : حاش لله من ان يكون الحرف الجار في الاستثناء، كما ذكرناه في البيت أو فاعل من قولهم : حاشى يحاشي ، ولا يجوز ان يكون حرف الجر لأن حرف الجر لا يدخل على مثـله ، ولأن الحروف لا تحذف اذا لم يكن فيها تضعيف ، فاذا بطل ذلك ثبت انها فاعـل مأخوذاً من الحشا الذي هو الناحية . والمعنى انه صار في حشاء اي ناحية ممـا قذف به ، وفاعله يوسف ، والمعنى بعد عن هذا الذي رمي به « لله » اي لخوفـه من الله ، ومراقبة امره. ومن حذف الالف ، فكما حذف لم يك ، ولا أدر ، فاذا أريد به حرف الجر يقال حاشا ، وحاش ، وحشا ، ثلاث لغات قال الشاعر :

حشا رهط النبي فان فيهم بحوراً لا تكدرها الدّلاء [٢]

حكى الله تعالى عن امرأة العزيز انها حين سمعت قول نسوة المدينة فيهـا

---

(١) تفسير القرطبي ٩/١٨١ ومجاز القرآن ١/٣١٠ ، والمفضليات . ١٩ والاصمعيات ٨٠. واللسان والتاج « حشى » وتفسير الطبري « الطبعة الاولى » ١٢ / ١١٥

(٢) اللسان « حشا » ومجمع البيان ٣ : ٢٢٩ .

وعد لهنّ اياها ، ومكرهنّ بها . وقيل انهن مكرن بهـا لتريهن يوسف ، فلما اطلعتهن على ذلك أشعن خبرهـا ، والمكر الفتل بالحيلة الى ما يراد من الطلبة يقال: هي ممكورة الساقين بمعنى مفتولة الساقين، وممكورة البدن أي ملتفّة « أرسلت اليهن » أي بعثت اليهن تدعوهن الى دعوتها .

وقوله «واعتدت لهن متّكئاً» معناه اعدّت ، ومعناه اتخذت من العتـاد ، وقولهم : اعتدت من العدوان ، والألف فيـه ألف وصل ، والمتّكأ الوسادة ، وهو النمرق الذي يتكأ عليـه . وقال قوم : انه الاترج . وانكر ذلـك ابو عبيدة .

وقوله « وآتت كل واحـدة منهن سكّيناً » قيل انها قدمت اليهن فاكهة وأعطتهن سكّيناً ليقطعن الفاكهـة ، فلما رأينـه - يعني يوسف - دهشن « وقطعن ايديهن » وقوله « اكبرنه » أي أعظمنه وأجللنه . وقال قوم : معنى ذلك انهن حضن حين رأينه وأنشد قول الشاعر :

يأتي النسـاء على اطهارهنّ ولا يأتي النساء اذا اكبرن اكبارا [١]

وانكر ذلك ابو عبيدة ، وقال : ذلك لا يعرف في اللغـة ، لكن يجوز ان يكون من شدة ما أعظمنه حضن ، والبيت مصنوع لا يعرفه العلماء بالشعر .

وقوله « حاش لله » تنزيه له عن حال البشر ، وانه لا يجوز ان تكون هذه صورة للبشر ، وانما هو ملك كريم . وقال الجبائي: فيه دلالة على تفضيل الملائكة على البشر لانه خرج مخرج التعظيم ، ولم ينكره الله تعالى ، وهذا ليس بشيء ، لأن الله تعالى حكى عن النساء انهن أعظمن يوسف، لما رأين من وقاره وسكونه وبعده عن السوء . وقلن : ليس هذا بشراً ، بل هو ملك يريدون في سكونه ، ولم يقصدن كثرة ثوابه على ثواب البشر ، وكيف يقصدنه ، وهن لا طريق لهن الى معرفة ذلك، على ان هذا من قول النسوة اللاتي وقع منهن من الخطأ والميل

---

(١) تفسير القرطبي ٩ : ١٨٠ وتفسير الشوكاني ٣ : ٢٠

اليه ما لا يجوز ان يحتج بقولهن. وقوله لم ينكره الله، انما لم ينكره، لأنه تعالى علم انهن لم يقصدن ما قال الجبائي، ولو كن قصدنه لأنكره، على أن ظاهر الكلام انهن نفين ان يكون يوسف من البشر، وفيه قطع على انه ملك، وهذا كذب، ولم ينكره الله. والوجه فيه انهن لم يقصدن الاخبار بذلك عن حاله، وانما اخبرن بتشبيه حاله فيما قلناه بحال الملائكة، فلذلك لم ينكره الله.

وقوله «ما هذا بشراً» نصب بشراً على مذهب اهل الحجاز في اعمال (ما) عمل ليس، فيرفعون بها الاسم، وينصبون الخبر، فأما بنو تميم، فلا يعملونهـا قال الشاعر:

لشتّان ما أنوي وينوي بنو أبي جميعاً فما هذان مستويان
تمنّوا لي الموت الذي يشعب الفتى وكل فتى والموت يلتقيان[١]

وقد قرىء «ما هـذا بشرى» أي ليس بمملوك، وهو شاذ، لا يقرأ به. وقرىء (متكأ) بتسكين التاء. قال مجاهد: معنا الاترج، وقـال قتادة: معناه طعاماً، وبه قـال عكرمة وابن اسحق وابن زيـد والضحّاك، وقـال مجاهد وغيره: اعطي يوسف نصف الحسن، وقيل ثلثه. وقيل ثلثاه. والباقي لجميع الخلق.

قوله تعالى:

(قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ ٱلصَّاغِرِينَ) (٣٢) آية بلا خلاف.

هذه الآية فيها حكاية ما قالت امرأة العزيز للنسوة اللاتي عذلنها على محبتها ليوسف،

---

(١) مجمع البيان ٣ / ٢٢٩ وتفسير الطبري ١٢ / ١١٥

وانها حين رأت ما فعلت النسوة للدهش بيوسف ، قالت لهن هذا هو ذلك الذي لمتنّني فيه ، واللوم الوصف بالقبيح على وجه التحقير ، ومثله الذم وضده الحمد .

وقوله « ولقد راودته عن نفسه » اعتراف منها انها هي التي طلبته عن نفسه وانه استعصم منها أي امتنع من ذلك ، والاستعصام طلب العصمة من الله بفضل لطف من ألطافه ليمتنع من الفاحشة . وفيه دلالة على ان يوسف لم يقع منه قبيح .

وقوله «ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن» اخبار عما قالت امرأة العزيز على وجه التهديد ليوسف من انه ان لم يفعل ما تأمره به من المعصية ويجيبها الى ملتمسها لتمنعنّه التصرف من مراده بالحبس، تقول: سجنه يسجنه سجناً، والسجان المتولي للسجن على وجه الحرفة .

وقوله « وليكونن من الصاغرين » هذه النون الخفيفة التي يتلقى بها القسم ، واذا وقفت عليها وقفت بالألف، تقول: وليكونا، وهي بمنزلة التنوين الذي يوقف عليه بالألف قال الشاعر :

وصلّ على حين العشيات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا [١]

اي فاعبدن، فأبدل في الوقف من النون ألفاً . والصغار الذل بصغر القدر صغر يصغر صغاراً ، ومنه قوله «حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»[٢] .

قوله تعالى :

(قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ

---

(١) قائله الاعشى، ديوانه ١٠٣ القصيدة ١٧ وروايته « فاحمدا » بدل «فاعبدا» وهو في مجمع البيان ٣ . ٢٣٠ وتفسير الطبري ١٢ : ١٦ « فاعبدا » .

(٢) سورة التوبة آية ٢٩

عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ) (٣٣) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى عن يوسف انه لما سمع وعيد المرأة له بالحبس والصغار ان لم يجبها الى ما تريده ، قال يا « رب السجن أحب اليَّ مما يدعونني اليه » من ركوب الفاحشة ، وانما جاز ان يقول السجن أحب اليَّ من ذلك ، وهو لا يحب ما يدعونه اليه ، ولا يريده ، ولا يريد السجن ايضاً ، لأنه ان اريد به المكان فذلك لا يراد ، وان اريد به المصدر ، فهو معصية منهي عنها، فلا يجوز ان يريده لأمرين :

احدهما – ان ذلك على وجه التقدير ، ومعناه اني لو كنت مما اريد لكانت ارادتي لهذا أشد .

الثاني – ان المراد ان توطين نفسي على السجن أحب اليَّ .

وقيل معناه ان السجن أسهل عليَّ مما يدعونني اليه .

وقرأ الحسن (السجن) بفتح السين واراد المصدر ، وبه قرأ يعقوب ، وتأويله ما قلناه . والدعاء طلب الفعل من المدعو وصيغته صيغة الامر إلا ان الدعاء لمن فوقك والأمر لمن دونك .

وقوله « إلا تصرف عني كيدهنَّ » معناه ضرر كيدهن ، لأن كيدهن قد وقع ، والصرف نفي الشيء عن غيره بضده او بأن لا يفعل، وصورته كصورة النهي إلا ان النهي مع الزجر لمن هو دونك ، وليس كذلك الصرف (والصبا) رقة الهوى ، يقال صبا يصبو صباً فهو صاب ، فكأنه قيل أميل هواي اليهنَّ ، قال الشاعر :

الى هنـد صبا قلبي وهنـد مثلها يصبي [٢]

وقال ايضاً :

---

(١) قائله زيد بن ضبة، تفسير القرطبي ٩ : ١٨٥ ومجاز القرآن ١ : ٣١١ واللسان (صبا) وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ : ٢١ وتفسير الطبري ١٢ / ١١٧ .

صبا صبوة بل لج وهو لجوج   وزالت له بالانعمين حدوج[١]

وقوله « وأكن من الجاهلين » معناه وأكن ممن يستحق صفة الذم بالجهل ، لأنه بمنزلة من قد اعتقد الشيء على خلاف ما هو به ، وإلا فهو كان عالماً بأن ذلك معصية ، والغرض فيه بيان ان صفة الجهل من أغلظ صفة الذم .

وقال البلخي والجبائي: في الآية دلالة على انه لا ينصرف احد عن معصية إلا بلطف الله عزّ وجلّ ، لأنه لو لم يعلم ذلك ، لما صح خبره به ، وليس في الآية ما يدل على ذلك ، بل فيها ما يدل على ان يوسف كان له لطف ، ولولاه لفعل المعصية ، وأما ان يدل على انه لا أحد ينتهي عن معصية إلا بلطف ، فلا ، بل ذلك مجوّز ، وليس فيها ما يمنع منه ، ويحتمل قوله « أصب اليهن » على لفظ الجمع اشياء :-

احدها - قال ابو علي الجبائي: ان كل واحدة منهن دعته الى مثل ما دعت اليه امرأة العزيز بدلالة هذا الكلام . وقال قوم : انهن قلن لها نحن نسأله ان يفعل ما دعوته اليه ، فخلت كل واحدة منهن به . ويحتمل ان يكون المراد أصب الى قولهن في الدعاء الى اجابة امرأة العزيز .

قوله تعالى :

(فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(٣٤) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى انه اجاب يوسف الى ما دعاه به وأراد منه ورغب اليه فيه وانه فعل ، لأنه دعا به ، فهو اجابة له واستجابة والذي تعلقت به الارادة مستجاب ، وقال ابو علي الجبائي : الاجابة من الله تعالى ثواب لقوله تعالى « وما دعاء

(١) قائله ابو ذؤيب الهذلي ، ديوانه ١ / ٥٠ وشواهد المغنى ١٠٩ ، والخزانة ١ / ١٩٤ ومجاز القرآن ١ / ٣١١ ومجمع البيان ٣ / ٢٢٩ .

الكافرين إلا في ضلال »[١] وهذا انما هو في الجملة ، قال الرمّاني : وصرف الله تعالى له عن الفعل بالزجر عنه واعلامه الذم على فعله ، وفرق بين الصرف عن الفعل والزجر عنه ، بأن الزجر عنه بالذم على ايقاعه . والصرف عنه اعلامه ان غيره أصلح له من غير ذم عليه لو عمله كما يجب في الزجر ، والظاهر بغير ذلـك أشبه ، لأن يوسف (ع) كان عالماً بأن ما دعته اليـه قبيح يستحق به الذم، ومع ذلك سأل ان يصرف ضرر كيدهن عنـه ، لأن كيدهن الذي هو دعاؤهن وأغواؤهن ، كان قد حصل ، فكأنه قد سأل الله تعالى لطفاً من ألطافه يصرفه عنده عن اجابة النسوة إلى ما دعونه من ارتكاب المعصية ، لأن ظاهر القول خرج مخرج الشرط والجزاء المقتضيين للاستقبال ، فكان ما قلناه أولى . فقوله « انه هو السميع العليم » معناه ههنا انه السميع لدعاء الداعي العليم باخلاصه في دعائه او ترك اخلاصه وبما يصلحه من الاجابة او يفسده ، قـال الرمّاني : ولا يجوز ان يكون السميع للصوت بمعنى العليم بالصوت موجوداً ، لأنه قـد يعلم الانسان موجوداً ، اذا كان بعيـداً وهو لا يسمعه كعلمه بصوت المطارق في الحدادين ، وليس من طريق الحاسة وانمـا يعلمه بضرب من الاستدلال او يظن ذلـك ، واذا علمه من طريق الحاسة علمه ضرورة ، فكان ذلـك فرقاً بين الموضعين .

وقال ابو علي الجبائي : في الآية دلالة على جواز الدعاء بما يعلم انه يكون ، لان يوسف عالماً بأنه إن كان له لطف فلا بد ان يفعل الله به ، ومع هـذا سأله. وليس في الآية ما يدل على ذلك لانه لا يمتنع ان يكون يوسف سأل لتجويزه ان يكون له لطف عند الدعاء ، ولو لم يدع له لم يكن ذلك لطفاً ، فما سأل الا ما جوّز ان لا يكون لو لم يدع، غير ان المذهب: ما قال ابو علي لانه تعالى تعبّدنا بأن نقول « رب احكم بالحق »[٢] وقد علمنا انه لا يحكم الا بالحق ، ولكن الآية لا تدل على ذلك .

---

(١) سورة الرعد آية ١٥ وسورة المؤمن (غافر) آية ٥٠ .
(٢) سورة الانبياء آية ١١٢

قوله تعالى :

(ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)

(٣٥) آية بلا خلاف.

أخبر الله تعالى انه ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات، يقال بدا يبدو بدواً ، وبدأ والبداء في الرأي التلون فيه ، لانه كلما ظهر رأي مال اليه ، وانما قال «لهم » ولم يقل (لهن) مع تقدم ذكر النسوة ، لامرين : احدهما - قال الحسن انه اراد بذلك الملك . والثاني – انه اراد ذكر الذكور معهنّ من اعوانها فغلب المذكر ، فقال لهم، قال الرماني : وفاعل (بدا) مضمر وتقديره ثم بدا لهم بداء، ودل عليه قوله « ليسجننه » .

والآيات التي رأوها، قال قتادة: هو قدّ القميص وحز الايدي وقال غيره: هو قطع الايدي والاستعظام، وقدّ القميص .

وقوله«ليسجننه» انما هو فعل المذكر كما قال «بدا لهم»ولم يقل (لهن) ودخلت النون الثقيلة جواباً للقسم وليس بفعل المؤنث ، ولو كان على صيغة فعل المؤنث قيل (ليسجنّ) (وليقتلنّ) ثم تدخل عليها نون التأكيد الشديدة فيصير ليسجننانه كقولك تقتلنانه .

وقوله « حتى حين » فـ (حتى) تتصرف على اربعة اوجه ، تكون حرف جر ، وحرف عطف ، وناصبة للفعل ، وحرف من حروف الابتداء ، فالجارّة نحو هذه التي في الآية ، والعاطفة كقولهم خرج الناس حتى الامير ، والناصبة كقوله « حتى يأتي وعد الله »[1] ، وحرف الابتداء كقولك سرحت القوم حتى زيد مسرّح .

---

(١) سورة الرعد آية ٣٣ .

قوله تعالى :

(وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ) (٣٦) آية بلا خلاف .

وفي الآية تقدير فسجن يوسف، ودخل معه فتيان يعني شابّان . والفتى الشاب القوي قال الشاعر :

يا عزّ هل لك في شيخ فتى ابداً   وقد يكون شباب غير فتيان

وقال الزجاج: كانوا يسمون المملوك فتى، شيخاً كان او شاباً . والفتيان قال السدي وقتادة : كانا غلامي ملك مصر الأكبر أحدهما صاحب شرابه والآخر صاحب طعامه، فنمي اليه ان صاحب طعامه يريد ان يسمّه . وظن ان الآخر ساعده ومالأه على ذلك .

وقوله « قال احدهما » يعني احد الفتيين ليوسف : « إني اراني اعصر خمراً» من رؤيا المنام ، والخمر عصير العنب اذا كان فيه الشدة والتقدير اعصر العنب للخمر ، وقال الضحاك: هي لغة، تسمي العنب خمراً ذكر جماعة انها لغة عمان . وقال الزجاج : تقديره عنب الخمر .

وقوله « وقال الآخر إني اراني احمل فوق رأسي خبزاً » فالحمل رفع الشيء بعماد، يقال: حمل يحمل حملا ، واحتمل احتمالاً ، وتحمّل تحمُّلا ، وحمّله تحميلا . و (الخبز) معروف « تأكل الطير منه » وقوله « نبّئنا بتأويله » اي اخبرنا بتأويل رؤيانا « انّا نراك من المحسنين » معناه انّا نعلمك او نظنك ممن يعرف تأويل الرؤيا . ومن ذلك قول علي (ع) (قيمة كل ما يحسنه) اي ما يعرفه . والاحسان النفع الواصل الى الغير اذا وقع على وجـــه يستحق به الحمد واذا اختصرت فقلت هو النفع الذي يستحق عليه الحمد جاز ، لان ما يفعله الانسان لا يسمى احساناً . وقيل انه   كان يداوي مريضهم ويعزّي حزينهم

ويجتهد في عبادة ربه . وقال الزجاج : كان يعين المظلوم وينصر الضعيف ويعود المريض. وقيل «من المحسنين» في عبارة الرؤيا، لانه كان يعبّر لغيرهم ، فيحسن . ذكره الجبائي .

قوله تعالى :

(قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) (٣٧) آية بلا خلاف.

في هذه الآية اخبار بما اجاب به يوسف للفتيين اللذين سألاه عن المنام ، فقال لهما «لا يأتيكما طعام ترزقانه» والطعام كل جسم فيه طعم يصلح الاكل ، غير انه يختلف باضافته الى الحيوان . والرزق العطاء الجاري في الحكم وكذلك لو اعطاه مرة واحدة ، وقد حكم بانه يجريه كان رزقاً . وقال السدي وابن اسحاق : معنى ذلك اني عالم بتعبير الرؤيا اذ لا يأتيكما ما ترزقانه في منامكما إلا نبأتكما بتأويله في اليقظة . وقـــال ابن جريج : كان الملك اذا أراد قتل إنسان صنع له طعاماً معلوماً ، فأرسل به اليه ، فعلى هذا يرزقانه في اليقظة . وقيل إنه كان يخبر بمـا غاب كما كان عيسى(ع)، وإنما عدل عن تعبير الرؤيا إلى الجواب بهذا لاحد أمرين:

احدهما - ما قال ابن جريج: انه كره ان يخبرهما بالتأويل على احدهما فيه، فلم يتركاه حتى أخبرهما . وقال ابو علي : إنما قدم هذا ، ليعلما ما خصه الله به من النبوة ، وليقبلا الى الطاعة ، والاقرار بتوحيد الله . والانباء : الاخبار بمـــا يستفاد وذلك ان النبأ له شأن ، وفيه تعظيم الخبر بما فيه من الفائدة ، ولذلك اخذت منه النبوة . والتأويل : الخبر عمـا حضر بما يؤل اليه أمره ، فيما غاب . ولذلك قال « قبل ان يأتيكما » وتأويل القرآن ما يؤل اليه من المعنى أي يرجع

اليه والتعليم تفهيم الدلالة المؤدية الى العلم بالمعنى ، وقد يكون الاعلام بخلق العلم بالمعنى في القلب .

وقوله « اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالاخرة هم كافرون » اخبار من يوسف أنه إنما علمه الله تعالى تأويل ما سألاه لإيمانه بالله وحده لا شريك له وعدوله عن ملة الكفار وجحدهم البعث والنشور والجزاء بالثواب والعقاب ، و (هم) الثانية دخلت للتأكيد لأنه لما دخل بينهما قوله « وبالآخرة » صارت الأولى كالملغاة ، وصار الاعتماد على الثانية ، كما قال «وهم بالآخرة هم يوقنون»[١] وكما قال « ايعدكم انكم اذا متم وكنتم تراباً وعظاماً انكم مخرجون »[٢] .

قوله تعالى :

(وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرٰهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) (٣٨) آية بلا خلاف.

في هذه الآية أخبار عن يوسف أنه قال لهما : إني في ترك اتباع ملة الكفار وجحدهم البعث والنشور وفي إيماني بالله وتوحيدي له اتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب، فالاتباع اقتفاء الأثر وهو طلب اللحاق بالأول، فاتباع الحق بالقصد الى موافقته من أجل دعائه . والملة مذهب جماعة يحمي بعضها بعضاً في الديانة ، واصله الحمّى من المليلة وهي حمى ما يلحق الانسان دون الحمى . والآباء جمع أب وهو الذي يكون منه نطفة الولد ، والأم الأنثى التي يكون منها الولد والجد أب بواسطة ، ولا يطلق عليه صفة أب ، وإنما يجوز ذلك بقرينة تدل على انه أب بواسطة الأبن ، وجد الأب اب بواسطتين .

---

(١) سورة النمل آية ٣ ، وسورة الروم آية ٤ . (٢) سورة المؤمنون آية ٣٥ .

وقوله « ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء » إخبار من يوسف أنه ليس له ، ولا لاحد من آبائه أن يشرك بالله شيئاً، ودخلت (من) للنفي العام ، والاشراك بلوغ منزلة الجمع لعبادة غير الله الى عبادته – في عظم الجرم. واليهودي مشرك ، لانه بكفره بالنبي قد بلغ تلك المنزلة في عظم الجرم . وقوله « ذلك من فضل الله علينا » اعتراف منه ان ذلك العدول عن عبادة غير الله هو من فضل الله عليهم من حيث كان بلطفه وهدايته وتوفيقه. والفضل النفع الزائد على مقدار الواجب بوجوب الدين الذي يستحق به الشكر ، وكل ما يفعله الله تعالى بالعبد ، فهو فضل من فضله . والعقاب ايضاً فضل ، لأنه زجر به عن المعاصي . وقيل ذلك من فضل الله علينا ان جعلنا أنبياء وعلى الناس ان جعلنا رسلاً اليهم – في قول ابن عباس – وقوله « على الناس » دال على ان الله قد عمّ جميع خلقه بفضله وهدايته إياهم الى التوحيد والايمان .

قوله تعالى :

(يا صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ) (٣٩) آية .

هذا حكاية ما نادى به يوسف للمستفتين له عن تأويل رأياهما، فقال لهما « يا صاحبي السجن » اي يا ملازمي السجن . والصاحب الملازم لغيره على وجه الاختصاص بوجه من الوجوه، وهو خلاف ملازمة الاتصال، ولذلك قيل أصحاب مالك ، واصحاب الشافعي للاختصاص بمذاهبها ، واصحاب النبي لملازمتهم له، والكون معه في حروبه ، وصاحبا السجن هما الملازمان له بالكون فيه . والسجن هو الحبس الذي يمنع من التصرف قال الفرزدق :

وما سجنوني غير اني ابن غالب   واني من الأثرين غير الزعانف[1]

---

(١) ديوانه ١ : ٥٣٦ وسيبويه ١ : ٣٦٦ وقد مر في ١ : ٣٢٠ من هذا الكتاب .

وقوله « ارباب متفرقون » فيه أقوال : قال قوم املاك متباينون خير أم المالك القاهر للجميع ، يدلهم بهذا على أنه لا يجوز ان يعتقدوا الربوبية إلا لله تعالى - عز وجل - وحده. وقال الحسن متفرقون من صغير وكبير ووسط ، يعني الأوثان . وقال قوم : معناه متفرقون بمباينة كل واحد للآخر بما يوجب النقص ، والقاهر القادر بما يجب به الغلبة لا محالة والقهار مبالغة في الصفة يقتضي انه القادر بما يجب به الغلبة لكل احد والخير الا بلغ في صفة المدح ، والشر الا بلغ في صفة الذم .

قوله تعالى :

(مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (٤٠) آية بلا خلاف .

وهذا تمام ما قال يوسف للكفار الذين يعبدون غير الله ، فقال لهم لستم تعبدون من دون الله إلا أسماء سميتموها . وقيل في معناه قولان :

احدهما - انه لما كانت الاسماء التي سموا بها آلهتهم لاتصح معانيها صارت كأنها اسماء فارغة يرجعون في عبادتهم اليها فكأنهم إنما يعبدون الاسماء ، لأنه لا يصح معاني يصح لها من إله ورب .

الثاني - إلا اصحاب أسماء سميتموها لا حقيقة لها ، والعبادة هي الاعتراف بالنعمة مع ضرب من الخضوع في أعلى الرتبة ، ولذلك لا يستحقها إلا الله تعالى .

وقوله « ما انزل الله بها من سلطان » أي لم ينزل الله على صحة ما تدعونه حجة ، ولا برهاناً ، فهي باطلة لهذه العلة ، لانها لو كانت صحيحة ، لكان عليها دليل .

وقوله «ان الحكم إلا لله» معناه ليس الحكم إلا لله فيما فعله او أمر به، والحكم فصل المعنى بما تدعو إليه الحكمة من صواب او خطأ. والأمر قول القـائل لمن دونه (افعل) والصحيح انه يقتضي الايجاب. وقوله «امر ان لا تعبدوا إلا اياه» معناه أمر أن تعبدوه، وكره منكم عبادة غيره، لان الأمر لا يتعلق بأن لا يكون الشيء، لأنه انما يكون أمراً بارادة المأمور والارادة لا تتعلق الا بحدوث الشيء.

وقوله «وذلك الدين القيم» معناه ان الذي أمر به من عبادته وحده، وان لا يشرك بـه شيء هو «الدين القيم» المستقيم الصواب، ولكن اكثر الناس لا يعلمون صحة ما اقوله، لعدولهم عن الحق، والنظر والاستدلال.

قوله تعالى:

(يَا صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّـا ٱلآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) (٤١) آية بلا خلاف.

في هذه الآية اخبار عما أجاب به يوسف للفتيين في تأويل رؤياهما حين راجعاه في معرفته، فقال «ياصاحبي اما أحدكما فيسقي ربه خمراً» يعني سيده، ومالكه، لانه كان صاحب شرابه، واجرى عليه صفة الرب، لانه مضاف، كما يقال رب الدار، والضيعة. و «اما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه» فروي ان صاحب الصلب، قال ما رأيت شيئاً، فقال له قضي الامر الذي فيه تستفتيان. وهذا يدل على انه كان ذلك بوحي من الله ولفظ احد لواحد من المضاف اليه مما له مثل صفة المضاف في الافراد نحو احد الانسانين، واحد الدرهمين، فهو إنسان ودرهم لامحالة. والبعض يحتمل ان يكون لاثنين فصاعدا، ولذلك اذا قال جاءني احد الرجال، فهم منه إنه جاءه واحد منهم. واذا قال جاءني بعض الرجال جاز ان يكون اكثر من واحد. والاستفتاء طلب الفتيا. والفتيا جواب بحكم

المعنى ، فهو غير الجواب بعينه .

قوله تعالى :

(وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) (٤٢)

آية بلا خلاف .

وهذا حكاية عما قال يوسف (ع) للذي ظن انه ينجو منهما ، وقال ابو علي: الظن ههنا بمعنى العلم لقوله « ظننت اني ملاق حسابيه »[١] وقال قتادة : الرؤيا على الظن، وقال غيره: إلا رؤيا الانبياء، فانها يقين . والظن هو ما قوي عند الظان كون المظنون على ما ظنه مع تجويزه ان يكون على خلافه . والنجاة هي السلامة . وقوله « اذكرني عند ربك » يعني عند سيدك كما قال الشاعر :

وإن يك رب أذواد فحسبي أصابوا من لقائك ما أصابوا[٢]

وانما سأله ان يذكره عند سيده بخير ويعرفه علمه وما خصه الله تعالى من الفضل والعلم ليكون ذلك سبب خلاصه . والذكر حضور المعنى للنفس ، وعلى حال الذكر يتعاقب العلم واضداده من الجهل والشك . والنسيان ذهاب المعنى عن النفس وعزوبه عنها . والهاء في قوله « فانساه » تعود الى يوسف في قول ابن عباس - والتقدير فانسى يوسف الشيطان ذكر الله ، فلذلك سأل غيره حتى قال جماعة إن ذلك كان سبب للبثه في السجن مدة من الزمان . وقال ابن اسحاق والحسن والجبائي يعود على الساقي ، وتقديره فأنسى الساقي الشيطان ذكر يوسف .

---

(١) سورة الحاقة آية ٢٠

(٢) قائله النابغة الذبياني . ديوانه ١٩ (دار بيروت) وروايته :

وان تكن الفوارس يوم حسي اصابوا من لقائك ما اصابوا

وقوله « فلبث في السجن بضع سنين » فاللبث في المكان هو الكون فيه على طول من الزمان ،واللبث والثبوت والسكون نظائر . والبضع قطعة من الدهر. وقيل البضع من الثلث الى العشر – في قول ابن عباس – وقال قتادة ومجاهد الى التسع وقال وهب: الى سبع سنين. والسنة إثنا عشر شهراً ويجمع سنين وسنوات .

قوله تعالى :

(وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ) (٤٣) آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى في هذه الآية : إن الملك الذي كان يوسف في حبسه ، وكان ملك مصر فيما روي ، قال إنه رأى في المنام « سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف» يعني مهازيل «وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات» ثم أقبل على قومه، فقال « يا ايها الملأ » اي يا ايها الاشراف والعظماء الذين يرجع إليهم « أفتوني في رؤياي ان كنتم » تعبرون الرؤيا ، وتدعون العلم بتأويلها ، والملك القادر الواسع المقدور الذي اليه السياسة والتدبير .

والرؤيا تخيل النفس للمعنى في المنام حتى كأنه يرى ، ويجوز فيها الهمزة وتركها. والبقرات جمع بقرة والسمن زيادة في البدن من الشحم واللحم وهو على الشحم أغلب ، والعجف يبس الهزال يقال: عجف يعجف عجفاً ، فهو أعجف. والانثى عجفاء ، والجمع عجاف ، وسنبلات جمع سنبل ، والعبارة : نقل معنى التأويل الى نفس السائل بالتفسير ، وهي من عبور النهر وغيره ، ومنه المعبر والعبّارة، وإنما دخلت اللام في قوله « للرؤيا » مع أن الفعل يتعدى بنفسه، لانه

إذا تقدم المفعول ضعف عمله ، فجاز إدخال حرف الاضافة لهذه العلة ، ولا يجوز يعبرون للرؤيا ، لأنه في قوة عمله .

قوله تعالى :

(قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ)

(٤٤) آية بلا خلاف .

هذا حكاية ما أجاب به الملأ الملك حين سألهم عن تعبير رؤياه ولم يعرفوا معناها ، قالوا : « أضغاث أحلام » أي هذه الرؤيا أضغاث أحلام ، والاضغاث جمع ضغث ، قال قوم : هو الحزمة من الحشيش ، والبقل ، وغيره . وقال آخرون: هو خلط قش المد، وهو غير متشاكل ، ولا متلائم ، فشبهوا به تخليط المنام ، ونفوا ان يكونوا عالمين بمثل ذلك . وقال قتادة : هي اخلاط أحلام . وقال ابن مقبل :

خود كأن فراشها وضعت به اضغاث ريحان عداه شمال [1]

وقال آخر :

يحمي ذمار جنين قل مانعه طاوٍ لضغث الخلا في البطن ممتكن [2]

وقال آخر :

واستقل مني هـذه قدر بطنها والقيت ضغثاً من خلا متطيب [3]

والاحلام جمع حلم ، وهو الرؤيا في النوم ، وقد يقال : جاء بالحلم أي الشيء الكثير ، كأنه جاء بما لا يرى إلا في النوم لكثرته . والحلم : الاناة ، حلم حلماً : إذا كان ذا أناة وإمهال . والحلم ضد الطيش . ومنه « ان ابراهيم لحليم أواه

(١ ، ٢) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٢ : ١٢٥ وروايته (غداة) بدل (عداه) .

(٣) مجاز القرآن ١ : ٣١٢ وجمهرة اشعار العرب ٢ : ٢٣ وقد نسب الى عوف بن عطية ابن عمر بن الحارث بن تميم . انظر سمط اللآلي ٣٧٧ ، ٧٢٣ ومعجم البلدان ٢٧٧

منيب »[١] والحليم : من له ما يصح به الأناة دون الخرق والعجلة . والله الحليم، الكريم ، و (الحلم) بضم اللام ما يرى في المنام ، لانها حال أناة وسكون ودعة تقول: حلم يحلم حلماً –بسكون اللام – اذا اردت المصدر، والحلمة رأس الثدي، لأنها ، تحلم الطفل ، والحلام الجدي الذي قد حلمه الرضاع ، ثم كثر حتى قيل لكل جدي .

قوله تعالى :

(وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونَ) (٤٥) آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى في هذه الآية أن الذي نجا من الفتيين اللذين رأيا المنام ، وفسره لهما يوسف – وهو صاحب الشراب– على ما ذكره له يوسف، فتذكر بعد وقت وحين من الزمان ، لأمر يوسف ، وقال لهم أنا اخبركم بما يؤل اليه هذا المنام ، فابعثوني حتى ابحث عنه .

و (النجاة) التخلص من الهلاك . والادكار طلب الذكر . ومثله التذكّر والاستذكار ، ووزنه (الافتعال) من الذكر وأصله الاذتكار ، فقلبت التاء ذالاً وادغمت فيها الدال على أصل ادغام الاول في الثاني ويجوز اذّكر ، على تغليب الأصلي على الزائد . و (الامة) المذكورة هي الجملة من الجبن ، وأصله الجماعة من الجبن ، وسميت الجماعة الكثير من الناس أمة ، لاجتماعها على مقصد في امرها . وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة : « بعد أمة » أي بعد حين ، وحكى الزجاج وغيره عن ابن عباس « بعد أمة » اي بعد نسيان ، يقال أمه يأمه أمهاً – بفتح الميم – ، وحكي عن ابي عبيدة – بسكون الميم – قال الزجاج هذا ليس بصحيح وأجازه غيره، وروى هذه القراءة عن جماعة كقتادة وعكرمة وغيرهم.

---

(١) سورة هود آية ٧٥

وتأويل الرؤيا تفسير مـا يؤل اليه معناه ، وتأويل كل شيء تفسير ما يؤل اليه معنى الكلام . وحكي عن الحسن أنـه قرأ « أنا اجبكم بتأويله » وهو خلاف المصحف .

قوله تعالى :

(يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) (٤٦) آية بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن الذي نجا من الفتيين انه جـاء يوسف بعد أن قـال لهم أبعثوني. وقال له يا «يوسف» وحذف حرف النداء، لأنه إسم علم «أيها الصديق» والصديق الكثير التصديق بالحق للأدلة عليه، وكل نبي صدّيق بهذا المعنى «أفتنا في سبع بقرات» أي اخبرنا عن حكم هـذه الرؤيا ، و (الفتيا) جواب عن حكم المعنى ، وقد يكون الجواب عن نفس المعنى فلا يسمى فتيا .

وقوله «لعلي ارجع الى الناس لعلهم يعلمون» معنى (لعل) الشك ، لأنها طمع واشفاق ، وانما قـال ذلك لطمعه أن يكون، واشفق ان لا يكون ، ولو قـال لأرجع الى الناس ليعلموا ، لكان فيه تعليل السؤال ، غير ان الشك في (لعل) قد يكون للمتكلم ، وقد يكون للمخاطب ، و (الرجوع) الى الشيء المرور الى الجهة التي جاء منها، والرجوع عنه الذهاب عنه. وقوله « لعلهم يعلمون » يحتمل أمرين:
- أحدهما لعلهم يعلمون بمكانك ومنزلتك .
الثاني - لعلهم يعلمون تأويل الرؤيا .

قوله تعالى :

(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبــاً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي

سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ) (٤٧) آية .

حكى الله تعالى عن يوسف ما أجاب به المستفتي عن تعبير الرؤيا التي رآها الملك ، فقال له إنكم « تزرعون سبع سنين دأباً » أي مستمرة. وقيل : متوالية. وقيل : على عادتكم . والدأب استمرار الشيء على عادة ، يقال هو دأب بفعل كذا إذا استمر في فعله ، وقد دأب يدأب دأباً. وسكن القراء كلهم الهمزة ، إلا حفصاً فانه فتحها ، وهي لغة مثل سمع، وسمع، ونهر ونهر . ونصب (دأباً) على المصدر أي تدأبون دأباً ، وكلهم همز إلا من مذهبه ترك الهمزة وأبو عمرو اذا أدرج .

وقوله « فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون » حكاية عن تمام ما قال يوسف له : من أن ما تحصدونه لا تذرّوه ولا تدرسونه ، ودعوه في السنبل إلا القليل الذي تأكلونه . وقيل إنما أمرهم بذلك،لأن السنبل لا يقع فيه السوس، ولا يهلك ، وان بقي مدة من الزمان ، واذا صفي أسرع اليه الهلاك ، و(الزرع) طرح الحب في الارض بالدفن مع التعاهد له بالسقي ، تقول . زرع يزرع زرعاً ، وازرع ازراعاً ، وزارعه مزارعة ، و (الحصد) قطع الزرع ، حصده يحصده حصداً واستحصد الزرع إذا جاز حصاده .

قوله تعالى

(ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) آية بلا خلاف.

وهذا تمام حكاية ما فسر به الرؤيا يوسف (ع)، فقال لهم: إنه يجيء بعد هذه السنين التي زرعتم فيها وحصدتم ، سبع سنين أخر شداد وهي جمع شديدة ، والشدة قوة الالتفاف ، والشدة والصلابة والصعوبة نظائر . وشدة الزمان

وصعوبته بمعنى. وضدها الرخاء. وقيل الشدة تكون في سبعة أصناف في الاصل: في العقد، والمد، والزمان، والغضب، والالم، والشراب، والبدن.

وقوله «يأكلن ما قدمتم لهن» اضاف الأكل الى السنين، لأنها بمنزلة ما يأكل ذلك لوقوع الأكل فيها كما يكون الاكل في الآكل قال الشاعر:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم[1]

والتقديم التقريب الى جهة القدام، والتأخير التبعيد الى جهة الخلف، والاحصان الاحراز، وهو إلقاء الشيء فيما هو كالحصن المنيع، أحصنه إحصاناً اذا أحرزه.

قوله تعالى:

(ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) (٤٩) آية بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي بالتاء (تعصرون) على الخطاب أي أنتم. الباقون بالياء على الرجوع الى الناس، وهذا حكاية ما بشر به يوسف المستفتي له أنه يأتي بعد هذه السنين الصعبة سنة. والعام السنة مأخوذ من العوم، لما لأهله فيه من السبح الطويل. وقال الخليل: العام حول يأتي على شتوة وصيفة. والحول، والسنة مثل ذلك.

وقوله «فيه يغاث الناس» فالغوث النفع الذي يأتي على شدة حاجة ينفي المضرّة، والغيث المطر الذي يجيء في وقت الحاجة، غاثهم الله يغيثهم غيثاً، وأصابهم غيث. والغيث الكلأ الذي ينبت من ماء السماء وجمعه غيوث. والغياث أصله من الواو، اغاثه الله اغاثة، وغوث تغويثاً: اذا قال واغوثاه من يغيثني، ويقول الواقع في بلية: اغثني اغاثك الله، و(يغاث) يحتمل ان يكون من الياء.

---

(١) تفسير القرطبي ٩ : ٢٩٤ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٢ : ١٢٧

ويحتمل ان يكون من الواو «ويعصرون» قيل فيه ثلاثة أقوال :

احدها – قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : يعصرون الثمار التي تعتصر في الخصب من العنب والزيتون والسمسم . وحكى بعضهم أنهم لم يعصروا – أربع عشرة سنة – زيتاً ولا عنباً ، فيكون المعنى تعصرون للخصب الذي أتاكم ، كما كنتم تعصرون في ايام الخصب .

الثاني – في رواية أُخرى عن ابن عباس تحلبون .

الثالث – قال ابو عبيدة والزجاج: تنجون نجاء المعتصر بالماء عند الغصص ، كما قال عدي بن زيد :

لو بغير المـاءِ حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري [1]

وقال ابو زيد الطائي :

صاديا يستغيث غير مغاث ولقد كان عصرة المنجود [2]

واصل العصر عصر العنب ، ونحوه من الرطب المستخرج ماؤه وكذلك ما فيه الدهن ليستخرج دهنه ، ومنه العصارة ما يخرج بالعصر ، والاعتصار شرب الماء قليلاً قليلاً عند الغصص ، والمعصر الكاعب ، لانه يجري فيها ماء الشباب ، والمعصرات السحائب التي تنعصر بالمطر ، والاعصار ريح تثير السحاب او الغبار ، لانه كالمعتصر منها . والعصرة المنجاة كنجا الغصان باعتصار الماء ، والعصرة الدنية في النسب ، لانه كالمعتصر من الرطب . وقرىء يعصرون بضم الياء ، وفتح الصاد شاذاً ومعناه يمطرون .

وقال البلخي : وهذا التأويل من يوسف يدل على بطلان قول من يقول : ان الرؤيا على ما عبرت اولاً ، لانهم كانوا قالوا هي أضغاث احلام ، فلو كان ما قالوه صحيحاً لما كان يتأوّلها .

(١) مر هذا البيت في ١ : ٤١٢

(٢) تفسير القرطبي ٩ : ٢٠٤ ومجاز القرآن ١ : ٣١٣ وتفسير القرطبي ١ : ٢٢٦

قوله تعالى :

(وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) (٥٠) آية بلا خلاف .

قرأ البرجمي والسلموني « النسوة » بضم النون . والباقون بكسرها ، وهما لغتان . والكسر افصح . وفي الكلام حذف ، لأن تقديره إن الناجي الذي استفتى يوسف عن تفسير رؤيا الملك حين فسره له ، رجع الى الملك واخبره به ، وعرّفه ان ذلك فسره له يوسف ، فقال الملك عند ذلك: ائتوني به والكلام دال عليه ، وذلك من عجائب القرآن ، وعظم فصاحته . ومعنى « ائتوني به » . أجيئوني به « فلما جاءه الرسول » يعني رسول الملك ، قال له يوسف ارجع الى سيدك . «فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن » وانما رد الرسول ليبين للملك براءته مما قرف به ، وانه حبس بظلم من غير بينة ، ولا اعتراف بذنب ، وقال قتادة : طلب العذر .

وقوله « ان ربي بكيدهن عليم » قيل في معناه قولان :

احدهما – وهو الصحيح – انه أخبر ان الله تعالى عالم بكيد النسوة .

والثاني – ان سيدي العزيز عليم بكيدهن . والاول عليه اكثر المفسرين . والملك هو القادر الواسع المقدور الذي اليه السياسة والتدبير ، وكان هذا الملك ملك مصر . ويجوز ان يمكّن الله تعالى الظالم من الظلم ، وينهاه عن فعله ، ولا يجوز أن يملكه الظلم ، لأن ما يملكه ، فقد جعله له ، وذلك لا يليق بعدله . والتمليك تمكين الحي مما له ان يتصرف فيه في حكم الله تعالى بحجة العقل والسمع ، وعلى هذا اذا مكّن الله تعالى من الظلم او الغصب لا يكون ملكه ، لأنه لم يجعل له التصرف فيه ، بل زجره عنه ، قال الرماني : يجوز أن يسلب الله تعالى الخلق

ما ملكهم في الدنيا بسوء افعالهم ، كما يسلب بعضهم بكفرهم ، والا فهو له ، فان اخذ بالموت عنه على طريق العارية ثم يرد اليه ويعوض مما فاته بكرمه تعالى ، وقيل : إن يوسف انما قال ما بال النسوة جميع النساء ولم يخص امرأة العزيز حسن عشرة منه ، وقال قوم ذلك يدل على ان كل واحدة منهن دعته الى نفسها مثل امرأة العزيز .

قوله تعالى :

(قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ) (٥١) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى انه حين رجع الرسول الى الملك برسالة يوسف جمع النساء وقال لهنّ ما خطبكن اذ راودتنّ يوسف عن نفسه، والخطب الأمر الذي يخاطب به صاحبه ، مما يستعظم شأنه ، يقال هذا خطب جليل ، وما خطبك ، وما شأنك ؟.

وقوله « قلن حاش لله » حكاية عما اجابته به النسوة ، فانهن قلن للملك على وجه التنزيه « حاش لله » اي عياذ بالله ، وتنزيهاً من هذا الأمر ، كقوله « معاذ الله » . وقد يستثنى به، فيقال أتاني القوم حاشى زيد، بمعنى إلا زيداً « ما علمنا عليه من سوء » اي لم نعلم عليه امراً قبيحاً . قالت امرة العزيز عند ذلك معترفة بخطئها « الآن حصحص الحق » أي بان الحق يقال حصحص الأمر وحصحص الحق اي حصل على امكن وجوهه ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ، واصله حصّ من قولهم حص شعره اذا استأصل قطعة منه ، والحصة اي القطعة

من الشيء، فمعنى « حصحص الحق » انقطع عن الباطل بظهوره . ومثله كبوا وكبكبوا ، وكف الدمع وكفكفه ، ورده وردده ، فهو زيادة تضعيف دل عليها الاشتقاق ذكره الزجاج . واصله من حصحص البعير ثفناتة في الارض إذا برك حتى يستبين آثارها فيها . قال حميد بن ثور الهذلي :

وحصحص في صمّ القنا ثفناتة ورام القيام ساعة ثم صمما[1]

ويقال انحص الوبر عن جنب البعير وانحت اذا انحسر ومعنى «انا راودته» انا طالبته بذلك ، « وانه لمن الصادقين » في امتناعه من ذلك .

قوله تعالى :

(ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَائِنِينَ) (٥٢) آية بلا خلاف .

اختلفوا في من هذا الكلام حكاية عنه ؟ فقال اكثر المفسرين كالحسن ومجاهد وقتادة والضحاك : انه من قول يوسف « ذلك » يعني ذلك الامر من فعلي من ردّ الرسول ليعلم العزيز اني لم اخنه بالغيب ، وقطع الحكاية عن المرأة ، وجاز ذلك لظهور الكلام الدال على ذلك ، كما قال « وكذلك يفعلون » وقبله حكاية عن المرأة « وجعلوا أعزة اهلها اذلة »[2] وكما قال « فماذا تأمرون» ومثله حكاية قول الملأ « يريد ان يخرجكم من ارضكم بسحره »[3] وقال الجبائي والبلخي: انه من قول المرأة . والمعنى ان اعترافي على نفسي بذلك ليعلم يوسف اني لم اخنه بالغيب ، لان العزيز سألها ولم يكن يوسف حاضراً وكلا الأمرين جائزان ، والاول أشبه، والخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر، وضد الخيانة الامانة،

---

(١) اللسان (صمم) وروايته :

وحصحص في صم القنا ثفناته وناء بسلمى نوءة ثم صمما

(٢) سورة النمل آية ٣٤ (٣) سورة الاعراف آية ١٠٩ - ١١١

وهي تأدية الحق على ما وقع به العقد . والفرق بين الخيانة والغدر أن الخيانة تكون على وجه السر والغدر نقض العهد بخلاف الحق جهراً ، والكيد الاحتيال في ايصال الضرر الى صاحبه ، كاده يكيده كيداً ، فهو كائد .

واللام في قوله « ليعلم » لام (كي) ومعناها تعليق ما دخلت عليه بالفعل الذي قبله ، بمعنى انه وقع من اجله ، وانما يتعلق بذلك الارادة . وقوله « وان الله لا يهدي كيد الخائنين » اي لا يدعوهم اليها ولا يرغبهم فيها وانما يفعلونها بسوء اختيارهم .

قوله تعالى :

(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٥٣) آية بلا خلاف .

هذا اخبار عما قال يوسف على وجه التواضع لله لست أبريء نفسي من السوء ، والتبرئة ازالة الشيء عما كان لازماً له ، لان النفس امارة بالسوء اي تنازع الى السوء ، فلست ابرىء نفسي من ذلك ، وان كنت لا اطاوعها فيما نازعت اليه ، والأمّارة الكثيرة الامر بالشيء ، والنفس بهذه المنزلة لكثرة ما تشتهيه وتنازع اليه مما يقع الفعل لأجله ، وهذا مجاز في الاصل غير انه كثر استعماله في العرف ، فيقال نفسي تأمرني بكذا وتدعوني الى كذا من جهة شهوتي له ، والا فلا يصح ان تأمر الانسان نفسه ، لانه يقتضي الرتبة ، لانه قول القائل لمن دونه (افعل) وذلك لا يصح بين الانسان وبين نفسه ، واكثر المفسرين على ان هذا من قول يوسف . وقال ابو علي الجبائي هو من كلام المرأة .

وقوله « الا ما رحم ربي » استثناء من الانفس التي يرحمها الله ، فلا تدعو الى القبيح ، بان يفعل معها من الالطاف ما تنصرف عن ذلك .

وقوله « ان ربي غفور رحيم » تمام الحكاية عن قائل ذلك انه اعترف بان الله تعالى غفور رحيم اي ساتر عليهم ذنوبهم رحيم بهم بان يعفو عنهم ويقبل توبتهم .

قوله تعالى :

(وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) (٥٤) آية بلا خلاف.

هذه السياقة تدل على ان ما مضى حكاية عن قول المرأة ، لان يوسف لم يكن حاضراً ذلك المجلس ، وان الملك حين سمع جميع ذلك قال ائتوني بيوسف استخلصه لنفسي ، وطلب هذا الملك ان يكون يوسف له وحده دون شريك فيه ، والاستخلاص طلب خلوص الشيء من شائب الاشتراك . وقال ابن اسحاق كان هذا الملك : الوليد ابن ريان .

وقوله « فلما كلمه » فيه حذف ، وتقديره انه لما أمر باحضاره فأحضر قال له بعد ان كلمه « انك » يا يوسف « اليوم لدينا مكين امين » اي عرفنا امانتك ، وثقتك ، وانت على حالة يتمكن من كان عليها مما يريد ، يقال لفلان مكانة عند الملك ، وهو مكين عنده ، واصله التمكن من الامر (والامين) الموثوق به ، والامانة حالة ثقة يؤمن معها نقض العهد بالفتح ، وذلك كالعقد في الوديعة وفي التخلية والعقد في الدين ، والعقد في القيام بالحق .

قوله تعالى :

(قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) (٥٥) آية بلا خلاف .

وهذا حكاية ما قال يوسف حين قال له الملك انك اليوم لدينا مكين امين

« اجعلني على خزائن الارض » يعني ارضك ، والالف واللام يعاقبان حرف الكناية ، واراد بذلك الارض التي هي ملكه ويجمع فيها ماله وطعامه ، طلب اليه ذلك ليحفظ ذلك عمّن لا يستحقه ويوصله الى الوجـوه التي يجب صرف الاموال لها ، فلذلك رغب الى الملك فيه ، لان الانبياء لا يجوز ان يرغبوا في جمع اموال الدنيا الا لما قلناه . وقوله « اني حفيظ عليم » معناه حافظ للمال عمن لا يستحقه عليم بالوجوه التي يجب صرفها اليه ، وفي الآية دلالة على جواز تقلد الامر من قبل السلطان الجائر اذا تمكن معه من ايصال الحق الى مستحقه .

قوله تعالى :

(وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ)(٥٦) آية بلا خلاف .

قرأ « نشاء » بالنون ابن كثير وحده . الباقون بالياء .

من قرأ بالنون ، فعلى معنى ان يوسف يتبوء من الارض حيث يشاء ، وطابق بينه وبين قوله « نصيب برحمتنا من نشاء » ، ويكون على احد معنيين :

احدهما – ان تكون المشيئة اسندت اليه ، وهي ليوسف ، لما كانت بأمره وارادته كما قال « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى »[1] فأضاف الرمي الى الله ، لما كان بقدرته وارادته .

والثاني – ان يكون الموضع المتبوء موضع نسك وعبادة او موضعاً يقام فيه الحق ، من أمر بمعروف ، او نهى عن منكر ، ويقوي النون قوله « نصيب برحمتنا من نشاء » .

---

(١) سورة الانفال آية ١٧

ومن قرأ بالياء حمله ، على انه يتبوء يوسف حيث يشاء هو نفسه .

اخبر الله تعالى أنه كما لطف ليوسف حين اخرجه من السجن وخلصه من المهالك كذلك مكنه من التصرف ، والمقام في الارض حيث يشاء كيف يشاء ، وقال الجبائي : كان هذا التمكن ليوسف ثواباً من الله على طاعته واحسانه الذي تقدم منه في الدنيا . وقال غيره : ليس في ذلك دلالة على انه ثواب ، ويجوز أن يكون تفضلاً عليه بذلك من غير ان ينقص من ثوابه شيء ، والتمكين الاقدار بما يتسهل به الفعل من رفع الموانع وايجاد الالات والالطاف وغير ذلك مما يحتاج اليه في الفعل . والتبوء هو اتخاذ منزل يرجع اليه واصله الرجوع من « باؤا بغضب من الله » قال الشاعر :

فان تكن القتلى بواء فانكم فتى ما قتلتم آل عوف بن عامر[1]

اي يرجع بدم بعضها على بعض ، فان هذا المقتول لا كفاء لدمه . وقوله « نصيب برحمتنا من نشاء » اخبار منه تعالى انه يفعل رحمته بمن يشاء من عباده على وجه التفضل عليهم والاحسان اليهم ، وانه لا يضيع اجر الذين يحسنون افعالهم ويفعلون ما أمرهم الله به على وجهه ، بل يثيبهم على ذلك .

والاحسان على ثلاثة أوجه :

احدها — ان يحسن الى غيره ، فذلك انعام .

وثانيها — ان يحسن الى نفسه بأن ينفعها نفعاً حسناً .

وثالثها — ان يفعل حسناً مبهماً لا يضيفه الى نفسه ولا الى غيره .

واللام في قوله « مكنا ليوسف » يحتمل ان يكون مثل قوله «ردف لكم»[2] و « للرؤيا تعبرون »[3] بدلالة قوله « مكناهم فيما ان مكناكم فيه »[4] وقوله « مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم »[5] « ويتبوء » في موضع نصب على الحال .

---

(١) قائلة ليلى الاخيلية ، قد مر في ١ : ٣٧٨ وهو في اللسان (بوأ)
(٢) سورة النمل آية ٧٢ (٣) سورة يوسف آية ٤٤
(٤) سورة الاحقاف آية ٢٦ (٥) سورة الانعام آية ٦

قوله تعالى :

(وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (٥٧) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى ان الثواب الذي يثيب الله به الذين يؤمنون به ويتقون معاصيه في الآخرة ، وهي النشأة الثانية ، فان الدنيا هي النشأة الاولى والآخرة خير واعظم نفعاً من منافع الدنيا التي تنالها الكفار .

وقال ابو علي الجبائي: اجر الآخرة خير من ثواب الدنيا ، لان ما تقدم في الآية الاولى يقتضيه .

قوله تعالى :

(وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) (٥٨) آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن اخوة يوسف الذين كانوا ألقوه في الجب ، وباعوه بثمن بخس انهم جاؤه ودخلوا عليه ، فعرفهم يوسف ولم يشك فيهم ، ولم يعرفه اخوته بل كانوا جاهلين بحاله منكرين له ، وكان سبب مجيئهم اليه مجيء سني القحط التي كان ذكرها يوسف في تعبير الرؤيا ، فجاؤا الى مصر يمتارون كما جاء غيرهم من الناس – في قول السدي ، وابن اسحق وغيرهما ، وليس لأحد ان يقول: كيف يجوز مع كمال العقل ان يعرفهم يوسف ، وهم يجهلونه مع انه نشأ معهم ؟.

وذلك ان عنه جوابين .

احدهما – قال الجبائي : انهم فارقوه وهو صبي امرد ، فجاؤوه وقد التحى وكبر وتغيرت حاله ، فلم يعرفوه . وقال البلخي : ان ذلك مما خرق الله تعالى فيه العادة لنبيه (ع).

قوله تعالى :

(وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) (٥٩) آية بلا خــلاف .

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان يوسف لما أمر بتجهيز اخوته فجهزهم، والجهاز فاخر المتاع الذي يحمل من بلد الى بلد ، ومنه قولهم : فلان يجهز، ومنه جهاز المرأة ، قال لهم جيئوني « بأخ لكم من أبيكم » وانما قال ذلك ، لانه كان اخا يوسف لابيه وامه ، وهو ابن يامين – في قول قتادة وغيره – وكان اخاهم لابيهم خـاصة .

وقوله « الا ترون اني أوفي الكيل » خطاب من يوسف لاخوته ، فقال أليس قد عرفتم عدلي وإيفائي الكيل من غير بخس له . والوفاء تمام الامر على ما يوجبه الحق، ويكون ذلك في الكيل، وفي الوزن، وفي الذرع، وفي العدّ، وفي العقد. و (الكيل) مصدر كال يكيل ، وهو فصل المكيال بملئه . و (المكيال) مقدار يفصل عليه ما يطرح فيه .

وقوله « وانا خير المنزلين» فيه قولان: احدهما - قال مجاهد: خير المضيفين. والثاني – خير المنزلين في سعر الطعام . و(المنزل) واضع الشيء في منزلته، وقد يكون للشيء منزلتان، احداهما اولى من الاخرى، فمن وضعها في الاولى فهو خير المنزلين كسعر الطعام الذي يضعه في اولى منزلتيه .

قوله تعالى :

(فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ) (٦٠) آية بلا خلاف .

ثم قال يوسف لاخوته بعد ان قال لهم « ائتوني بأخ لكم من ابيكم » متى ما لم تفعلوا ما امرتكم به من اتيانكم بأخيكم ، فأني لا اكيل لكم الطعام ، ولا ابايعكم ، ومع هـذا فلا تقتربون يعني لا تجيئوني ، والذي اقتضى طلبه الاخ من ابيهم انه فاوضهم وساءلهم عن اخبارهم واحوالهم ، واخبار اهلهم ، كما يتساءل الناس عن مثل ذلك ، ودل الكلام على ذلك ، وهو من عجيب فصاحة القرآن ، وإنما استجاز ان يطلب اخاهم ولا معاملة بينه وبينهم ، لأنهم ذكروا ان اباهم آثره عليهم بالمحبة مع حكمته وفضله ، احب ان يراه وتطلعت نفسه الى ان يعلم السبب فيما يقتضي هذه الحال ، وانما اخفاهم امره ولم يطلعهم على ما انعم الله عليه ، لانه خاف ان يكتموا اباه امره لما تقدم لهم فيه واحب ان يجري تدبيره على تدريج لئلا يهجم عليه ما يشتد معه اضطرابهم .

قوله تعالى :

(قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) (٦١) آية بلا خلاف .

هذا حكاية ما اجاب به اخوة يوسف حين حثهم على الاتيان بأخيهم بأنهم «قالوا سنراود عنه اباه» ونحن نفعل ذلك، والمراودة المطالبة من قولهم راد يرود ، فهو رائد اي طلب ، وفلان يرتاد موضعاً اي يطلبه ، وفي المثل (الرائد لا يكذب اهله) ومنه الارادة وهي طلب الفعل بما هو كالسبب له ، لان الداعي الى الفعل داع الى ارادته، لأنْ باجتماع الامرين يقع الفعل من عالم قادر، والفاعل من جعل الشيء موجوداً بعد ان كان معدوماً ، وكل فاعل جاعل ، وليس كل جاعل فاعلاً ، لأنه قد يكون جاعلاً على صفة ، كالجاعل للجسم متحركاً . قال الرماني : الفرق بين العامل والفاعل ان العامل للشيء قد يكون المغير له ، والفاعل لا يكون إلا الموجد له ، والفرق بين العامل والجاعل ان العامل لا

يكون الا مغيراً له ، وقد يكون الجاعل غير مغير له ، لانه يجعله على صفة بحكمه فيه كالذي يجعله كافراً بحكمه انه كافر .

وقال ابن اسحاق : الذي وعدوا بفعله الاجتهاد في المصير بأخيهم اليه لانهم جوّزوا انلا يجيبهم ابوهم الى الارسال به معهم. وقال ابو علي: وعدوه بان يصيروا به اليه ان ارسله ابوه معهم ، فالعدة به كانت واقعة بشرط .

قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٦٢) آية بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر «لفتيانه» الباقون «لفتيته» قال ابو الحسن كلام العرب قل : لفتيانك ، وما فعل فتيانك ، وان كانوا ايضاً في أدنى العدد إلا ان يقولوا : ثلاثة وأربعة .

اخبر الله تعالى عن يوسف انه أمر فتيانه بأن يجعلوا بضاعتهم في رحالهم . و (الفتى) الشاب القوي ، وجمعه فتية وفتيان . وقال قتادة : كانوا غلمانه . وقال غيره : كانوا مماليكه . و (البضاعة) : قطعة من المال التي للتجارة . و (الرحال) جمع رحل وهو الشيء المعد للرحيل من وعاء المتاع او مركب من مراكب الجمال، وجمعه في القليل ارحل وفي الكثير رحال . وانما جعل بضاعتهم في رحالهم، ليقوي دواعيهم في الرجوع اليه اذا رأوا إكرامه اياهم،ورد بضاعتهم اليهم مع جدوب الزمان وشدته . ويجوز ان يكون جعلها في رحالهم ليرجعوا اليه متعرّفين عن سبب ردها . وقال قوم معناه ليعلموا اني لست اطلب أخاهم للرغبة في مالهم .

وقوله «لعلهم يعرفونها» معناه لكي يعرفونها، وانما قال (لعل) لأنه جوز أن تشتبه عليهم ، فيمسكوا فيها « إذا انقلبوا » أي اذا رجعوا الى اهليهم « لعلهم

يرجعون» اي لكي يرجعوا، واللّام لام الغرض، وانما اتى بـ (لعل) لانه جوز أن لا يعودوا .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا رَجَعُوا إلى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانا مُنِعَ مِنَّـا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (٦٣) آيـة بلا خلاف .

قرأ (يكتل) بالياء حمزة والكسائي . الباقون بالنون .

من قرأ بالياء رد الكناية الى أخو يوسف ، ومن قرأ بالنون رده الى جماعتهم، لقوله « ونمير اهلنا » .

حكى الله تعالى عن أخوة يوسف أنهم حين رجعوا الى ابيهم وحصلوا معه ، قالوا يا أبانا منعنا الكيل « فأرسل معنا أخانا » اي ابعثه « معنا نكتل » ونحن نحفظه ونحتاط عليه . والاكتيال هو الكيل للنفس ، وهو افتعال من الكيل ، وانما قال «منع منا الكيل ،» وهو قد كال لهم ، لان المعنى منع منا الكيل ان لم نأت باخينا. لقوله «فلا كيل لكم عندي ولا تقتربون» وهو قول الحسن والزجاج والجبائي . وهو الصحيح .

وقال قوم : معناه إنه لما كال لهم كال لكل واحد كيل بعير ومنعهم تمـام الكيل الذي أرادوه .

قوله تعالى :

(قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَٱللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ) (٦٤) آية بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر « حافظاً » على وزن فاعل . الباقون «حفظاً» على المصدر .

وهذا حكاية ما قال يعقوب لولده حين قالوا له « ارسل معنا اخانا » فانه قال لهم «هل آمنكم عليه» والامن إطمئنان القلب الى سلامة الأمر يقال: أمنه يأمنه. أمناً وائتمنه يأتمنه ائتماناً. ومنه قوله «فليؤد الذي اؤتمن أمانته»[1] ثم أخبر تعالى، فقال « فالله خير حافظاً » فمن قال على لفظ الفاعل نصبه على الحال . ويحتمل ان يكون نصبه على التمييز، ولم ينصبه على الحال، والحال يدل على انه تعالى الحافظ. والتمييز يرجع الى من يحفظ بأمره من الملائكة وكلا الوجهين أجازهما الزجاج .

ومن قرأ على المصدر نصبه على التمييز لا غير ، ولو قرىء (خير حافظ) على الاضافة لدل على ان الموصوف حافظ ، وليس كذلك التمييز ، وحقيقة (خير من كذا) انه أنفع منه على الاطلاق ، وانه لا شيء انفع منه، قال ابو علي الفارسي: وجه قراءة من قرأ (حفظاً) بغير ألف انه قد ثبت من قولهم « ونحفظ أخانا » وقولهم « وانا له لحافظون » انهم اضافوا الى انفسهم «حفظاً» فالمعنى على الحفظ الذي نسبوه الى انفسهم ، وان كان منهم تفريط في حفظ يوسف ، كما قال « اين شركائي »[2] ولم يثبت لله شريك، ولكن على معنى الشركاء الذين نسبتموهم اليّ، فكذلك المعنى على الحفظ الذي نسبوه الى انفسهم ، والمعنى «فالله خير حفظاً» من حفظكم الذي نسبتموه الى انفسكم . ومن قرأ (حفظاً) فعلى التمييز دون الحال .

قوله تعالى :

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) (٦٥) آية بلا خلاف.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٨٣ .

(٢) سورة النحل آية ٢٧ ، وسورة القصص آية ٦٢ ، ٧٤ .

أخبر الله تعالى عن اخوة يوسف أنهم لما فتحوا متاعهم، والمتاع مبيع التجار مما يصلح للاستمتاع ، فالطعام متاع والبر متاع وأثاث البيت متاع ، والمراد به ههنا أوعية الطعام « وجدوا بضاعتهم ردت اليهم » اي اصابوا بضاعتهم التي كانوا وزنوها بشري الطعام قد جعلت في وسط امتعتهم ، فلما رأوا ذلك «قالوا يا أبانا ما نبغي » وقيل في معناه قولان :

احدهما – قال قتادة : ما نطلب ؟ على وجه الاستفهام .

والثاني– قال الجبائي: ما نبغي: فيما أخبرناك به عن ملك مصر ليس بالكذب ودليله ان هذه بضاعتنا ردت الينا ، واجاز الفراء ، والزجاج كلا الوجهين ، وقولهم « ونمير اهلنا » اي نجلب لهم الميرة ، والميرة الاطعمة التي تحمل من بلد الى بلد يقال : ماره يميره ميراً اذا حمل له الطعام الى بلده قال الشاعر :

بعثتك مائراً فمكثت حولاً متى يأتي غياثك من تغيث[٢]

وقوله « ونزداد كيل بعير » اي ويعطينا فضل كيل بعير ، لمكان أخينا « ذلك كيل يسير » وقيل في معناه قولان :

احدهما – قال الجبائي : ان ذلك كيل قليل ، لا يكفينا نحتاج ان نضيف اليه كيل بعير اخينا .

الثاني – قال الحسن: ان ذلك متيسر على من يكيل لنا، واليسر إتيان الخير بغير مشقة ، وضده العسر . وكذلك اليسير والعسير .

قوله تعالى :

(قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي

---

(٢) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ / ٨ وتفسير القرطبي ٩ / ٢٢٤ واللسان (غوث) وروايته :

بعثتك مائراً فلبثت حولاً متى يأتي غوائك من تغيث

بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) (٦٦) آية بلا خلاف.

هذه حكاية ما قال يعقوب -لبنيه حين سألوه إنفاذ أخيهم معهم، وان بضاعتهم ردت اليهم، وانه ان انفذه معهم ازدادوا كيل بعير- اني لست «ارسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله» ومعناه حتى تحلفوا لي بالله لتجيؤني به . والايتاء الاعطاء آتاه يؤتيه ايتاء، والاتيان به المجيء به ، والموثق العقد المؤكد بالقسم ، وانما قال موثقاً من الله ، وانما هو موثق من انفسهم ، لأن المعنى موثقاً من جهة اشهاد الله او القسم بالله ، فاما على انفسهم ، فهو العقد عليها بما لا يجوز حله لها .

وقوله «الا ان يحاط بكم» موضع (أن) نصب بأنه مفعول له ، وتقديره إلا لأحاطة بكم ، كما يقول القائل : ما تأتيني إلا ، لأخذ الدراهم ، وما تأتيني إلا ان تأخذ الدراهم -ذكره الزجاج- والاحاطة أصله ضرب السور حول الشيء. ومنه قيل يعلمه علم احاطة اي على التحديد . والمعنى ههنا إلا ان يحال بينكم وبينه .

وقوله «فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل» معناه انهم لما أجابوه الى اليمين ، وحلفوا له واشهدوا على انفسهم بذلك قال يعقوب «الله على ما نقول وكيل» اي حافظ وقيم به . والوكيل القيم بالتدبير والقائم بالقسط فهو العدل في حكمه .

قوله تعالى :

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ

إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) (٦٧)

آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن يعقوب أنه قال لبنيه حين أنفذ اخاهم معهم « يا بني لا تدخلوا من باب واحـد وادخلوا من ابواب متفرقة » وقيل في سبب قوله ذلك قولان :

احدهما - قال ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، والسدي ، والحسن : انه خاف عليهم العين ، لانهم كانوا ذوي صور حسنة وجمال وهيبة .

وقال الجبائي: انه خاف عليهم حسد الناس لهم ، وان يبلغ الملك قوتهم وشدة بطشهم فيقتلهم خوفاً على ملكه ، وانكر العين . وقال لم تثبت بحجة . وانما هو شيء يقوله الجهال العامة .

والذي قاله غير صحيح في امر العين بل غير منكر ان يكون ما قال المفسرون صحيحاً ، وقد روي عن النبي ﷺ انه قال : (العين حق) ، وانه عوذ الحسن والحسين (ع) ، فقال في عوذته : (وأعيذكما من كل عين لامّة) وقد رويت فيه أخبار كثيرة ، وقد جرت العادة به . واختاره البلخي ، والرمـاني واكثر المفسرين ، وليس يمتنع ان يكون الله تعالى أجرى العادة لضرب من المصلحة أنه متى ما نظر انسان الى غيره على وجه مخصوص اقتضت المصلحة اهلاكه أو إمراضه أو اتلاف ماله ، فالمنع من ذلك لا وجه له .

وقوله « وما اغني عنكم من الله من شيء » اعتراف منه بأنه لا يملك الامر ، ولا يغني عمن يريده الله بسوء . والغنى ضد الحاجة .

وقوله « ان الحكم الا لله » اي ليس للفصل بين الامور على مـا تقتضيه الحكمة الا الله .

وقوله « عليه توكلت » اي فوضت امري الى الله يدبره كيف يشاء . والتوكل من صفات المؤمنين .

قوله تعالى :

(وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (٦٨) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى ان اخوة يوسف ، لما وردوا عليه،ودخلوا عليه من ابواب متفرقة حسب ما امرهم به ابوهم ورغبهم فيه لم يكن يعقوب يغني عنهم من الله شيئاً الا حاجة في نفس يعقوب قضاها من خوف العين عليهم أو الحسد على اختلاف القولين ، و (الا ّ) بمعنى (لكن) لأن ما بعدها ليس من جنس ما قبلها .

وقوله « وانه لذو علم لما علمنا » اخبار من الله تعالى ان يعقوب عالم بما علمه الله . وقيل في معناه قولان :

احدهما - ان ما ذكره الله من وصفه بالعلم كان ترغيباً فيه .

والاخر - انه ليس ممن يعمل على جهل،بل على علم، براءة له من الامر لولده بما لا يجوز له ، ولكن « اكثر الناس لا يعلمون » ذلك من حاله ، كما علمه الله .

قوله تعالى :

(وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (٦٩) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى عن اخوة يوسف أنهم لما دخلوا على يوسف آوى يوسف أخاه اليه، والايواء ضم المحبوب وتصييره الى موضع الراحة . ومنه المأوى المنزل الذي يأوي اليه صاحبه للراحة فيه . وقال الحسن وقتادة : ضمه اليه وأنزله معه ، وقد اجتمعت في (آوى) حروف العلة كلها الالف والواو والياء ، والعلة في ذلك

أن الهمزة بمنزلة الحرف الصحيح ، لانها ليست حرف مد ولين ، فجاز ذلك على قلبه لهذه العلة. وقال له حين اواه الى نفسه «إني انا أخوك» يوسف «فلا تبتئس بما كانوا يعملون» وإنما قال له ذلك ، لانه وإن كان علم ان له أخاً من أبيه وأمه إلا انه لا يعلم انه هذا ، والابتئاس والاكتئاب والاغتمام نظائر ، ومعناه اختلاط البؤس بالحزن ، وانما جاز ان يأخذه بالصواع مع تعريفه انه أخوه لامرين :

احدهما – انه كان بمواطأة منه له .

والثاني – قال وهب بن منبه : انه أراد أنا أخوك مكان أخيك الذي هلك . والأول اصح .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) (٧٠) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى ان يوسف لما جهز أخوته بجهازهم يعني الطعام الذي اشتروه ليحملوه الى بلدهم . ومنه جهاز المرأة « جعل السقاية في رحل أخيه » والسقاية المراد بها ههنا صواع الملك الذي كان يشرب فيه . وقيل: كان من فضة . وقال ابن زيد كان كأساً من ذهب . وقيل انـــه صير مكيالاً للطعام . والسقاية في الأصل الاناء الذي يسقى فيه ، والرحل آلة السفر من وعاء أو مركب، والمراد ههنا وعاء أخيه الذي يحمل فيه طعامه .

وقوله «ثم أذن مؤذن» اي نادى مناد. والايذان الاعلام بقول يسمع بالاذن. ومثله الأذن ، والاذن الاطلاق في الفعل بقول يسمع بالاذن ، و (والعير) قافلة الحمير – في قول مجاهد. وقيل هي القافلة التي فيها الاجمال . والاصل الحمير إلا انه كثر حتى صارت تسمى كل قافلة محملة عيراً تشبيهاً . وقوله «انكم لسارقون» فالسرقة أخذ الشيء من حرز في خفى بغير حق، إلا ان الشرع قدر أنه لا يتعلق بها القطع

إلا إذا سرق مقداراً معيناً على خلاف بين الفقهاء ، فعندنا هو مـــا قدره ربع دينار ، وعند قوم عشرة دراهم ، وعند آخرين ثلاث دراهم .

وقيل في وجه ندائهم بالسرقة مع انهم لم يسرقوا شيئاً قولان :

احدهما – ان ذلك من قول اصحابه ، ولم يأمرهم يوسف بذلك ، ولا علم . وإنما كان أمر بجعل السقاية في رحل أخيه على ما أمره الله تعالى ، فلما فقدهـا الموكلون بها اتهموهم بها . وهو اختيار الجبائي .

والثاني – انهم نادوهم على ظاهر الحـــال فيما يتغلب على ظنونهم ولم يكن يوسف أمر به ، وإن علم انهم سيفعلونه . وقال قوم قولاً ثالثاً : ان معناه إنكم سرقتم يوسف من أبيه حين طرحتموه في الجب . وقال آخرون : ان ذلك خرج مخرج الاستفهام ، وليس في جعل السقاية في رحل أخيه تعريضاً لأخيه بأنـه سارق ، لانه إذا كان ذلك يحتمل السرقة ، ويحتمل الحيلة فيه حتى يمسكه عنده ، فلا ينبغي ان يسبق احد الى اعتقاد السرقة فيه ، وليس في ذلك ادخال الغم على أخيه لانا بينا انه كان اعلمه إياه ، وواطأه عليه ، ليتمكن من امساكه عنده على ما أمره الله تعالى به ، والنداء وان كان للعير فالمراد به اهل العير ، كما قال « واسأل القرية » وإنما أراد اهلها .

قوله تعالى :

(قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) (٧٢)

آيتـــان .

حكى الله تعالى عن اهل العير انهم حين سمعوا نداءهم بأنكم سارقون أقبلوا عليهم وقالوا اي شيء فقدتموه ، فقال لهم اصحاب يوسف انا فقدنا صواع الملك ، ومن جاء به ورده ، فله حمل بعير من الطعام . والاقبال مجيء الشيء الى جهة المقابلة

بوجهه، وضده الادبار . ومثله التوجه، والتحاذي. والفقد غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يدرى اين هو ، والفاقد من الوحش هي التي تغيب ولدها عنها قـــال الشاعر :

بكاء ثكلى فقدت حميماً　　　فهي ترثي بأبي وابني ما[١]

والصواع مكيال الطعام. وكان هذا الصواع كأساً للملك يشرب فيه وجمعه صيعان وأصواع . وقـــال ابن عباس : كان من فضة ، و (الحمل) بالكسر على الظهر وبفتح الحاء في البطن ، وجمعه احمال وحمول . والبعير الجمل وجمعه بعران وابعرة . وقوله «وانا به زعيم» اي كفيل به، وضمين له ، وقائل ، قال الشاعر:

فلست بآمن فيهـا بسلم　　　ولكني على نفسي زعيم[٢]

وإنما قال وانا به زعيم وقبله ذكر جمع ، لأن زعيم القوم متكلم عنهم فكأنه قد كلم بذلك جميعهم قالت ليلى الا خيلية :

حتى اذا برزوا اللواء رأيته　　　تحت اللواء على الخميس زعيما[٣]

وذلك انه زعيم القوم لرئاسته ، زعم زعامة وزعاماً إذا صار رئيساً ، قال ابو علي : اصله القول .

قوله تعالى :

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَـا كُنَّا سَارِقِينَ) (٧٣) آية بلا خلاف.

هذا حكاية ما اجاب به اهل العير لما سمعوا النداء ، وما يدل على رد الصواع

---

(١) قائلة رؤبة اللسان (بني) ويروى (ترثي بأبا وابنا ما) .
(٢) تفسير الطبري (الطبعة الأولى) ١٣ : ١٣ ومجاز القرآن ١ : ٣١٥ .
(٣) تفسير القرطبي ٩ : ٢٣٢ وسمط اللالي : ٤٣ وتفسير الطبرى ١٣: ١٣ وامالي السيد المرتضى ١ : ٤٩٧ حاشية .

انهم اقسموا بالله انا لم نجيء للافساد في الارض وإنا لم نكن سارقين . والفساد اضطراب التدبير على وجه قبيح ، ونقيضه الصلاح . ويقال فسد الشيء اذا تغير الى حال تضر كفساد الطعام ، وغيره من الأمور، وقوله « تالله » التاء بدل من بدل، لأنها بدل من الواو والواو بدل من الباء، فضعفت عن التصرف، فاختصت بدخولها على اسم الله لا غير دون غيره من الاسماء ، لانــه لا يقال (تالرحمن) ودخلت التاء في تالله على وجه التعجب ، لانها لما كانت نادرة في حروف القسم جعلت للنادر من المعاني يتعجب منه . وإنما قالوا « تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض » مع انهم لم يعلموا ذلك لأمرين :

احدهما - لما رأوا من صحة معاملتهم وشده توقيهم لما لا يجوز لهم مما ينبيء عن مقاصدهم .

الثاني - قيل لانهم ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم ظناً منهم أن ذلك عن سهو ، وهذا لا يليق بحال السراق من الناس . وضعف البلخي هذا الوجه ، وقال كيف يكون ذلك وهم لما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم اظهروا السرور به والفرح، وقالوا مـــا نبغي هذه بضاعتنا ردت الينا فكيف يردونها مع ذلك !.

قوله تعالى :

(قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّالِمِينَ) (٧٥) آيتان .

حكى الله تعالى عن اصحاب يوسف انهم قالوا لاهل العير لما سمعوا جحودهم الصواع، وانكروا ان يكونوا سارقين «ما جزاؤه ان كنتم كاذبين» في جحودكم وإنكاركم ، وقامت البينة على انكم سرقتموه ، وما الذي يستحق ان يفعل بمن

سرق؟ فأجابهم اهل العير، وقالوا من ادرك عنده الصواع، ووجد في رحله جزاؤه اخذ من وجد في رحله رقاً ، فهو جزاؤه عندنا كجزائه عندكم لانه كان من عادتهم ان يسترقوا السارق –في قول الحسن، ومعمر، والسدي، وابن اسحاق– وفيه تقديران في الاعراب :

احدهما – جزاؤه استرقاق من وجد في رحله، فهذا الجزاء جزاؤه، كما تقول جزاء السارق القطع ، فهو جزاؤه لتمكين البيان الاخير .

الثاني – جزاؤه من وجد في رحله ، فالسارق جزاؤه، فيكون مبتدأ ثانياً، والفاء جواب الجزاء، والجملة خبر (من) و (من) ههنا يحتمل وجهين :

احدهما – ان يكون بمعنى الذي ، وتقديره جزاؤه الذي وجد في رحله مسترقاً .

والآخر – معنى الشرط ، كأنه قال جزاء السرّاق إن وجد في رحل إنسان منا، فالموجود في رحله جزاؤه استرقاقاً . وقوله «كذلك نجزي الظالمين» اخبار منهم بأن ذلك عادتهم في مجازاة كل ظالم .

وقد قيل في تأويل الآية وجهان :

احدهما – ان يكونوا في ذلك على شرع لنبي من انبياء الله .

والآخر – ان يكون ذلك على عادة الملوك في اهل الجنايات لمصالح العباد لا على حقيقة الجزاء الذي يعمل بأمر الله بدلالة قوله فيما بعد «ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك» فاضاف الجزاء الى دين الملك دون الله .

قوله تعالى :

(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ

إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) (٧٦) آية بلا خلاف.

قرأ يعقوب « يرفع درجات من يشاء » بالياء فيهما على وجه الكناية عن الله . الباقون بالنون فيهما على وجه الاخبار منه تعالى عن نفسه . ونوّن التاء من (درجات) اهل الكوفة . الباقون على الاضافة .

اخبر الله تعالى ان يوسف أمر اصحابه بأن يفتشوا اوعيتهم ورحالاتهم، وان يبدؤوا بأوعية الجماعة قبل وعاء أخيه ليكون ابعد من التهم، فلما لم يجدوا فيها شيئاً امر حينئذ باستخراجها من وعاء أخيه. ثم اخبر الله تعالى انه كاد ليوسف، والكيد التعريض للغيظ ، وكان التدبير على أخوة يوسف حتى اخذ منهم أخوهم بما يوجبه حكمهم ، هو كالتعريض للغيظ من جهة اغتمامهم بما نزل من ذلك الامر بهم . والتقدير كدنا اخوته له بما دبرنا في امره .

وقيل الكيد التعريض للضرّ بما خفي ، وقد يعبر عن الجزاء على المعصية بالكيد ، كقوله « واملي لهم ان كيدي متين » اي عقوبتي .

وقوله « ما كان ليأخذ اخاه في دين الملك » معناه إنه لم يكن يوسف ممن يأخذ اخاه على دين الملك في جزاء من سرق ان يستعبد قال الشاعر :

تقول اذا درأت لها وضيني اهذا دينه ابداً وديني (١)

اي هذا عادته ابداً وعادتي . وقوله « الا ان يشاء الله » قال الحسن إنما قال ذلك لانه تعالى كان امره بذلك بدلالة قوله « نرفع درجات من نشاء » اي بما نريه من وجوه الصواب في بلوغ المراد .

وقوله « وفوق كل ذي علم عليم » قيل في معناه قولان :

---

(١) مر هذا الشعر في ١ : ٣٦ ، ٢ : ١٤٨ ، ٣ : ٤٥ .

احدهما – قال ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير : معناه « وفوق كل ذي علم » معلم «عليم» وهو الله تعالى الغني بنفسه عن التعليم .

والثاني – ان معناه «وفوق كل ذي علم» ممن رفعه الله « عليم » قد رفعه بالعلم من وجه آخر ، فهو أعلم بذلك الامر الآخر .

وفي ذلك دلالة على أنه تعالى عالم لنفسه ، لأنه لو كان عالم بعلم ، لكان فوقه عليم ، وذلك باطل . والضمير في قوله تعالى « استخرجها » عائدة الى السقاية . وقال الزجاج هي عائدة الى الصواع وانه يذكر ويؤنث ، ومن قرأ درجات من نشاء » على الاضافة ، فالمعنى نرفع منازل من نشاء رفع منازله ومراتبه في الدنيا بالعلم على غيره ،كما رفعنا مرتبة يوسف في ذلك على مراتب اخوته .ومن قرأ بتنوين «درجات» فالمعنى نرفع من نشاء درجات ومراتب كما رفعنا ليوسف ، فـ « من » منصوبة على هذه القراءة ، وعلى القراءة الاولى مخفوضة .

قوله تعالى :

(قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) (٧٧) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى عن اخوة يوسف انه لما استخرج الصواع من رحل أخيه ، قالوا إن كان هذا سرق ، فقد سرق أخ له من قبل يعنون يوسف، واختلفوا فيما نسبوه اليه من السرقة من قبل ، قال سعيد بن جبير ، وقتادة ، وابن جريج انه كان سرق صنماً كان لجده أبي امه ، فكسره والقاه على الطريق ، فقال ابن اسحاق : إن جدته خبأته في ثيابه منطقة اسحاق لتملكه بالسرقة محبة لمقامه عندها . وقال قوم انه كان يسرق من طعام المائدة للمساكين . وقوله « فاسرها

يوسف في نفسه » يعني أخفى هذه الكلمة في نفسه ، « ولم يبدهـا لهم » أي لم يظهرها لهم .

واختلفوا فيما اسر في نفسه ، فقال ابن عباس والحسن وقتادة : اسر قوله « انتم شر مكاناً » أي ممن قلتم له هذا « والله أعلم بما تصفون » انه كذب . وقال قوم : أسرها باضمار الكلمة للدلالة عليها قال حاتم طي :

اماوي ما يغني الثراء عن الفتى اذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر[1]

وانما قال إن مكانكم شرّاً لما ظهر من الأمر الذي يقتضي هذا الوصف. والصفة والوصف مصدران بمعنى واحد مثل وعد وعدة ، ووجه وجهة . وقال الحسن لم يكن اخوة يوسف يومئذ انبياء ، وإنما اعطوا النبوة فيما بعد ، وعندنا إنهم لم يكونوا أنبياء في وقت ، لا في الحال ، ولا فيما بعد ، لان ما فعلوه بيوسف من الافعال القبيحة ينافي النبوة لأن النبي لا يقع - عندنا - منه قبيح أصلاً ، لا صغير ولا كبير .

وقال البلخي : كذبوا في قولهم «سرق أخ له من قبل» والله اعلم بما يعنون في ذلك وانه كذب ، وقال لم يصح عندنا ان اخوة يوسف كانوا انبياء وجوز ان يكون الاسباط غيرهم او كانوا من اولادهم .

قوله تعالى :

(قَالُوا يَا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ) (٧٨) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن أخوة يوسف انه لما أخذ يوسف أخـاه منهم مظهراً لاسترقاقه قـالوا له ، وهم لا يعرفونه « يا ايها العزيز » والعزيز المتنع

---

(١) مر هذا البيت في ٥ : ٦٣

بقدرته من ان يضام. والعزّ منع الضيم بسعة المقدور والسلطان «ان له أباً شيخاً كبيراً» يعنون يعقوب أبا اخيهم اي انه كبير السن ، ويجوز ان يريدوا : كبير القدر «فخذ احدنا مكانه» اي خذ واحداً منا عبداً بدله –في قول الحسن وغيره– « إنا نراك من المحسنين » الينا في الكيل ورد بضاعتنا . وقد أملنا ذلك منك .

قوله تعالى :

(قَالَ مَعَاذَ ٱللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ) (٧٩) آية بلا خلاف .

هذا حكاية ما أجاب به يوسف أخوته حين قالوا له خذ واحداً منا بدله ، لأنه قال لهم « معاذ الله » أي اعتصاماً بالله أن يكون هذا . والاعتصام امتناع الهارب من الامر بغيره ، ولذلك يقال اعتصم بالجبل من عدوه . واعتصم بالله من شر عدوه ، فانا لا نأخذ « إلا من وجدنا متاعنا » يعني الصواع « عنده. إنا اذاً لظالمون» ومعناه إنا لو أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده لكنا ظالمين ، واضعين للشيء في غير موضعه . والعرب تقول معاذ الله ، ومعاذه الله وعوّذه الله وعياذ الله . وتقول : اللهم عائذاً بك اي اني أعوذ عائذاً بك ، فكأنه قال استجير بالله من أن آخذ بريئاً بسقيم .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا ٱسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ ٱللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ ٱللهُ لِي

وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ) (٨٠) آية بلا خلاف.

أخبر الله تعالى عن اخوة يوسف حين آيسوا من تسليم أخيهم اليهم، فاليأس ضد الطمع، يقال: يئس يأساً واستيأس استيئاساً، فهو يائس، ومستيئس، وآيس يأس مثله.

وقوله «خلصوا نجيّاً» أي انفردوا من غير أن يكون معهم غيرهم ممن ليس منهم، وهذا من عجيب فصاحة القرآن الخارقة للعادة لأن بقوله «خلصوا» دل على ما قلناه من معنى الكلام الطويل.

واصل الخلوص حصول الشيء من غير شائب فيه من غيره، كخلوص الذهب من الشائب، وسمي الخلاص لذلك، وقوله «نجيّاً» مصدر يدل بلفظه على القليل والكثير، والواحد والجمع. والنجوى مثله، ولذلك قال تعالى في الواحد «وقربناه نجيّاً»(١) وفي الجمع «خلصوا نجياً» قال الشاعر:

إني اذا ما القوم كانوا أنجيه واضطرب القوم اضطراب الارشيه
هناك أوصيني ولا توصي بيه(٢)

والمناجاة رفع المعنى من كل واحد الى صاحبه على وجه خفي. واصل النجو الارتفاع من الارض والمناجاة المسارة ونجي جمعه أنجية، وهم يتناجون. و«قال كبيرهم» يعني اكبرهم، وقال قتادة وابن اسحاق: هوروبيل، فانه كان اكبرهم سناً. وقال مجاهد: هو شمعون، وكان اكبرهم عقلاً وعلماً دون السن. والأول أليق بالكلام والظاهر: «ألم تعلموا أن أباكم قد اخذ عليكم موثقاً من الله» يعني أما علمتم أن أباكم قد حلفكم واقسمتم له بالله في حفظ أخيكم، وقبل هذا ما فرطتم في يوسف أي قصرتم في حفظه. واصل التفريط التقديم من قوله ﷺ (انا فرطكم على الحوض) أي متقدمكم. والموثق والايثاق: العهد الوثيق و (ما) في قوله

(١) سورة مريم آية ٥٢
(٢) مر هذا الشعر في ١ : ٢١٨ وهو في تفسير القرطبي ٩ : ٢٤١

« ما فرطتم » يحتمل ثلاثة اوجه من الاعراب :

احدها – ان تكون منصوبة بـ (تعلموا) ، كأنه قال ألم تعلموا تفريطكم في يوسف .

الثاني – رفع بالابتداء والخبر (من قبل) .

الثالث – ان تكون صلة لا موضع لها من الاعراب ، لأنها لم تقع موقع اسم معرب .

وقوله « فلن ابرح الارض حتى يأذن لي أبي » لست أقوم من موضعي الا أن «يأذن لي ابي او يحكم الله» اي الى ان يحكم الله. وقيل معناه بمجازاة أو غيرهما مما أردّ به أخي ابن يامين على ابيه ، وكانوا تناجوا بمحاربته فلم يتفقوا على ذلك خوفاً من غمّ أبيهم بأن يقتل بعضهم في الحرب وقوله « وهو خير الحاكمين » اخبار من هـذا القائل بأنه تعالى خير الحاكمين والفاصلين ، واعتراف منه برد الامر الى الله تعالى .

قوله تعالى :

(إرْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ) (٨١) آية بلا خلاف .

وهذا اخبار من الله تعالى بما قال احدهم المتخلف عنهم بمصر ، فانه قال لاخوته الباقين ارجعوا الى ابيكم . ويحتمل ان يكون حكاية عما قال اخوة يوسف بعضهم لبعض ، فانهم قالوا ارجعوا الى ابيكم .

وقوله « يا ابانا ان ابنك سرق » يعنون ابن يامين، على ما ظهر لنا من الامر ولا نشهد الا بما علمنا من الظاهر ، فأما الغيب والباطن فلا نعلمه ولا نحفظه . وقيل ما شهدنا إلا بما علمنا في قولنا لهم إن من يسرق يستعبد ، لأن ذلك متقرر عندنا في شرعنا – ذكره ابن زيد – والشهادة خبر عن مشاهدة أو اقرار او حال

ويجوز أن يشهد الانسان بما علمه من جهة الدليل كشهادتنا بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

وقال الرماني : علم الغيب هو علم من لو شاهد الشيء لشاهده بنفسه لا بأمر يستفيده . والعالم بهذا المعنى هو الله وحده تعالى .

وقيل في معنى قوله « وما كنا للغيب حافظين » قولان :

احدهما - ما كنا نشعر ان ابنك سيسرق ، في قول الحسن ومجاهد وقتادة.

والثاني - انا لا ندري باطن الامر في السرقة، وهو الاقوى. وروي عن ابن عباس وقراءة الكسائي في رواية قتيبة عنه «سرّق» بتشديد الراء على ما لم يسم فاعله ، ومعناه انه قذف بالسرقة ، واختار الجبائي هذه القراءة . قال لأنها ابعد من ان يكونوا اخبروا بما لم يعلموا .

قوله تعالى :

(وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) (٨٢) آية بلا خلاف.

هذا حكاية ما قال اخوة يوسف ليعقوب ابيهم حين رجعوا اليه وحكوا له ما جرى ، فقالوا له سل أهل القرية التي كنا فيها ، واهل العير التي اقبلنا فيها عمّا أخبرناك به « وانا لصادقون » فيما اخبرناك به ، وحذف المضاف الذي هو الاصل،واقام المضاف اليه ـ من القرية والعير ـ مقامه اختصاراً لدلالة الكلام عليه. والمراد بالقرية - ههنا - مصر ، في قول ابن عباس والحسن وقتادة . وكل أرض جامعة لمساكن كثيرة بحدود فاصلة تسمى - في اللغة - قرية، وأصلها من قريت الماء اي جمعته، والقرية والبلدة والمدينة نظائر في اللغة. وانما ارادوا بذلك أن من سألت من اهلها أخبروك بما ظهر في هذه القصة . وانا ما كذبناك .

قوله تعالى

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ) (٨٣) آية بلا خلاف.

هذا حكاية ما قال يعقوب لبنيه حين قالوا له ما تقدم ذكره، فإنه قال « بل سولت لكم انفسكم » وقال قتادة معناه بل زيّنت . وقال غيره : معناه سهّلت . والتسويل حديث النفس بما تطمع فيه ، ومنه السؤل ، والمنى ، ويقال اعطاك الله سؤلك، فكأنه قال هـــذا من تقدير النفس فيما تطمع ان يكون . ثم اخبر يعقوب ، فقال « صبر جميل » اي شأني او أمري صبر جميل، فعلى هذا يكون واقع بأنه خبر الابتداء . ويجوز ان يكون ابتداء ، وخبره محذوف ، وتقديره فصبر جميل امثل من غيره، والصبر حبس النفس عما تنازع اليه ممـا لا يجوز . والصابر على هذا الوجه من صفات المدح ، والجميل معناه ــ ههنا ــ مـا يتقبله العقل ، وقد يسمى ما يتقبله الطبـع بأنه جميل .

وقوله «عسى الله ان يأتيني بهم جميعاً» يعني روبيل وابن يامين ويوسف «انه هو العليم الحكيم » معناه - ههنا - انه عليم بحسرتي على فقد اولادي وصدق ما يقولونه من كذبه ، انه الحكيم في تدبيره بخلقه ، عسى ان يأتيني بهم اجمع .

قوله تعالى :

(وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) (٨٤) آية بلا خلاف .

اخبرالله تعالى عن يعقوب أنه تولى عنهم بعد ان قال لهم ما تقدم ذكره بمعنى أعرض بوجهه عنهم ، والتولي والاعراض بمعنى واحد «وقال يا أسفى على يوسف»

اي يا حسرتاه، في قول الحسن وقتادة والضحاك . وانما نادى بالاسف على وجه البيان، لان الحال حال حزن كأنه قال : يا اسف احضر ، فـــانه من احيانك واوقاتك ، ومثله (واحزناه) . والاسف الحزن على ما فات . وقيل : هو أشد الحزن يقال : أسف يأسف أسفاً وتأسف تأسفاً ، وهو متأسف .

وقوله «ابيضت عيناه» فالإبيضاض انقلاب الشيء الى حال البياض. والمعنى انه عمي فلم يبصر شيئاً . والعين حاسة الادراك للمرئيات. والحزن الغم الشديد، وهو من الحزن، وهي الارض الغليظة، والكظيم هو الممسك للحزن في قلبه لا يبثه بمـا لا يجوز الى غيره ، ومنه قوله « والكاظمين الغيظ»[1] اي لا يتسرع بموجبه الى غيره . وقيل كظيم على الحزن لم يقل يا اسفاه – في قول مجاهد والضحاك ، والحسن – وقيل كظيم بالغيظ على نفسه ، لم ارسله مع إخوته – في قول السدي والجبائي .

قوله تعالى :

(قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضـاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) (٨٥)آية بلا خلاف .

هذا حكاية ما قال بنو يعقوب لأبيهم حين رأوه حزيناً « تالله تفتؤ تذكر » معناه لا تزال تذكر، في قول ابن عباس والحسن ومجاهدوقتادة والسدي، يقال فتىء يفتؤ فتئاً وفتوءاً ، وقال اوس بن حجر :

فما فتئت خيل تثوب وتدعي ويلحق منها لاحق وتقطع[2]

اي فما زالت ، وحذفت (لا) من تفتأ ، لانـــه جواب القسم بمعنى نفي

(١) سورة آل عمران آية ١٣٤ .
(٢) ديوانه ٥٨ ومجاز القرآن ١ / ٣١٦ وتفسير القرطبي ٩ / ٢٥٠ ،

المستقبل، لانه لو كان اثباتاً لم يكن بد من اللام والنون، فجاز لما فيه من الايجاز من غير إلتباس ، كما قال امرؤ القيس :

فقلت يمين الله ابرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك واوصالي(١)

والحرض ذو المرض والبلى - في قول ابن عباس ومجاهد - وقال الحسن وقتادة: معناه حتى تكون ذا الهرم او تكون من الميتين . واصل الحرض فساد الفعل والجسم للحزن والحب ، قال العرجي :

اني امرؤ لج بي حب فاحرضني حتى بليت وحتى شفني السقم(٢)

ورجل محرض اذا كان مريضاً قال امرؤ القيس :

ارى المرء ذا الأذواد يصبح محرضا كإحراض بكر في الديار مريض(٣)

ولا يثنى حرض ولا يجمع لانه مصدر، يقال : حرضه على فلان اي أفسده عليه بما يغريه، وإنما قالوا هذا القول إشفاقاً عليه وكفاً له عن البكاء اي لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك الى مرض لا تنتفع بنفسك معه ، لانه كان قد أشفى على ذهاب بصره وفساد جسمه، او تموت بالغم .

والهلاك ذهاب الشيء بحيث لا يدري الطالب له اين هو ، فالميت هالك لهذا المعنى .

قوله تعالى :

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (٨٦) آية بلا خلاف.

---

(١) ديوانه ١٦١ وقد مر في ٢ / ٢٢٧ ، ٣ / ٢١٦ .
(٢) مجاز القرآن ١ / ٣١٦ وتفسير القرطبي ٩ / ٢٥١ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ / ٢٥ .
(٣) ديوانه ١٢٩ وتفسير القرطبي ٩ / ٢٥١ والطبري ١٣ / ٢٥ .

هذا حكاية ما أجاب به يعقوب بنيه لماقالوا له ما تقدم ذكره،أي انما أشكو، والشكوى صفة ما يجده من البلوى ، وانما وصف (ع) ذلك لله طلباً للفرج من جهته ، والبث تفريق الهمّ باظهاره عن القلب ، يقال : بثه ما في نفسه بثاً وأبثه إبثاثاً ، وبث الخيل على العدو : إذا فرقها عليه . وقال ابن عباس معنى (بثي) همي .

وقوله « واعلم من الله ما لا تعلمون » قيل في معناه قولان :

احدهما – قال ابن عباس : اعلم ان رؤيا يوسف صادقة واني ساجد له .

والثاني – قال قتادة : أعلم من احسان الله (عزّ وجل) الي ما يوجب حسن ظني به ، وانما جاز على يعقوب وهو نبي ، ان يبكي حتى تبيض عيناه من الحزن، لان عظم المصيبة يهجم على النفس حتى لا يملك معه القرار بالصبر حتى يرتفع الحزن،مع انه على ولد لا كالأولاد، في جماله، وعقله، وعفافه، وعلمه، وأخلاقه، وبره ، من غير تأس يوجب السلوة ، ولا رجاء يقرب الحال الجامعة ، ومع هذا فلم يكن منه الا ما يوجب الاجر العظيم والثواب الجزيل الكريم ، والبكاء ليس بممنوع منه في الشرع ، وانما الممنوع اللطم، والخدش ، والجز ، وتخريق الثياب، والقول الذي لا يسوغ ، وكل ذلك لم يكن منه (ع) وإنما جاز أن يخفى خبر يوسف على يعقوب مع قرب المسافة بينهما ، لأن يوسف كان بمصر ويعقوب بأرض الجزيرة من أرض حران ، ولم يعرف يوسف أباه مكانه ليزول همه ، لانه في تلك المدة كان بين شغل وحجر على ما توجبه سياسة الملك ، وبين حبس في السجن ، لانه مكث فيه سبع سنين لما محن به من امرأة العزيز ، فلما تمكن من التدبير تلطف في ذلك لئلا يكون من أخوته حال تكره في ايصال خبره الى أبيه لشدة ما ينالهم من التهجين في أمره إذا وقف على خبره .

وانما جاز ان يستخرج الصواع من رحل أخيه مع ايجاب التهمة في ذلك عند الناس ، وغمّ أبيه وأخيه خاصة وسائر اخوته عامة لوجوه :

احدها – انه كان ذلك بمواطأة اخيه على ذلك بما يسر في باطنه .

ومنها انه ليس لاحد اتهامه بالسرقة مع امكان جعله في رحله بما لا صنع له فيه .

ومنها اغمام أبيه بالأمر اليسير ليزيل عنه الغم العظيم، وتأتيه البشرى بسلامتها على أجمل حال يتمنى لهما ، وذلك يحسن ولا يقبح .

قوله تعالى :

(يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَايْئَسُوا مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إِنَّهُ لَا يَايْئَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ) (٨٧) آية بلا خلاف .

هذا إخبار عما قال يعقوب لبنيه بعد ان قال ما تقدم ذكره « يا بني اذهبوا فتحسسوا» والتحسس طلب الشيء بالحاسة فاما طلبه بالدعاء الى فعله، فلا يسمى تحسساً ، والتحسس والتجسس بالحاء والجيم بمعنى واحد .

« ولا تيأسوا من روح الله » اي لا تقطعوا رجاءكم منه . والروح والفرج نظائر ، وهو رفع ترح بلذة ، مأخوذ من الريح التي تأتي بما فيه اللذة .

وقوله « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » اخبار منه بأن الذي يائس من رحمة الله الكافرون، وذلك يدل على ان الفاسق الملّي لا ييأس منه ، بخلاف ما يقوله اهل الوعيد ، وقد أجاب عن ذلك اهل الوعيد بجوابين:

احدهما - ان ذلك على وجه التغليب ، فيدخل فيه الفاسق في الجملة .

والثاني - أنه لا ييأس في حال التكليف إلا الكافر الذي لا يعرف الله تعالى، فاما من يعرف الله فانه لا ييأس منه ، لانه يسوّف التوبة.

قوله تعالى :

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ

وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ) (٨٨) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى ان اخوة يوسف لما قال لهم يعقوب « اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه » رجعوا الى يوسف ودخلوا عليه ، وقالوا له «يا ايها العزيز » لانهم كانوا يسمون الملك العزيز . والعزيز في اللغة هو الواسع المقدور الذي لا يهتضم المنيع بسعة مقدوره « مسنا وأهلنا الضر » أي اصابنا الضر ، والمس ملابسة ما يحس ، ولما كان الضر بمنزلة الملامس لهم ، وهو مما يحس، عبر عنه بأنه مسّه . والاهل : خاصة الشيء الذي ينسب اليه ، ومنه قوله « ان ابني من أهلي »[١] وتسمى زوجة الرجل بأنها أهله وكذلك اهل البلد واهل الدار ، وهم خاصته الذين ينسبون اليه .

وقوله «وجئنا ببضاعة مزجاة » قيل في معنى المزجاة ثلاثة اقوال :

احدها - قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير : إنها ردية لا تؤخذ الا بوكس . وقال الحسن ومجاهد وابراهيم وقتادة وابن زيد : إنها قليلة . وقال الضحاك: هي كاسدة غير نافعة . وروي انه كان معهم متاع البادية من الصوف والشعر والسمن والحبال البالية وغير ذلك . وأصلها القلة قال الاعشى :

الواهب المئة الهجان وعبدها عوذاً يزجّي خلفها اطفالها[٢]

اي يسوقهم قليلاً قليلاً ، وقال النابغة :

وهبت الريح من تلقاءذى أرل تزجي مع الليل من صرّ ادهاصرما[٣]

يعنى تسوق ، وتدفع ، وقال آخر :

(١) سورة هود آية ٤٥
(٢) ديوانه ١٥٢ (دار بيروت) وتفسير الطبري ١٣ : ٢٩
(٣) ديوانه ١٠٢ واللسان (صرم) . ومجمع البيان ٣ : ٢٥٩

وحاجة غير مزجاة من الحاج[١]

وقيل الاصل الدفع بالسوق فهي مدفعه لا تنفق .

وقوله « فاوف لنا الكيل » اي لا تنقصنا من كيلنا لنقصان بضاعتنا ، وتصدق علينا . وقيل في معناه قولان :

احدهما ـ قال سعيد بن جبير : سألوا التفضل بترك النقصان من السعر ، لان الصدقة ما كانت تحل لهم. وقال سفيان بن عيينة . إنهم سألوا الصدقة وهم أنبياء وكانت حلالا لهم ، وكان مجاهد يكره ان يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق علي ، لان الصدقة ممن يبتغي الثواب . والصدقة العطية للفقراء ابتغاء الاجر ، ولهذا يطلق ، فيقال : «إن الله يجزي المتصدقين» و «لا يضيع أجر المحسنين»[٢] من العباد ، والمعنى انه يثيبهم على ذلك .

قوله تعالى :

(قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ) (٨٩) آية بلا خلاف .

هذا حكاية ما أجاب به يوسف إخوته حين سألوه التصدق عليهم وايفاء كيلهم ، فرقّ لهم ، وقال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وإخيه؟ ! على وجه التوبيخ لهم والتذكير لهم بما فعلوه من إلقائه في الجب بعد ان كانوا عزموا على قتله ثم بيعهم إياه عبداً للتاجر الذي حمله الى مصر ، وفعلوا بأخيه ما عرضوه به للغم بأن أفردوه عن أخيه لأبيه وامه مع جفائهم له حتى كان لاذلالهم إياه لا يمكنه ان يكلم احداً منهم الا كلام الذليل للعزيز ، فعاملوه هذه المعاملة ، وسلكوا في امره هذه الطريقة . ومعنى قوله « اذ انتم جاهلون » انكم فعلتم ذلك في حال

(١) اللسان (زجا) ومجاز القرآن ١ : ٣١٧

(٢) سورة التوبة آية ١٢١ وسورة هود آية ١١٦ وسورة يوسف آية ٩٠

كنتم فيها جاهلين جهالة الصبي لاجهالة المعاصي ، وذلك يقتضي انهم الآن على خلافه ، ولولا ذلك لقال وأنتم جاهلون . وانما وبخو بحال قد أقلعوا عنها وتابوا منها على وجه التذكير وليتنبهوا على حال من يخاطبهم ويعرفوه بهـا ، لا ان تلك الحال ذكرت بطريق التقبيح لها . وقال السدي وابن اسحاق إن يوسف لما قالوا له ما قالوا أدركته الرقة ، فدمعت عينه وباح لهم بما كان يكتمه مـن شأنه وشأنهم .

قوله تعالى :

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَـإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ) (٩٠) آية بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وابو جعفر «انك» بهمزة واحدة على الخبر . الباقون بهمزتين ، وحققهما ابن عامر ، وأهل الكوفة ، وروح ، إلا ان الحلواني عن هشام فصل بينهما بألف . الباقون يخففون الأولى ويلينون الثانية . وفصل بينهما بألف نافع إلا ورشاً وابو عمرو . قال ابو علي : الاجود الاستفهام لقوله «قال انا يوسف» وهذا جواب الاستفهام ، ومن قرأ على الخبر أراد الاستفهام ، وحذف حرف الاستفهام كما حكى ابو الحسن في قوله «وتلك نعمة تمنهـا علي»[١] ومعناه اي تلك نعمة ، وحذف حرف الاستفهام .

هذا حكاية ما قال اخوة يوسف له حين قال لهم «هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه» فانهم قالوا حينئذ له «أئنك لانت يوسف» على وجه الاستفهام له ، فانهم تنبهوا واستيقظوا غير انهم لم يقطعوا به ، فاستفهموه .

---

(١) سورة الشعراء آية ٢٢ .

وقال الزجاج يجوز في «أئنك» اربعة اوجه في العربية :

تحقيق الهمزتين ، وهو مذهب اهل الكوفة واهل الشام .

الثاني – ادخال الألف بين الهمزتين (آإنك) وهو مذهب هشام ابن عمار عن ابن عامر .

الثالث – تليين الثانية بان يجعل بين بين أينك ، وهو مذهب أبي عمرو ، وابن كثير ونافع .

الرابع – بهمزة واحدة على الخبر .

فقال يوسف مجيباً لهم «أنا يوسف وهذا أخي» يعني ابن يامين – من أبي وأمي «قد منّ الله علينا» أي انعم علينا بنعمة قطعتنا عن حال الشدّة يقال: منّ الله عليه يمن منّاً ، واصله القطع من قوله «لهم اجر غير ممنون»[1] أي غير مقطوع ، ومنه منّ عليه في الصنيعة اذا ذكرها بما يجري مجري التعيير بها ، لانه قاطع عن شكرها . والمنون الموت ، لانه يقطع عن تصرف الاحياء . ثم أخبر يوسف فقال إنه من يتق الله باجتناب معاصيه ، وفعل طاعاته ويصبر على بليته ويتجرع مرارة المنع ، لما يشتهي من الأمر «فان الله لا يضيع اجر المحسنين» اي لا يذهب بثوابهم . والاضاعة هو الاهلاك وهو إذهاب الشيء بحيث لا يدري الطالب له اين هو . والأجر ما يستحق على العمل الصالح من الثواب ، ومنه الاجارة . وتقول: آجره الله يأجره أجراً ، والاحسان فعل حسن يستحق به الحمد .

وحكى ابن كثير انه قرأ «من يتقي» بالياء في الوصل . والوجه فيه ان يجعل (من) بمعنى (الذي) فيكون (يتقي) في موضع رفع ، ويكون قوله «ويصبر» حذف الحركة استخففاً ، او جملة على الموضع ، كما قال «فاصدق واكن من»[2] ولا يجوز ان يكون مثل قول الشاعر :

---

(١) سورة حم السجدة آية ٨ وسورة الانشقاق آية ٢٥ وسورة التين آية ٦ .

(٢) سورة المنافقون آية ١٠ .

ألم يأتيك ، والانباء تنمي[١]

لان ذلك يجوز في الشعر ، والاجود قول من قرأ بحذف الياء .

قوله تعالى :

(قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ) (٩١)

آية بلا خلاف .

هذا حكاية عما قال إخوة يوسف حين سمعوا اعتراف يوسف بأنه يوسف ، وان أخاهم الذي احتبسه أخوه ، وان الله منّ عليهم بذلك ، فقالوا له عند ذلك «تالله» على وجه القسم «لقد آثرك الله علينا» اي فضلك الله علينا . والايثار إرادة التفضيل ، لاحد الشيئين على الآخر ومثله الاختيار ، ويقال : آثرت له ، وآثرت عليه ضده . وأصل الايثار الأثر الجميل ، فيما يؤثر على غيره بمنزلة ما له أثر جميل والآثار الاخبار ، لانها إخبار عن أثر ما تقدم في أمر الدين والدنيا . وقوله «وان كنا لخاطئين» اعتراف منهم بأنهم كانوا خاطئين . وقال قوم : إنهم كانوا صبياناً وقت ما فعلوا بأخيهم ما فعلوا وسموا أنفسهم «خاطئين» اي ابتداء فعلهم كان وهم صبيان . ثم بلغوا مقيمين على كتمان الأمر عن ابيهم موهمين له ما كانوا اخبروه به من شأنهم ، فالايهام معصية لا تبلغ تلك المنزلة . والخطيئة ازالة الشيء عن جهته الى ما لا يصلح فيه ، يقال خطىء يخطأ فهو خاطىء مثل أثم إثماً فهو آثم . و (خطىء) اذا تعمد الخطأ و (أخطأ) إذا لم يتعمد الخطأ كمن رمى شيئاً فأصاب غير ما أراد .

قوله تعالى :

(قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ

---

(١) قائله قيس بن زهير العبسي . اللسان (اتى) وعجزه :

بما لاقت لبون بني زياد

ٱلرَّٰحِمِينَ) (٩٢) آية بلا خلاف .

هذا اخبار من الله تعالى عما قال يوسف لأخوته حين اعترفوا بأن الله فضله عليهم، وانهم خطئوا فيما فعلوه، بأن قال «لا تثريب عليكم اليوم» ومعناه لا بأس عليكم بما سلف له منكم ، والتثريب تعليق الضرر بصاحبه من اجل جرم كان منه . وقال سفيان : معنى لا تثريب لا تعيير . وقيل : معناه لا تخليط بمائده مكروه . وقيل : معناه لا تثريب مكروه بتوبيخ ، ولا غيره .

وقوله « يغفر الله لكم » معناه يستر الله عليكم خطيئاتكم ولا يعاقبكم عليها ، وهو ارحم الراحمين ، فالرحمة النعمة على المحتاج ، ومن الرحمة ما هو واجب وفيها ما ليس بواجب، فالواجبة ما لا يجوز الاحلال بها، وان كان سببها تفضلاً، كالثواب الذي سببه التكليف ، وهو تفضل .

وقيل : في معنى قوله « يغفر الله لكم » قولان :

احدهما – انه دعا لهم بالمغفرة ، ويكون الوقف عند قوله « لا تثريب عليكم اليوم» ثم ابتدأ، فقال «يغفر الله» وقد وقف بعضهم عند قوله «عليكم» والأول أجود .

الثاني – لما كان ظلمهم له معلقاً باحلاله أباهم منه حسن هذا القول ، لان الله هو الآخذ له بحقه إلا ان يصفح .

قوله تعالى :

(إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) (٩٣) آية بلا خلاف .

هذا اخبار من الله تعالى بأن يوسف أعطى اخوته قميصه . وقال : احملوه إلى أبي يعقوب واطرحوه على وجهه ، فإنه يرجع بصيراً ، ويزول عنه العمى

وذلك معجز دال على نبوته ، لانه – على قول المفسرين كالحسن والسدي وغيرهما – كان قد عمي ، ولولا ان الله أعلمه انه يرجع اليه بصره لما أرسله اليه ، وانما حمل اليه القميص ، لان الله تعالى كان جعله علامة له إذا شمه شم منه رائحة يوسف ، وبشارة له قبل لقائه .

وقوله « وأتوني بأهلكم اجمعين » ، معناه احملوا أهاليكم أجمع الى عندي وجيؤني بهم .

قوله تعالى :

(وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) (٩٤) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الآية انه حين انصرفت العير من عند يوسف . قال : لهم أبوهم يعقوب اني لأجد ريح يوسف اي إني احس برائحته . وقال ابن عباس جاءت الريح برائحة يوسف من ثماني ليال . وقال الحسن من مسيرة شهر . وقيل إنه كان بينهم ثمانين فرسخاً، لأن يعقوب كان بوادي كنعان من ارض فلسطين . وقيل إنه كان بأرض الجزيرة ، ويوسف بمصر .

والفصل القطع بحاجز بين الشيئن . ونقيضه الوصل ، ومثله الفرق . والعير قافلة الحمير ، وان كان فيها الجمال ، وكل جماعة خرجت من بلد الى بلد ، فهم قافلة .

وقوله « لولا ان تفندون » قال ابن عباس : معناه لولا ان تسفهون . وقال الحسن ومجاهد : لولا ان تهرمون . وقال ابن اسحاق : معناه تضعفون . وقال الضحاك معناه تكذبون .

وانما قال يعقوب هذا القول لمن حضره من أهله وقرابته دون ولده ، لانهم

كانوا غيّباً عنه لم يصلوا إليه . والتفنيد في اللغة هو تضعيف الرأي يقال فنده تفنيداً إذا نسبه الى ضعف الرأي ، قال الشاعر :

يا صاحبي دعا لومي وتفنيدي فليس ما فات من امر بمردود[١]

وفنده الدهر اي أفسده ، وقال ابن مقبل :

دع الدهر يفعل ما يشاء فانه اذا كلف الانسان بالدهر افندا[٢]

وروي (إذا كلف الافناد بالناس فندا) .

قوله تعالى :

(قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) (٩٥) آية بلا خلاف .

هذا حكاية ما اجاب به من خاطبه يعقوب من اهله «اني لاجد ريح يوسف» فانهم قالوا له « تالله انك لفي ضلالك القديم » والضلال هو الذهاب عن جهة الصواب فيه ، وانما قالوا لنبي الله « انك لفي ضلالك القديم » لانهم قالوا كلمة غليظة لم يجز أن يقولوها لنبي الله ، فحق الأمر فيها أنهم قالوها اشفاقاً عليه من شدة محبته ليوسف - في قول قتادة - وقال الحسن كان عندهم ان يوسف مات ، فكان في لهوجه فيتذكره ذاهباً عن الصواب في امره ، والقديم في اللغة هو كل شيء متقدم الوجود ، وفي عرف المتكلمين عبارة عن الموجود لم يزل ، وانما جعلوا الضلال قديما على وجه المبالغة في الصفة ومثله «كالعرجون القديم»[٣] ويقال بناء قديم ، ولا يجوز قياساً على ذلك ان يقال : هذا جسم قديم ، لما فيه من الايهام.

قوله تعالى :

(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ

---

(١) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ : ٣٤ ومجاز القرآن ١ : ٣١٨

(٢) تفسير القرطبي ٩ : ٢٦١ والطبري ١٣ : ٣٤

(٣) سورة يس آية ٣٩

أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (٩٦) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى إنه لما جاء المبشر بيوسف الى يعقوب ألقى القميص علىوجهه فرجع بصيراً . والبشير الذي يأتي بالبشارة العظيمة .وجاء على لفظ(فعيل)لما فيه من المبالغة يقال بشره تبشيراً ، ومعنى أبشرته : قلت له : استبشر ، كقوله « وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون »[1] وقال الحسن ، ومجاهد ، والضحاك : كان البشير يهوذ بن يعقوب ، والإلقاء إيقاع الشيء على الشيء ، ويكون بمعنى ايجاد الشيء .

وقوله « فارتد بصيراً » فالارتداد انقلاب الشيء الى حال ، قد كان عليها ، وهو والرجوع بمعنى واحد . والبصير من كان على صفة يجب لاجلها ان يبصر المبصرات إذا وجدت ، و(ان) بعد قوله « فلما » زائدة للتوكيد ، كما قال « ولما ان جاءت رسلنا »[2] ولا موضع لها من الاعراب وهي تزاد مع (لما) و (حتى) على وجه الصلة تأكيداً ، تقول : قد كان ذاك حتى كان كذا وكذا ، وحتى ان كان كذا .

وقوله «اني اعلم من الله ما لا تعلمون » . .قيل في معناه قولان :

احدهما- إني اعلم من صحة رؤيا يوسف، وإن تأويلها سيكون على ما رأى « ما لا تعلمون » من تأويل الرؤيا .

والثاني- «اني اعلم» من بلوى الانبياء بالشدائد والمحن التي يصيرون منهـا الى وقت الفرج « ما لا تعلمون » . ذكره الجبائي .

قوله تعالى :

(قَالُوا يَا أَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) (٩٧) آية بلا خلاف .

---

(١) سورة حم السجدة آية ٣٠ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٣٣ .

في الكلام حذف، لان تقديره إن اخوة يوسف وصلوا إلى أبيهم بعد ان جاء البشير وألقوا قميصه على وجهه ورد الله بصره عليه ، فلما رأوه قالوا له «يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا » أي سل الله تعالى ان يستر علينا ذنوبنا ، ولا يعاقبنا عليها ، فانّا «كنّا خاطئين» فيا فعلناه بيوسف .

ومتى قيل: كيف سألوه الاستغفار مع انهم كانوا تابوا والتوبة تسقط العقاب ؟

قلنا أما على مذهبنا فلان التوبة لا تسقط العقاب وجوباً ، وانما يسقطه الله تعالى عندها تفضلا. وأما على مذهب مخالفنا ، فانهم سألوه ذلك ، لأجل المظلمة المتعلقة بصفح المظلوم، وسؤال صاحبه انلا يأخذ بظلمه، لابد انه توبة خاصة منه ووجه آخر ، وهو ان يبلغه منزلة بدعائه يصير بمنزلة عالية لمكان سؤاله .

قوله تعالى :

(قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ) (٩٨)

آية بلا خلاف .

هذا حكاية ما أجاب به يعقوب حين قالوا له «استغفر لنا ذنوبنا» فانه قال في جواب ذلك سوف استغفر لكم ربي ، والمعنى إني أفعل ذلك في المستقبل ، ولم يستغفر لهم في الحال .

وروي عن ابي جعفر (ع) انه قال : أخّرهم الى ليلة الجمعة .

وقال ابن مسعود وابراهيم التيمي ، وابن جريج وعمرو بن قيس: انه اخرهم الى السحر، لانه اقرب الى اجابة الدعاء. وقال الجبائي : وجه ذلك أنهم سألوه ان يستغفر لهم دائماً في دعائه ، فوعدهم بذلك في المستقبل .

وقوله « انه هو الغفور الرحيم » اخبار من يعقوب واعتراف منه بأن الله هو الذي يستر على عباده معاصيهم، ويعفو لهم عن عقابها رحمة منه بعباده ورأفة منه بخلقه .

قوله تعالى :

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ) (٩٩) آية بلا خلاف .

في الكلام حذف ، لان تقديره ان يعقوب وبنيه واهلهم رحلوا الى يوسف ، فلما وصلوا اليه ودخلوا عليه . « آوى اليه أبويه » يعني أباه يعقوب وأمه ،فثنى على لفظ الاب تغليبا للذكر على الانثى ؛ ولم يثن على لفظ الأم ، كما غلب المفرد على المضـــاف في قولهم : سنة العمرين . ومثله قوله « وورثه ابواه »[1] يعني أباه وامه .

قال الحسن وابن اسحاق والجبائي : كانت امه بحق ، وقال السدي كانت امه ماتت وتزوج يعقوب اختها ،وهي خالة يوسف ، فاقامها مقام الأم ،والاول حقيقة والثاني مجاز . والايواء ضم القريب بالمحبة لصـــاحبه كضم المأوى بجمع شمله ، وانما قال لهم « ادخلوا مصر » بعد دخولهم عليه ، لامرين :

احدهما قال السدي وفرقد السبخي: ان يوسف خرج يستقبل يعقوب وخرج معه أهل البلد ، فلما رجع قال « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » .

وقال آخرون أراد « ادخلوا مصر » مقيمين « ان شاء الله آمنين » والمشيئة هي الارادة ، والأمن سكون النفس الى الامر والخوف انزعـــاج النفس من الأمر . والامن التام الأمن من كل جهة ، فاما الأمن من جهة دون جهة ، فهو أمن ناقص .

وفي الناس من قال : ان قوله « ان شاء الله » متعلق بقوله «سأستغفر لكم» ان شاء الله،لانه كان قاطعاً على انهم يدخلون مصر آمنين ، وليس يحتاج الى ذلك لانه مطابق لقوله « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غـداً الا ان يشاء الله »[2]

---

(١) سورة النساء آية ١١
(٢) سورة الكهف آية ٢٣

قوله تعالى :

(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ ٱلْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ ٱلشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ) (١٠٠) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى عن يوسف انه حين حضر عنده أبواه وأخوته ، ورفع أبويه على العرش ، والرفع النقل الى جهة العلو . ومثله الاعلاء والاصعاد، وضده الوضع، والعرش السرير الرفيع وأصله الرفع من قوله «خاوية على عروشها»[١] اي على ما ارتفع من أبنيتها ، وعرّش الكرم إذا رفعه ، وعمل عريشاً اذا عمل مجلساً رفيعاً . وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتاده . العرش السرير . وقوله «وخرّوا له سجداً» معناه انحطوا على وجوههم والخرّ الانحطاط على الوجه، ومنه «خرّ من السماء فتخطفه الطير»[٢] والسجود في الشرع خضوع بوضع الوجه على الارض وأصله الذل ، كما قال الشاعر :

ترى الأكم فيها سجداً للحوافر[٣]

وقيل في وجه سجودهم قولان :

قال قوم: إن الهاء في قوله «له» راجعة الى الله، فكأنه قال فخروا لله سجداً شكراً على ما أنعم به عليهم من الاجتماع .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٩ والكهف ٤٣ والحج ٤٥

(٢) سورة الحج آية ٣١

(٣) مر هذا البيت في ١ : ١٨ ، ٢٦٣ ، ٣١١ و ٤ : ٢٣٣ ، ٣٨٣

الثاني . انهم سجدوا الى جهة يوسف على وجه القربة الى الله ، كما يسجد الى الكعبة على وجه القربة الى الله .

وقيل انه كانت تحية الملوك السجود ، قال اعشى بني ثعلبة :

فلما اتانا بعيد الكرى سجدنا له ورفعنا العمارا[1]

وقوله « يا ابت هذا تأويل رؤياي من قبل » حكاية ما قال يوسف لأبيه بأن هـذا تفسير رؤياي من قبل وما تؤول اليه ، وهو ما ذكره في أول السورة « اني رأيت أحد عشر كوكباً » يعني أخـوته « والشمس والقمر » يعني أبويه سجدوا له ، كما رآه في المنام .

والرؤيا تصور ما يتوهم انه يرى لغمـور النوم ، ومتى قيل إذا كانت رؤيا الانبياء لا تكون الاصادقة ، فهلا تسلى يعقوب بأن تأويل الرؤيا سيكون ؟

قلنا عنه جوابان :

احدهما - انه قيل : انه رآها وهو صبيّ فلذلك لم يثق بها .

والآخر - ان طول الغيبة مع شدة المحنة يوجب الحزن كما يوجبه مع الثقة بالالتقاء في الآخرة .

« وقد احسن بي اذ أخرجني من السجن » بأن لطف وسهل اليَّ الخروج منه « وجاء بكم مـن البدو » اي اتى بكم من أرض فلسطين ، لأن مسكن يعقوب وولده فيما ذكر كان هناك . والبدو : البرية العظيمة مأخوذ من بدا يبدوا بدوّاً . ويقال : بدو ، وحضر .

وقوله « من بعد ان نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي » والنزغ التحريش بين الاثنين ، وهو مس بسوء يغضب ، ومنه قوله « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله »[2]

وقوله « ان ربي لطيف لما يشاء» معنا لطيف التدبير ، واللطف ما يدعو إلى

---

(١) ديوانه ٨٣ (دار بيروت) وروايته (عمارا) .

(٢) سورة الاعراف آية ١٩٩ وحم السجدة آية ٣٦ .

فعل الواجب ويصرف عن القبيح . وقـال الحسن : كان بين الرؤيا وتأويلها ثمانين سنة . وقال سلمان ، وعبدالله بن سداد : كانت أربعين سنة . وقال ابن اسحاق : ثماني عشرة سنة .

وقوله « انه هو العليم الحكيم » معناه إنه تعـالى عالم بأحوال الخلق ، وما يصلحهم وما يفسدهم « حكيم » في افعاله لا يضع الشيء الا في موضعه .

وقال بعضهم : غاب يوسف عن أبيه وله سبع عشرة سنة ، وبقي بعـد الاجتماع معهم في الملك ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات ، وله مئة وعشرون سنة .

قوله تعالى :

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي ٱلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) (١٠١) آية بلا خلاف.

هذا حكاية ما قال يوسف حين اجتمع مع أبويه وأخوته وأهل بيته ، وانه قال يا « رب آتيتني من الملك » وحذف حرف النداء للدلالة عليه . وعلى وجه الاعتراف بأنواع نعمة الله عليه، وان من جملتها أنه اعطاه الملك والسياسة والتدبير بين الخلق ، وأنه مع ذلك علمه ، وفهمه أنواع العلوم ، ونصب له الدلالة على علوم كثيرة . وقد يقال : علمـه تعليماً إذا بين له الدليل المفضي الى العلم . والاعلام هو إيجـاب العلم بايجـاده والتعريض له . والمعنى فهمتني تأويل الاحاديث التي تؤدي الى العلم بما احتاج إليه . والاحاديث الاخبار عن حوادث الزمان .

وقوله « فاطر السموات والارض » فالفطر الشق عن أمر باختراعـه عند انشقاقه ، ففطر السموات والارض : اختراعهما بما هو كائن كالشق عما يظهر فيه . ومنه تفطر الشجر بالورق . ونصبه يحتمل أمرين :

احدهما ـ أن يكون صفة لقوله «رب قد آتيتني من الملك»، لانه مضاف، كما يقال : يقول يا زيد ذي الجمة .

والثاني ـ ان يكون على النداء بتقدير يا فاطر .

وقوله « أنت وليّي » أي ناصري، والولي النصير بما يتولى من المعاونة، فاذا وصف تعالى بانه وليّ المؤمن ، فلانه ينصره بما يتولى من معونته وحياطته . واذا وصف المؤمن بأنه ولي الله ، فلان الله ينصره بمعونته ، فتجري الصفة على هـذا المعنى .

وقوله « توفني مسلما » معناه اقبضني اليك إذا امتني وأنا مسلم اي الطف لي بما أموت معه على الاسلام « والحقني بالصالحين » من آبائي اسحاق وابراهيم اي اجعلني من جملتهم .

و(من) في قوله «من الملك» وقوله «من تأويل الاحاديث» دخلتا للتبعيض لأنه لم يؤته الله جميع الملك ، ولا علمه جميع الاشياء ، ويحتمل ان تكون دخلت لتبيين الصفة ، كما قال « اجتنبوا الرجس من الاوثان »[١]

قوله تعالى :

(ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) (١٠٢) آية بلا خلاف .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ انه قال له «ذلك» يعني الذي أخبرناك به من أخبار ما يعظم شأنه ، لأن الأنباء هي الاخبار بما له شأن . ومنه قولهم : لهذا نبأ اي شأن عظيم . و (الغيب) ذهاب الشيء عن الحس ، ومنه « عالم الغيب والشهادة »[٢] اي عالم بما غاب عن الحواس ، وبما حضرها « نوحيه اليك »

---

(١) سورة الحج آية ٣٠

(٢) سورة الانعام آية ٧٣ ، والتوبة آية ٩٤ ، ١٠٥ والرعد ١٠ والمؤمنون ٩٣ والم السجدة ٦ والزمر ٤٦ والحشر ٢٢ والتغابن ١٨ .

اي نلقيه . والايحاء إنهاء المعنى الى النفس ، فقد أفهم الله تعالى نبيه ﷺ تلك المعاني بانزال الملك بها عليه .

وقوله « وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم » اي لم تحضرهم حين عزموا على أمورهم . وإجماع الأمر هو اجتماع الرأي على الامر بالعزم عليه . والمكر : فتل الحيل عن الأمر ، واصل المكر من قولهم : ساق ممكورة اي مفتولة . ومثله الخديعة ، وكان مكرهم بيوسف إلقاؤهم إياه في غيابت الجب - في قول ابن عباس والحسن وقتادة وقال الجبائي : كان مكرهم احتيالهم في امر يوسف حين القوه في الجب . وانما قال ذلك لنبيه ، لأنه لم يكن ممـــن قرأ الكتب ولاخالط أهلها وإنما اعلمه الله تعالى ذلك بوحي من جهته ليدل بذلك على نبوته ، وانه صادق على الله تعالى

قوله تعالى :

(وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) (١٠٣) آية بـلا خلاف .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ على وجه التسلية بقلة من آمن به بأن الناس كثيرون ، وان حرصت على ان يكونوا مؤمنين فانهم قليلون . والاكثر القسم الآخر من الجملة ، ونقيضه الأقل . والناس جماعة الانسان ، وهو من ناس ينوس نوساً إذا تحرك يميناً وشمالاً ، من نفسه لا بمحرك . والحرص طلب الشيء في اصابته ، حرص عليه يحرص حرصاً ، فهو حريص على الدنيا إذا اشتد طلبه لها والتقدير : وما اكثر الناس بمؤمنين ، ولو حرصت على هدايتهم .

قوله تعالى

(وَمَا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) (١٠٤)

آية بلا خلاف .

هذا اخبار من الله تعالى وخطاب لنبيه ﷺ انك يا محمد لست تسألهم يعني أمته الذين بعث اليهم على ما يعرفهم به من اخبار الماضين اجراً، ولا جزاء في مقابلته . وليس ذلك إلا ذكر للعالمين . والسؤال قول القائل لمن هو فوقه (افعل) اذا كان سؤال طلب ودعاء ، وان كان سؤال استخبار ، فهو طلب الاخبار بادلته ، والاجر جزاء العمل بالخير يقال : آجره الله يآجره أجراً إذا جازاه بالخير ، ويدعا به ، يقال : آجرك الله . والذكر حضور المعنى للنفس ، وهو ضد السهو . وقد يقال للقول الذي يحضر المعنى للنفس ذكر . و (العالم) جماعة الحيوان الكثيرة التي من شأنها ان تعلم ، لانه مأخوذ من العلم، ومنه معنى التكثير ، وفي عرف المتكلمين عبارة عن الفلك وما حواه عن طريق التبع للحيوان الذي ينتفع به ، وهو مجعول لأجله . ومعنى الآية إنك لست تسألهم على ابلاغك إياهم ما اوحى الله به اليك ، ولا على ما تدعوهم اليه من الايمان اجراً ، فيكون تركهم لذلك إشفاقاً من إعطاء الاجر ، بل هم يزهدون في الحق مع أمنهم من اعطاء الأجر ، وليس ما تؤديه اليهم من القرآن ، وجميع ما ينزله الله من الاحكام « إلا ذكر للعالمين » اي طريق الى العلم بما أوجب الله عليهم ، فذكر الدليل طريق الى العلم بالمدلول عليه . والفكر سبب مولد له ، فالذكر سبب مؤد ، والفكر سبب مولد . ويحتمل ان يكون المراد ليس هذا القرآن الا شرفاً للعالمين لو قبلوه وعملوا بما فيه .

قوله تعالى :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (١٠٥) آية بلا خلاف .

معنى (كأين) كم . والاصل فيها (أي) فدخلت عليها الكاف للتفخيم بالابهام، وتقديره كالعدد، فهو أبهم من نفس العدد، لما فيه من التكثير والتفخيم، وغلبت على (كاين) (من) دون (كم) لان (كأين) أشد إبهاماً، فاحتاجت الى (من) لتدل على ان ما يذكر بعدها تفسير لها .

اخبر الله تعالى ان في خلق السموات والارض آيات ، ودلالات كثيرة تدل على ان لها صانعاً صنعها ، ومدبراً دبرها ، وعلى صفاته، وعلمه ، وحكمته ، وأنه لا يشبه شيئاً ، ولا يشبهه شيء ، وهو ما فيها من تدبير الشمس والقمر والنجوم والجماد والحيوان،وما بينهما من الاشجار والنبات،وغير ذلك من الأمور الظاهرة للحواس المدركة بالعيان . وقال الحسن : من الآيات اهلاك من اهلك من الأمم الماضية، يعرضون عن الاستدلال بها عليه وعلى ما يدلهم عليه من توحيده وحكمته، مع مشاهدتهم لها ومرورهم عليها .

قوله تعالى :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (١٠٦) آية بلا خلاف .

قيل في معنى هذه الآية قولان :

احدهما قال الحسن : الآية في اهل الكتاب ، لان معهم إيماناً وشركاً .

وقال ابن عباس، ومجاهد وقتادة: المعنى «وما يؤمن اكثرهم بالله» في اقراره بأن الله خلقه وخلق السموات والأرض إلا وهو مشرك بعبادة الاوثان ، وهذا هو الأولى ، لان التقدير ما يصدقون بعبادة الله إلا وهم يشركون الأوثان معه في العبادة .

وقال الرماني : الآية دالة على ان اليهودي معه إيمان بموسى ، وكفر بمحمد ، لانها دلت على انه قد جمع الكفر والايمان ، وانه لا ينافي ان يؤمنوا بالله من وجه ويكفروا به من وجه آخر، كما قال «افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب»[1] .

---

(١) سورة البقرة آية ٨٥ .

وعلى مذهب من قال بالموافاة من المرجئة لا يصح ذلك ، لان الاحباط عنده باطل ، فمن آمن بالله لا بد ان يوافي به .

والجواب على مذهبه ان يقال تأويل الآية انه لا يؤمن أكثرهم بالله ويصدق رسله في الظاهر الاوهو مشرك في باطنه، فتكون الآية في المنافقين خاصة - يعني هذه الآية - وقد ذكره البلخي ايضاً .

قوله تعالى :

(أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ ٱللهِ أَو تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (١٠٧) آية بلا خلاف .

هذا خطاب لهؤلاء الكفار الذين ذكرهم بأنهم لا يؤمنون إلا وهم مشركون، وتوبيخ لهم وتعنيف ، وان كان متوجهاً الى غيرهم ، فهم المعنون بـه ، يقول : أفامن هؤلاء الكفاران تجيأهم غاشية من عذاب ، وهو ما يتغشاهم من عذابه . والغاشية ما يتجلل الشيء بانبساطها عليه ، يقـال : غشيه يغشاه ، فهو غاش ، وهي غاشية أو: تجيأهم القيامة بغتة أي فجأة. والبغتة والفجأة والغفلة نظائر، وهي مجيء الشيء من غير تقدمة . قال يزيد بن مقسم الثقفي :

ولكنهم باتوا ولم ادر بغتـة وافظع شيء حين يفجؤك البغت[1]

والساعة مقدار من الزمان معروف ، وسمي بـه القيامة لتعجيل أمرها ، كتعجيل الساعة .

وقوله «وهم لايشعرون» معناه لايعلمون بمجيئه، فلذلك كان بغتة. والشعور إدراك الشيء بما يلطف، كدقة الشعر يقال: شعر به يشعر شعوراً واشعره بالامر اشعاراً ، ومنه اشتقاق الشاعر لدقة فكره .

---

(١) مر هذا البيت في ٤ : ١٢٢ ، ٥٠٧ .

قوله تعالى:

(قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) (١٠٨) آية بلا خلاف.

هذا خطاب للنبي ﷺ أمره الله تعالى ان يقول لهؤلاء الكفار «هذه سبيلي» يعني دينه الذي دعا إليه من توحيد الله وعدله وتوجيه العبادة اليه والعمل بشرعه «ادعو» الناس «الى» توحيد «الله» والى طاعته، واتباع سبيله على معرفة مني بذلك، وحجة معي اليه، ومن تابعني على ذلك، فهو يدعو الناس الى مثل ما أدعو اليه من التوحيد وخلع الانداد والعمل بشرع الاسلام «وسبحان الله» اي تنزيهاً لله من ان يعبد معه إله غيره، وان يضاف اليه ما لا يليق به ولست أنا من المشركين الذين يشركون مع الله في عبادته سواه والسبيل هو الطريق، وهو يذكر ويؤنث قال الشاعر:

ولا تبعد فكل فتى اناس سيصبح سالكاً تلك السبيلا[١]

والدعاء طلب الفعل من الغير، وسمي الاسلام سبيلاً، لانه طريق الى الثواب لمن عمل به. و(البصيرة) المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل في الدين والدنيا، يقال: فلان على بصيرة من أمره اي كأنه يبصره بعينه.

قوله تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (١٠٩) آية واحدة بلا خلاف.

---

(١) مجمع البيان ٣ : ٢٦٨، ومجاز القرآن ١ : ٣١٩.

قرأ ابو بكر «يوحى» بالياء وفتح الحاء . وقرأ حفص بالنون وكسر الحاء .

قال ابو علي الفارسي : وجه القراءة بالنون قوله «إنا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح»[١] ومن قرأ بالياء، فلقوله «واوحي الى نوح»[٢] وقوله «قل اوحي الي»[٣] فأما في «حم عسق كذلك يوحي اليك»[٤] فلان الفعل مسند الى اسم الله تعالى، فارتفع الاسم بأنه فاعل يوحي ، ولو قرىء يوحى اليك ، والى الذين واسند الفعل الى الجار والمجرور ، لكان جائزاً ، وكان يكون قوله «الله العزيز الحكيم» مبتدءاً وخبراً ، والاول احسن ، لان قوله « العزيز الحكيم » ان يكون صفة احسن من ان يكون خبر المبتدأ .

معنى الآية الاخبار من الله أني مـا أرسلت قبلك من الانبياء والمرسلين الى عبادي إلا رجالاً يوحى اليهم بكتبي واحكامي ، «من اهل القرى» أي لم أرسل عليهم ملكاً ولا جنياً، بل رجالاً أمثالك ، لقول جهال قريش ان الله لو شاء ان يرسل الينا أحداً، لأرسل إلينا ملكاً، فبين ههنا انه لم يرسل فيما مضى الا رجالاً، مثل محمد ، من البشر ، « أفـلم يسيروا في الارض » معناه أفليس قد ساروا في الارض وسمعوا اخبار من ارسله الله من الانبياء المبعوثين الى خلقه مثل ابراهيم وموسى وعيسى، فيعرفوا بذلك كيف كان عاقبة من كذب هـؤلاء الرسل من قبلهم ، وما نزل بهم من العذاب لكفرهم. ثم أخبر ان دار الاخرة خـير للذين اتقوا واجتنبوا معاصيه خير لهم من الدنيا، أفلا يعقلون ان الامر على ما أخبرنا به، وان ذلك خير من دار الدنيا التي فيها تنغيص وتكدير ، وفنون الآلام .

وقال قتادة معنى « من أهل القرى » يريد به الامصار دون البوادي ، لانهم اعلم وأحكم . وقال الحسن ما بعث الله نبياً من اهـل البادية قط ، ولا من الجن ولا من النساء .

وقـوله « ولدار الآخرة » على الاضافة وفي موضع آخر وللدار الآخرة على الصفة . فمن اضافه قال تقديره ولدار الحال الآخرة ، لان للناس حالين حـال

---

(١) سورة النساء آية ١٦٢ .
(٢) سورة هود آية ٣٦ .
(٣) سورة الجن آية ١ .
(٤) سورة الشورى آية ١ .

لدنيا وحـــال الآخرة . ومثله صلاة الاولى والصلاة الاولى ، فمن اضافه قدر صلاة الفريضة الاولى ، ومن لم يضف جعله صفة ، ومثله ساعة الاولى ، والساعة الاولى، ذكره الزجاج. وقال الفراء قد يضاف الشيء الى نفسه إذا اختلف لفظها مثل « حق اليقين » . ومثل بارحة الاولى والبارحة الاولى ومسجد الجـــامع ، والمسجد الجامع .

قوله تعالى :

(حَتَّى إِذَا ٱسْتَيْئَسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ) (١١٠) آية بلا خلاف.

قرأ « كذبوا » خفيفة بضم الكاف أهـــل الكوفة . الباقون مشددة بضم الكاف . وقرأ عاصم وابن عامر « فنجي من نشاء » بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء . الباقون بنونين على الاستقبال ، وهي في المصحف بنون واحدة .

من قرأ « كذبوا » خفيفة ، فالمعنى إن الامم ظنت ان الرسل كذبوهم فيما أخبرو هم به من نصر الله اياهم واهلاك اعدائهم، ومثله قراءة من قرأ ، وان كان شاذاً «كذبوا» يعنى ان قومهم ظنوا ان الرسل كذبت فيما أخبرت به، وهو قول ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد والضحاك . ومن قرأ بالتشديد حمـل الظن على العلم ، والمعنى أيقن الرسل ان الامم كذبوهم تكذيباً عمهم حتى لا يفلح احد منهم ، وهو قول الحسن وقتادة وعائشة قال الشاعر :

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرّد[١]

معناه ايقنوا، فان قيل على الوجه الاول كيف يجوز ان يحمل الضمير على انه للمرسل اليهم والذين تقدم ذكرهم الرسل دون المرسل اليهم ، قيل ان ذلـك

(١) مر هذا البيت في ١ : ٢٠٥ ، ٢ : ٢٩٦ ، ٤ : ٣٧٣ وقد روي (المشدد) بـــدل (المسرد) .

لا يمتنع لان ذكر الرسل يدل على المرسل اليهم وقد قال الشاعر :

امنك البرق ارقبه فهاجا فبتّ أخاله دهماً خلاجا[١]

اي بتّ اخال الرعد صوت دهم ، فاضمر الرعد ولم يجر له ذكر لدلالة البرق عليه . وان قلت قد جرى لهم ذكر في قوله « افلم يسيروا في الارض فينظروا » فيكون الضمير للذين من قبلهم من مكذبي الرسل كان جيداً ، ذكره ابو علي . ومن قرأ « فننجي » بنونين ، فعلى انه حكاية حال، لان القصة كانت فيما مضى، فانما حكى فعل الحال على ما كانت ، كما قال «وإن ربك ليحكم بينهم» [٢] حكاية الحال الكائنة ، ومثله « وكلبهم باسط ذراعيه »[٣] فلو لم يكن على الحال لم يعمل اسم الفاعل ، لانه إذا مضى اختص ، وصار معهوداً ، فخرج بذلك من شبه الفعل . واما النون الثانية من (ننجي) فهي مخفاة مع الجيم ، وكذلك النون مع جميع حروف الفم ، لا تكون الا مخفاة ، قال ابو عثمان المازني وتبيينها معها لحن . قال وللنون مع الحروف ثلاثة احوال: الادغام، والاخفاء، والبيان، فهي تدغم مع ما يقارنها كما تدغم سائر المتقارنة . والاخفاء فيها مع حروف الفم التي لا تقارنها والبيان منها مع حروف الحلق ، وحذف النون الثانية من الخط يشبه ان يكون لكراهة اجتماع المثلين فيه. ومن ذهب الى ان الثانية مدغمة في الجيم ، فقد غلط ، لانها ليست بمثل للجيم ، ولا مقارنة له . ووجه قراءة عاصم انه اتى به على لفظ الماضي ، لان القصة ماضية . وما رواه هبيرة عن عاصم بنونين ، وفتح الياء ، فهو غلط من الراوي ، كما قال ابن مجاهد ، وروى نصر بن علي عن أبيه عن ابي عمرو «فنجي» بنون واحدة ساكنة الياء خفيفة الجيم ، فهذا غلط ، لانا قد بيّنا انّ النون ، لا تدغم في الجيم ، لما بيناه .

(١) قائله ابو ذؤيب الهذلي ، ديوان الهذليين ١ : ١٦٤ ، واللسان (دهم) وامالي السيد المرتضى ١ : ٦١٦ .
(٢) سورة النحل آية ١٢٤
(٣) سورة الكهف آية ١٨

اخبر الله تعالى ان الرسل لما يئسوا من فلاح القوم وعلموا ان القوم لقوهم بالتكذيب ونسبوهم الى الكذب، لان التكذيب نسبة القائل الى الكذب، وضده التصديق والاستيئاس واليأس انقطاع الطمع « جاءهم نصرنا » اي أتاهم نصر الله باهلاك من كذبهم ولا يرد بأسنا فالبأس شدة الأمر على النفس يقال له بأس في الحرب والبئيس الشجاع لشدة أمره. ومنه البؤس الفقر والبائس الفقير «عن القوم المجرمين » يعني المخطئين الذين اقترفوا السيآت .

قوله تعالى :

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (١١١) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى ان في قصص الامم الماضين التي ذكرها دلالة لذوي العقول على تصديق الرسل وان ما أخبرناك به لم يكن حديثاً كذباً . والحديث الاخبار عن حوادث الزمان وتسميته بأنه حديث يدل على انه حادث ، لان القديم لا يكون حديثاً ، والافتراء القطع بالمعنى على خلاف ما هو به وأصله القطع من قولهم فريت الاديم فرياً إذا قطعته ، ووجه الاعتبار بتلك القصص ان الذي قدر على إعزاز يوسف بعد القائه في الجب واعلائه بعد حبسه في السجن وتمليكه مصر بعد ان كان كبعض أهلها في حكم العبيد وجمعه بينه وبين والديه وإخوته على ما أحبوا بعد مدة طويلة وشقة بعيدة لقادر ان يعز محمد صلى الله عليه وسلم ، ويعلي كلمته وينصره على من عاداه .

وقوله « ولكن تصديق الذي بين يديه » معناه تصديق الكتب التي قبله من التوراة ، والانجيل وغيرهما من كتب الله في قول الحسن وقتادة . وانما قيل لما

قبله: بين يديه، لانه قد وجد فكأنه حاضر له، وقيل بين يديه، لانه قريب منه كقرب ما كان بين يدي الانسان. وإنما قال «وتفصيل كل شيء» على وجه المبالغة من حيث كان فيه تفصيل كل شيء يحتاج اليه في أمور الدين من الحلال والحرام والحجاج والاعتبار والوعظ والازجار، أما جملة او تفصيلاً. و «هدى ورحمة» فالهداية الدلالة «لقوم يؤمنون» اي يصدقون بها وينتفعون بالنظر فيها وخص المؤمنين بالهداية وإن كانت هداية لغيرهم من حيث انهم انتفعوا هم بها دون غيرهم، ونصب تصديق على تقدير، ولكن كان تصديق الذي باضمار كان على قول الزجاج.

(١٣) سورة الرعد

قال قتادة هي : مدنية إلا آية منها فانهـــا مكية وهي قوله « لا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة » .

وقال مجاهد : هي مكية وليس فيها ناسخ ولا منسوخ .

وهي ثلاث وأربعون آية في الكوفي وأربع في المدنيين وخمس في البصري .

بسم الله الرحمن الرحيم

(المر تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ وَٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) (١) آية بلا خلاف .

لم يعد احد «المر» آية وعد الكوفيون «طه» و «حم» آية قالوا ، لان (طه) مشاكلة لرؤوس الآي التي بعدها بالالف مع انه لا يشبه الاسم المفرد ، كما أشبه «صاد» و «قاف» و «نون» لانها بمنزلة (باب) و «نوح» ، وعد « كهيعص » لانه يشاكل رؤوس الآي بعده بالارداف . وقد بينا في أول سورة البقرة أقـــوال المفسرين في تأويل اوائل السور بالحروف[1] . وان اقواها ان يقال أنهـا اسماء السور واجبنا عما اعترض عليه ، فلا وجه لاعادته .

---

(١) في ١ : ٤٧ - ٥١ .

وروي عن ابن عباس ان معنى قوله « المر » انا الله أرى . وقال غيره: معناه انا الله أعلم . وروي انهـــا حروف تدل على اسم الرب . وقوله « تلك آيات الكتاب » ومعناه هذه تلك آيات الكتاب التي تقدمت صفتها . والبشارة بها بما فيها من الهداية ، كما تقول تلك الدلالة اي التي وصفها بـأنه لا غنا لأحد عنها ، فيقول : هذا تنبيهاً عليها ، وتفخيماً لشأنها .

وقال الحسن والجبائي : يعني بالكتاب القرآن . وقال مجاهد وقتادة : يعني بـــه الانجيل . والاول اصح . وآيات الكتاب هي الكتاب، ولكن أضيف الى نفسه ، لما اختلف لفظه كما قال « حق اليقين »[1] وغير ذلك مما قد مضى ذكره ، وكما يقال مسجد الجامع ، والمسجد الجامع ، والآيات الدلالات المعجبة المؤدية الى المعرفة بالله وانه لا يشبه الاشياء ، ولا تشبهه ، والكتاب الصحيفة التي فيهـــا الكتابة، وقد يكون مصدر كتب، تقول : كتب كتاباً وكتابة. «والذي أنزل اليك من ربك الحق » يحتمل وجهين من الاعراب : الرفع والجر ، فالرفع على الابتداء وخبره الحق، والجر على انه عطف على الكتاب ، وهو غيره – على قول مجاهد – ويجوز ان تكون صفة - في قول الحسن – كما قال الشاعر :

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم[2]

« ولكن اكثر الناس لا يؤمنون » اي لا يصدق اكثر الناس بـأنه كذلك ، ويكفرون به . والحق وضع الشيء في موضعه على مـــا تقتضيه الحكمة والانزال النقل من علوّ الى سفل أنزله إنزالاً ، ونزّله تنزيلاً ، وضده الاصعاد .

قوله تعالى :

(ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَـــلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ

(١) سورة الواقعة آية ٩٥ . (٢) مر تخريجه في ٢ : ٩٨ .

الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) (٢) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى في هذه الآية بما يدل على وحدانيته وكونه على صفات لا يشاركه فيها احد من المخلوقين من كونه قادراً لنفسه ، لانه قال تعالى هو الذي رفع السموات بغير عمد ترونها . وقيل فيه قولان :

الاول - قال ابن عباس ومجاهد : يعنى ليس ترونها دعامة تدعمها ، ولا فوقها علاقة تمسكها .

الثاني - قال قتادة واياس بن معاوية : ان المعنى إنه رفع السموات بلا عمد ونحن نراها .

وقال الجبائي : تأويل ابن عباس ومجاهد خطأ لأنه لو كان لها عمد ، لكانت اجساماً غلاظاً ورؤيت ، وكانت تحتاج الى عمد آخر إلا هو تعالى .

وهذا هو الصحيح والوجه في قوله «بغير عمد» انه لو كان لها عمد لرئيت . ومثله قول الشاعر :

على لا حب لا يهتدي لمناره[١]

والمعنى انه لا منار له، لانه لو كان له منار لاهتدي به، وقد بينا نظائر ذلك فيما مضى[٢] . و (عمد) جمع عمود يقال : عمد ، كما يقال : اديم وادم . قال ابو عبيدة : وهذا الجمع قليل . وقد قرىء في الشواذ (عمد) بضم العين والميم ، وهو القياس . والعمود السارية، ومثله الدعائم والسند واصله منع الميل، فمنه التعميد والاعتماد ، قال النابغة :

وخيس الجنّ اني قد اذنت لهم يبنون تدمر بالصفائح والعمد[٣]

---

(١) مر هذا البيت في ١ : ١٨٩ ، ٢٧٩ ، ٤٤٤ ، ٢ : ٨٨ ، ٣٥٦ ، ٤٢٣ ، ٥٦٢ ، ٣ : ٣٨٠ .

(٢) راجع ما سبق ان اشرنا اليه في التعليقة قبل هذه رقم ١ .

(٣) ديوانه (دار بيروت) ٣٣ ومعنى (خيس) ذلل . و (تدمر) بلد بالشام .

وقوله «ثم استوى على العرش» معناه استولى بالاقتدار عليه ونفوذ السلطان. واصله استواء التدبير، كما ان اصل القيام الانتصاب ثم قال: قائم بالتدبير، فالمعنى مستو على العرش بالتدبير المستقيم من جهته بجميع الأمور. و (ثم) دخلت على معنى «ثم استوى على العرش» بالتدبير للأجسام التي قد كونها، فهي تدل على حدوث التدبير.

وقال ابو علي: هي لتسخير الشمس والقمر لكنه قدم في صدر الكلام، كما قال «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين»[1] والمعنى حتى يجاهد من نعلم من المجاهدين.

وقوله «وسخر الشمس والقمر» فالتسخير والتذليل والتوطئة نظائر، والمسخر هو المهيأ، لانه يجري بنفسه من غير معاناة صاحبه فيما يحتاج اليه كتسخير النار للاسخان والماء للجريان، والفرس للركوب.

وقوله «كل يجري لاجل مسمى» اجراه على لفظ كل، ومثله كل منطلق اي كلهم، ورفع كلا، لانه مستأنف، وذهب بمعنى الاثنين في الشمس والقمر الى الجمع، كما قال «فان كان له اخوة»[2] وإنما هما أخوان. و (الاجل) هو الوقت مضروب لحدوث أمر وانقطاعه، فاجل الدنيا الوقت المضروب، لانقضائها واجل الآخرة، الوقت المضروب لحدوثها، واجل الدين وقت حدوث أدائه، واجل العمر الوقت المضروب لانقضائه، والاجل المسمى - ههنا - قيل يوم القيامة.

وقوله «يدبر الامر» فالتدبير تصريف الامور على ما يقتضيه مستقبل حاله في عاقبته، فتدبير السموات والارض فيه دلالة على مدبر حكيم، قد جعل جميع ذلك لما يصلح في عاقبته، وعاجلته. ودخلت الالف واللام على (الشمس) وهي واحدة لا ثاني لها، لأن في إسمها معنى الصفة، لانه لو وجد مثلها لكان شمساً، وكذلك (القمر) لو خلق الله مثله لكان قمراً، وليس كذلك زيد وعمرو.

---

(١) سورة محمد آية ٣١. (٢) سورة النساء آية ١١.

وقوله « يفصل الآيات » اي يميز الدلالات واختلاف مدلولاتها ، من كونه قادراً عالماًحكيماً لا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شيء «لعلكم بلقاء ربكمتوقنون»معنا لكي توقنوا لقاء ثواب طاعات الله ولقاء عقاب معاصيه ، فسمى لقاء ثوابه وعقابه لقاءه مجازاً .

قوله تعالى :

(وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (٣) آية بلا خلاف .

ذكّر الله تعالى في الآية الاولى بالسماء والشمس والقمر، لان اكثر ما في العالم متعلق بذلك وجار مجراه كالنبات والحرث والنسل ، ثم ذكر في هـــذه الآية الارض وتدبيره لها على ما فيه من المصلحة لينبه بذلك من ذهب عن الاستدلال به على حكمته تعالى ، وتوحيده ، فقال « وهو الذي مد الارض » يعنى بسطها طولاً وعرضاً « وجعل فيها رواسي » يعني جبالاً راسيات ثابتات ، يقـــال : رسي هذا الوتد وأرسيته . وواحد (الرواسي) راسية « وانهاراً » اي وخلق فيها أنهاراً يجري المياه فيها « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » ثم ابتدأ فقال: وجعل فيها من جميع الثمرات زوجين أي ضربين . قال الحسن يعني لونين من كل ما خلق من البنات. والزوج يكون واحداً ويكون اثنين ، وههنا واحد. وقريش تقول : للانثى زوج وللذكر زوج . قـــال الله تعالى « اسكن انت وزوجك الجنة »[1] لادم .

ومعنى « يغشي الليل النهـــار » اي يجلل الليل النهار والنهار بالليل . والمعنى انه يذهب كل واحـــد منهما بصـاحبه ومثله « يكوّر الليل على

---

(١) سورة البقرة آية ٣٥ وسورة الاعراف آية ١٩

النهار ويكوّر النهار على الليل »[١] والمعنى ان أحدهما يُذهب الآخر . ثم أخبر تعالى ان فيما ذكره من الدلالات لآيات واضحات لمن فكر ، واعتبر بها ، لان من لم يفكر فيها ولم يعتبر ، كأنه لا آية له .

وقوله « زوجين اثنين » انما اكد بـ (اثنين) وان كان قوله « زوجين » افاد العدد لامرين :

احدهما ـ على وجه التأكيد وهو مستعمل كثيراً .

الثاني ـ ان الزوجين قد يقع على الذكر والانثى . وعلى غيرهما ، فاراد ان يبين ان المراد به ههنا لونين أو ضربين دون الذكورة والانوثة ، وذلك فائدة لا يفيدها قوله « زوجين » فلا تكرار فيه بحال . وهو قول الحسن والجبائي وغيرهما .

قوله تعالى :

(وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (٤) آية بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وأهل البصرة وحفص « وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان » بالرفع فيهن . الباقون بالخفض . وروى ابو شعيب القواس عن حفص ضم الصاد من صنوان في الموضعين . الباقون بكسرها . وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب « يسقى » بالياء . الباقون بالتاء . وقرأ اهل الكوفة الاعاصما يفضل بالياء . الباقون بالنون .

---

(١) سورة الزمر آية ٥

قال ابوعلي النحوي: من قرأ « وزرع » مرفوعاً جعله محمولاً على قوله « في الارض » ويكون تقديره وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وفي الارض زرع ونخيل صنوان ، فالجنة على هذا تقع على الارض التي فيها النخيل دون غيرها . ويقوي ذلك قول زهير :

كأن عينيّ غـــربيْ مقتّلة　　　من النواضح تسقي جنة سحقا[1]

السحق جمع سحوق يوصف بها النخيل اذا بسقت فكأنه سمى الارض ذات النخل جنة ، ولم يذكر ان فيها غيرها ؛ فكما ان الجنة تكون من النخيل من غير ان يكون منها شيء آخر ، كذلك تكون من الكروم ، وان لم يكن فيها غيرها .

فاما من قرأ بالخفض فانه حمل الزرع والنخيل على الاعناب ، كأنه قال جنات من أعناب ومن زرع ، ومن نخيل . وقد تسمى الارض إذا كان فيها النخل والكرم والزرع جنة ، قال الله تعالى « جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً »[2] ويقوي ذلك قول الشاعر :

أقبل سيل جاء من أمر الله　　　يجرد جرد الجنة المغلة[3]

فقوله (المغلة) في وصف الجنة يدل على ان الجنة يكون فيها الزرع ، لان الغلة لا يقال إلا فيما يكال ويوزن ، فلذلك قال الفقهاء : اذا قال : أوصيت له بغلة هذه القرية انه يكون على ما فيها ، من الحال من الثمرة وغيرها وقت التلفظ بالوصية دون ما يحدث بعد .

و (الصنوان) فيما ذهب اليه ابو عبيدة صفة النخل قال : والمعنى ان يكون الاصل واحداً ثم يتشعب من الرؤس فيصير نخلاً ويحملن . وقال وقوله

---

(١) ديوانه : ١٤٠ (دار بيروت) .
(٢) سورة الكهف آية ٣٢
(٣) مجمع البيان ٣ : ٢٧٥

« يسقى بماء واحد » لانها تشرب من اصل واحد « ونفضل بعضها على بعض في الاكل » وهو الثمرة ، واجاز غيره ان يكون (الصنوان) من صفة الجنات :

قال ابوعلي فكأنه في المعني يراد به ما في الجنات. وان جرى على لفظ الجنات. وعلى هذا يجوزان ترفع وان جررت النخل غير أنه لم يقرأ به . ومن ضم الصاد من صنوان جعله مثل ذئب وذؤبان، وربما يعاقب فِعلان وفُعلان على بناء واحد نحو خشن وخشان . واظن سيبويه حكى الضم في صنوان والكسر اكثر . ومن قرأ « تسقى » بالتاء اراد تسقى هذه الاشياء « بماء واحد » ويقوى ذلك قوله « ونفضل بعضها على بعض » فحمله على التأنيث . ومن قرأ بالياء فعلى تقدير ما ذكرناه . ومن قرأ « يفضل » بالياء . رده الى الله ، وتقديره ويفضل الله بعضها على بعض ومن قرأ بالنون ، فعلى الاخبار عن الله عز وجل أنه قال «ونفضل» نحن « بعضها على بعض » .

اخبر الله تعالى على وجه التنبيه لعباده على الاستدلال بآياته بان قال في الارض التي خلقتها قطع متجاورات . قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : معناه سبخة وغير سبخة . وقيل عامرة وغير عامرة . والمتجاورة المتقاربة بعضها من بعض .

وقوله « وجنات من اعناب » فالجنة البستان الذي يجنه الشجر وهي منفصلة من الروضة والزهرة «من أعناب» جمع عنب وهو ثمر الكرم يقع على انواع كثيرة، والزرع القاء الحب للنبات في الارض ، والغرس جعل الاصل من الشجر الثابت في الارض، والصنوان المتلاصق وهي الفسيلة تكون في اصل النخلة . ويقال : هو ابن أخيه صنو أبيه اي لصنو ابيه في ولادته ، ويجوز في جمع صنو اصناء كعدل واعدال . ويقال : صنو بضم الصاد وإذا كثرت ، فهو الصني والصنى ، وقال البراء بن عازب وابن عباس ومجاهد وقتادة : الصنوان النخلات التي اصلها واحد . وقال الحسن: الصنوان النخلتان اصلها واحد «يسقى بماء واحد» معناه ان ما ذكرناه يسقى بماء واحد « ونفضل بعضها على بعض في الاكل » بان

يكون بعضه حلواً وبعضه حامضاً وبعضه مراً في الاكل . والاكل الطعام الذي يصلح للاكل ، فدل بذلك على بطلان قول من يقول بالطبع ، لانه لو كان قولهم صحيحاً لما اختلفت طعوم هذه الاشياء مع ان التربة واحد والماء واحد، وجميع احوالها المعقولة متساوية ، فلما تفاضلت مع ذلك دل على ان المدبر لها عالم حكيم ففعله بحسب المصلحة « ان في ذلك لايات لقوم يعقلون » اخبار منه تعالى ان فيما ذكرناه دلالات لقوم يعقلونها ويتدبرونها لان من لا عقل له لا ينتفع بالاستدلال بها ، وانما ينتفع بذلك ذوو الألباب والعقول .

قوله تعالى :

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٥) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ ٱلْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٦) آية في الكوفي . وفي المدنيين والبصري آيتان تمام الاولى قوله «لفي خلق جديد» .

قرأ ابن عامر وابو جعفر « اذا » بهمزة واحدة على الخبر. الباقون بهمزتين على الاستفهام. وحقق الهمزتين اهل الكوفة وروح. وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو ورويس بتخفيف الاولى وتليين الثانية. وفصل بينهما بالف نافع الا ورشاً وابو عمرو. واما « إنا » فقرأه بهمزة واحدة على الخبر نافع والكسائي ويعقوب . الباقون بهمزتين على الاستفهام . وحقق الهمزتين ابن عامر وعاصم وحمزة وخلف الا ان هشاما يفصل بينهما بالف . وقرأ ابن كثير وابو عمرو ، وابو جعفر بتحقيق الاولى وتليين الثانية إلا ان ابا عمرو وابا جعفر يفصلان بينهما بالف ، وابن كثير لايفصل. وكذلك اختلافهم في الموضعين في(سبحان) وسورة المؤمنين والسجدة ولقمان . والثاني من اللذين في الصافات . وما سوي ذلك من الاستفهامين

يذكر في موضعه ان شاء الله. قال ابو علي الفارسي من قرأ (أإذا، أإنا) بالاستفهام فيهما ، فموضع (اذا) نصب بفعل مضمر يدل عليه قوله « انا لفي خلق جديد » لان هذا الكلام يدل على نبعث ونحشر ، فكأنه قال أنبعث اذا كنا تراباً. ومن لم يدخل الاستفهام في الجملة الثانية كان موضع (اذا) نصباً بما دل عليه قوله « انا لفي خلق جديد » فكأنه قال انبعث اذا كنا تراباً ، وما بعد (ان) لا يعمل فيما قبله بمنزلة الاستفهام، فكما قدرت هذا الناصب في(اذا) مع الاستفهام، لان الاستفهام لا يعمل ما بعده فيما قبله كذلك نقدره في (إنا) لان ما بعدها ايضاً لا يعمل فيما قبلها. وقراءة ابن عباس «اذا كنا تراباً » على الخبر (أإنا)على الاستفهام ينبغي ان يكون على مضمر كما حمل ما تقدم على ذلك، لان بعد الاستفهام منقطع مما قبله. فاما ابو عمرو، فأنه يفصل بين الهمزتين بألف ، كما يفصل في «أأنذرتهم» وكما يفصل بين النونات في (اخشينان) ويأتي بعد ذلك بالهمزة بين بين، وليست (يا) ياء محضة ، كما ان الهمزة في السائل ليست بياء محضة، وانما هي همزة بين بين، وابن كثير ان اتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مد فليس ذلك على التخفيف القياسي، لانه لو كان كذلك ، لوجب ان يجعل الهمزة بين بين ، كما فعل في سم في المتصل وفي اذ قال ابراهيم ـ في المنفصل لذلك، ولكنه يبدل من الهمزة ابداً محضاً كما حكى سيبويه انه سمع من العرب من يقول (بئس) وقد جاء في الشعر يومئذ على القلب.

مدح الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم تعجُّبه من الكفار في عبادتهم ما لا يملك لهم نفعاً ولا ضرّاً . ثم اخبر ان هذا موضع العجب، وذمهم بعجبهم من اعادتهم ثانية مع علمهم بالنشأة الاولى، وفيما بين الله تعالى من خلق السموات والارض ، وما بينهما من عجائب افعاله التي تدل على انه قادر على الاعادة، كما دلت على الانشاء، لان هذا مما ينبغي ان يتدبره العاقل، وقد قيل: (لا خير فيمن لا يتعجب من العجب وأرذل منه المتعجب من غير عجب) والعجب والتعجب واحد. وهو تغير النفس بما خفي سببه عن الكافر وخرج عن العادة، فهؤلاء الجهال توهموا انهم اذا صاروا تراباً لا يمكن ان يصيروا حيواناً. والذي انشأهم اول مرة قادر ان يعيدهم ثانية .

ثم اخبر تعالى عنهم ، فقال: هؤلاء هم الذين جحدوا نعم الله ، وكفروا بآياته

ودلالاته ، وهم الذين يحشرهم الله يوم القيامة ، والاغلال في اعناقهم . والغل طوق يقيد به اليد في العنق ، وأصله الغل في الشيء إذا انتسب فيه . وغل : اذا خان بانتسابه في مال الحرام والاعناق جمع عنق، وهو مغرز الرأس . وقيل ان المعنى في ذلك انهم يؤاخذون بأعمالهم ، وهي الاغلال ، كما قال « اذ الاغلال في اعناقهم »[1] فكأنهم بمنزلة من الغلّ في عنقه لما لزمهم من الكفر به ، فقال « اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » اخبار منه تعالى انهم بعد الغل في اعناقهم يجعلون في النار مؤبدين فيها معذبين بأنواع العذاب .

قوله تعالى :

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) (٧) آية بلا خلاف.

أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء الكفار يطلبون منك ما يسوؤهم ان يعجل لهم ، كما قالوا « امطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم »[2] قبل ان يسألوا الاحسان بالانتظار لهم، وقد حكم الله تعالى ان يمهلهم التوبة . ثم يأخذ من أقام على القبح بالعقوبة . والاستعجال طلب التعجيل ، والتعجيل تقديم الشيء قبل وقته الذي يقدر له . والسيئة خصلة تسوء النفس ، ساءه يسوءه سوءاً ، وهو ساء وهي سائة وسيء وسيئة قال الشاعر :

ولا سيء يردي إذا ما تلبسوا الى حاجة يوماً مخلسه بزلا

والحسنة خصلة تسر النفس وقد يعبر بهما عن الطاعة ، والمعصية .

---

(١) سورة المؤمن (غافر) آية ٧١ . (٢) سورة الانفال آية ٣٢ .

وقوله «خلت من قبلهم المثلات» أي مضت بانقضائها كمضي اهل الدار عنها، يقال : خلت الديار بهلاك أهلها وخلو هم بخلو مكانهم منها ، والمثلات العقوبات التي تزجر عن مثل ما وقعت لاجله واحدها مثلة مثل سمرة وصدقة ، وفي الجمع سمرات وصدقات ، ويقال مثلت به أمثل مثلاً بفتح الميم وسكون الثاء، وأمثلته من صاحبه إمثالاً إذا قصصته منه وتميم تقول : مثلة على وزن غرفة ، ثم قـال « وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » على وجه الاخبار عن نفسه بالرحمة بخلقه والتفضل عليهم بأنه يغفر للناس على كونهم ظالمين وذلك يدل على بطلان قول من قال إن اصحاب الكبائر لا يجوز ان يعفو الله عنهم إلا بالتوبة ، لانه تعالى لم يشرط في ذلك التوبة ومن شرط في الآية التوبة او خصها بالصغائر كان تاركاً للظاهر .

وقوله « وان ربك لشديد العقاب » اخبار منه تعالى بأنه كما يغفر تارة مع الظلم ، كذلك قد يعاقب مع الاصرار عذاباً شديداً فلا تغتروا بذلك ولا تعولوا على مجرد العفو لانه يجوز ان لا يعفو .

قوله تعالى :

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) (٨) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى ان هؤلاء الكفار الذين تقدم ذكرهم يقولون هلا انزل على محمد آية يقترحونها مثل ما حكى الله عنهم من نحو تفجير الانهار بحيث سألوا سقي البلاد ونقل جبال مكة عن اماكنها لتتسع على أهلها وإنزال كتاب من السماء الى الارض يقرؤن فيه الأمور التي دعاهم اليها، فقال الله تعالى له ليس أمر الآيات اليك إنما أمرها الى الله ينزلها على ما يعلمه من مصالح العباد « وانما انت منذر » اي معلم لهم على وجه التخويف لهم معاصي الله وعقابه ، « ولكل قوم هـاد » يهديهم الى الحق . وللناس في معناه خمسة اقوال :

احدها – روي عن ابن عباس بخلاف فيه ان الهادي هو الداعي الى الحق .

والثاني – قال مجاهد وقتادة وابن زيد : انه نبي كل أمة .

الثالث – في رواية اخرى عن ابن عباس وسعيد بن جبير ورواية عن مجاهد والضحاك : ان الهادي هو الله .

الرابع – قال الحسن وقتادة في رواية وأبو الضحى وعكرمة : انه محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو اختيار الجبائي .

والخامس – ما روي عن ابي جعفر ، وأبي عبدالله (ع) إن الهادي هو امام كل عصر ، معصوم يؤمن عليه الغلط وتعمد الباطل .

وروى الطبري باسناده عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت « إنما انت منذر ولكل قوم هاد » وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره ، وقال انا المنذر « ولكل قوم هاد » وأومأ بيده الى منكب علي (ع) ، فقال انت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي .

قوله تعالى :

(ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٩) عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ) (١٠) آيتان بلا خلاف .

قرأ ابن كثير « المتعالي » بياء في الوصل والوقف الا المالكي والعطار عن الزبيبي ويعقوب ، وروى المالكي والعطار عن الزبيبي بياء في الوقف دون الوصل . الباقون بغير ياء في الحالين . وروي عن ابي عمير في رواية شاذة – مثل ابن كثير ، قال أبوعلي : اثبات الياء في الحالين هو القياس ، وليس ما فيه الالف واللام من هذا الباب كما لا الف فيه ولام نحو قاض وغاز . قال سيبويه إذا لم يكن في موضع تنوين يعني اسم الفاعل فان الاثبات اجود في الوقف نحو هذا

القاضي، وهذا الغازي، لانها ثابتة في الوصل يريد ان الياءمع الالف واللام تثبت ولا تحذف كما تحذف من اسم الفاعل إذا لم يكن فيه الالفواللام ، نحو هذا قاض، فاعلم ، فالياء مع غير الالف واللام تحذف في الوصل ، فاذا حذفت في الوصل كان القياس ان تحذف في الوقف . وهي اللغة والأقيس. فأما إذا حذفت الالف واللام، ولا يحذف اللام - في اللغة التي هي اكثر عند سيبويه، فأما من حذف في الوصل والوقف فلأن سيبويه زعم ان من العرب من يحذف هذا في الوقف شبهه بما ليس فيه الف ولام إذ كانت تذهب اليـــاء في الوصل في التنوين او لم يكن الف ولام . واما حذفهم لها في الوصل فلم يكن القياس ، لانه لم يضطر الى حذفه لشيء، كما اضطر ما لا الف ولام فيه لالتقاء الساكنين ، فكرهوا حركة الياء بالضم والكسر لكن حذف ؛ كما حذف في الفواصل ومـــا اشبه الفواصل تشبيهاً بالقوافي .

اخبر الله تعالى انه جل وعز « يعلم ما تحمل كل انثى » من علقة او مضغة ومن ذكر او انثى ومن زائد او ناقص وعلى جميع احواله وصفاته ، لانه عالم لنفسه. (والحمل) بفتح الحاء ما كان في البطن - وبكسرها - ما كان على الظهر . وقوله « وما تغيض الارحام » وما تزداد ، وقيل فيه ثلاثة اقوال :

الأول ما ينقص من ستة أشهر وما يزداد لان الولد يولد لستة اشهر فيعيش ويولد لسنتين فيعيش ذهب اليه الضحاك .

الثاني - قال الحسن ما ينقص بالسقط وما يزداد بالتمام .

الثالث قال ابن زيد ما ينقص بغور النطفة وظهور دم الحيض فينقص تلك الايام ، لانه لا يعتد بها في الحمل وينقص حال الولد وما يزداد من الاشهر ، وفي حال الولد . وقال الفراء الغيض النقصان ، تقولون : غاضت المياه اي نقصت ، وفي الحديث (اذا كان الشتاء غيضاً والولد غيضاً وغاضت الكرم غيضاً وفاضت اللئام فيضاً) وقال الزجاج الغيض النقصان .

وقوله « وكل شيء عنده بمقدار » قيل في معناه قولان :

احدهما – ان جميع ما يفعله الله على مقدار ما تدعو اليه الحكمة من غير نقصان ولا زيادة، وقال قتادة: معناه كل شيء عنده بمقدار في الرزق والاجل. والمقدار مثال يقدر به غيره. ثم اخبر تعالى أنه عالم بما غاب عن الحواس وبما ظهر لها فالغيب كون الشيء بحيث يخفى عن الحس، يقال غاب يغيب، فهو غائب. والشهادة حصول الشيء بحيث يظهر للحس ومنه الشاهد خلاف الغائب، ويقال شهد في المصر اذا حضر فيه. ومنه قوله «فمن شهد منكم الشهر فليصمه»[1] اي من حضر المصر فيه، وانما قال «عالم الغيب» مع ان الله تعالى لا يغيب عنه شيء، لأنه اراد ما غاب عن احساس العباد. وقيل انه اراد انه يعلم المعدوم والموجود، فالغيب هو المعدوم. وقال الحسن: الغيب السر، والشهادة العلانية.

وقوله «الكبير المتعال» فالكبير هو السيد المقتدر. ومعناه الاكبر بسعة مقدوره. والمتعالي المقتدر بما يستحيل ان يكون أعلى منه في الاقتدار أومساوياً له، فهو أقدر من كل قادر، ولهذا استحالت مساواته في المقدور، لان من لا يساويه أحد في المقدور فهو أعلى في المقدور، كأنه قال: تعالى مقدوره الى ما يستحيل ان يكون اعلى منه. وقال الحسن: المتعالي عما يقول المشركون فيه.

قوله تعالى:

(سَوَآءٌ مِنكُمْ مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ) (١١) آية بلا خلاف.

معنى الآية ان الله تعالى الذي وصف نفسه بأنه الكبير المتعالي على غيره بسعة قدرته سواء عليه الاشياء في أنه يعلمها على اختلاف حالاتها، وانه يعلم الانسان

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٥

على تصرف احواله مما يسر في نفسه اي يخفيه او يعلنه أو يستتر بالليل او يسرب بالنهار ، كل ذلك سواء في ظهوره له ، فيجب ان يحذر من هذه صفته ، ويعلم انه يأتي بالآيات بحسب ما يعلمه من مصلحة خلقه . وقال الزجاج : المعنى ان الظاهر في الطرقات والمستخفي في الظلمات والجاهر بنطقه والمضمر في نفسه في معلوم الله « سواء » اي ليس ببعض ذلك اعلم من بعض . وقال الحسن : « سارب بالنهار » اي مستتر فيه . وقال قطرب : يجوز ان يكون معنى « مستخف بالليل » اي ظاهر بالليل « وسارب بالنهار » اي مستتر فيه . قال الزجاج : هذا جائز في اللغة ، يقال منه انسرب الوحش اذا دخل في كناسه . وقال ابو رجاء : السارب الذاهب على وجهه ، يقال انسرب فلان انسراباً . وقال ابن عباس وقتادة : السارب الظاهر من خفى كان فيه . ويقال : فلان سارب في مذهبه اي ظاهر يقال : خلا سربه اي طريقه ، ويقال: فلان آمن في سر به بالفتح والخفض معاً قال قيس بن الخطيم :

أنّى سربتِ وكنت غير سروب وتقرُّب الاحلام غير قريب[١]

وقال قوم : السارب الذي يسلك في سربه اي في مذهبه ، يقال منه : سرب يسرب سروباً . وقال بعضهم السارب الجاري في خروجه الى الأمر بسرعة ، يقال انسرب الماء من خروز القربة ، قال ذو الرمة :

ما بال عينك منها الماء منسكب كأنها من كلى مفرية سرب[٢]

فالاستخفاء طلب الاختفاء ، خفي يخفى نقيض ظهر يظهر ظهوراً . واختفى اختفاء وأخفاه إخفاء ، وتخفى تخفياً . والاسرار إخفاء المعنى في النفس ، فأسر القول معناه أخفى في نفسه ، والجهر رفع الصوت بالقول ، يقال : لصوته جهارة اي قوة في رفعه اياه ، وهو يجاهر بأمره اي يظهره ويعلنه . والسواء هو

---

(١) اللسان (سرب) .
(٢) مجمع البيان ٣ : ٢٧٩ واللسان (سرب) والطبري ١٣ : ٦٦ وروايته. (تنسكب) بدل (منسكب) .

الاعتدال في الوزن . و (من) في موضع الذي ، وهما مرتفعان و «سواء» رفع بالابتداء ، وهو يطلب اثنين . تقول : سواء زيد وعمرو ، اي هما مستويان .

قوله تعالى :

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) (١٢) آية بلا خلاف .

اختلفوا في الهاء في قوله « له » الى من ترجع ، فقال ابن زيد : على اسم النبي ﷺ في قوله « انما انت منذر » وقال غيره: على اسم الله في قوله «عالم الغيب والشهادة». وقال قوم : على(من) في قوله « من اسر القول ومن جهر » فكأنه قال للانسان معقبات. وهو الأقوى. والمعقبات في هذا الموضع هم الملائكة، فقال الحسن وقتادة ومجاهد: ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار، وقال ابن عباس – في رواية – انهم الامراء والولاة لهم حرس واعوان يحفظونهم . وقال الحسن: هم اربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر ، والمعقبات المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ، ويكون بدلاً منه . وأصل التعقيب كون شيء بعد آخر ، فالمعقبات الكائنات على خلف بعضها لبعض بعد ذهابه ، والمعقب الطالب دينه مرة بعد اخرى قال لبيد :

حتى تهجر في الرواح وهاجه ... طلب المعقب حقه المظلوم[1]

ومنه العقاب لانه يستحق عقيب المعصية . والعقاب لانه يعقب بطلبه لصيده

(١) مجمع البيان ٣ : ٢٧٩ وتفسير الطبري ١٣ : ٧٢

مرة بعد مرة ، والعقب لانه يعقب به لشده على الشيء مرة بعد مرة ، وهو جمع الجمع ، لان واحده معقب مثل رجالة ورجالات . وفي قراة أهل البيت « له معقبات من خلفه ورقيب بين يديه » قالوا لان المعقب لا يكون الامن خلفه . وقوله « يحفظونه من امر الله » قيل في معناه اقول :

احدها - قال الحسن وقتادة : المعنى بأمر الله ، كما تقول جئتك من دعائك اياي اي بدعائك ، وفي قراءة اهل البيت « بأمر الله » .

وقال مجاهد وابراهيم : يحفظونه من امر الله من الجن والهوام . والمعنى ذلك الحفظ من امر الله .

وقال قوم : معناه عن أمر الله ، كما يقال أطعمه عن جوع ومن جوع .

وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير ، كأنه قال له معقبات من بين يديه ومن خلفه من أمر الله يحفظونه ، وانما قال يحفظونه على التذكير مع قوله « له معقبات » على التأنيث حملاً على المعنى ، وفي تفسير اهل البيت إن معناه يحفظونه بأمر الله .

وقوله « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » معناه ان الله لا يسلب قوماً نعمة حتى يعملوا بمعاصيه التي يستوجبون بها العقاب فانه حينئذ يعاقبهم ويغير نعمه عليهم .

وفي ذلك دلالة على فساد قول المجبرة : إن الله يعذب الاطفال ، لانهم لم يغيروا ما بأنفسهم بمعصية كانت منهم . والتغيير تصيير الشيء على خلاف ما كان مما لو شوهد على خلاف ما كان .

وقوله « واذا اراد الله بقوم سوءاً » يعني هلاكاً « فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال » معناه لا يقدر أحد على دفعه ولا نصرته عليه بل هو تعالى الغالب لكل شيء القاهر لمن يريد قهره ، والوالي فاعل من ولي يلي فهو وال ووليّ مثل عالم وعليم ، والله ولي المؤمن اي ناصره ، والمعنى لا يتولاهم أحد الا الله .

قوله تعالى :

(هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِىءُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ (١٣) وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَٱلْمَلٰئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي ٱللهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ) (١٤) آيتان بلا خلاف.

اخبر الله تعالى انه هو الذي يري الخلق البرق اي يجعلهم على صفة الرؤية بايجاد المرئي لهم وجعله إياهم على هذه الصفة التي يرون معها المرتيات من كونهم احياء ورفع الموانع والافات منهم يقال : أراه يريه إراءة إذاجعله رائياً مثل أقامه يقيمه إقامة ، وهو مشتق من الرؤية . والبرق ما ينقدح من السحاب من اللمعان كعمود النار وجمعه بروق وفيه معنى السرعة ، يقال : امض في حاجتك كالبرق ، والخوف انزعاج النفس بتوهم وقوع الضرر ، خاف من كذا يخاف خوفاً فهو خائف . والشيء مخوف . والطمع تقدير النفس لوقوع ما يتوهم من المحبوب . ومثله الرجاء والامل .

وقيل في معنى قوله « خوفاً وطمعاً » قولان :

احدهما – قال الحسن : خوفاً من الصواعق التي تكون مع البرق وطمعاً في الغيث الذي يزيل الجدب والقحط .

وقال قتادة : خوفاً للمسافرين من اذاه وطمعاً للمقيم في الرزق به ، وهما منصوبان على أنه مفعول له .

وقوله « وينشىء السحاب الثقال » والانشاء فعل الشيء من غير سبب مولد ، ولذلك قيل النشأة الاولى ، والنشأة الثانية . ومثله الاختراع والابتداع . والسحاب هو الغيم ، سمي به ، لانه ينسحب في السماء . واذا قيل سحابة جمعت

على سحائب ، كقولك غمامة وغمائم والسحاب جمع سحابة ، والثقال جمع ثقيل مثل شريف وشراف وكريم وكرام . والثقل الاعتماد الى جهة السفل ؛ والمعنى إن السحاب ثقال بالماء ، وهو قول مجاهد .

وقوله « ويسبح الرعد بحمده » فالتسبيح تنزيه الله عز وجل عما لا يجوز عليه ، والتنزيه له من كل صفة نقص تضاف اليه ، واصله البراءة من الشيء قال الشاعر :

اقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر[1]

اي براءة منه . و(الرعد) اصطكاك اجرام السحاب بقدرة الله تعالى وفيه أعظم العبرة واوضح الدلالة ، لانه مع ثقله وهوله ، وغلظ جرمه حتى يسمع مثل الرعد في عظمه معلق بقدرته تعالى لا يسقط الى الارض منه شيء ثم ينقشع كأنه لم يكن ، ولاشيء منه ، وقد ذكرنا اختلاف المفسرين في الرعد في سورة البقرة[2] . والحمد الوصف بالجميل من الاحسان على وجه التعظيم .

وقيل في معنى قوله «ويسبح الرعد بحمده» ثلاثة اقوال :

احدها – يسبح بما فيه من الدلالة على تعظيم الله ووجوب حمده ، فكأنه هو المسبح لله عز وجل .

الثاني – انه يسبح بما فيه من الآية التي تدعو الى تسبيح الله تعالى .

الثالث ان الرعد ملك يزجر السحاب بالصوت الذي يسمع ، وهو تسبيح الله بما يذكره من تعظيم الله .

وقوله «والملائكة من خيفته» تقديره ويسبحه الملائكة من خيفته . والفرق بين الخيفة والخوف ، ان الخيفة صفة للحال مثل قولك: هذه ركبة اي حال من

---

(١) مر هذا البيت في ١ : ١٣٤ ، ٣ : ٨١ ، ٥ : ٢٤١ ، ٣٩٥

(٢) في ١ : ٩٢

الركوب الحسن ، وكذلك هذه خيفة شديدة . والخوف مصدره مطلق غير مضمن بالحال .

وقوله « ويرسل الصواعق » وهي جمع صاعقة وهي نار لطيفة تسقط من السماء بحال هائلة من شدة الرعد وعظم الامر يقال : إنها قد تسقط على النخلة وكثير من الاشجار تحرقها ، وعلى الحيوان فتقتله .

وقوله « فيصيب بها » يعني بالصاعقة من يشاء من عباده . وقوله « وهم يجادلون في الله » يعني هؤلاء الجهال مع مشاهدتهم لهذه الآيات يخاصمون اهل التوحيد ، ويحاولون فتلهم عن مذهبهم بجدالهم . والجدال فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج .

وقوله « وهو شديد المحال » فالشدة قوة العقدة وفي بدن فلان شدة اي قوة كقوة العقدة ، وشدة العقاب قوته يغلظ على النفس ، كقوة العقدة ، والمحال الأخذ بالعقاب ، يقال ماحلت فلاناً اماحله مماحلة ومحالاً ، ومحلت به أمحل محلاً إذا فتلته الى هلكه . والميم أصلية في المحل يقال محّلني يا فلان اي قوّني . وقال الجبائي : شديد الكيد للكفار ، وسني المحل سني الهلاك بالقحط . واصله الفتل الى الهلاك قال الاعشي :

فرع نبع يهتز في غصن المجـ ـد غزير الندى شديد المحال[1]

وقيل فيمن نزلت هذه الآية قولان :

احدهما – قال أنس بن مالك وعبد الرحمن صحار العبدي ، ومجاهد : انها نزلت في رجل من الطغاة جاء الى النبي ﷺ يجاد له ، فقال يا محمد ممّ ربك أمن لؤلؤ ام ياقوت أم من ذهب ام من فضة ؟ فأرسل الله عليه صاعقة ، فذهبت بقحفه .

---

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٦٦ وتفسير الطبري ١٣ : ٧٥ المحال : العقوبة

وقال ابن جريج : نزلت في أربد ، لما أراد هو وعامر بن الطفيل قتل رسول الله ﷺ فجفت يده على قائم سيفه ، فرجع خائباً ، فارسل الله (عز وجل) عليه في طريقه صاعقة فأحرقته وابتلى عامراً بغدة كغدة البعير فتلته حتى قال عند موته : غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية . وفي ذلك يقول لبيد ابن ربيعة في أربد ، وكان اخاه :

اخشى على أربد الحتوف ولا أرهب نوء السماك والاسد
ففجعني البرق والصواعق بالـ ـفارس يوم الكريهة النجد[1]

قوله تعالى :

(لَهُ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) (١٥) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى بأن له (عزوجل) دعوة الحق . وقيل في معناه ثلاثة أقوال:

احدها – قال ابن عباس وقتادة وابن زيد إنها شهادة ان لا إله على اخلاص التوحيد .

الثاني – قال الحسن: الله هو الحق ، فمن دعاه دعا الحق . وقال قوم : كل دعوة هي حق جاز ان تضاف الى الله ، قال ابو علي دعوة الحق هي الدعوة التي يدعى الله بها على اخلاص التوحيد، والدعوة طلب فعل الشيء، فالانسان يدعو ربه ان يدخله في رحمته وهو أهل المغفرة والرحمة ، وكل ما لابسه الانسان ، فقد دخل فيه . والمعنى لله من خلقه الدعوة الحق. وقوله «والذين يدعون من دونه» قيل في معناه قولان :

---

(١) تفسير الطبرى (الطبعة الاولى) ١٣ : ٧١ ، ٧٤ ومجمع البيان ٣ : ٢٨٣

احدهما – قال الحسن : والذين يدعون من الاوثان لحاجاتهم .

الثاني – الذين يدعون أرباباً . وقيل ان المعنى الذين يدعون غيره مقصرين عن دعائهم له ، كما قال الشاعر :

اتوعدني وراء بني رياح كذبت لتقصرن يداك دوني[١]

اي عني . «لا يستجيبون لهم بشيء» فالاستجابة متابعة الداعي فيما دعا اليه بموافقة إرادته والاستجابة ، والاجابة واحد إلا ان صيغة الاستجابة تفيد طلب الموافقة ، قال الشاعر :

وداع دعا يا من يجيب الى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب[٢]

وقوله «إلا كباسط كفيه الى الماء» معناه قال مجاهد : كباسط كفه الى الماء مشيراً اليه من غير تناول الاناء ليبلغ فاه ببسط كفه ودعائه له . وقال الحسن معناه كباسط كفيه الى الماء ، فمات قبل ان يصل اليه . والعرب تضربه مثلاً لمن سعى فيما لا يدركه كالقابض على الماء قال الشاعر :

فأني واياكم وشوقاً اليكم كقابض ماء لم تسقه انامله[٣]

وقال الآخر :

فاصبحت مما كان بيني وبينها من الود مثل القابض الماء باليد[٤]

«وما هو ببالغه» إخبار منه تعالى ان من كان كذلك لا يبلغ الماء فاه. ثم أخبر تعالى فقال «وما دعاء الكافرين إلا في ضلال» أي ليس دعاؤهم الاوثان من دون الله إلا الاضلال عن الحق وعدولاً عن طريقه وأنه جار مجرى ما ذكره من باسط كفيه

---

(١) تفسير الطبري ٢ : ٩٠ ، ١٣ : ٧٦

(٢) قد مر هذا البيت في ١ : ٣٦ ، ٨٦ ، ٢ : ١٣١ ، ٣ : ٨٨ ، ٤ : ١٨٢ ، ٥ : ١١٩ وهو في اللسان والتاج (جوب) واماليِ القالي ٢ : ١١٥ ومجاز القرآن ١ : ٦٧ ، ٣٢٦ .

(٣) قائلة ضابي بن الحارث البرجمي . تفسير الطبري ١٣ : ٧٦ ومجمع البيان ٣ : ٢٨٤ .

(٤) مجاز القرآن ١ : ٣٢٧ والطبري ١٣ : ٧٦ والقرطبي ٩ : ٣٠١ والشوكاني ٣ : ٩٦ ومجمع البيان ٣ : ٢٨٤ .

الى الماء ، وهو بعيد منه من غير أن يتناوله ويدعوه الى فمه ، فان ذلك لا يصل اليه أبداً .

قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) (١٦) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى ان جميع من في السموات والارض يسجدون له إما طوعاً منهم او كرهاً . وقيل في معنى ذلك ثلاثة اقوال :

احدها - قال الحسن وقتادة وابن زيد : ان المؤمن يسجد طوعاً ، والكافر يسجد كرهاً بالسيف ، ويكون المعنى على هذا إن السجود واجب لله ، فالمؤمن يفعله طوعاً والكافر يؤخذ بالسجود كرهاً اي هذا الحكم في وجوب السجود لله

الثاني - ان المؤمن يسجد لله طوعاً ، والكافر في حكم الساجد كرهاً بما فيه من الحاجة اليه ، والذلة التي تدعو الى الخضوع لله تعالى .

الثالث - قال ابو علي : سجود الكره بالتذليل للتصريف من عافية الى مرض، وغنى الى فقر وحياة الى موت كتذليل الأكم للحوافر في قول الشاعر :

ترى الاكم فيها سجداً للحوافر[1]

وقال الزجاج: يجوز ان يكون المعنى إن فيمن سجد لله من يسهل ذلك عليه وفيهم من يشقّ عليه فيكرهه ، كما قال « حملته أمُّه كرهاً وضعته كرهاً »[2] .

وقوله « وظلالهم بالغدو والاصال » أي وتسجد ظلالهم . وقيل في معناه قولان :

احدهما - ان سجود الظلال بما فيه من تغير الذلة التي تدعو إلى صانع غير

---

(١) قد مر هذا البيت في ١ : ٢٦٣ ، ٤ : ٢٣٣ ، ٦/١٩٧، ٢٣٥ .

(٢) سورة الاحقاق ٤٦ آية ١٥

مصنوع له العزة والقدرة .

والثاني – قيل سجود الظل لأنه يقصر بارتفاع الشمس ويطول بانحطاطها ، وذلك من آيات الله الدالة عليه ، والسجود هو وضع الوجه على الارض على وجه الخضوع مذلّة لمن وضع له ، وأصله التذليل من قول الشاعر :

بجمع تظل البلق في حجراتــه ترى الاكم فيها سجداً للحوافر(١)

واصل السجود هو الميل والتطأطؤ يقال : سجد البعير وأسجده صاحبه إذا طأطأه ليركبه شبه السجود في الصلاة بذلـــك وعلى هذا يحمل سجود الظلال وسجود الكفار ، ويراد بذلك حركاتهم وتصاريفهم ، فان ذلك أجمع يدل على أن الله الخالق لهم والمدبر لمعايشهم ، والطوع الانقياد للأمر الذي يدعا اليه من قبل النفس وهو نقيض الكره ، والكره الجر الى الأمر على إباء النفس ، واصله الكراهة ضد الارادة ، إلا انه جعل نقيض الطوع . والظلال جمع ظل وهو ستر الشخص ما بازائه . والظلّ الظّليل هو ستر الشمس اللازم . واما الفيء فهو الذي يرجع بعد ذهاب ضوئه ، ومنه الظلّة ، لانها ساترة . والظلّ والظّلال مثـــل زق وزقاق . والآصال جمع أصل ، والأصل جمع أصيل ، وهو العشيّ ، فكأنه قيل أصل الليل الذي ينشأ منه ، لانه مأخوذ من الأصيل ، وهو ما بـــين العصر الى مغرب الشمس ، قال ابو ذؤيب :

لعمري لانت البيت اكرم أهله واقعد في افنائه بالاصائل(٢)

قوله تعالى :

(قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي

(١) قدمر في ١ : ٢٦٣ ، ٤ : ٢٣٣ .
(٢) تفسير الطبري ١٣/٧٧ وروايته (وابعد) بدل (واقعد)

الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ (١٧) أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (١٨) آية في الكوفي وآيتان في البصري والمدنيين تمام الاولى « والنور » .

قرأ أهل الكوفة إلا «حفصاً أم هل يستوي» بالياء. الباقون بالتاء، من قرأ بالتاء فلانه مسند الى مؤنث لم يفصل بينه وبين فاعله بشيء كما قال «قالت الاعراب»[1]، و «قالت اليهود»[2] و«اذ قالت أمة»[3] وقد جاء في مثل ذلك التذكير، كقوله « وقال نسوة »[4] ومن قرأ بالياء، فلانه تأنيث غير حقيقي والفعل مقدّم .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، يأمره بأن يقول لهؤلاء الكفار «من رب السماوات والارض» أي من مدبرهما ومصرّفهما على ما فيهما من العجائب، فانهم لا يمكنهم أن يدّعوا أنّ مدبر السماوات والارض الاصنام التي يعبدونها، فاذا لم يمكنهم ذلك، فقل لهم رب السماوات والارض وما بينهما من انواع الحيوان والنبات والجماد «الله» تعالى، فاذا أقروا بذلك فقل لهم على وجـــه التبكيت لهم والتوبيخ لفعلهم: أفاتّخذتم من دون الله اولياء توجهون عبادتكم اليهم ?! فالصورة صورة الاستفهام والمراد به التقريع والتوبيخ. ثم بين ان هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من الاصنام والاوثان لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ومن لا يملك لنفسه ذلك فانه بأن لا يملك لغيره اولى وأحرى، ومن كان كذلك كيف يستحق العبادة ثم قال لهم « هـل يستوى الأعمى والبصير » ام هل يتساوى الأعمى عن طريق الحق والعادل عنه الى الضلال . والبصير الذي اهتدى الى الحق، فـــإنهما لا يتساويان ابداً، كما لا

(١) سورة الحجرات آية ١٤

(٢) سورة البقرة آية ١١٣ والتوبة آية ٣٠ والمائدة ١٩، ٦٥

(٣) سورة الاعراف آية ١٦٤ (٤) سورة يوسف ١٢ آية ٣٠ .

يتساوى الظلمات والنور . ثم قال هل جعلوا يعني هؤلاء الكفار لله شركاء في العبادة خلقوا أفعالاً مثل خلق الله ، من خلق الأجسام والألوان والطعوم والاراجيح، والموت والحياة ، والشهوة والنفار ، وغير ذلك من الافعال التي نختص تعالى بالقدرة عليها فاشتبه ذلك عليهم ، فظنوا انها تستحق العبادة ، لان افعالها مثل افعال الله، فاذا لم يكن ذلك شبيهاً بل كان معلوماً لهم ان جميع ذلك ليست من جهة الاصنام ، فقل لهم الله خالق كل شيء اي هو خالق جميع ذلك يعني ما تقدم من الأفعال التي يستحق بها العبادة .

وقوله « وهو الواحد القهار » اي الخالق لذلك واحد لا ثاني له وهو الذي يقهر كل قادر سواه لا يقدر على امتناعه منه .

ومن تعلق من المجبرة بقوله « قل الله خالق كل شيء » على ان أفعال العباد مخلوقة لله ، فقد أبعد ، لان المراد بذلك ما قدمناه من أنه تعالى خالق كل شيء يستحق بخلقه العبادة دون ما لا يستحق به ذلك . ولو كان المراد ما قالوه لكان فيه حجة للخلق على الله تعالى وبطل التوبيخ الذي تضمنته الآية الى من وجه عبادته الى الاصنام ، لانه إذا كان الخالق لعبادتهم الاصنام هو الله على قول المجبرة فلا توبيخ يتوجه على الكفار ، ولا لوم يلحقهم بل لهم ان يقولوا : إنك خلقت فينا ذلك فما ذنبنا فيه ولم توبخنا على فعل فعلته؟فتبطل حينئذ فائدة الآية. على أنه تعالى إنما نفى ان يكون أحد يخلق مثل خلقه ، ونحن لا نقول إن احداً يخلق مثل خلق الله ، لان خلق الله اختراع مبتدع ، وافعال غيره مفعولة في محل القدرة عليه مباشراً او متولداً في غيره بسبب حال في محل القدرة ولا يقدر أحدنا على اختراع الأفعال في غيره على وجه من الوجوه ، ولان احدنا يفعل ما يجرّ به نفعاً او يدفع به ضرراً ، والله تعالى لا يفعل لذلك فبان الفرق بين خلقنا وخلقه . ولان احدنا يفعل بقدرة محدثة . يفعلها الله فيه والله تعالى يفعل، لانه قادر لنفسه . وايضاً فان ههنا اجناساً لا نقدر عليها ، وهو تعالى قادر على جميع الاجناس ، ونحن لا نقدر ان نفعل بقدرة واحدة في وقت واحد في محل واحد

من جنس واحد اكثر من جزء واحد ، والله تعالى يقدر ان يفعل مـا لا نهاية له فبان الفرق بيننا وبينه من هذه الوجوه .

قوله تعالى :

(أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللهُ ٱلْأَمْثَالَ) (١٩) آية واحدة بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة إلا ابا بكر « ومما يوقدون» بالياء. الباقون بالتاء . قال أبو علي : من قرأ بالتاء فلما قبله من الخطاب ، وهو قوله «قل أفاتخذتم» ويجوز ان يكون خطاباً عاماً ، يراد به الكافة ، فكان المعنى « مما توقدون » عليه ايهـا الموقدون زبد مثل زبدالماء الذي عليه السيل «فاما الزبدفيذهب جفاء» لا ينتفع به كا ينتفع بما يخلص بعد الزبد من المـاء والذهب والفضة والصفر . ومن قرأ بالياء ، فلان الغيبة قد تقدم في قوله « ام جعلوا لله شركاء » ويجوز ان يراد بـه جميع الناس ويقوي ذلك قوله « واما ما ينفع الناس » فكما ان الناس يعم المؤمن والكافر كذلك الضمير في « يوقدون » وقال « وممـا يوقدون عليه في النار » كقوله « فاوقد لي يا هامان على الطين »[١] فهذا إيقاد على ما ليس في النار ، وان كان يلحقه وهجها ولهبها. وأما قوله «بورك من في النار»[٢] فالمعنى على من في قرب النار، وليس يراد به متوغلها «ومن حولها»[٣] ومن لم يقرب منها قرب الآخرين

(١) سورة القصص ٢٨ آية ٣٨ (٣-٢) سورة النمل ٢٧ آية ٨

ألا ترى ان قوله «وممن حولكم من الاعراب منافقون»[١] لم يقرب المنافقون الذين حولهم فيه قرب المخالطين لهم حيث يحضرونه ويشهدونه في مشاهدهم .

قال الحسن يقول الذي « أنزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها » الى قوله « ابتغاء حلية » الذهب والفضة والمتاع والصفر والحديد « كذلك يضرب الله الحق والباطل» كما أوقد على الذهب والفضة والصفر والحديد، فيخلص خالصه، « كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » قال فكذلك الحق بقي لأهله فانتفعوا به .

وقرأ الحسن «بقدرها» بتخفيف الدال وهما لغتان يقال أعطى قدر شبر وفي المصدر بالتخفيف لا غير تقول: قدرت اقدر قدراً، وفي المثل التخفيف، والتثقيل تقول : هم يختصمون في القدر بالسكون والحركة قال الشاعر :

الا يا لقوم للنوائب والقدر وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدري[٢]

أخبر الله تعالى انه هو الذي ينزل من السماء ماء يعني الامطار والغيوث ، فتسيل هذه المياه أودية بقدرها من القلة والكثرة. والسيل جري الماء من الوادي على وجه الكثرة . يقال جاء السيل يغرق الدنيا، وسال بهم السيل إذا جحفهم بكثرته . والوادي سفح الجبل العظيم المنخفض الذي يجتمع فيه ماء المطر، ومنه اشتقاق الدية ، لانه جمع المال العظيم الذي يؤدى عن القتيل ، والقدر إقران الشيء بغيره من غير زيادة ولا نقصان. والوزن يزيد وينقص، فاذا كان مساوياً، فهو القدر .

وقوله « فاحتمل السيل زبداً رابياً » فالاحتمال رفع الشيء على الظهر بقوة الحامل له ، ويقال علا صوته على فلان فاحتمله ، ولم يغضبه ، فقوله هذا يحتمل وجهين: معناه له قوة يحمل بها الوجهين، والزبد وضر الغليان، وهو خبث الغليان ومنه زبد القدر ، وزبد السيل ، وزبد البعير. والجفاء ممدود مثل الغثاء وأصله

---

(١) سورة التوبة ٩ آية ١٠١

(٢) مجمع البيان ٣ : ٢٨٦

الهمزة يقال جفا الوادي جفاء . قال الفراء: كل شيء ينضم بعضه الى بعض فأنه يجيء على (فعال) مثل الحطام والقماش والغشاء والجفاء ، فاذا أردت المصدر ، فهو مقصور .

وقوله « رابياً » معناه زائداً، يقال ربا يربو رباً فهو راب. ومنه الربا المحرم.

وقوله « ومما توقدون عليه » اي ومن ذلك توقدون عليه زبد مثله، والايقاد القاء الحطب في النار أوقد ايقاداً واستوقدت النار واتّقدت وتوقّدت .

وقوله « ابتغاء حلية » معناه طلب حلية من الذهب والفضة أو متاع يعني الصفر والحديد ، والمتاع ما تمتعت به قال الشاعر :

تمتع يا مشعّث إن شيئاً سبقت به الممات هو المتاع[1]

«زبد مثله»يعني من الذي يوقد عليه زبد مثل زبد السيل،ومثل الشيء ما سد مسده ، وقام مقامه ، فيما يرجع الى ذاته .

وقوله «كذلك يضرب الله الحق والباطل» اي يضرب المثل للحق والباطل، وضرب المثل تسييره في البلاد حتى يتمثل به الناس .

وقوله «فاما الزبد فيذهب جفاء» اخبار منه تعالى ان الزبد الذي يعلو على الماء والنار يذهب باطلاً وهالكاً ، قال أبو عبيدة قال أبو عمرو ، وتقول العرب أجفأت القدر إذا غلت فانصب زبدها ، وسكنت فلا يبقى منه شيء . والجفاء ممدود مثل الغثاء ، واصله الهمز .

وقوله «واما ما ينفع الناس» من الماء الصافي، والذهب، والفضة، والحديد، والصفر «فيمكث في الارض» اي يلبث ويثبت . والمكث الكون في المكان على مرور الزمان مكث يمكث مكثاً وتمكث تمكثاً والمكث طول المقام .

وقوله «كذلك يضرب الله الامثال» اي يضرب الله مثل الحق والباطل بالماء الذي ينزل من السماء، وبجواهر الارض ، فإن لهما جميعاً زبداً ، هذا عند سيله

---

(١) قائلة المشعث العامري . مجاز القرآن ١ : ٣٢٨ واللسان والتاج (متع) ومعجم المرزباني ٤٧٥ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ : ٨١ .

وجريه ، وهذا عند اذابته بالنار وهو وسخه وخبثه ، فالحق ثابت كالماء الذي يبقى في الارض ينبت به الزرع والشجر وكالجواهر التي في ايدي الناس تصبر على النار ، فلا تبطل فينتفعون بها . والباطل كزبد هذين يذهب، لا منفعة فيه بعد ان يرى له حركة واضطراب. وفي ذلك تنبيه لمن تقدم ذكره من المشركين الذين سألوا الآيات على سبيل التكذيب والعناد .

قوله تعالى :

(لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَى وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ) (٢٠) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذين يجيبون دعاء الله الى طريق التوحيد والعمل بشريعته وتصديق نبيه ويطلبون مرضاته في فعل ما دعاهم اليه، لهم الحسني ، وهي المنفعة العظمى في الحسن ، وقال المفسرون: أراد بالحسنى الجنة والخلود في نعيمها . وان الذين لم يجيبوا دعاءه ولم يقرّوا بنبيه ولم يعملوا بما دعاهم اليه «لو انلهم ما فيالارض جميعاً» ملكاً لهم ويضيفوا اليه مثله فيالكثرةلافتدوا بجميع ذلك أنفسهم من عذاب النار وطلبوا به الخلاص منه، لو قبلذلك منهم. والافتداء جعلأحد الشيئين بدلاً من الآخر على وجه الاتقاء به، فهؤلاء لا يقيهم من عذاب الله شيء – نعوذ بالله منه – ثم أخبر تعالى ان لهؤلاء سوء الحساب . وقيل في معناه قولان :

قال ابراهيم النخعي : ان سوء الحساب هو مؤاخذة العبد بذنبه لا يغفر له شيء منه .

وقال الجبائي : معناه واخذه بـه على وجه التوبيخ والتقريع. والحساب إحصاء ما على العبد وله، يقال : حاسبته حساباً ومحاسبة، وحسبه يحسبه حسباً وحسباناً .

وقوله « ومأواهم جهنم وبئس المهاد » فالمهاد الفراش الذي يوطـأ لصاحبه ، وانما قيل لجهنم : مهاد أي هي موضع المهاد لهم .

قوله تعالى :

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ) (٢١) آية بلا خلاف.

أخبر الله تعالى انمن يؤمن بالله ويعلم انما أنزل اليك يامحمد من ربك الحق ، لا يكون مثل من يشهد ذلك وعمي عنه، فاخرج الكلام مخرج الاستفهام والمراد به الانكار، أي لا يكون هذان مستويين ، وبين ان الفرق بينهما بمنزلة الفرق بين الاعمى والبصير .

وقوله « انما يتذكر اولوا الالباب » معناه إنما يتذكر في ذلـك ويفكر فيه ويستدل به ذوو العقول والمعرفة . والالباب هي العقول ، واحدها لب . ولبّ الشيء أجل ما فيه واخلصه واجوده ، فلب الانسان عقله لانه أجل مـا فيه ، ولب النخلة قلبها ، ولب الطلعة ثمرتها التي فيها ، وانما شبه العلم بالبصر ، والجهل بالعمى ، لان العـلم يهتدى بـه الى طريق الرشد من الغي كما يهتدى بالبصر الى طريق النجاة من طريق الهلاك، وعكس ذلك حال الجهل والغي. قال الرماني: وجه الاحتجاج بالآية انه إذا كانت حال الجاهل كحال الاعمى ، وحـال العالم كحال البصير وأمكن هذا الأعمى ان يستفيد بصراً ، فما الذي يبعده عن طلب العلم الذي يخرجه عن حال الاعمى بالجهل؟!. وهذا إلزام طلب العلم،لانه خروج عن حال الأعمى بالجهل الى البصير بالعلم .

وقوله «انما يتذكر أولوا الالباب» معناه إنما ينتفع بالذكر من كان له لب، كقولك: إنما يترك السرف والبغي من له عقل وعلم بالعواقب، وان كان كثير ممن له عقل لا يترك ذلك ولا يفكر في العواقب.

قوله تعالى:

(أَلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ) (٢٢) آية بلا خلاف.

موضع «الذين» رفع لأنه صفة لاولى الالباب، فكأنه قال إنما يتذكر أولوا الالباب الذين صفتهم أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون مواثيقه. والايفاء جعل الشيء على المقدار من غير زيادة ولا نقصان، والعهد العقد المتقدم على الأمر بما يفعل، والنهي عما يجتنب يقال: عهد لله عهداً، وعاهده معاهدة. وتعهده تعهداً وتعاهده تعاهداً، والنقض حل العقد بفعل ما ينافيه، والنقيض معنى تنافي صحته صحة غيره. والنقض في المعاني لإيجاد ما لا يمكن ان يصح مع غيره، كاعتقاد ان زيداً في الدار وليس هو فيها على وجه واحد. والميثاق العهد الواقع على إحكام. توثق توثقاً واستوثق استيثاقاً؛ وواثقه مواثقة، ووثق به وثوقاً، وارثقه ايثاقاً، ووثقه توثيقاً.

والعهد الذي جعله فيعقول العباد ما جعل فيها من اقتضاء صحة أمور الدين وفساد أمور أخر، كاقتضاء الفعل للفاعل، وأنه لا يصح الفعل الا ان يكون فاعله قادراً، وان المحكم لا يصح الا من عالم، وان الصانع لا بد ان يرجع الى صانع غير مصنوع، والا أدى الى ما لا نهاية له، وان للعالم مدبر لا يشبهه، ولا يحتاج الى مدبر لحاجته وما أشبه ذلك. وقد يكون ايضاً على العهد الذي عاهد عليه النبي ﷺ. وفي الآية دلالة على وجوب الوفاء بالعهود التي تنعقد بين الخلق سواء كان بين المسلمين او الكفار، من الهدنة وغيرها.

قوله تعالى :

(وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ ٱلْحِسَابِ) (٢٣) آية بلا خلاف .

هذه الآية عطف على الاولى، وهي من صفة الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون ميثاقه ، وانهم مع ذلك « يصلون ما أمر الله به أن يوصل » والوصل ضد الفصل يقال وصله يصله وصلاً ، وأوصله إيصالاً ، واتصل اتصالاً ، وتواصلوا تواصلاً ، وواصله مواصلة ، ووصله توصيلاً . والوصل ضم الثاني الى الاول من غير فاصلة . وقيل : المعنى يصلون الرحم . وقال الحسن : المعنى يصلون محمد ﷺ .

وقوله « ويخشون ربهم » اي يخافون عقابه فيتركون معاصيه « ويخافون سوء الحساب » وقد فسرناه . والخوف والخشية والفزع نظائر ، وهو انزعاج النفس بما لا تأمن معه من الضرر ، وضد الأمن الخوف . والسوء ورود ما يشق على النفس ، ساءه يسوءه سوءاً ، وأساء اليه إساءة . والاساءة ضد الاحسان . وقيل « سوء الحساب » مناقشة الحساب . والحساب احصاءما على العامل وله ، وهو - ههنا - إحصاءما على المجازى وله .

قوله تعالى :

(وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ) (٢٤) آية بلا خلاف.

هذه الآية ايضاً من تمام وصف الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون ميثاقه ويصلون ما امر الله بوصله ، ويصبرون على ترك معاصي الله ، والقيام بما أوجبه عليهم ، والصبر على بلاء الله وشدائده من الامراض والفقر وغير ذلك . والصبر

حبس النفس عما تنازع اليه مما لا يجوز من الفعل وهو تجرع مرارة تمنع النفس مما تحب من الامر .

ومعنى قوله « ابتغاء وجه ربهم » اي يفعلون ذلك طلب عظمـــة ربهم . والعرب تقول ذلك في تعظيم الشيء يقولون: هذا وجه الرأي، وهذا نفس الرأي المعظم ، فكذلك سبيل وجه ربهم اي نفسه المعظم بما لا شيء اعظم منه ، ولا شيء يساويه في العظم . والمعنى ابتغاء ثواب ربهم .

وقوله « وأقاموا الصلاة » يعني اقاموها بحدودها . وقيل: معناه داوموا على فعلها و« انفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية » اي ظاهراً وباطناً ، ما يجب عليهم من الزكاة ، وما ندبوا اليه من الصدقات . والسر إخفاء المعنى في النفس، ومنه السرور ، لانه لذة تحصل في النفس ، ومنه السرير ، لانه مجلس سرور .

وقوله « ويدرؤن بالحسنة السيئة » معناه يدفعون بفعل الطـاعة المعاصي ، يقال: درأته ادرؤه درءاً إذا دفعة . وقال ابن زيد : الصبر على وجهين :

احدهما - الصبر لله على ما احب . والآخر - الصبر على ما كره ، كما قال « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » وقيل ويدرؤن سفه الجهال بما فيهم من الحلوم. وقيل: انهم يدفعون ظلم الغير عن نفوسهم بالرفق والمواعظ الحسنة . ثم قال تعالى مخبراً ان هؤلاء الذين وصفهم بهذه الصفات « لهم عقبى الدار » اي عاقبة الدار ، وهي الجنة التي وعد الله الصابرين بها .

قوله تعالى :

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٥) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَـــا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) (٢٦) آيتان في الكوفي والبصري. وآية في الباقي تمام الاولى في الكوفي والبصري. «من كل باب»

يقول الله تعالى إن من وصفه بالصفات المذكورة «لهم عقبى الدار» وهي «جنات عدن» قال الزجاج: (جنات) بدل على قوله «عقبى الدار» والجنات البساتين التي يحفها الشجر واحدها جنة وأصله الستر من قوله «جن عليه الليل»[1] وجنه اذا ستره. و (العدن) الاقامة الطويلة، عدن بالمكان إذا اقام به يعدن عدناً، ومنه المعادن التي يخرج منها الذهب والفضة وغيرهما.

وقوله «ومن صلح من آبائهم وازواجهم وذرّياتهم» اي ويدخل هذه الجنات الذين عملوا الصالحات من آباء المؤمنين، ومن أزواجهم وذرياتهم. والصلاح استقامة الحال الى ما يدعو إليه العقل او الشرع. والمصلح من يفعل الصلاح، والصالح المستقيم الحال في نفسه.

وقوله «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب» اي يدخلون من كل باب بالتحية والكرامة، وفي ذلك تعظيم الذكر للملائكة. وفي الآية دلالة على ان ثواب المطيع لله سروره بما يراه في غيره من أحبّته، لانهم يسرون بدخول الجنة مع من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وهم أولادهم. وذلك يقتضي سرورهم بهذا الخبر. وقوله «سلام عليكم بما صبرتم» اي يقول هؤلاء الملائكة الداخلون عليهم «سلام عليكم». والسلام التحية بالكرامة على انتفاء كل امر يشوبه من مضرة. والقول محذوف لدلالة الكلام عليه. والعقبى الانتهاء الذي يؤدي اليه الابتداء من خير او شر، فعقبى المؤمن الجنة فهي نعم الدار، وعقبى الكافر النار، وهي بئس الدار. و (الباء) في قوله «بما صبرتم» يتعلق بمعنى «سلام عليكم» لانه دل على السلامة لكم بما صبرتم، ويحتمل ان يتعلق بمحذوف، وتقديره هذه الكرامة لكم بما صبرتم.

وقيل في معنى «بما صبرتم» قولان:

احدهما - ان تكون (ما) بمعنى المصدر، فكأنه قال: بصبركم.

والثاني - ان تكون بمعنى (الذي) كأنه قال بالذي صبرتم على فعل طاعاته وتجنب معاصيه.

---

(١) سورة الانعام ٦ آية ٧٦

قوله تعالى :

(وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ) (٢٧) آية بلا خلاف .

لما ذكر الله تعالى الذين يوفون بعهده ، ولا ينقضون ميثاقه ، ووصفهم بالصفات التي يستحقون بها الجنة ،وهي عقبى الدار ، اخبر بعد ذلك عن حال من ينقض عهده من بعد اعطائه المواثيق ، ويقطع ما امر الله به ان يوصل ، وهو ما بيّناه من صلة الرحم اوصله النبي ﷺ ويفسد مع ذلك في الارض ، ومعناه ان يعمل فيها بمعاصي الله والظلم لعباده ، واخراب بلاده ، فهؤلاء لهم اللعنة ، وهي الابعاد من رحمة الله ، والتبعيد من جنته ، «ولهم سوء الدار» يعني عذاب النار ، والخلود فيها . وقد بينا معنى النقض ، وأنه التفريق بين شيئين متآلفين ، ومثله الهدم ، ونقض العهد هو العمل بخلاف موجبه ، والعهد عقد يتقدم به في الامر وعهد الله عقده ، وهو لزوم العمل بالحق في جميع ما اوجبه عليه ، والميثاق احكام العقد بأبلغ ما يكون مثله ، وميثاق العهد توثيقه بأوكد ما يكون من الأمر . والقطع نقيض الوصل ، وقطع ما امر الله به ان يوصل ، في كل عمل يجب تنميته ، من صلة رحم او غيره من الفروض اللازمة ، والافساد نقيض الاصلاح .

قوله تعالى :

(ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ) (٢٨) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى انه «يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» ومعناه يوسعه على من يشاء

من عباده، بحسب ما يعلم من مصلحته، ويضيّقه على آخرين اذا علم ان مصلحتهم في ذلك .

وقوله « وفرحوا بالحياة الدنيا » معناه وسروا - هؤلاء الذين بسط لهم في الرزق - بالرزق في الحياه الدنيا فنسوا فناءه وبقاء امر الآخرة . ويحتمل ان يكون اراد به أنهم فرحوا فرح البطر ، كقوله « ان الله لا يحب الفرحين » [١] والفرح هو السرور ، وهو لذة في القلب بنيل المشتهى ، ومنه قوله « فرحين بما آتاهم الله من فضله » . [٢]

ثم قال تعالى « وما الحياة الدنيا في الآخرة الامتاع » ومعناه ليست هذه الحياة الدنيا بالاضافة الى الحياة في الآخرة «إلاّمتاع» اي إلاّقليل ذاهب في - قول مجاهد - وانما كان كذلك ، لان هذه فانية وتلك دائمة باقية . والمتاع ما يقع من الانتفاع به في العاجلة ، وأصله التمتع ، وهو التلذذ بالأمر العاجل ، ولذلك وصفت الدنيا بأنها متاع . والقدر قطع الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان ، والمقدار المثال الذي يعمل فيه غيره في مساواته ، ومعنى ويقدر - ههنا - يضيق . وقال ابن عباس : ان الله تعالى خلق الخلق فجعل الغنا لبعضهم صلاحاً ، والفقر لبعضهم صلاحاً ، فذلك الخيار للفريقين .

قوله تعالى :

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ) (٢٩) آية بلا خلاف.

حكى الله تعالى في هذه الآية عن الكفار الذين وصفهم انهم يقولون « لولا أنزل » على محمد « آية » يعني علامة ومعجزة . والمعنى هلا انزل عليه آية من ربه

(١) سورة القصص ٢٨ آية ٧٦ (٢) سورة آل عمران ٣ آية ١٧٠

يقترحونها، ويعلمون انها انزلت من ربه، وذلك لما لم يستدلوا، فيعلموا مدلول الآيات التي اتى بها لم يعتدوا بتلك الآيات، فقالوا هذا القول جهلاً منهم بها، فأمر الله نبيه ان يقول لهم «ان الله يضل من يشاء» بمعنى انه يحكم على من يشاء بالضلال اذا ضل عن طريق الحق، ويجوز ان يكون المراد «يضل من يشاء» عن طريق الجنة بسوء أفعالهم وعظم معاصيهم، ولا يجوز ان يريد بذلك الاضلال عن الحق، لان ذلك سفه لا يفعله الله تعالى.

وقوله «ويهدي اليه من أناب» اي يحكم لمن رجع الى طاعة الله والعمل بها بالجنة ويهديه اليها. والهداية الدلالة التي تؤدي الى طريق الرشد بدلاً من طريق الغي، والمراد بها – ههنا – الحكم له بسلوك طريق الجنة رفعاً لقدره، ومدحاً لصاحبه. والاضلال العدول بالمارّ عن طريق النجاة الى طريق الهلاك، والمراد – ههنا – الحكم له بالعدول عن طريق الجنة وسلوك طريق النار، والإنابة الرجوع الى الحق بالتوبة، يقال: ناب ينوب نوبة اذا رجع مرة بعد مرة.

قوله تعالى:

(ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ) (٣٠) آية بلا خلاف.

موضع «الذين» نصب، لأنه من صفة من أناب، وتقديره ويهدي الله الذين أنابوا الى الله «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله» والايمان – ههنا – هو الاعتراف بتوحيد الله على جميع صفاته، والاقرار بنبوة نبيه، وقبول ما جاء به من عند الله، والعمل بما أوجبه عليهم، وفي اللغة: الايمان هو التصديق.

وقوله «وتطمئن قلوبهم بذكر الله» أي تسكن قلوبهم وتأنس الى ذكر الله الذي معه ايمان به، لما في ذلك من ذكر نعمه التي لاتحصى وأياديه التي لا تجازى، مع عظيم سلطانه وبسط إحسانه. والذكر حضور المعنى للنفس، وقد يسمى العلم ذكراً، والقول الذي فيه المعنى الحاضر للنفس يسمى ذكراً. ووصف الله

تعالى – ههنا – المؤمن بأنه يطمئن قلبه الى ذكر الله، ووصفه في موضع آخر بأنه إذا ذكر الله وجل قلبه[1] ، لان المراد بالاول انه يذكر ثوابه وانعامه ، فيسكن اليه ، والثاني يذكر عقابه وانتقامه فيخافه ويجل قلبه .

وقوله « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » إخبار منه تعالى ان بذكر الله تسكن القلوب وتستأنس وتطمئن الى ما وعد الله به من الثواب والنعيم ، ومن لم يكن مؤمناً عارفاً لا يسكن قلبه الى ذلك .

قوله تعالى :

(أَلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا أَلصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) (٣١) آية بلا خلاف .

يحتمل قوله « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ان يكون في موضع نصب بأن يكون من صفة « الذين » في الآية الاولى ، ويحتمل ان يكون رفعاً بالابتداء ، فكأنه أخبران الذين يؤمنون بالله ويعترفون بوحدانيته ويصدقون نبيّه ، ويعملون بما أوجبه عليهم من الطاعات ، ويجتنبون ما نهاهم عنه من المعاصي « طوبى لهم » وقيل في معناه عشرة أقوال :

احدها – لهم بطيب العيش .

وثانيها – قال ابن عباس : معناه فرح لهم تقرّ به أعينهم .

وثالثها – قال قتادة : معناه الحسنى لهم .

ورابعها – قال عكرمة : نعم ما لهم .

وخامسها – قال الضحاك : غبطة لهم .

وسادسها – قال ابراهيم : كرامة لهم من الله .

وسابعها – قال مجاهد : الجنة لهم .

---

(١) في سورة الانفال ٨ آية ٢ « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون » .

وثامنها – قال ابو هريرة : طوبى شجرة في الجنة .

وتاسعها - قال الجبائي : تأنيث الاطيب من صفة الجنة، والمعنى إنها أطيب الأشياء لهم .

وعاشرها – قال الزجاج: المعنى العيش الأطيب لهم .

وهذه الأقوال متقاربة المعنى .

وقوله «وحسن مآب» فالمآب المرجع يقال: آب يؤب أوباً ومآباً إذا رجع، وسمي المثوى في الآخرة مآباً، ومنقلباً، لأن العباد يصيرون اليه، كما يصيرون الى ما كانوا انصرفوا عنه. والحسن النفع الذي يتقبله العقل، وقد يجري على ما تتقبله النفس ، كما يجري القبح الذي هو نقيضه على ما ينافره الطبع ، والمعنى إن لهم طوبى ولهم حسن مآب ، و « طوبى » في موضع رفع « وحسن مآب » عطف عليه ويجوز ان يكون موضعه النصب ، وينصب « حسن مآب » على الاتباع كما يجوز الحمدِ لله ، ولم يقرأ به .

قوله تعالى :

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ (٣٢) آية بلا خلاف.

قيل في التشبيه في قوله « كذلك أرسلناك » وجهان :

احدهما – قال الحسن والجبائي: إن المعنى إنا ارسلناك كما أرسلنا الأنبياء قبلك.

وقال قوم : ان المعنى إن النعمة على من أرسلناك اليه، كالنعمة على من تقدم ذكره بالثواب في «حسن مآب»، والمعنى إنا ارسلناك يا محمد «في أمة» قد مضت « من قبلها أمم » وغرضي ان تتلو أي تقرأ عليهم ما « اوحينا اليك » من الأمر والنهي والوعد والوعيد .

والارسال تحميل الرسول الرسالة ، فرسول الله قد حمله الله رسالة الى عباده، فيها أمره ونهيه وبيان ما يريده وما يكرهه. والأمة الجماعة الكثيرة من الحيوان التي ترجع الى معنى خاص لها دون غيره ، فمن ذلك أمة موسى ، وأمة عيسى، وأمة محمد ﷺ ، وكذلك كل جنس من أجناس الحيوان أمة ، لاختصاصها بمعنى جنسها ، فعلى هذا العرب أمة ، والترك أمة ، والزنج أمة ، و (الخلو) مضي الشيء بنقيضه على تجرد مما كان عليه ، كأنه ينفيه دون احواله التي كان عليها ، فقد انفرد عنها . و (التلاوة) جعل الثاني يلي الأول بعده بلا فصل . والتلاوة والقراءة واحد .

وقوله « وهم يكفرون بالرحمن » إنما قال «بالرحمن» دون (الله) لان اهل الجاهلية من قريش ، قالوا الله نعرفه ، والرحمن لا نعرفه . وكذلك قالوا « وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا »[١] وقال « قل أدعوا الله أو ادعوا الرحمن ايا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى »[٢] ، وهو قول الحسن ، وقتادة .

ثم أمر الله تعالى نبيه ان يقول لهم «هو» يعني الرحمن «ربي» أي خالقي ومدبري «لا إله إلا هو» ليس لي إله ولا معبود سواه «عليه توكلت» أي وثقت به في تدبيره وحسن اختياره. والتوكل التوثيق في تدبير النفس برده الى الله «وإليه متاب» أي الى الله الرحمن توبتي وهو الندم على ماسلف من الخطيئة مع العزم على ترك المعاودة الى مثله في القبح ، والمتاب والتوبة مصدران ، يقال : تاب يتوب توبة ومتاباً .

قوله تعالى :

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ

---

(١) سورة الفرقان ٢٥ آية ٦٠ (٢) سورة الأسرى ١٧ آية ١١٠

لَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعاً وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ) (٣٣) آية بلا خلاف .

هذه الآية تتضمن وصف القرآن بغاية مـا يمكن من علو المنزلة وبلوغه أعلى طبقات الجلال، لانه تعالى قال «لو أن قرآناً سيرت به الجبال» من مواضعها وقلعت من أماكنها لعظم محله وجلالة قدره . والتسيير تصيير الشيء بحيث يسير، تقول سار يسير سيراً ، وسيره غيره تسييراً . « أو قطعت به الارض » لمثل ذالـك . والتقطيع تكثير القطع ، قطعه قطعة، وقطّعه تقطيعاً . والقطع فصل المتصل. « او كلم به الموتى » لمثل ذلك حتى يعيشوا او يحيوا ، تقول: كلمه كلاماً، وتكلم تكلماً ، والكلام ما انتظم من حرفين فصاعداً من الحروف المعقولة إذا وقع ممن يصح منه او من قبيلة ، لافادة . و (الموتى) جمع ميت مثل صريع وصرعى ، وجريح وجرحى . ولم يجيء جواب (لو) لدلالة الكلام عليه ، وتقديره : لكان هذا القرآن لعظم محله في نفسه وجلالة قدره . وكان سبب ذلك أنهم سألوا النبي ﷺ ان يسيّر عنهم جبال مكة لتتسع عليهم المواضع، فأنزل الله تعـالى الآية، وبين انه لو سيرت الجبال بكلام، لسيرت بهذا القرآن لعظم مرتبته وجلالة قدره. وقد يحذف جواب (لو) إذا كان في الكلام دلالة عليه، قال امرؤ القيس:

فلو انهـا نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا[1]

وهو آخر القصيدة ، وقال الآخر :

فأقسم لو شيء اتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا[2]

وقال الفراء : يجوز ان يكون جوابه (لكفروا بالرحمن) لتقدم ما يقتضيه ،

---

(١) ديوانه (الطبعة الرابعة) : ١١٧ وروايته (جميعه) بدل (سوية) وبعده اربع أبيات من القصيدة ، وقد مر هذا البيت في ٦ : ١٢٢

(٢) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٢: ١٢، ١٣ : ٩٠، وقد مر فيما سف في ٥: ٥٢٩

وقال البلخي . يجوز ان يكون معطوفاً على قوله « وهم يكفرون بالرحمن ... ولو ان قرآناً » ويستغنى بذلك عن الجواب ، كما تقول: هو يشتمني ولو أحسنت اليه ، وهو يؤذيني ولو اكرمته .

وقوله «بل لله الامر جميعاً» معناه ان جميع مـــا ذكر - من تسيير الجبال وتقطيع الارض وإحياء الموتى ، وكل تدبير يجري هذا المجرى - لله ، لانــه لا يملكه ولا يقدر عليه سواه .

وقوله « أفلم ييأس الذين آمنوا » قيل في معناه قولان :

احدهما - قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، وابو عبيدة : معناه أفلم يعلم ، قال سحيم :

اقــول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم ييأسوا اني ابن فارس زهدم[١]

معناه ألم يعلموا .

الثاني - قال الفراء : معناه « افلم ييأس الذين آمنوا » ان ينقطع طمعهم من خلاف هذا ، علما بصحته ، كما قال لبيد :

حتى اذا يئس الرماة فأرسلوا عصفاً دواجن قافلاً اعصامها[٢]

معناه: حتى اذا يئسوا من كل شيء الا الذي ظهر اي يئسوا من خلاف ذلك لعلمهم بصحته ، والعلم بالشيء يوجب اليأس من خلافه .

وقوله «ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً» معناه الم يعلموا ان الله لو أراد ان يهدي خلقه كلهم الى جنته لهدا هم، لكنه كلفهم لينالوا الثواب بطاعاتهم على وجه الاستحقاق . ويحتمل ان يكون المعنى لو اراد ان يلجئهم إلى الاهتداء لقدر على على ذلك ، لكنه ينافي التكليف ويبطل الغرض منه .

---

(١) الشاعر هو سحيم بن وثيل الرياحي . والبيت في تفسير الطبري ١٣ : ٩٠

(٢) تفسير الطبري ١٣ : ٩١ واللسان (دجن) ، (عصم) وروايته (غضفاً) بـــدل (عصفاً) ، يقصد ارسلوا الكلاب .

وقوله « ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة » فالقارعة هي الداهية المهلكة ، وهي النازلة التي تزعج بالنعمة ، تقول : قرعتهم تقرعهم قرعاً وهي قارعة ، ومنه المقرعة .

وقوله « او تحل قريباً من دارهم » قيل في معناه قولان :

احدهما – قال ابن عباس: او تحل، اي تنزل – يا محمد – قريباً من دارهم . والحلول حصول الشيء في الشيء، وحملوا قوله «تصيبهم قارعة» على نزول السرايا بهم او يحل النبي ﷺ قريباً منهم .

وقال الحسن : المعنى او تحل القارعة قريباً من دارهم .

وقوله « حتى يأتي وعد الله » قال قتادة معناه حتى يأتي وعده بفتح مكة . وقال الحسن : معناه حتى يأتي يوم القيامة .

وقوله « ان الله لا يخلف الميعاد » اخبار منه تعالى انه لا خلف لوعده بل لا بد ان يفعل ما وعد به او توعد عليه . وامر الله ما يصح ان يأمر فيه وينهى عنه وهو عام . واصله الامر نقيض النهي ، والاصابة لحوق ما طلب بالارادة، اصاب الغرض يصيبه إصابة وهو مصيب ، ومنه الصواب إدراك البغية المطلوبة بداعي الحكمة .

وروي عن ابن عباس انه قرأ «أفلم يتبين الذين آمنوا» من التبيين . وروي مثله عن علي ﷺ رواه الطبري . وقال الزجاج : معناه افلم يعلم الذين آمنوا ان هؤلاء لا يؤمنون مع قوله « لو شاء الله لهدى الناس جميعاً » .

قوله تعالى :

(وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) (٣٤) آية بلا خلاف.

اللام في قوله « ولقد » لام القسم ، ومعنى الكلام انه اقسم تعالى انه لقد

استهزىء برسل من قبلك يا محمد أرسلهم الله. والاستهزاء طلب الهزء وهو اظهار خلاف الاضمار للاستضعاف فيما يجري من عبث الخطاب . والرسل جمع رسول ، وهو المحمّل للرسالة . والرسالة كلام يؤخذ لتأديته الى صاحبه .

وقوله « فامليت للذين كفروا » اي اخرت عقابهم وإهلاكهم وأمهلتهم ، يقال : أملى يملي إملاء ومنه قوله « انما نملي لهم ليزدادوا إثما »[١] واصله طول المدة ، ومنه قليل لليل والنهار : الملوان لطولها ، قال ابن مقبل :

الا يا ديار الحي بالسُّبُعان أملَّ عليها بالبلى الملوان[٢]

وقوله « ثم اخذتهم » يعني الذين استهزؤا برسل الله وكفروا بآيات الله ، أهلكتهم وانزلت عليهم عذابي « فيكيف كان عقاب » وهو العذاب على وجه الجزاء .

ومعنى الآية تسلية النبي ﷺ عما يلقاه من سفهاء قومه من الكفر والاستهزاء عند دعائه إياهم إلى توحيده والايمان به ، بأنه قد نال مثل هذا الأنبياء قبلك فصبروا ، فاصبر أنت ايضاً مثل ذلك ، كما قال « فأصبر كما صبر أولو العزم من الرسل »[٣]

قوله تعالى :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ

---

(١) سورة آل عمران اية ١٧٨

(٢) الكتاب لسيبويه ٢ : ٣١٥ وتفسير الطبري ١٤ : ١٣٢ وسمط اللآلي ٥٣٣ واللسان (سبع) ومجاز القرآن ١ : ١٠٩ ، ٣٣٣ . وقد روى (الح) بدل (امل) .

(٣) سورة ٤٦ الاحقاق آية ٣٥

وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (٣٥) آية بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة « وصدوا » بضم الصاد . الباقون بفتحها ، قال ابو علي : قال ابو عمرو ، عن ابي الحسن: صد وصددته مثل رجع ورجعته، قال الشاعر :

صدت كما صـــد عما لا يحل له ساقي نصارى قبيل الفصح صوام[1]

فهذا صدت في نفسها ، وقال الآخر :

صددت الكأس عنا ام عمرو

واما قوله « ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام »[2] فالمعنى يصدون المسلمين عن المسجد الحرام ، فكان المفعول محذوفـــاً . وقوله « رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً »[3] يكون على يصدون عنك اي لا يبايعونك، كما يبايعك المسلمون، ويجوز ان يكونوا يصدون غيرهم عن الايمان، كما صدوا هم عنه ، ويثبطون عنه . وحجة من اسند الفعل الى الفاعل ، قوله « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله »[4] وقوله « هم الذين كفروا وصدوكم عــن المسجد الحرام »[5] فكما اسند الفعل الى الفاعل في جميع هذه الآي كذلك اسند في قوله « وصدوا عن السبيل » وقيل : إن قوماً جلسوا على الطريق ، فصدوا الناس عن النبي صلى الله عليه وآله ففيهم نزلت الآية .

ومن بنى الفعل للمفعول به جعل فاعل الصدّ غواتهم والعتاة منهم في كفرهم، وقد يكون على نحو ما يقال : صد فلان عن الخير وصد عنه ، يعنى انه لم يفعل خيراً ، ولا يراد : ان مانعاً منعه . فأما قوله « وكذلك زين لفرعون سوء عمله

(١) مجمع البيان ٣ : ٢٩٤
(٢) سورة ٢٢ الحج آية ٢٥
(٣) سورة ٤ النساء آية ٦١
(٤) سورة ٤ النساء آية ١٦٦ وسورة النحل ١٦ آية ٨٨ وسورة محمد ٤٧ : آية ١ ، ٣٢ ، ٣٤
(٥) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٥

وصد عن السبيل »[١] فالفتح الوجه ، لأنه لم يصده عن الإيمان احد ، ولم يمنعه منه ، والذي زين ذلك له الشيطان ، كما قال « و زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل »[٢]

معنى قوله « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » من هو قائم بتدبيرها وجزائها على ما كسبت من خير او شر ، كمن ليس بهذه الصفة ، وحذف الخبر لدلالة الكلام عليه .

وقوله «وجعلوا لله شركاء» في العبادة ، فعبدوا الاصنام ، والاوثان .

وقوله « قل سموهم » اي سموهم بما يستحقون من الاسماء التي هي صفات . ثم انظروا هل تدل صفاتهم على أنه يجوز أن يعبدوا ام لا ؟

وقوله « ام تنبئونه بما لا يعلم في الارض ام بظهار من القول » معناه إلا ان يصفوهم بما لا يصح أن يعلم صحته ، فيخرجوا بذلك الى التجاهل او يقتصروا على ظاهر القول من غير رجوع الى حقيقة ، وهو قول مجاهد وقتادة. وقال ابو علي: معنى « بظهار من القول » الذي انزله الله على انبيائه .

وقوله « بل زين للذين كفروا مكرهم » اي زين ذلك لهم انفسهم وغواتهم من شياطين الانس والجن ، ولا يجوز ان يكون المراد زين بالشهوة ، لأن المكر ليس مما يشتهى « وصدوا عن السبيل » اي منعوا عن طريق الحق بالاغواء والمنع . ويجوز ان يكون المراد واعرضوا عن طريق الجنة .

وقوله « ومن يضلل الله فماله من هاد » قيل في معناه قولان :

احدهما - من حكم الله عليه بأنه ضال على وجه الذم ، فإنه لا ينفعه هداية احد .

والآخر - ان من يضله الله عن طريق الجنة الى النار ، فلا هادٍ يهديه اليها ، ولا يجوز ان يكون المراد من يضله عن الايمان ، لان ذلك سفه لا يفعله الله تعالى .

---

(١) سورة المؤمن : (غافر) ٤٠ آية ٣٧ (٢) سورة النمل ٢٧ آية ٢٤

قوله تعالى :

(لَهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ ٱللهِ مِنْ وَاقٍ) (٣٦) آية بلا خلاف .

في هذه الآية إخبار منه تعالى ان لهؤلاء الكفار الذين وصفهم « لهم عذاب في الحياة الدنيا » وهو ما يفعل بهم من القتل والاسترقاق وسبي الذراري والاموال. ويجوز ان يريد ما يفعله الله بكثير منهم من الآلام العظيمة على وجه العقوبة . ثم قال «ولعذاب الآخرة اشق » اي أشد مشقة ، والمشقة : غلظ الامر على النفس بما يكاد يصدع القلب .

وقوله « وما لهم من الله من واق » اي ليس لهم من عذاب الله من يمنعهم منه . والواقي المانع ، وهو الفاعل للوقاية ، والوقاية الحجر بما يدفع الاذية ، وقاه يقيه وقاية ، فهو واق ، ووقّاه توقية .

قوله تعالى

(مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَعُقْبَى ٱلْكَافِرِينَ ٱلنَّارُ) (٣٧) آية بلا خلاف .

قيل في معنى « مثل الجنة » اقوال :

قال سيبويه : فيما نقص عليكم مثل الجنة ، فرفع (مثل) على الابتداء. وحذف الخبر .

وقال بعضهم معناه شبه الجنة ، والخبر محذوف ، وتقديره مثل الجنة التي هي الانهار ، كما قال الله تعالى « ولله المثل الاعلى »[١] معناه الصفة الاعلى .

---

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٠

وقال قوم: معناه صفة «الجنة التي وعدالمتقون» صفة جنة تجري من تحتها الانهار، والجنة البستان الذي يجنه الشجر، والمراد – ههنا – جنة الخلد التي اعدها الله للمتقين جزاء لهم على طاعاتهم وانتهائهم عن معاصيه، والمتقي هو الذي يتقي عقاب الله بفعل الواجبات وترك المقبحات.

وقوله «اكلها دائم» قيل في معناه قولان:

احدهما – ان ثمارها لا تنقطع، كما تنقطع ثمار الدنيا في غير ازمنتها – في قول الحسن.

الثاني – النعيم به لا ينقطع بموت، ولا بغيره من الآفات.

وقوله «وظلها» اي وظل الجنة دائم ايضاً ليس لها حر الشمس. ثم اخبر ان ذلك عاقبة الذين اتقوا معاصي الله بفعل طاعاته. وأخبر أن عاقبة الكافرين – الجاحدين لتوحيد الله المنكرين لنعمه – النار، والكون فيها على وجه الدوام – نعوذ بالله منها –

قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ) (٣٨) آية بلا خلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذين آتيناهم الكتاب، ومعناه اعطاهم، «يفرحون بما انزل» على محمد ﷺ وقال الحسن وقتادة ومجاهد: هم اصحاب النبي ﷺ الذين آمنو به وصدقوه. والأحزاب هم اليهود والنصارى والمجوس. وقال الجبائي: يجوز ان يعنى بالفرح به اليهود والنصارى، لأن ما أتى به مصدق لما معهم، وأما انكار بعضهم، فهو انكار بعض معانيه وما يدل على صدقه أو يخالف أحكامهم. و (الاحزاب) جمع حزب، وهم الجماعة التي تقوم بالنائبة، يقال تحزب القوم تحزباً وحزبهم الأمر يحزبهم إذا نالهم بمكروهه.

وقوله «قل إنما أمرت ان اعبد الله ولا اشرك به» في عبادته احداً، أدعو الى الله، والاقرار بتوحيده وصفاته وتوجيه العبادة اليه وحده، «واليه مآب» اي مرجعي ومصيري؛ من قولهم: آب يؤب أوباً ومآباً، والمعنى يرجع الى حيث لا يملك الضرر والنفع إلا الله تعالى.

قوله تعالى:

(وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ) (٣٩) آية

قيل في وجه التشبيه في قوله «وكذلك» قولان:

احدهما - انه شبه انزاله حكماً عربياً بما أنزل إلى من تقدم من الانبياء.

الثاني - انه شبه انزاله حكماً عربياً بإنزاله كتاباً، تبياناً في انه منعم بجميع ذلك على العباد. و(الحكم) فصل الأمر على الحق، واذا قيل: حكم بالباطل، فهو مثل قولهم: حجة داحضة. و (العربي) هو الجاري على مذاهب العرب في كلامها فالقرآن عربي [على هذا المعنى، لان المعاني فيه على ما تدعو اليه الحكمة](١) والالفاظ على مذاهب العرب في الكلام. [وقيل: انما سماه حكماً عربياً لانه أتى به نبي عربي](٢).

وقوله «ولئن اتّبعت اهواءهم» خطاب للنبي صلى الله عليه وآله، والمراد به الأمة، يقول له لئن وافقت وطلبت اهواء الذين كفروا بعد ان جاء العلم، لان ما اتيناك من الدلالات والمعجزات للعلم. والاتباع طلب اللحاق بالأول كيف تصرف. اتبعه اتباعاً وتبعه يتبعه، فهو تابع وذلك متبوع. والهوى - مقصور - هوى النفس. والهواء - ممدود - هواء الجوف، والهوى ميل الطباع الى الشيء بالشهوة. و (العلم) ما اقتضى سكون النفس.

---

(١) ما بين القوسين من المخطوطة وهو ساقط من المطبوعة.

(٢) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة ايضاً.

وقوله « مالك من الله من وليّ ولا واق » معناه متى ما ابتعت أهواء هؤلاء الكفار، لم يكن لك من الله وليّ ولا ناصر يعينك عليه، ويمنعك من عذابه «ولا واق » ولا من يقيك منه ، يقال : وقاه وقاية واتقاه ، وتوقاه توقياً ، والواقي الفاعل للحجر عن الأذى .

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) (٤٠) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى انه أرسل قبل إرسال نبيه محمد ﷺ رسلاً الى خلقه ، وجعل لهم ازواجاً وذرية، يعني اولاداً ، لانهم كانوا انكروا تزويج النبي بالنساء ، فبين الله تعالى ان الأنبياء قبله كان لهم أزواج وذرية ، وقد آمنوا بهم . ثم قال : وانه لم يكن لرسول يرسله الله ان يجيء بآية ودلالة ، إلا بعد ان يأذن الله في ذلك ويلطف له فيه .

وقوله «لكل أجل كتاب» معناه لكل أجل قدره، كتاب أثبت فيه، فلا تكون آية الا بأجل قد قضاه الله تعالى في كتاب على ما توجبه صحة تدبير العباد. وقيل: فيه تقديم وتأخير وتقديره لكل كتاب أجل ، كما قال « وجاءت سكرة الموت بالحق »[1] ، والمعنى وجاءت سكرة الحق بالموت، وهي قراءة أهل البيت ، وبه قرأ ابو بكر من الصحابة. والذرية الجماعة المفترقة في الولادة عن أب واحد في الجملة ، ويحتمل ان يكون من الذر . وأن يكون من ذرأ الله الخلق اي أظهرهم .

---

(١) سورة ٥٠ (ق) اية ١٩

قوله تعالى :

(يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ) (٤١)

آية بلا خلاف.

وجه اتصال هذه الآية بما تقدم هو أنه لما قال «لكل اجل كتاب» اقتضى ان يدخل فيه اعمال العباد ، فبين ان الله يمحو ما يشاء ، ويثبت ، لئلا يتوهم ان المعصية مثبتة بعد التوبة ، كما هي قبل التوبة . وقيل: ان مما يمحا ويثبت الناسخ والمنسوخ . وقيل يمحو ما يشاء ، ويثبت ، مما يثبته الملكان ، لأنه لا يثبت الا الطاعات والمعاصي دون المباحات . وقيل معناه يمحو ما يشاء من معاصي من يريد التفضل عليه باسقاط عقابه ، ويثبت معاصي من يريد عقابه . والحسنة يثبتها الله قبل فعلها ، بمعنى أنهم سيعملونها ، فاذا عملوها أثبتها بأنهم عملوها ، فلذلك أثبت في الحالين ، والوجه في اثباته ما يكون فيه من المصلحة والاعتبار لمن يفكر فيه بأن ما يحدث ، على كثرته وعظمه، قد أحصاه الله وكتبه، وذلك لا سبيل اليه الا من جهة علام الغيوب الذي يعلم ما يكون قبل أن يكون،واعتبار المشاهدة له من الملائكة إذا قابل مايكون بما هو مكتوب،مع أنه أهول في الصدور ، وأعظم في النفوس مما يتصور معه، حتى كان المفكر فيه مشاهد له . و(المحو) إذهاب أثر الكتابة محاه يمحوه محواً وإمحاء أيضاً ، وأمّحا إمّحاء وامتحا امتحاء.والاثبات الاخبار بوجود الشيء، ونقيضه النفي، وهو الاخبار بعدم الشيء .

وقال ابن عباس ومجاهد : إنه تعالى لا يمحو الشقاء والسعادة ، وهذا مطابق لقول اصحاب الوعيد .

وقال عمر بن الخطاب ، وابن مسعود : هما يمحيان مثل سائر الأشياء ، وهذا مطابق لقول المرجئة من وجه .

وقوله «وعنده أم الكتاب» معناه أصل الكتاب، لانه يكتب أولاً :

سيكون كذا وكذا ، لكل ما يكون، فاذا وقع كتب أنه قد كان ما قيل أنه سيكون. وقيل: أصل الكتاب، لان الكتب التي أنزلت على الانبياء منه نسخت

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ، وعاصم و« يثبت » خفيفة . الباقون مشدّدة .

قال أبو علي : المعنى يمحو الله ما يشاء ويثبته ، فاستغنى بتعدية الاول من الفعلين عن تعدية الثاني ، كما قال « والحافظين فروجهم والحافظات[1] » وزعم سيبويه أن من العرب من يعمل الاول من الفعلين ، ولا يعمل الثاني في شيء ، كقولهم متى رأيت أو قلت زيداً منطلقاً ، قال الشاعر :

بأي كتاب ام بأية سنة ترى حبهم عـاراً عليّ وتحسب [2]

فلم يعمل الثاني . وقالوا « أم الكتاب » هو الذكر المذكور في قوله « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذّكر[3] » قال فحجة من شدّد قوله «واشدّ تثبيتا [4]» وقرأ «ويثبّت» ، لان تثبيت مطاوع ثبت وحجة من قال بالتخفيف ما روي عن عائشة : أنه كان إذا صلى صلاة أثبتها ، قال : وثابت مطاوع ثبت ، كما أن يثبت مطاوع ثبت .

قوله تعالى :

(وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ) (٤٢) آية بلا خلاف.

هذا خطاب للنبي ﷺ يقول الله تعالى له إنا ان اريناك بعض الذي نعد الكفار من العقوبة على كفرهم ، ونصر المؤمنين حتى يظفروا بهم ، فيقتلوهم ويستذلّوا باقيهم إن لم يؤمنوا ، فنبقيك الى أن ترى ذلك ، أو نميتك قبل أن ترى ذلك . وقيل: ان نفعله بهم، لانه ليس ذلك مما لا بدّ ان تراه لا محالة ، فلا تنتظر كونه على ذلك بأن يكون في ايامك. وانما عليك أن تبلغهم ما أرسلناك به اليهم، وتقوم

---

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٥
(٢) مر هذا البيت في ٣/٧٥
(٣) سورة ٢١ الانبياء آية ١٠٥
(٤) سورة ٤ النساء آية ٦٦

في ذلك بما أمرك الله به ، وعلينا نحن حسابهم ، ومجازاتهم والانتقام منهم ، إما عاجلا أو آجلا ، وذلك كائن لا محالة على ما قلناه .

وكسرت الالف من قوله « وإما نرينَّك » لأنه من التخيير ، والتقدير ، وإما نرينَّك نقمتنا وأنت حي ، وإما نتوفـَّينـَّك .

قوله تعالى :

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ) (٤٣) آية بلا خلاف .

يقول الله تعالى لهؤلاء الكفار على وجه التنبيه لهم على الاعتبار بأفعال الله ، أو ما يرون أنـَّا ننقص الارض من أطرافها ؟ وقيل في معناه أربعة أقوال :

قال ابن عباس والحسن والضحاك : ما فتح على المسلمين من أرض المشركين.

وقال مجاهد ، وقتادة : وننقصها بموت اهلها. وفي رواية أخرى عن ابن عباس ومجاهد: بموت العلماء . وفي رواية أخرى عنها : بخرابها . ثمّ أخبر أن الله تعالى يحكم ويفصل الأمر ولا احد يعقـّب حكمه ، ولا يقدر على ذلك ، وأنه سريع المجازاة على افعال العباد ، على الطاعات بالثواب ، وعلى المعاصي بالعقاب. والنقص أخذ الشيء من الجملة ، وفي فلان نقص أي نقص منزلة عن منزلة عظيمة في المقدور أو المعلوم ، والثاني للامور . والطرف منتهى الشيء ، وهو موضع من الشيء ليس وراءه ما هو منه . وأطراف الأرض نواحيها . والتعقيب ردّ الشيء بعد فصله، ومنه عقـّب العقاب على صيده إذ أردّ الكرور عليه بعد فصله عنه قال لبيد :

حتى تهجّر في الرواح وهاجه طلب المعقـّب حقه المظلوم[1]

---

(١) اللسان (عقب) ومجمع البيان ٣/٢٧٩ ، وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣/٧٢

والسرعة عمل الشيء في قلة المدة ، على ما تقتضيه الحكمة ، وضده الابطاء، والسرعة محمودة والعجلة مذمومة .

قوله تعالى :

(وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ) (٤٤)

آية بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وابو عمرو ونافع « الكافر » على لفظ الواحد . الباقون « الكفار » على لفظ الجمع . قال ابو علي الفارسي في قوله « وسيعلم الكفار » هو المتعدّي الى مفعولين؛ بدلالة تعليق وقوع الاستفهام بعده ، تقول : علمت لمن الغلام ، فتعلقه مع الجار كما تعلقه مع غير الجار في قوله « فسوف يعلمون من تكون له عاقبة الدار » [1]

وموضع الجار مع المجرور نصب من حيث سد الكلام – الذي هو الاستفهام – مسدّ المفعولين ، لان من حيث حكمت في نحو مررت بزيد ، فان موضعه نصب ، ولكن الباء الجارّة كانت متعلقة في الاصل بفعل فصار مثل علمت بمن تمر في أن الجارة تتعلق بالمرور ، والجملة التي هي منها في موضع نصب ، وقد علّق الفعل عنها .

ومن قرأ على لفظ الفاعل ، وأنه جعل الكافر اسماً شائعاً كإنسان في قوله « ان الانسان لفي خسر» [2] وزعموا أنه لا ألف فيه وهذا الحذف إنما يقع في (فاعل) نحو خالد ، وصالح ولا يكاد يحذف في (فعال) فهذا حجتهم . وزعموا أن في بعض الحروف « وسيعلم الذين كفروا » ، وقرأ ابن مسعود « وسيعلم الكافرون » فهذا يقوي الجمع .

---

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٣٦ (٢) سورة ١٠٣ العصر آية ٢

ومن قرأ على لفظ الجمع ، فلأن التهديد متوجّه الى جميع الكفار ، ولا إشكال فيه .

اخبر الله تعالى أن الكفار الذين كانوا قبل هؤلاء الكفار ، مكروا بالمؤمنين واحتالوا في كفرهم . والمكر هو الفتل عن البغية بطريق الحيلة ، تقول مكر يمكر فهو ماكر مكراً ، وقال أبو علي : المكر ضرر ينزل بصاحبه من حيث لا يشعر به .

ثم اخبر تعالى ان له المكر جميعاً ، ومعناه لله جزاء مكرهم ، لانهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله أن وبال مكرهم عليهم بمجازاة الله لهم .

وقوله تعالى : « يعلم ما تكسب كل نفس » معناه أنه لا يخفى عليه ما يكسبه الانسان من خير وشر وغير ذلك ؛ لأنه عالم بجميع المعلومات « وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار » تهديد للكفار بأنهم سوف يعلمون لمن تكون عاقبة الجنة للمطيعين أو العاصين ، فإن الله تعالى وعد بذلك المؤمنين دون الكفار والظالمين .

قوله تعالى :

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِٱللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ) (٤٥) آية بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن الكفار انهم يقولون لك يا محمد انك لست مرسلاً من جهته تعالى ، فقل لهم انت حسبي الله « شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب » . وقيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها - روي عن ابن عباس انه قال : هم اهل الكتاب الذين آمنوا من اليهود والنصارى .

وقال قتادة ومجاهد: منهم عبدالله بن سلام، وسلمان الفارسي،وتميم الداري.

وقال الحسن : الذي عنده علم الكتاب هو الله تعالى ، وبه قال الزجاج .

وقال ابو جعفر وابو عبدالله (ع): هم ائمة آل محمد ﷺ، لأنهم الذين عندهم علم الكتاب بجملته لا يشذ عنهم شيء من ذلك دون من ذكروه .

والكفاية وجود الشيء على قدر الحاجة ، فكأنه قيل : قد وجد من الشهادة مقدار ما بنا اليه الحاجة في فصل ما بيننا وبين هؤلاء الكفار . والباء في قوله «بالله» زائدة والتقدير كفى الله . وقال الرماني : دخلت لتحقيق الاضافة من وجهين : جهة الفاعل ، وجهة حرف الاضافة ، لان الفعل لما جاز ان يضاف الى غير فاعله ، بمعنى انه أمر بـه ازيل هذا الاحتمال بهذا التأكيد ، ومثله قوله « لما خلقت بيدي »[1] .

والشهـادة البينة على صحة المعنى من طريق المشاهدة . والشهيد والشاهد واحد، إلا ان في شهيد مبالغة . ووجه الاحتجاج بـ « كفى بالله شهيداً» لأن المعنى كفى الله شهيداً بما اظهر من الآية ، وأبان من الدلالة ،لانه تعالى لا يشهد بصحة النبوة إلا على هذه الصفة إذ قد لزمهم ان يعترفوا لها بالصحة .

وروي عن ابن عباس ومجاهد انهما قرءا « ومن عنده علم » بكسر الميم ،وعلم الكتاب على ما لم يسم فاعله ، وبه قرأ سعيد بن جبير ، ولما قيل له : هو عبد الله بن سلامه، قال : كيف يجوز ذلك والسورة مكية وهو اسلم بعد الهجرة بمدة.

---

(١) سورة ٣٨ ص آية ٧٥

(١٤) سورة ابراهيم

قال قتادة : هي مكية إلا آيتين : قوله « ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله » الى قوله «وبئس القرار» . وقال مجاهد هي مكية وليس فيها ناسخ ولامنسوخ .
وهي إثنان وخمسون آية في الكوفي ،
وأربع في المدنيين. وآية في البصري.

بسم الله الرحمن الرحيم

(الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ* بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (١) ٱللهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)
(٢) ثلاث آيات في المدنيين آخر الاولى. قوله « الى النور » وآيتان عند الباقين .

قرأ ابن عامر ونافع « الله الذي » بالرفع . الباقون بالخفض . قال ابو علي : من قرأ بالجر جعله بدلاً من الحميد، ولم يكن صفة، لان الاسم وان كان في الأصل مصدراً ، والمصادر يوصف بها كما يوصف بأسماء الفاعلين ، وكذلك كان هذا

الاسم في الاصل (الألاه) ومعناه ذو العبادة اي تجب العبادة له ، قال ابو زيد : يقال تألّه الرجل إذا نسك وأنشد لرؤبة :

سبحن واسترجعن من تألّهي[١] .

فهذا في أنه في الاصل مصدر قد وصف به مثل السلام والعدل ، الا ان هذا الاسم غلب حتى صار في الغلبة وكثرة الاستعمال كالعلم ، وقد يغلب ما في اصله الصفة فيصير بمنزلة العلم[٢] مثل قول الشاعر :

والتيم ألأم من يمشي وألأمهم ذهل بن تيم بنو السود المدانيس[٣]

يجوز أن يكون جعل التيم جمع تيميّ كيهودي ويهود . وعلى هذا قال تعالى وقالت اليهود ، ألا ترى أن (يهود) قد جرى في كلامهم إسماً للقبيلة ، كما أن (مجوس) كذلك ، فلولا أن المراد بها الجمع ، لم يدخلها الألف واللام ، كما لا يدخل المعارف في نحو زيد وعمرو ، إلا انه جمع بحذف اليائين اللتين للنسب ، كما جمع شعير وشعيرة بحذف التاء ، ومثله (رومي) وروم و(زنجي) وزنج .

ومن رفع قطع عن الاول ، ورفعه بالابتداء، وجعل (الذي) الخبر، او جعله صفة وأضمر الخبر . وقد بيّنا معاني الحروف المقطعة في أوائل السور في أول

(١) مر هذا الرجز في ١ : ٢٨ .

(٢) كان في المطبوعة على الهامش هذه الحاشية (نابغة الجعدي في الرمل بيته عليه صفيح من تراب وجندل والاصل النابغة ولما غلب نزع منه الالفواللام كما ينزع من اسماء الاعلام نحو زيد وعمرو وربما استعمل في هذا النحو الوجهان واما قول الشاعر) انتهى .
وهو كما ترى بعيد عنالمتن منحيث اللهجة والتركيب وظاهر انه ليسمن كلامالشيخ الطوسي - رحمه الله - ولكن آخره يشبه المتصل بالمتن لذلك نقلناه فلعل المطلع عليه يستفيد منه .

(٣) قائله جرير . ديوانه (دار بيروت) ٢٥٢ واللسان (تيم) ورواية الديوان :
والتيم ألأم من يمشي وألأمهم اولاد ذهل بنو السود المدانيس
ورواية اللسان :
والتيم ألأم من يمشي وألأمه تيم بن ذهل بنو السود المدانيس

البقرة[١] ، وذكرنا اختلاف المفسرين فيه ، فلا فائدة في اعادته .

وقوله «كتاب أنزلناه إليك» رفع على انه خبر الابتداء ، ومعناه هذا كتاب يعني القرآن أنزله على نبيه محمد ﷺ « ليخرج الناس من الظلمات إلى النور » أي ليخرجهم من ظلمات الكفر والضلالة الى نور الايمان والهداية .

والظلمة في الأصل سواد الجو المانع من الرؤية تقول أظلم إظلاماً وظلاماً وظلمة . والظلمة ذهاب الضياء بما يستره ، والنور بياض شعاعي تصح معه الرؤية ، ويمنع معه الظلام ، ومنه النار لما فيها من النور . والنور والضياء واحد.

وقال قتادة « من الظلمات الى النور » من الضلالة الى الهدى « بإذن ربهم » اي باطلاق الله ذلك ، وأمره به نبيه ﷺ «الى صراط العزيز الحميد » أي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى طريق الله المؤدي إلى معرفة الله « العزيز » يعني القادر على الأشياء الممتنع بقدرته من أن يضام ، المحمود في أفعاله التي أنعم بها على عباده ، الذي له التصرف في جميع ما في السماوات والأرض ، على وجه ليس لأحد الاعتراض عليه .

ثم اخبر تعالى أن الويل للكافرين الذين يجحدون نعم الله ولا يعترفون بوحدانيته . والاقرار بنبيه ﷺ « من عذاب شديد » وهو ما تتضاعف آلامه ، والشدة تجمع يصعب معه التفكك ، شدّه يشدّه شدّاً وشدّة .

وفي الآية دلالة على ان الله يريد الايمان من جميع المكلفين ، لأنه ذكر أنه أنزل كتابه ليخرج الناس من ظلمات الكفر الى نور الايمان ، لأن اللام لام الغرض ، ولا يجوز أن يكون لام العاقبة ، لانها لو كانت كذلك ، لكان الناس كلهم مؤمنين والمعلوم خلافه .

---

(١) في ١ : ٤٧ – ٥١

قوله تعالى :

(ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) (٣) آية بلا خلاف .

« الذين » في موضع جر، لانه نعت للكافرين، وتقديره وويل للكافرين الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة . والاستحباب طلب محبة الشيء بالتعرض لها ، والمحبة إرادة منافع المحبوب . وقد تكون المحبة ميل الطباع . والحياة الدنيا هو المقام في هذه الدنيا العاجلة على الكون في الآخرة . ذمهم الله بذلك ، لان الدنيا دار انتقال ، والآخرة دار مقام .

« ويصدون عن سبيل الله » اي يعرضون بنفوسهم عن اتباع الطريق المؤدي الى معرفة الله ، ريجوز ان يريد انهم يمنعون غيرهم من اتباع سبيل الله تعالى ، يقال : صد عنه يصد صدّاً ، غير متعد ، وصده يصده صدّاً متعد . والسبيل الطريق وكلاهما يؤنث ويذكر ، وهو على السبل اغلب و « يبغونها عوجاً » أي ويطلبون الطريق عوجاً اي عدولاً عن استقامته . و (العوج) خلاف الميل الى الاستقامة ، والعوج – بكسر العين – في الدين ، و – بفتح العين – في العود والبغية طلب المقاصد لموضع الحاجة ، يقال : بغاه يبغيه بغية ، وابتغى ابتغاء ، ودخلت (على) في قوله « يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة » لان المعنى يؤثرونها عليها . ولو قيل من الاخرة ، لجاز ان يكون بمعنى يستبدلونها من الاخرة . وقيل: إنه يجري مجرى قولهم : نزلت على بني فلان، ونزلت في بني فلان، وببني فلان ، كله بمعنى واحد .

وقوله « اولئك في ضلال بعيد » إخبار منه تعالى ان هؤلاء الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الاخرة ، ويصدون عن سبيل الله، في عدول عن الحق، بعيدون عن الاستقامة .

قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) (٤)

آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى انه لم يرسل فيما مضى من الازمان رسولاً الى قوم إلا بلغة قومه حتى اذا بين لهم ، فهموا عنه ، ولا يحتاجون الى من يترجم عنه .

وقوله « فيضل الله من يشاء » يحتمل امرين :

احدهما – انه يحكم بضلال من يشاء اذا ضلوا هم عن طريق الحق .

الثاني – يضلهم عن طريق الجنة إذا كانوا مستحقين للعقاب و « يهدي من يشاء » الى طريق الجنة « وهو العزيز » يعني القادر الذي لا يقدر أحد على منعه «الحكيم» في جميع افعاله، ليس فيها ما له صفة السفه. ويحتمل ان يريد انه محكم لافعاله التي تدل على علمه .

ورفع قوله « فيضل الله » لان التقدير على الاستئناف ، لا العطف على ما مضى ، ومثله قوله « لنبين لكم ونقر في الارحام »[1] ومثله « قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم »[2] ثم قال بعد ذلك « ويتوب الله على من يشاء »[3] لانه إذا لم يجز ان يكون عطفاً على ما مضى فينتصب لفساد المعنى فلا بد من استئنافه ورفعه . وقال الحسن: امتن الله على نبيه محمد ﷺ انه لم يبعث رسولاً إلا الى قومه، وبعثه خاصة الى جميع الخلق. وقال مجاهد: بعث الله نبيه الى الاسود والاحمر ولم يبعث نبياً قبله إلا الى قومه واهل لغته .

---

(١) سورة الحج آية ٥ (٣-٢) سورة التوبة آية ١٥ – ١٦

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ * وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) (٥) آية في الكوفي والبصري . وآيتان في المدنيين . آخر الاولى « الى النور » .

أخبر الله تعالى انه ارسل موسى نبيه (ع) الى خلقه بآياته ودلالاته « أن أخرج قومك من الظلمات الى النور » اي ارسلناه بأن أخرج قومك من ظلمات الكفر والضلالة الى نور الايمان والهداية بالدعاء لهم الى فعل الايمان ، والنهي عن الكفر والتنبيه على ادلته . « وذكرهم بأيام الله » قيل في معناه قولان :

احدهما — قال الحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير : ذكّرهم بنعم الله .

الثاني — ذكّرهم بنعم الله لعاد وثمود وغيرهم من الامم الضالة ، قال عمر بن كلثوم :

وايام لنا غر طوال عصينا الملك فيها ان ندينا[1]

وقيل : النعم والنقم من اعدائنا . وقال قوم : اراد خوفهم بهذا ، كما يقال: خذه بالشدة واللين . ثم أخبر ان في ذلك دلالات لكلّ من صبر على بلاء الله وشكره على نعمه . والتذكير التعريض للذكر الذي هو خلاف السهو ، يقال : ذكّره تذكيراً ، وذكره يذكره ذكراً ، وتذكر تذكراً ، وذاكره مذاكرة . والصبار الكثير الصبر ، والصبر حبس النفس عما تنازع اليه مما لا ينبغي .

(١) هذا البيت من معلقته الشهيرة . المعلقات السبع (دار بيروت) ١٢٣ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ : ١٠٧ ومجمع البيان ٣ : ٣٠٤ وقد مر في ١ : ٣٦ من هذا الكتاب .

والشكور الكثير الشكر . والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم ، وضدّه الكفر . (وان) في قوله « أن اخرج » يحتمل ان تكون بمعنى (أي) على وجه التفسير ، ويجوز ان تكون التي تتعلق بالافعال والمعنى قلنا له : اخرج قومك . وقال سيبويه يقول العرب : كتبت اليه أن قم ، وأمرته أن قم ، وان شئت كانت (أن) التي وُصلت بالامر . والتأويل على الخبر . والمعنى كتبت اليه ان يقوم وأمرته أن يقوم إلاّ انها وُصلت بلفظ الامر المخاطب ، والمعنى معنى الخبر ، كما تقول أنت الذي فعلت . والمعنى انت الذي فعل .

قوله تعالى :

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ اذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) (٦)

آية بلا خلاف.

التقدير واذكر يا محمد « إذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم » في الوقت الذي انجاكم « من آل فرعون. يسومونكم سوء العذاب » جملة في موضع الحال . و « يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » وقد فسرناه أجمع في سورة البقرة[1] فلا نطول بإعادته. ودخلت الواو –ههنا– في قوله « ويذبحون ابناءكم » وفي البقرة بلا واو . وقال الفراء: معنى الواو أنه كان يمسهم من العذاب غير التذبيح ، كأنه قال يعذبونكم بغير الذبح. والذبح إذا أطلق كان تفسيراً لصفات العذاب .

(١) انظر ١ : ٢١٧ – ٢٢٤ في تفسير آية ٩ ؛ من سورة البقرة .

وقوله «وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم» اي في ذلكم نعم من ربكم عظيمة إذ أنجكم منهم. والبلاء قد يكون نعماً، وعذاباً، يقال: فلان حسن البلاء عندك اي حسن الانعام عليك ويحتمل ان يكون بمعنى العذاب، وفي الصبر على ذلك العذاب امتحان من ربكم عظيم.

قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٨) آيتان بلا خلاف.

وهذه الآية عطف على الاولى، والتقدير واذكروا «إذ تأذن ربكم» اي أعلمكم وقد يستعمل (تفعّل) بمعنى (أفعل) كقولهم اوعدته وتوعّدته، وهو قول الحسن والفراء، قال الحرث بن حلزة:

آذنتنا ببينها أسماء ... رُبَّ ثاوٍ يملُّ منه الثواء[1]

والمعنى أعلم ربكم. وقوله «لئن شكرتم لأزيدنكم» التقدير أعلمكم أنكم متى شكرتموني على نعمي، واعترفتم بها زدتكم نعمة الى نعمة «ولئن كفرتم» أي جحدتم نعمتي وكفرتموها «ان عذابي لشديد» لمن كفر نعمتي.

ثم أخبر ان موسى قال لقومه «ان تكفروا» نعم الله وتجحدونها «أنتم»، وجميع «من في الارض» من الخلق فإنه لا يضر الله. وإنما يضركم ذلك، بأن تستحقوا منه العذاب والعقاب «فان الله لغني حميد» اي غني عن شكركم حميد في أفعاله.

والغني هو الحي الذي ليس بمحتاج، والحميد الكبير لاستحقاق الحمد بعظم

---

(١) من معلقته الشهيرة. المعلقات السبع (دار بيروت) ١٥٥ وقد مر في ١ : ٣٨٠ من هذا الكتاب.

إنعامه ، وهي صفة مبالغة في الحمد ، وقد يكون كفر النعمة بأن يشبه الله بخلقه أو يجوّر في حكمه، أو يردّ على نبي من انبيائه، أو كان بمنزلة واحد منها في عظم الفاحشة ، لان الله تعالى منعم بجميع ذلك من حيث أقام الادلة الواضحة على صحة جميع ذلك وغرضه بالنظر في جميعها الثواب الجزيل ، فلذلك كان منعماً بها إن شاء .

قوله تعالى :

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ* وَٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ(٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (١٠) آيتان في الكوفي وثلاث آيات في المدنيين والبصري تمام الأولى قوله « وثمود » .

قيل فيمن يتوجه الخطاب اليه في قوله « ألم يأتكم نبؤ » قولان :

احدهما – قال الجبائي : إنه متوجه الى امة النبي ﷺ ذكروا بأخبار من تقدم وما جرى من قصصهم .

والثاني – قال قوم : إنه من قول موسى (ع) لأنه متصل به في الآية المتقدمة يقول الله لهم « الم يأتكم » اي اما جاءكم اخبار من تقدمكم . والنبأ الخبر عما يعظم

شأنه يقال: لهذا الامر نبؤ اي عظم شأن يقال انبأ ينبىء، ونبأت أنبىء، وبنأ الله محمداً اي جعله نبياً، وتنبأ مسيلمة اى ادعى النبوة، وليس هو كذلك. «قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم» كل ذلك مجرور بأنه بدل من الكاف والميم في قوله «قلبكم» وهو مجرور بالاضافة.

وقوله «لا يعلمهم إلا الله» اي لا يعلم تفاصيل أحوالهم وما فعلوه، وفعل بهم من العقوبات، ولا عددهم «إلا الله» ولذلك قال النبي ﷺ (كذب النسابون)

وقوله «جاءتهم رسلهم بالبينات» اي اتتهم رسلهم بالدلالات الواضحات «فردوا أيديهم في أفواههم» وقيل في معناه خمسة اقوال:

احدها - قال عبد الله بن مسعود، وابن زيد: انهم عضوا على اناملهم تغيظاً عليهم في دعائهم الى الله، كما قال «عضو عليكم الانامل من الغيظ»[١]

وثانيها - قال الحسن: جعلوا أيديهم في افواه الانبياء تكذيباً لهم ورداً لما جاؤوا به.

الثالث - قال مجاهد ردوا نعمتهم بأفواههم.

الرابع - قال قوم: يحتمل ان يكونوا ردوا أيدي أنفسهم في أفواه نفوسهم مومئن لهم اي اسكتوا عما تدعونا إليه، كما يفعل الواحد منامع غيره إذا أراد تسكيته. روي ذلك عن ابن عباس ذكره والفراء.

وخامسها - قال قوم: ردوا ما لو قبلوه، لكانت نعمة عليهم في افواههم اي بأفواههم والسنتهم، كما يقولون ادخلك الله بالجنة يريدون في الجنة وهي لغة طي، قال الفراء: انشدني بعضهم:

وارغب فيها عن لقيط ورهطه ولكنني عن سنبس لست ارغب[٢]

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٩

(٢) مجمع البيان ٣ : ٣٠٦ وامالي الشريف المرتضى ١ : ٣٦٦ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ : ١١١ ولم يعرف قائله.

فقال (ارغب فيها) يريد بها يعني بنتاً له ، يريد : ارغب بها عن لقيط ، ولا ارغب بها عن قبيلته . وقوله « انا كفرنا بما ارسلتم به » حكاية ايضاً عما قالوا للرسل فإنهم قالوا : إنا قد كفرنا بما ارسلتم به من الدعاء الى الله وحده وتوجيه العبادة إليه ، والعمل بشرائعه « وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب » والريب اخبث الشك المتهم ، وهو الذي يأتي بما فيه التهمة ؛ ولذلك وصفوا به الشك اي انه يوجب تهمة ما اتيتم به يقال : اراب يريب إرابة إذا أتى بما يوجب الريبة ، فقالت لهم حينئذ رسلهم « أفي الله شك » مع قيام الأدلة على وحدانيته وصفاته ، لانه الذي خلق السموات والارض يدعوكم الى عبادته ليغفر لكم من ذنوبكم اذا أطعتموه .

ودخلت (من) ههنا - في قول أبي عبيدة - زائدة ، وأنكر سيبويه زيادتها في الواجب ، وقال أبو علي : دخلت للتبعيض ووضع البعض موضع الجميع توسعاً . وقال قوم: دخلت (من) لتكون المغفرة بدلا من الذنوب ، فدخلت (من) لتضمن المغفرة معنى البدل من السيئة « ويؤخركم الى اجل مسمى » يعني لا يؤاخذكم بعاجل العذاب ، بل يؤخر الى الوقت الذي ضربه الله لكم ان يمسكم فيه ، فقال لهم قومهم « ان أنتم الا بشر مثلنا » اي ليس انتم الا خلق مثلنا تريدون ان تمنعونا عما كان يعبد اباؤنا من الاصنام والاوثان ، فاتونا بحجة واضحة على ما تدعونه وبطلان ما نحن عليه .

وفي الآية دلالة واضحة على انه تعالى اراد بخلقه الخير والايمان ، لا الشر والكفر ، وأنه إنما بعث الرسل الى الكفار رحمة وتفضلا ، ليؤمنوا ، لا ليكفروا ، لان الرسل قالت : ندعوكم الى الله ليغفر لكم ، فمن قال إن الله أرسل الرسل الى الكفار ليكفروا بهم ويكونوا سوءاً عليهم ووبالاً ، وانما دعوهم ليزدادوا كفراً فقد ردّ ظاهر القرآن .

قوله تعالى :

(قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ

عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ) (١٢) آيتان بلا خلاف .

حكى الله تعالى في هذه الآية ما أجابت به الرسل الكفار ، فإنهم قالوا لهم ما « نحن إلا بشر مثلكم » ولسنا ملائكة ، كما زعمتم « ولكن الله » مـن علينا فاصطفانا وبعثنا أنبياء وهو « يمن على من يشاء من عباده » ولم يكن لنا ان نجيئكم « بسلطان » اي بحجة على صحة دعوانا إلا بأمر الله واطلاقه لنا في ذلك « وعلى الله » يجب ان يتوكل « المتوكلون » المؤمنون المصدقون به وبأنبيائه .

ثم اخبر انهم قالوا ايضاً « وما لنا ان لا نتوكل على الله » اي ولم لا نتوكل على الله « وقد هدانا » الى سبل الايمان ودلنا على معرفته ووفقنا لتوجيه العبادة اليه ، ولا نشرك به شيئاً ، وضمن لنا على ذلك جزيل الثواب ، « ولنصبرن على ما أذيتمونا » من تكذيبنا وشتمنا في جنب طاعته وابتغاء مرضاته وطلب ثوابه « وعلى الله » يجب ان يتوكل المتوكلون الواثقون بالله دون من كان كافراً ، فان وليه الشيطان .

و « المن » اصله القطع يقال: حبل منين اي منقطع عن بلوغ المنية ، والمنية لانها تقطع عن امر الدنيا . « ولهم اجر غير ممنوع »[١] اي غير مقطوع ، والاذى ضرر يجده صاحبه في حاله يقال : آذاه يؤذيه أذى وتأذى به تأذياً ، واكثر ما يقـال في الضرر القليل ، ويقال ايضاً آذاه أذى عظيماً ، والمثل ما سدمسد صاحبه فيما يرجع الى ذاته . والهدى الدلالة على طريق الحق من الباطل ، والرشد من الغي ،

---

(١) سورة ٤١ حم السجد (فصلت) آية ٨ وسورة ٨٤ الانشقاق آية ٢٥ وسورة ٩٥ التين آية ٦

هداه يهديه الى الدين هدى. والسلطان الحجة التي يتسلط بها على الطالب مذهب المخالف للحق . وقيل في قوله « وما كان لنا ان نأتيكم بسلطان الا باذن الله » قولان :

احدهما – قال ابو علي الجبائي : انهم سألوا آية مخصوصة غير ما اتتهم به الرسل ، كما سأله قريش، فقالوا « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ...»[١]

والثاني – ان ما اتيناكم به بإذن الله ، لأنه مما لا يقدر عليه البشر ، ونحن بشر .

قوله تعالى :

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) (١٤) آيتان بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن الكفار انهم قالوا لرسلهم « انا لنخرجنكم من ارضنا » وبلادنا إلا ان تدخلوا في أدياننا ، ومذاهبنا، فحينئذ اوحى الله تعالى الى رسله إنا نهلك هؤلاء الظالمين الكافرين ، ونسكنكم الارض بعدهم ذلك جزاء « لمن خاف مقامي » اي حيث يقيمه الله بين يديه، وأضافه الى نفسه، كما قال «وتجعلون رزقكم انكم تكذبون »[٢] اي رزقي اياكم قال الفراء: والعرب تضيف افعالها الى انفسها والى ما وقعت عليه ، يقولون سررت برؤيتك ، وسررت برؤيتي إياك ،

---

(١) سورة الاسرى ١٧ آية ٩٠ (٢) سورة ٥٦ الواقعة اية ٨٢

وندمت على ضربك وضربي اياك ، وخاف وعيدي وعقابي ، وانما قالوا « او لتعودن في ملتنا » وهم لم يكونوا على ملتهم قط لامرين :

احدهما - انهم توهموا - ذلك على غير حقيقة - انهم كانوا على ملتهم .

الثاني - انهم ظنوا بالنشوء انهم كانوا عليها دون الحقيقة .

واللام في قوله « ولنخرجنكم » لام القسم والتي في قوله « او لتعودن »ايضاً مثل ذلك إلا ان فيه معنى الجزاء ، لان التقدير لنخرجنكم من ارضنا إلا ان تعودوا أو حتى ان تعودوا ، وهو مثل قول القائل: والله لا أكلمك او تدعوني. والمعنى إلا أن، او حتى تدعوني .

قوله تعالى :

(وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ) (١٦) آيتان بلا خلاف .

قوله « واستفتحوا » معناه استنصروا وهو طلب الفتح بالنصر ، ومنه قوله « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا »[(١)] اي يستنصرون وقال ابن عباس: هو استفتاح الرسل بالنصر على قومهم ، وبه قال مجاهد وقتادة . وقال الجبائي : هو سؤالهم ان يحكم الله بينهم وبين اممهم ، لان الفتح الحكم ، ومنه قولهم : الفتاح الحاكم . وقال ابن زيد : هو استفتاح الكفار بالبلاء والخيبة خلاف ما قدروه من المنفعة ، يقال : خاب يخيب خيبة وخيب تخييباً ، وضده النجاح، وهو ادراك الطلبة . والجبرية طلب علو المنزلة بما ليس وراءه غاية في الوصف ، فاذا وصف العبد بأنه جبّار كان ذمّاً، واذا وصف الله به كان مدحاً، لان له علو المنزلة بما ليس وراءه غاية في الصفة . والعنيد : هو المعاند إلا ان فيه مبالغة ، والعناد الامتناع من الحق مع العلم به، كبراً وبغياً ، يقال : عند يعند

---

(١) سورة البقرة اية ٨٩

عنوداً ، وعانده معاندة وعنداً قال الشاعر :

اذا نزلت فاجعلاني وسطاً ... اني كبير لا أطيق العندا[١]

والوراء والخلف واحد ، وهو جهة مقابلة لجهة القدام ، وقد يكون وراء بمعنى أمام ، وقيل: إنه يحتمل ذلك – ههنا – وذكروا أنه يجوز في الزمان على تقدير انه كان خلفهم ، لأنه يأتي فيلحقهم قال الشاعر :

اتوعدني وراء بني رياح ... كذبت لتقصرن يداك دوني[٢]

وقال آخر :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب[٣]

وقوله « ويسقى من ماء صديد » يعني يسقى الجبار العنيد صديداً ، وهو قيح يسيل من الجرح اخذ من انه يصد عنه تكرهاً له . والقيح دم مختلط بمدة .

وقوله « صديد » بيان للماء الذي يسقونه ، فلذلك اعرب بإعرابه ، قال الزجاج : والوراء ما توارى عنك ، وليس من الاضداد . قال الشاعر :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب[٤]

أي ليس بعد مذاهب الله للمرء مذهب .

قوله تعالى :

(يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ

---

(١) قدمر تخريجه في ٦ : ١٤ من هذا الكتاب .

(٢) قائله جرير ، ديوانه (دار بيروت) ٤٧٥ ، و (نشر الصاوي) ٥٧٧ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ : ٧٦ ، ١١٤ ومجاز القرآن ١ : ٣٢٦ ، ٣٣٧ وقدمر في ٦ : ٢٣٣

(٣) لم اجده

(٤) قائله النابغة ، ديوانه (دار بيروت) ١٧ من قصيدة يعتذر بها الى النعمان بن المنذ ويمدحه . وهو في امالي الشريف المرتض ٢ : ١٧

وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ) (١٨)

آيتان بلا خلاف .

قوله « يتجرعه » معناه يشرب ذلك الصديد جرعة جرعة ، يقال : تجرّع تجرعاً ، وجرعه يجرعه جرعاً ، والتجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار .

وقوله « ولا يكاد يسيغه » أي لا يقاربه ، وانما يضطر اليه . قال الفراء : (لا يكاد) يستعمل فيما يقع وفيما لا يقع، فما يقع هو هذا ، وما لم يقع مثل قوله «لم يكد يراها »[١] لان المعنى لم يرها . والاساغة لاجراء الشراب في الحلق على تقبل النفس، وهذا يضطر اليه، فلذلك قال « ولا يكاد يسغيه » والمعنى فلا يقارب ان يشربه تكرهاً ، وهو يشربه، تقول: ساغ يسوغ الشيء وأسغته أنا . وروي عن النبي ﷺ انه قال : (ما يتجرّعه يقرّب اليه فيتكرّهه ، فاذا أدني منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه ، فاذا شربه قطع امعاءه حتى يخرج من دبره) كما قال « وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم »[٢] وقال « وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب »[٣] .

وقوله « ويأتيه الموت من كل مكان » قيل في معناه قولان :

احدهما - قال ابن عباس والجبائي : من كل جهة ، من عن يمينه وشماله ومن فوقه وتحته ومن قدامه وخلفه . وقال ابراهيم التيمي وابن جريج : معناه « من كل مكان » من جسده حتى من أطراف شعره « وما هو بميت » اي انه مع

---

(١) سورة النور آية ٤٠
(٢) سورة محمد : ٧ : آية ١٥
(٣) سورة الكهف : ١٨ آية ٢٩

إتيان اسباب الموت والشدائد التي يكون معها الموت «من كل جهة» من شدة الأهوال، وأنواع العذاب، وليس هو بميت «ومن ورائه عذاب غليظ» وقيل في معناه قولان:

احدهما – من أمامه.

والثاني – ومن بعد عذابه هذا «عذاب غليظ».

وقوله «مثل الذين كفروا بربهم» اي فيما يتلى عليكم «مثل الذين كفروا بربهم»، فيكون رفعاً بالابتداء ويجوز ان يكون (مثل) مقحماً ويبتدىء الذين كفروا. وقوله «اعمالهم» رفع على البدل وهو بدل الاشتمال عليه في المعنى، لان المثل للاعمال، وقد أضيف الى الذين كفروا، ومثله «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة»[1] والمعنى ترى وجوههم مسودة. قال الفراء: لانهم يجدون المعنى في آخر الكلمة، فلا يبالون ما وقع على الاسم المبتدأ، ومثله قوله «لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم»[2] فاعيدت اللام في البيوت، لانها التي يراد بالسقف. وقال المبرد: (اعمالهم) رفع بالابتداء وخبره (كرماد)، والرماد الجسم المنسحق بالاحراق سحق الغبار. ويمكن ان يجعل (مثل) صفة بغير نار في مقدور الله.

وقوله «اشتدت به الريح في يوم عاصف» فالاشتداد الاسراع بالحركة على عظم القوة، يقال: اشتد به الوجع من هذا، لانه أسرع اليه على قوة ألم والعصف شدة الريح، «يوم عاصف» أي شديد الريح، وجعل العصف صفة اليوم، لانه يقع فيه، كما يقال: ليل نائم، ويوم ماطر، أي يقع فيه النوم والمطر، ويجوز ان يكون المراد عاصف ريحه، وحذف الريح للدلالة عليه، ومثله حجر ضبٍّ خرب اي خرب حجره، ويقال: عصفت الرياح إذا اشتدت وعصفت تعصف عصوفاً.

شبه الله تعالى أعمال الكفار في انه لا محصول لها، ولا انتفاع بها يوم القيامة، بالرماد الذي يشتد فيه الريح العاصف، فإنه لا بقاء لذلك الرماد، ولا لبث

---

(١) سورة الزمر: (٣٩) اية ٦٠ (٢) سورة الزخرف: ٤٣ اية ٣٣

فكذلك أعمال الكافر لا يقدر منها على شيء، كما قال في موضع آخر «وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً»[١] وقوله «ذلك هو الضلال البعيد» اي من وصفناه فهو الذي ضل عن الحق والخير ضلالاً بعيداً.

قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ) (٢٠)

آيتان في الكوفي والمدني تمام الأولى «خلق جديد» وآية عند الباقين.

قرأ حمزة والكسائي «خالق السماوات» على اسم الفاعل. الباقون «خلق» على (فعل) ماض. قال ابو علي: من قرأ «خلق» فلان ذلك ماض فأخبر عنه بلفظ الماضي، ومن قرأ «خالق» جعله مثل «فاطر السموات والارض»[٢] بمعنى خالق. ومثله قوله «فالق الاصباح وجعل الليل سكناً»[٣] لانهما فعلا.

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ويعني به الأمة بدلالة قوله «ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد» ألم تعلم؟ لان الرؤية تكون بمعنى العلم، كما تكون بمعنى الادراك بالبصر وههنا لا يمكن ان تكون بمعنى الرؤية بالبصر، لان ذلك لا يتعلق بأن الله خلق السموات والارض، وإنما يعلم ذلك بدليل. وقوله «بالحق» والحق هو وضع الشيء في موضعه على ما تقتضيه الحكمة واذا جرى المعنى على ما هو له من الاشياء فهو حق، واذا اجري على ما ليس هو له من الشيء فذلك باطل. والخلق فعل الشيء على تقدير وترتيب، والخالق الفاعل على مقدار ما تدعو الحكم اليه لا يجوز عليه غير ذلك.

---

(١) سورة الفرقان: ٢٥ آية ٢٣ (٢) سورة فاطر: ٣٥ آية ١

(٣) سورة الانعام: ٦ آية ٩٦

وقوله «ان يشأيذهبكم ويأت بخلق جديد» خطاب للخلق واعلام لهم أنه قادر ان شاء انيميت الخلق ويهلكهمويجيء بدلهم خلقاً آخر جديداً . والاذهاب ابعاد الشيء عن الجهة التي كان عليها ، ولهذا قيل للاهلاك إذهاب ، لانه ابعاد له عنحال الايجاد. والجديد المقطوع عنه العمل في ابتداء أمره قبل حالخلوّ فيه، واصله القطع يقال : جدّه يجده جدّاً إذا قطعه ، والجدّ أب الأب ، لانقطاعه عن الولادة بالأب ، والجد ضد الهزل ، والجد الحظ .

«وما ذلك علىالله بعزيز» اخبار منهتعالى ان إذهابكم وإهلاككم والاتيان بخلق جديد ليس بممتنع على الله على وجه من الوجوه . والممتنع بقدرته: عزيز، والممتنع بسعة مقدوره عزيز ، والممتنع بكبر نفسه عزيز .

وفي الآية دلالة علىان من قدر على الانشاء قدر على الافناء إذ كان مما لا يتغير حكم القادر ، ولا شيء مما يحتاج اليه في الفعل ، لان من قدر على البناء ، فهو على الهدم أقدر ، فمن كان قادراً على اختراع السماء والارض وما بينهما فهو قادر على إذهاب الخلق وإهلاكهم .

قوله تعالى :

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ) (٢١) آية بلا خلاف .

أخبر الله تعالى ان الخلق يبرزون يوم القيامة لله اي يظهرون من قبورهم والبروز خروج الشيء عما كان ملتبساً به الى حيث يقع عليه الحشر في نفسه ، يقال : برز للقتال إذا ظهر له .

« فقال الضعفاء » اي يقول الناقص القوة ، لان الضعفاء جمع ضعيف ،

والضعف نقصان القوة ، يقـال : ضعف يضعف ضعفاً ، واضعفه الله إضعافاً ، والضعف ذهاب مضاعفة القوة « للذين استكبروا » اي للذين طلبوا التكبر . والاستكبار والتكبر والتجبر واحد، وهو رفع النفس فوق مقدارها في الوصف. والمعنى يقول التابعون للمتبوعين من ساداتهم وكبرائهم « انا كنا لكم تبعاً » اي طلبنا اللحاق بكم، واعتمدنا عليكم، وهو جمع تابع، كقولهم: غائب وغيّب. قال الزجاج : ويجوز ان يكون مصدراً وصف به « فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء» اي هل تقدرون على ان تدفعوا عنا ما لا نقدر على دفعه عن أنفسنا ، يقال : أغنى عني إذا دفع عني ، وأغناني بمعنى نفى الحاجة عني بما فيه كفاية . فأجابهم المستكبرون بأنه « لو هدانا الله » الى طريق الخلاص من العقاب والوصول الى النعيم والجنة « لهديناكم » اليه « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا » أي الجزع والصبر سيان مثلان ، ليس لنا من محيص أي مهرب من عذاب الله تعـالى يقال : حاص يحيص حيصاً وحيوصاً وحيصاناً ، وحـاد يحيد حيداً ومحيداً ، والحيد الزوال عن المكروه والجزع انزعاج النفس بورود مـا يغم، ونقيضه الصبر قال الشاعر :

فان تصبرا فالصبر خير مغبة وان تجزعا فالأمر ما تريان[1]

قوله تعالى :

(وَقَـالَ ٱلشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٢٢) آية بلا خلاف.

(١) مر هذا البيت في ١ : ٢٠٢ ، ٤ ، ٥٤٦

قرأ حمزة وحده «بمصرخيّ» بكسر الياء . الباقون بفتحها .

قال ابو علي: قال الفراء – في كتابه في التصريف : قرأ به الاعمش ، ويحيى ابن وثاب ، قال وزعم القاسم بن معن أنه صواب ، وكان ثقة بصيراً ، وزعم قطرب أنه لغة في بني يربوع، يزيدون على ياء الاضافة ياء وانشد :

ماض اذا ما همّ بالمضيّ قال لها هل لك يا ماميّ

وانشد ذلك الفراء ، وقال الزجاج : هذا الشعر لا يلتفت اليه ، ولا هو مما يعرف قائله ، قال الرماني : الكسر لا يجوز عند اكثر النحويين، واجازه الفراء على ضعف ، قال ابو علي : وجه جوازه من القياس أن الياء ليست تخلو: أن تكون في موضع نصب او جر، فالياء في النصب والجر كالهاء في (هما) وكالكاف في اكرمتك وهذا لك ، فكما ان (الهاء) قد لحقتها الزيادة في هداكه وضربه ، ولحق الكاف الزيادة في قولهم اعطيتكه او أعطيتكاه فيما حكاه سيبويه ، وهما اختا الياء كذلك ألحقوا الياء الزيادة ، فقالوا : فيِّ ، ثم حذفت الياء الزيادة على الياء ، كما حذفت الزيادة من (الهاء) في قول من قال : له أرقان . قال ابو الحسن هي لغة ، فكما حذفت الزيادة من الكاف ، فقال في (اعطيتكيه ، اعطيتكه) كذلك حذفت الياء اللاحقة الياء، كما حذفت من اختيها ، وأقرت الكسرة التي كانت تلي الياء المحذوفة فبقيت الياء على ما كانت عليه من الكسرة ، وكما لحقت الكاف والهاء الزيادة ، كذلك لحقت الياء الزيادة ، فلحاق الياء الزيادة نحو ما أنشد من قول الشاعر :

رميتيه فأصميت وما أخطأت الرمية

فاذا كانت هذه الكسرة في الياء على هذه اللغة. وإن كان غيرها أفشى منها. وعضده من القياس ما ذكرنا لم يجز لقائل ان يقول : إن قراءة القراء بذلك لحن يجوز، لاستقامة ذلك سماعاً وقياساً .

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان الشيطان يوم القيامة يقول لأوليائه الذين اتبعوه:

« ان الله وعدكم وعد الحق » من الثواب والعقاب « ووعدتكم » انا بالخلاص من العقاب بارتكاب المعاصي ، وقد خالفت وعدي « وما كان لي عليكم من سلطان » اي لم يكن لي عليكم حجة ، ولا برهان اكثر من ان دعوتكم الى الضلال وأغويتكم ،فأجبتموني واتبعتموني «فلا تلوموني» في ذلك «ولوموا انفسكم» بارتكاب المعاصي وخلافكم الله وترككم ما امركم به « ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخي » يقال: استصرخني فأصرخته ، اي استغاثني فأغثته ، فالاصراخ الاغاثة . والمعنى ما انا بمغيثكم وما انتم بمغيثيّ « إني كفرت بما اشركتموني من قبل » حكاية عن قول الشيطان لأوليائه انه يقول لهم « اني كفرت » بشرككم بالله ومتابعتكم لي قبل هذا اليوم . ثم اخبر تعالى « إن الظالمين » الكافرين « لهم عذاب اليم » مؤلم شديد الالم ، ويصح ان يلوم الانسان نفسه على الاساءة ، كما يصح حمدها على الاحسان قال الشاعر :

صحبتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسي ألومها[1]

قال الجبائي : وفي الآية دلالة على ان الشيطان لا يقدر على الاضرار بالإنسان اكثر من إغوائه ودعائه الى المعاصي ، فأما بغير ذلك فلا يقدر عليه ، لأنه اخبر بذلك ، ويجب ان يكون صادقاً ، لأن الآخرة لا يقع فيها من احد قبيح لكونهم ملجئين الى تركه .

قوله تعالى :

(وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ

---

(١) قائله الحارث بن خالد المخزومي . اللسان (غشا)

لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (٢٥) ثلاث آيات في الكوفي والبصري تمام الثانية « في السماء » وآيتان في الباقي

اخبر الله تعالى في هذه الآية ان الذين يؤمنون به، ويصدقون بوحدانيته، ويعترفون بنبوّة انبيائه ويعملون بما دعاهم اليه من الطاعات والاعمال الصالحات يدخلهم الله يوم القيامة جنات من صفتها انها تجري من تحتها الانهار، لان الجنة البستان الذي يجنه الشجر، فالانهار تجري من تحت الاشجار، وقيل انهار الجنة في اخاديد في الارض «خالدين فيها» اي مؤبدين فيها دائمين، ونصبه على الحال من حيث انها تدوم لهم «بإذن ربهم» اي بأمر ربهم واطلاقه، يخلدون فيها، ويكون تحية بعضهم لبعض في الجنة «سلام». والتحية التلقي بالكرامة في المخاطبة، كقولك احياك الله حياة طيبة، سلام عليك، وما أشبه ذلك تبشيراً لهم بدوام السلامة .

ثم قال لنبيه ﷺ ألم تعلم كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء » انما ضرب المثل بالكلمة الطيبة للدعاء اليها في كل باب يحتاج الى العمل عليه، وفي كل باب من ابواب العلم. ومعنى « فرعها في السماء » مبالغة له في الرفعة، فالأصل سافل، والفرع عال، إلا أنه من الأصل يوصل الى الفرع . والاصل في باب العلم مشبه بأصل الشجرة التي تؤدي الى الثمرة التي هي فرع ذلك الاصل، ويشبه بأصل الدرجة التي يترقى منها الى اعلى مرتبة .

وروي انس بن مالك عن النبي ﷺ أن هذه الشجرة الطيبة هي النخلة . وقال ابن عباس : هي شجرة في الجنة .

وقوله « تؤتي أكلها » اي تخرج هذه الشجرة الطيبة – وهي النخلة – ما يؤكل منها في كل حين. وقال ابن عباس – في رواية – يعني ستة اشهر الى صرام النخل، وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبد الله (ع)، وبه قال سعيد بن جبير، والحسن. وقال مجاهد وابن زيد : كل سنة . وقال سعيد بن المسيب : الحين شهران . وفي رواية اخرى عن ابن عباس: غدوة وعشية، وقال قوم : من اكل النخلة : الطلع

والرطب والبسر والتمر ، فهو دائم لا ينقطع على هـــذه الصفة ، وأهل اللغة يذهبون الى ان الحين هو الوقت ، قال النابغة :

يبادرها الراقون من سوء سمها تطلقه حيناً وحيناً تراجع[1]

كذا رواه الاصمعي و (مثلا) منصوب بـ(ضرب) والتقدير ضرب الله كلمة طيبة مثلا « بإذن ربها » اي يخرج هذا الأكل في كل حين بأمر الله وخلقه اياه «ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » اخبار منه تعالى انه يضرب المثل للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة في البـــادية والعاقبة ، لكي يتذكروا ويتفكروا فيه ويعتبروا به ، فيؤديهم ذلك الى دخول الجنة وحصول الثواب .

وفائدة الآية ان الله ضرب للايمان مثلا وللكفر مثلا ، فجعل مثل المؤمن الشجرة الطيبة التي لاينقطع نفعها وثمرها ، وهي النخلة ينتفع بها في كل وقت ، لا ينقطع نفعها البتة ، لأنه ينتفع بطلعها ، وبسرها ، ورطبها ، وتمرها ، وسعفها ، وليفها ، وخوصها ، وجذعها . ومثل الكافر بالشجرة الخبيثة وهي الحنظلة . وقيل الاكشوث لا إنتفاع به ، ولا قرار له ولا أصل ، فكذلك الكفر لا نفع فيه ولا ثبات .

قوله تعالى :

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)

آيتان بلا خلاف .

لما ضرب الله المثل للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة التي ذكرها وأكلها ، ضرب

---

(١) ديوانه (دار بيروت) ٨٠ وروايته :

تناذرها الراقون من سوء سمها تطلقــه طوراً وطوراً تراجع

المثل للكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة التي تجتث اي تقلع، يقال : اجتثه اجتثاثاً وجثه جثاً ، ومنه الجثة ، والاجتثاث الاستئصال للشيء واقتلاعه من أصله ، وقال انس بن مالك ومجاهد : الشجرة الممثل بها هي شجرةالحنظل ، قال أنس: وهى السرمان . وقال ابن عباس : هي شجرة لم تخلق بعد . والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالاول ، والتشبيه في الامثال؛ لما يحتاج اليه من البيان وهو على وجهين : احدهما - ما يظهر فيه اداة التشبيه . والآخر - ما لا يظهر فيه .

والكلمة الواحدة من الكلام ، ولذلك يقال للقصيدة كلمة ، لانها قصيدة واحدة من الكلام . والكلمة إنما تكون خبيثة اذا خبث معناها . وهي كلمة الكفر ، والطيبة كلمة الايمان ، والخبث فساد يؤدي الى فساد .

وقوله « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا » يعنى كلمة الايمان « وفي الاخرة » قال ابن عباس والبراء بن عازب : هي المسألة في القبر اذا أتاه الملك ، فقال له من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول : ربي الله وديني الاسلام ونبي محمد صلى الله عليه وسلم . وقال قوم: معنى « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا » يعني الايمان يثبتهم الله بثوابه في الجنة ويمدحهم فيها .

وقوله « ويضل الله الظالمين » يحتمل امرين :

احدهما - يحكم بضلال الظالمين .

الثاني - يضلهم عن طريق الجنة الى طريق النار « ويفعل الله ما يشاء » من ذلك لا اعتراض عليه في ذلك ولا في غيره مما يريد فعله .

قوله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللهِ كُفْراً وَأَحلوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ) (٣٠) ثلاث آيات بلا خلاف .

قيل في من نزل فيه قوله « الذين بدلوا نعمة الله كفراً » قولان :

احدهما - قال امير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ، وابن عباس ، وسعيد ابن جبير ، ومجاهد ، والضحاك : انهم كفار قريش ، فقال (ع) : (أما بنو المغيرة فأبادهم الله يوم بدر ، وأما بنو أمية فقد أمهلوا إلى يوم ما) وقال قتادة : هم القادة من كفار قريش . وروي عن عمر أنه قال : هما الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية . فأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين ؛ واما بنو المغيرة فقتلوهم يوم بدر . أنعم الله تعالى عليهم بالنبي ﷺ ، فكفروا به ودعوا قومهم الى الكفر به ، فقال الله تعالى لنبيه : أما تنظر الى هؤلاء الذين كفروا بنعم الله وبدلوا مكان الشكر عليها كفراً « وأحلوا قومهم دار البوار » أي أنزلوا قومهم دار الهلاك بدعائهم إياهم الى الكفر بالنبي ﷺ وإغوائهم إياهم وصدهم عن الايمان به .

والتبديل جعل الشيء مكان غيره ، فهؤلاء القوم لما جعلوا الكفر بالنعمة مكان شكرها ، كانوا قد بدلوا أقبح تبديل . والاحلال وضع الشيء في محل ، اما مجاوره إن كان من قبيل الأجسام ، او مداخله إن كان من قبيل الاعراض . والبوار الهلاك ، بار الشيء يبور بوراً إذا هلك وبطل . قال ابن الزبعري .

يا رسول المليك ان لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور[1]

وقوله « جهنم يصلونها » في موضع نصب بدلاً من قوله « دار البوار » لانه تفسير لهذه الدار « يصلونها » اي يصلون فيها ويشتوون فيها .

ثم أخبر انها بئس القرار اي بئس المستقر والمأوى .

ثم قال : ان هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفراً واحلوا قومهم دار البوار « جعلوا لله انداداً » زيادة على كفرهم وجحدهم نعم الله . والانداد جمع ند ، وهم الامثال المناؤون ، قال الشاعر :

---

(١) قائله عبد الله بن الزبعري السهمي . تفسير الطبري ١٣ : ١٣٠ ، ومجاز القرآن ١ : ٣٤٠ واللسان (بور) ، وروايته (يا رسول الإله)

نهدى رؤس المترفين الانداد   الى امير المؤمنين الممتاد[١]

« ليضلوا عن سبيله » اي لتكون عاقبة أمرهم إلى الضلال الذي هو الهلاك ، واللام لام العاقبة ، وليست بلام الغرض ، لانهم ما عبدوا الأوثان من دون الله ، وغرضهم ان يهلكوا ، بل لما كان لاجل عبادتهم لها استحقوا الهلاك والعذاب عبر عن ذلك بهذه اللام ، كما قال « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا »[٢] وإنما التقطوه ليكون لهم قرة عين ، ولكن لما كان عاقبة ذلك انه كان عدوهم فعبر عنه بهذه اللام .

وقرأ بضم الياء وكسر الضاد ، والمعنى انهم فعلوا ذلك ليضلوا غيرهم عن سبيل الحق الذي هو الطريق الى ثواب الله والنعيم في جنته ، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ قل لهؤلاء الكفار الذين وصفناهم « تمتعوا » وانتفعوا بما تهوون من عاجل هذه الدنيا ، فصورته صورة الأمر والمراد به التهديد بدلالة قوله « فإن مصيركم الى النار » والمعنى مرجعكم ومآلكم الى النار والكون فيها عما قليل .

قوله تعالى

(قُلْ لِعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) آية بلا خلاف .

أمر الله تعالى نبيه ان يقول لعباده المؤمنين المعترفين بتوحيد الله وعدله يداومون على فعل الصلاة ويقيمونها بشرائطها وينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية أي ظاهراً وباطناً ، وموضع « يقيموا » جزم من ثلاثة اوجه :

---

(١) قائله العجاج ديوانه ٤٠ ومجاز القرآن ١ : ٣٠٠ وتفسير الطبري ١٢ : ٧٩ ومجمع البيان ٣ : ٢٠٠ وقد مر في ٤ : ٦٣ ، ٦ : ٨٢

(٢) سورة القصص آية ٨ .

أحدها - انه جواب الأمر وهو « قل » .

الثاني - هو جواب أمر محذوف ، وتقديره قل لهم أقيموا يقيموا .

الثالث - بحذف لام الأمر لأن في « قل » دلالة عليه ، والمعنى ليقيموا ، وعلى هذا يجوز ان تقول : قل له يضرب ، ولا يجوز يضرب زيداً ، لأنه عوض من المحذوف ذكره الزجاج .

« من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال » المعنى بادروا بافعال الخير من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وأفعال الخير « قبل ان » يأتيكم يوم القيامة الذي لا بيع فيه ولا شراء ، والمراد - ههنا - ولا فداء تفدون بها نفوسكم من عذاب الله «ولا خلال» اي ولا مخالة ، تقول: خاللت فلاناً مخالة وخلالا ، قال امرؤ القيس:

صرفت الهوى عنهنّ من خيفة الردى ولست بمقلي الخلال ولا قالي [1]

والمخالة اصفاء المودة ، وقد يكون الخلال جمع خلّة مثل قلّة ، وقلال . وظلة وظلال .

قوله تعالى :

(ٱللهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (٣٤) ثلاث آيات في الكوفي والمدنيين وآيتان فيما عداها ، آخر الاولى « الانهار » .

أخبر الله تعالى انه (جل وعز) اخترع السموات والارض وانشأهما بلا معين

---

(١) ديوانه : ١١٣ وتفسير الطبري ١٣ : ١٣٣

ولا مشير « وأنزل من السماء ماء » يعني غيثاً ومطراً فأخرج بذلك الماء الثمرات رزقاً لعباده، وسخر لهم المراكب في البحر لتجري بأمر الله ، لانها تسير بالرياح والله تعالى المنشيء للرياح « وسخر لكم الانهار » التي تجري بالمياه التي ينزلها من السماء ، ويجريها في الأودية ، وينصبّ منها في الانهار «وسخر لكم الشمس والقمر دائبين » معناه ذلل لكم الشمس والقمر ومهدهما لمنافعكم ، وتدبير الله لما سخره للعباد ظاهر لكل عاقل متأمل لا يمكنه الانصراف عنه إلا على وجه المعاندة والمكابرة، والدؤوب مرور الشيء في العمل على عادة جارية فيه دأب يدأب دأباً ودؤوباً فهو دائب،والمعنىدائبين، لا يفتران، في صلاح الخلق والنبات، ومنافعهم « وسخر لكم الليل والنهار » أي ذللها لكم ، ومهدهما لمنافعكم ، لتسكنوا في الليل، وتبتغوا في النهار من فضله «وأتاكم من كل ما سألتموه » معناه ان الانسان قد يسأل الله العافية فيعطي ، ويسأله النجاة فيعطي ، ويسأله الغنى فيعطي ، ويسألهالملكفيعطي، ويسأله الولدفيعطي، ويسألهالعز وتيسير الامور وشرح الصدر فيعطي ، فهذا في الجملة حاصل في الدعاء لله تعالى ما لم يكن فيه مفسدة في الدين عليه وعلى غيره، فأين يذهب به مع هذه النعم التي لا تحصى كثرة، عن الله الذي هو في كل حال يحتاج اليه ، وهو مظاهر بالنعم عليه .

ودخلت (من) للتبعيض ، لانه لو كان وآتاكم كل ما سألتموه لاقتضى ان جميع ما يسأله العبد يعطيه الله ، والامر بخلافه ، لان (من) تنبيء عنه .

وقال قوم: ليس من شيء الا وقدسأله بعض الناس، والتقدير كل ما سألتموه قد أتى بعضكم .

وقوله « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » معناه وان ترومو عدها بقصدكم اليه لا تحصونها لكثرتها ، ويروى عن طلق بن حبيب ، أنه قال : ان حق الله اثقل من ان تقوم به العباد ، وان نعم الله اكثر من ان تحصيها العباد، ولكن ، اصبحوا تائبين ، وامسوا تائبين .

وقوله «ان الانسان لظلوم كفار» اخبار منه تعالى أن الانسان يعني من تقدم وصفه بالكفر كثير الظلم لنفسه ولغيره ، وكفور لنعم الله غير مؤد لشكرها .

وقرىء «من كلٍّ ما سألتموه» بالتنوين، قال الفراء: كأنهم ذهبوا الى أنا لم نسأله تعالى شمساً ولا قمراً ولا كثيراً من نعمه فكأنه قال: وآتاكم من كل ما لم سألتموه، والاول أعجب اليّ، لان المعنى آتاكم من كل ما سألتموه لو سألتموه، كأنه قال وآتاكم من كل سؤلكم، كما تقول: والله لأعطينك سؤلك ما بلغته مسألتك وان لم تسأل. قال المبرد: يريد ما يخطر ببالك، ومن أضاف جعل (ما) في موضع نصب، وهي بمعنى الذي. ومن نون جعلها نافية.

قوله تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِناً وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (٣٦)

آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ اذكر «اذ قال ابراهيم» يا «رب اجعل هذا البلد» يعني مكة وما حولها من الحرم «آمنا» يعني يأمن الناس فيه على نفوسهم واموالهم. (والامن) سكون النفس الى زوال الضرر، وهو نقيض الخوف، ومثله الطمأنينة الى الامر.

وقوله «واجنبني» اي اصرفني عنه، جنبته اوجنبه، جنباً وجنبته الشر تجنيباً، واجنبته اجتناباً، قال الشاعر:

وتنقض عهده شفقاً عليه وتجنبه قلا يصنا الصعابا [1]

«واجنبني» اي واصرفني «وبني ان نعبد الاصنام» اي جنبنا عبادة الاصنام بلطف من الطافك الذي نختار عنده الامتناع من عبادتها. ودعاء الانبياء

---

(١) تفسير الطبري ١٣ : ١١٣ ومجاز القران ١ : ٣٤٢

لا يكون الا مستجاباً ، فعلى هذا يكون سؤاله ان يجنب نبيه عبادة الاصنام مخصوصاً بمن علم الله من حاله ان يكون مؤمناً ، لا يعبد الا الله ، ويكون الله تعالى اذن له في الدعاء لهم ، فيجيب الله تعالى ذلك لهم .

وقوله « ربّ انهن اضللن كثيراً من الناس » اخبار من ابراهيم ان هذه الاصنام ضل كثير من الناس بها حتى عبدوها فكأنها اضلتهم ، كما يقول القائل: فتنتني فلانة اي فتنت بها ، قال الشاعر :

هبوني أمرءاً منكم أضل بغيره

يعني ضل بعيره عنه ، لان احداً لا يضل بغيره قاصداً الى اضلاله .

وقوله « فمن تبعني » حكاية ما قال ابراهيم من ان من يتبعه في عبادة الله وحده وترك عبادة الاصنام ، فانه منه وعلى دينه . «ومن عصاني» في ذلك وعبد مع الله غيره ، وعصاه في اوامره « فانك » يا الله « غفور رحيم » اي ستار على عبادك معاصيهم رحيم بهم اي منعم عليهم في جميع الاحوال. وقيل المعنى «انك غفور رحيم » بهم ان تابوا واقلعوا عما هم عليه من الكفر .

قوله تعالى :

(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُمْ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى ٱللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ) (٣٨) آيتان بلا خلاف .

هذا حكاية ما دعا به ابراهيم (ع)، فإنه قال يا رب «اني اسكنت من ذريتي» اي جعلت مأواهم ومقرهم الذي يقرون فيه ويسكنون اليه . والسكنى اتخاذ

مأوى لصاحبه يسكن اليه في ليله، ومتى يشاء من اوقاته، اسكن البلدة والدار اذا جعله مأوى له ، (والذرية) جماعة الولد على تنشئته من حين يظهر الى ان يكبر ، والمراد بالذرية ههنا : اسماعيل وامه هاجر حين اسكنه وادي مكة ، وهو الابطح ، ولم يذكر مفعول اسكنت ، لان (من) تفيد بعض القوم ، كما يقال : قتلنا من بني فلان ، واكلنا من الطعام ، وشربنا من الماء ، قال تعالى « افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله »[1] فموضع (من) نصب والوادي سفح الجبل العظيم ومن ذلك قيل للانهار العظام اودية ، لان حافاتها كالجبال لها ، ومنه الدّية ، لانها مال عظيم يتحمل في امر عظيم من قتل النفس المحرمة .

« غير ذي ذرع » أي لا زرع في هذا الوادي أي لا نبات فيه ، والزرع كل نبات ينغرس من غير ساق ، وجمعه زروع « عند بيتك المحرم » معناه حرم فيه ما أحل في غيره من البيوت ، من الجماع ، والملابسة بشيء من الدم ، والنجاسة، وانما أضاف البيت الى الله، لأنه مالكه من غير ان يملكه احد سواه ، لأن ما عداه قد ملك غيره من العباد . وسماه بيتاً قبل ان يبنيه ابراهيم لأمرين :

احدهما : - انه لما كان المعلوم انه يبنيه فسماه ما يكون بيتاً .

والثاني – قيل أنه كان البيت قبل ذلك، وانما خربته طسم واندوس. وقيل انه رفع عند الطوفان الى السماء .

وقوله « ربنا ليقيموا الصلاة » اي اسكنتهم هذا الوادي ليدوموا على الصلاة ويقيموها بشرائطها.

« فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم » سؤال من ابراهيم (ع) ان يجعل الله تعالى قلوب الخلق تحن الى ذلك الموضع ، ليكون في ذلك انس ذريته بمن يرد من الوفود ويدرّ ارزاقهم على مرور الاوقات . « وارزقهم من الثمرات » مسألة منه ان يرزق ذريته من انواع الثمار لكي يشكروه على نعمه وفنون احسانه .

---

(١) سورة الاعراف –٧– اية ٥٠

« ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن » اعتراف من ابراهيم لله تعـــالى بانه « عز وجل » يعلم ما يخفي الخلق وما يظهرونه ، وانه لا يخفى عليـــه شيء من ذلك مما يكون في الارض، ومما يكون في السماء مع عظمها وبعد ما بينهما ، لانه عالم لنفسه بجميع المعلومات . وقال قوم : ان قوله « وما يخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء » اخبار منه تعالى بذلك دون الحكاية .

قوله تعالى :

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ) (٤١) ثلاث آيات بلا خلاف .

هذا حكاية من الله تعالى باعتراف ابراهيم (ع) بنعم الله تعالى ، وحمده إياه على إحسانه بما وهب له على كبر سنه ولدين : اسماعيل واسحق . وانه اخبر بأن ربه الذي خلقه يجيب الدعاء لمن يدعوه وذلك يدل على انه كان تقدم منه مسألة لله تعالى أن يهب له ولداً ، فلذلك كان مجيباً له . والحمد هو الوصف الجميـل على وجه التعظيم لصاحبه والاجلال له وفرق الرماني بين الحمد والمدح بان المدح : هو الوصف للشيء بالخير من جهته على وجه التعظيم له ، فعله او لم يفعله ، ولكن كان سبباً يؤدي اليه ، وليس كذلك الحمد . والذم : نقيض لهما، لانه الوصف بالقبيح على جهة التحقير . والهبة عطية التمليك من غير عقد مثامنة يقال: وهب له كذا يهبه هبة ، فهو واهب. والدعاء طلب الفعل بدلالة القول وما دعا الله(عز وجل) اليه فقد أمر به ورغب فيه، وما دعا العبد به ربّه فالعبد راغب فيه،ولذلك لا يجوز ان يدعو الانسان بلعنه ولا عقابه، ويجوز ان يدعو على غيره به . والتقبل أخذ العمل على طريقة ايجاب الحق به مقابلة عليه .

وقال سعيد بن جبير : بشر ابراهيم بالولد بعد مئة وسبعة عشرة سنة .

وقوله «رب اجعلني مقيم الصلاة» سؤال من ابراهيم (ع) لله تعالى ان يجعله ممن يقيم شرائط الصلاة ويدوم عليها بلطف يفعله به يختار ذلك عنده، وسأله ان يفعل مثل ذلك بذريته، وأن يجعل منهم جماعة يقيمون الصلاة، وهم الذين اعلمه الله ان يقوموا بها دون الكفار الذين لا يقيمون الصلاة «ربنا وتقبل دعاء» رغبة منه اليه تعالى ان يجيب دعاءه فيما سأله.

وقوله «ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب» نداء من ابراهيم لله تعالى ان يغفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين، وهو ان يستر عليهم ماوقع منهم من المعاصي عند من أجاز الصغائر عليهم، ومن لم يجز ذلك حمل ذلك على أنه انقطاع منه اليه تعالى فيما يتعلق به، وسؤال على الحقيقة في غيره. وقد بينا ان أبوي ابراهيم لم يكونا كافرين[1] وفي الآية دلالة على ذلك، لانه سأل المغفرة لهما يوم القيامة، فلو كانا كافرين لما قال ذلك، لأنه قال تعالى «فلما تبين له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه»[2] فدل ذلك على ان أباه الذي كان كافراً جده لأمه او عمه على الخلاف. قال البلخي: ان أمه كانت مؤمنة، لانه سأل ان يغفر لأبيه وحكى أنه «كان من الضالين»[3] وقال «إلا قول ابراهيم لأبيه لاستغفرن لك»[4] ولم يقل لأبويه «ويوم يقوم الحساب» أي يقوم فيه الحساب. والعامل في يوم قوله (اغفر).

قوله تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ) (٤٣) آيتان بلا خلاف.

---

(١) انظر ٤ : ١٨٩ من هذا الكتاب.
(٢) سورة التوبة آية ١١٥
(٣) سورة الشعراء آية ٨٦
(٤) سورة الممتحنة اية ٤

قرأ الجماعة « انما يؤخرهم » بالياء . وروي عن أبي عمرو بالنون

قال أبو علي: وجه القراءة بالياء ان الغيبة للمفرد قد تقدم، فتكون بالياء على «فلا تحسبن الله مخلف وعده... إنما يؤخرهم» ووجه القراءة بالنون أنه مثل الياء في المعنى ، وقد تقدم مثله كثيراً

هذا خطاب للنبي ﷺ نهاه الله تعالى ، والمراد به الامة ان يظن ان الله غافل عن أعمال الظالمين ، ومهمل لامورهم . والغفلة والسهو واحد . ثم بين الله تعالى أنه إنما لم يعاجلهم بالعقوبة ويؤخر عقابهم ليعذبهم في اليوم الذي تشخص فيه الابصار ، وهو يوم القيامة . وشخوص البصر ان تبقى العين مفتوحة لا تنطبق لعظم ذلك اليوم « مهطعين » قال سعيد بن جبير والحسن وقتادة : مسرعين ، يقال : أهطع اهطاعاً اذا أسرع قال الشاعر :

بمهطع سرح كان زمامه في رأس جذع من أراك مشذّب [١]

وقال الآخر :

بمستهطع رسل كان جديله بقيدوم رعن من صوام ممنع [٢]

وقال ابن عباس: المهطع الدائم النظر لا تطرف عينه، وقال ابن دريد: المهطع: المطرق الذي لا يرفع رأسه . وقوله « مقنعي رؤسهم » قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد: معناه رافعي رؤسهم واقناع الرأس رفعه ، قال الشماخ :

يباكرن العضاه بمقنعات نواجذهنّ كالحدإ الرقيع [٣]

يعني يباكرن العضاة بمقنعات اي برؤس مرفوعات اليها ليتناول منها، يصف

---

(١) مجاز القران ١ : ٣٤٢ وتفسير الطبرى ١٣ : ١٤١

(٢) اللسان ، والتاج (قدم) والاساس (هطع) ومجاز القران ١ : ٣٤٣ وتفسير الطبري ١٣ : ١٤٢ ،

(٣) ديوانه ٥٦ ومجاز القرآن ١ : ٣٤٣ والطبري ١٣ : ١٤٢ واللسان والتاج (حدأ) ومجمع البيان ٣ : ٣٢٠ .

ابلا له ترعى الشجر ، وأن أسنانها مرتفعة كالفؤس ، وقال الراجز :

انقض نحوي رأسه واقنعا كأنما أبصر شيئاً اطمعا[١]

وقوله « لا يرتد اليهم طرفهم » اي لا ترجع اليهم اعينهم ولا يطبقونها .

وقوله « وأفئدتهم هواء » معناه منخرقة لا تعي شيئاً للخوف والفزع الذي دخلها ، فهي كهواء الجو ، في الانخراق وبطلان الامساك .

وقوله « يوم يأتيهم » نصب على انه مفعول به والعامل فيه انذرهم ، كأنه قال خوفهم عقاب الله ، ولا يكون على الظرف ، لانه لم يؤمر بالانذار في ذلك اليوم . وقيل في قوله « وافئدتهم هواء » ثلاثة اقوال .

اولها - قال ابن عباس ومرة والحسن : منخرقة لا تعي شيئاً ، وفارغة من كل شيء إلا من ذكر إجابة الداعي .

الثاني - قال سعيد بن جبير : يردد في أجوافهم لا يستقر في مكان .

الثالث - قال قتادة: خرجت الى الحناجر لا تنفصل ، ولا تعود ، وكل ذلك تشبيه بهواء الجو ، والاول أعرف في كلام العرب . وقال حسان بن ثابت :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى فانت مجوف نخب هواء[٢]

وقال زهير :

كأن الرحل منها فوق صعل من الظلمان جؤجؤه هواء[٣]

وقيل ان الظليم لا فؤاد له وقال آخر :

ولانك من اخدان كل يراعة هواء كسقب البان خوفا يكاسره[٤]

---

(١) تفسير الشوكاني ٣ : ١١٠ وتفسير الطبري ١٣ : ١٤٢ ومجاز القرآن ١ : ٣٤٤

(٢) ديوانه ٨ ، واللسان والتاج (هوء ، جوف) والطبري ١٣ : ١٤٤ ومجمع البيان ٣ : ٣٢٠ وقد مر في ١ : ٤١ من هذا الكتاب .

(٣) ديوانه (دار بيروت) ٩ ، ومجمع البيان ٣ : ٣٢٠

(٤) هذا البيت منسوب الى صخر الغي . ونسب ايضاً الى كعب . التاج (هوا) والطبري ١٣ : ١٤٤ ومجاز القران ١ : ٣٤٤

قوله تعالى :

(وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ) (٤٤) آية بلا خلاف .

امر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ان يقول للناس على وجه التخويف لهم من عقابه ، ويحذرهم يوم يجيئهم العذاب من الله على معاصيهم في دار الدنيا ، وهو يوم القيامة ، ويقول « الذين ظلموا » نفوسهم بارتكاب المعاصي وترك الواجبات يا « ربنا أخرنا الى أجل قريب » أي ردنا الى الدنيا واجعل ذلك مدة قريبة نجب دعوتك فيها ونتبع رسلك فيما يدعوننا اليه ، فيقول الله تعالى « أو لم تكونوا أقسمتم » وحلفتم في دار الدنيا « مالكم من زوال » . قال مجاهد : معناه إنهم اقسموا في الدنيا أنه ليس لهم انتقال من الدنيا الى الآخرة . وقال الحسن : معناه « من زوال » الى العذاب .

والأجل الوقت المضروب لانقضاء الأمد ، والأمد مدة من المدد ، فانما طلبوا أجلاً يستدركون فيه مافات من الفساد بالصلاح ، وفي المعلوم أنهم يبعدون من الفلاح .

وفي الآية دلالة على ان أهل الآخرة غير مكلفين بخلاف ما يقول النجـــار وجماعة من المجبرة ، لانهم لوكانوا مكلفين لما كان لقوله « آخرنا الى اجل قريب » معنى ، لانهم مكلفون ، وكانوا يؤمنون ويتخلصون من العقاب .

وقوله « فيقول » رفع عطفاً على قوله « يوم يأتيهم العذاب » وليس بجواب الامر لانه لوكان جواباً له لجازفيه النصب والرفع ، فالنصب مثل قول الشاعر :

ياناق سيري عنقاً فسيحا الى سليمان فنستريحا[١]

والرفع على الإستئناف وذكر الفراء ان العلاء بن سبابة كان لاينصب في جواب الأمر بالفاء قال : والعلاء هو الذي علم معاذاً ولهواً وأصحابه .

قوله تعالى :

(وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ) (٤٦) آيتان بلا خلاف .

قرأ الكسائي وحده « لتزول » بفتح اللام الأولى ، وضمّ الثانية . وروي ذلك عن علي (ع). الباقون بكسر اللام الاولى وفتح الثانية .

قال أبو علي : من كسر اللام الأولى وفتح الثانية جعل (إن) بمعنى (ما) والتقدير وما كان مكرهم لتزول ، ومثل ذلك قوله « إن الكافرون إلاّ في غرور[٢] » . ومعناه ما الكافرون ، ومعنى الآية « وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم » اي جزاء مكرهم ، فحذف المضاف كما حذف من قوله « ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا ، وهو واقع بهم[٣] » اي جزاؤه ، والمعنى قد عرف الله مكرهم ، فهو يجازيهم عليه وما كان مكرهم لتزول منه الجبال. و(الجبال) كأنه اراد بها القرآن وأمر النبي ﷺ وأعلامه ودلالاته أي ما كان ليزول منه ما هو مثل الجبال في امتناعه ممّن أراد إزالته .

---

(١) تفسير الطبري ١٣ : ١٤٤ ومجمع البيان ٣ : ٣٢٠. واكثر كتب النحو يشتهدون به على اضمار (أن) بعد الفاء المسبوقة بطلب .

(٢) سورة الملك (تبارك) ٦٧ آية ٢٠ (٣) سورة الشورى ٤٢ آية ٢٢

ومن قرأ بفتح اللام الأولى وضمّ الثانية جعل (إن) هي المخففة من الثقيلة على تعظيم أمر مكرهم، وهو في تعظيم مكرهم، كما قال في موضع آخر « ومكروا مكراً كبّاراً [١] » أي قد كان مكرهم من الكبر والعظم بحيث يكاد يزيل ما هو مثل الجبال في الامتناع، على من أراد إزالته ومثله في تعظيم الأمر قول الشاعر :

ألم ترَ صدعاً في السماء مبينا على ابن لبينى الحارث بن هشام [٢]

وقال آخر :

بكى حارث الجولان من موت ربه وحوران منه خاشع متضائل [٣]

وقال أوس :

ألم تكسف الشمس شمس النهار مع النجم والقمر الواجب [٤]

فهذا كله على تعظيم الامر وتفخيمه ويدل على ان الجبال يعني بها أمر النبي صلى الله عليه وسلم قوله بعد ذلك « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله » اي بعد وعدك الظهور عليهم والغلبة لهم في قوله « ليظهره على الدين كله » [٥] وفي قوله « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون » [٦] وقد استعمل لفظ الجبال في غير هذا في تعظيم الشيء وتفخيمه قال ابن مقبل :

اذا مت عن ذكر القوافي فلن ترى لها شاعراً مثلي اطب واشعرا
واكثر بيتاً شاعراً ضربت بـه بطون جبال الشعر حتى تيسرا [٦]

---

(١) سورة نوح ٧١ آية ٢٢ (٢) مجمع البيان ٣ : ٣٢٢

(٣) قائلة النابغة الذبياني . ديوانه (دار بيروت) ٩١ واللسان (حرث) وروايته الديوان (موحش) بدل (خاشع) وروايتها معاً (فقد) بدل (موت) .

(٤) ديوانه (دار بيروت) ١٠ وروايته :
ألم تكسف الشمس والبدر وال كواكب للجبل الواجب

(٥) سورة التوبة آية ٣٤ وسورة الفتح آية ٢٨ وسورة الصف اية ٩

(٦) سورة آل عمران آية ١٢ (٧) مجمع البيان ٣ : ٣٢٢

يقول الله تعالى للكفار « او لم تكونوا اقسمتم من قبل ما لكم زوال » مما انتم عليه من النعيم وأنتم « سكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم » بارتكاب المعاصي وكفران نعم الله ، فأهلكهم الله « وضربنا لكم الامثال » والمعنى ان مثلكم كمثلهم في الاهلاك اذا اقمتم على ما اقاموا عليه ، من الفساد والتتابع في المعاصي «ومكروا مكرهم» يعني الكفار الذين ظلموا انفسهم مكروا بالنبي ﷺ واحتالوا له ، ومكروا بالمؤمنين وخدعوهم « وعند الله » جزاء مكرهم ، ولم يكن مكرهم ليبطل حجج القرآن وما معك من دلائل النبوّة ، فلا يبطل شيء منه ، لانه ثابت بالدليل والبرهان .

وعلى القراءة الأولى ولو كان مكرهم يزيل الجبال من عظمه وشدته ، لما أزال أمر النبي ﷺ لانه أثبت من الجبال .

وروي عن علي (ع) وجماعة انهم قرؤوا «وان كاد مكرهم» من المقاربة . قال سعيد بن جبير وغيره : ان قوله « ومكروا مكرهم » نزلت في صاحب النسرين الذي أراد صعود السماء . وقال قوم: مكرهم كفرهم بالله وشركهم في عبادته .

قوله تعالى :

(فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ) (٤٨) آيتان بلا خلاف .

قرىء في الشواذ «مخلف وعدَه رسلِه» وهي شاذة رديئة ، لأنه لا يجوز ان يفصل بين المضاف والمضاف إليه ، وانشد الفراء :

فزججتها بمزجة زج القلوص ابي مزاده[1]

---

(١) انظر ٤ : ٣٠٩ من هذا الكتاب .

والمعنى زج ابي مزادة القلوص ، والصحيح ما عليه القراء ، وتقديره مخلف وعده رسله ، كما تقول هذا معطي زيد درهماً ، والمعنى مخلف رسله وعده .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ « لا تحسبن الله » اي لا تظنه مخلف مـا وعدك به من الظفر بهم والظهور عليهم ، فانه لا يخلف ما وعد رسله به . ثم أخبر ان الله تعـــالى قادر لا يغالب ينتقم ممن يكفر بنعمه ويكذب انبيائه . والانتقام هو العقاب .

«يوم تبدل الارض غير الارض» العامل في «يوم» الانتقام، وتقديره ذو انتقام يوم تبدل . والتبديل التغيير برفع الشيء الى بدل . وقيل ان تبديل الارض بغيرها برفع الصورة التي كانت عليها الى صورة غيرها . وقال ابن عباس ومجاهد وأنس بن مالك وابن مسعود : يبدل الله هذه الارض بأرض بيضاء كالفضة ، لم يعمل عليها خطيئة . والاول قول الحسن .

وقـــوله « والسموات » تقديره تبدل السموات غير السموات وحذف لدلالة الكلام عليه . وقيل تبديل الارض بتسيير الجبال وتفجير بحارها وكونها مستوية «لا ترى فيها عوجاً ولا امتاً»[1] وتبديل السموات انتشار كواكبها، وانفطارها، وتكوير شمسها وخسوف قمرها .

وقوله « وبرزوا لله الواحد القهار » معناه يظهرون من قبورهم . والبروز الظهور وبرز يبرز بروزاً ، فهـو بارز ، وبارز قرنه مبارزة « لله الواحد القهار » والمعنى الواحد لا شبه له ولا نظير . والقهار المالك الذي لا يضام .

قوله تعالى :

(وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ) (٥٠) آيتان بلا خلاف .

---

(١) سورة طه اية ١٠٧

يقول الله لنبيه ﷺ انـــك يا محمد ترى الذين اجرموا وفعلوا المعاصي ، من الكفر وجحد النعم ، يوم القيامة « مقرنين في الاصفاد » اي قرنت أيديهم بالغل الى اعناقهم . وقال الجبائي : قرن بعضهم الى بعض ، والصفد الغل الذي يقرن به اليد الى العنق ، ويجوز ان يكون السلسلة التي يقع بها التقرين، وأصل الصفد القيد ، وهو الصفاد ، وجمعه صفد ، قال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وابناء الملوك مصفدينا[١]

اي مقيدين ، ومنه اصفدته اصفاداً ، اذا أعطيته مالاً ، قال الاعشى :

تضيفته يومـــاً فاكرم مجلسي واصفدني عند الزمانة قائدا[٢]

وقال الذبياني :

هذا الثناء فان تسمع لقـــائله فما عرّضت أبيت اللعن بالصفد[٣]

اي ما تعطيه : وانما قيل لها : صفد ، لانها تقيد المودة وترتبطها . وقـــال قتادة : الاصفاد القيود والاغلال ، والسرابيل القميص – في قـول ابن زيد – واحدها سربال ، قال امرؤ القيس :

لعوب تنسيني اذا قمت سربالي[٤]

و(القطران) هو الذي تهنأ به الإبل ـ في قول الحسن ـ وفيه لغات ، قطران بفتح القاف وكسر الطاء ، وبتسكين الطاء وكسر القاف . ويجوز فتحها ، قال ابو النجم :

---

(١) تفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ : ١١٣ ومجمع البيان ٣ : ٢٢٣

(٢) ديوانه (دار بيروت) ٤٤ وروايته (فقرب مقعدي) بدل (فأكرم مجلسي) . وهو في مجمع البيان ٣ : ٣٢٣ ومجاز القران ١ : ٣٤٥ وتفسير الطبري ١٣ : ١٥٢

(٣) ديوانه (دار بيروت) ٣٧ وروايته :

هذا الثناء فان تسمع به حسناً فلم أُعرض ابيت اللعن بالصفد

(٤) ديوانه (الطبعة الرابعة سنة ١٩٥٩) ١٦٠ وصدره :

ومثلك بيضاء العوارض طفلة

جون كأن العرق المنتوحا ألبسه القطران والمسوحا[1]

فكسر القاف وقال ايضاً :

كأن قطراناً اذا تلاهـا ترمي به الريح الى مجراها[2]

وإنما جعلت سرابيلهم من قطران، لان النار تسرع اليها، وقرىء «قطرآن» وروي ذلـك عن ابن عباس ، والقطر النحاس ومنه قوله « اتوني افرغ عليه قطراً »[3] والمعنى من قطر بالغ حره ، وانتهى . والقراء على انه اسم واحد على وزن الظربان، والظربان دابة منتنة فسّاءة، وهي من السباع « وتغشى وجوههم» معناه تجللها .

قوله- تعالى :

(لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٥١) هٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ) (٥٢) آيتان بلا خلاف.

أخبر الله تعالى بأنه إنما فعل ما تقدم ذكره «ليجزي الله كل نفس» الذي كسبت إن كسبت خيراً أتاها الله بالنعيم الأبدي في الجنة ، وإن كفرت وحجدت وكسبت شراً عاقبها بنار جهنم مخلدة فيها « إن الله سريع الحساب » اي سريع المجازاة . وقيل معنى « سريع الحساب » لا يشغله محاسبة بعضهم عن محاسبة آخرين . والكسب فعل ما يجلب به النفع للنفس او يدفع به الضرر عنها . والكسب ليس بجنس الفعل ، والله تعالى يقدر على مثله في الجنس .

وقوله « هذا بلاغ» قال ابن زيد وغيره من المفسرين: هو إشارة الى القرآن ،

(١ ، ٢) مجمع البيان ٣ : ٣٢٣ وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٣ : ١٥٣

(٣) سورة الكهف اية ٩٧

ففيه بلاغ للناس ، لان فيه البيان عن الانذار والتخويف ، وفيه البيان عما يوجب الإخلاص بما ذكر من الإنعام الذي لا يقدر عليه الا الله .

وفي الآية حجة على ثلاث فرق :

على المجبرة في الارادة ، لأنها تدل على أنه تعالى أراد من جميع المكلفين ان يعلموا « إنما هو إله واحد » وهم يزعمون أنه أراد من النصارى ان يثلثوا ، ومن الزنادقة ان يقولوا بالتثنية .

الثاني ــ حجة عليهم في ان المعصية لم يردها ، لانه اذا أراد منهم ان يعلموا أنه إله واحد ، لم يرد خلافه من التثليث والتثنية الذي هو الكفر .

الثالث ــ حجة على اصحاب المعارف ، لانه بين أنه أراد من الخلق ان يتذكروا ويفكروا في دلائل القرآن التي تدلهم على أنه إله واحد . ثم أخبر تعالى انه انما يتذكر « أولو الالباب » اي ذوو العقول ، لان من لا عقل له لا يمكنه الذكر والاعتبار .

(١٥) سورة الحجر

مكية في قول قتادة ومجاهد. وهي تسع وتسعون آية بلا خلاف

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرٰ تِلْكَ آياتُ ٱلْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ) (٢) آيتان بلا خلاف.

قرأ أهل المدينة وعاصم «ربما» بالتخفيف . الباقون بالتشديد . وروي عن أبي عمرو : الوجهان . قال أبو علي أنشد أبو زيد :

ماويّ يا ربتما غـــارة شعواء كاللذعة بالميسم[١]

قال الازهري : الماوي الرحمة ، وأنشد ايضاً ابو زيد :

يا صاحبا ربــه إنسان حسن يسأل عنك اليوم او تسأل عن[٢]

---

(١) مجمع البيان ٣ : ٣٢٦ واللسان (ربب) ، (ما) .

(٢) مجمع البيان ٣ : ٢٢٧

وقال قطرب ، والسكري : رُبّما، ورَبّما، وربتما، ورُبْ، رُبّ : ست لغات.
قال سيبويه (رب) حرف وتلحقها (ما) على وجهين :
احدهما - ان تكون نكرة بمعنى شيء كقوله :

ربما تجزع النفوس من الأمـ ـر له فرجة كحلّ العقال[١]

فـ (ما) في هذا البيت إسم؛ لما يقدر من عود الذكر اليه من الصفة . والمعنى: رب شيء تكرهه النفوس ، واذا عاد اليه الهاء كان إسماً ، ولم يجز أن يكون حرفاً . والضرب الآخر ان تدخل (ما) كافة نحو الآية ، ونحو قول الشاعر :

ربما أوفيت في علم يرفعن ثوبي شمالات[٢]

والنحويون يسمون (ما) هذه كافة يريدون: أنها بدخولها كفت الحرف عن العمل الذي كان هيأها لدخولها على ما لم تكن تدخل عليه ، ألا ترى ان (رب) انما تدخل على الاسم المفرد ؛ نحو رب رجل يقول ذلك ، وربه رجل يقول ، ولا تدخل على الفعل ، فلما دخلت (ما) عليها هيأتها للدخول على الفعل، كما قال « ربما يود الذين كفروا» فوقع الفعل بعدها - في الآية - وهو على لفظ المضارع، ووقع في قوله (ربما أوفيت في علم) على لفظ الماضي، وهكذا ينبغي في القياس لأنها تدل على أمر قد وقع ومضى ، وإنما وقع - في الآية - على لفظ المضارع ، لأنه حكاية لحال آتية كما ان قوله « وإن ربك ليحكم بينهم »[٣] حكاية لحال آتية ايضاً ، ومن حكاية الحال قول القائل :

جارية في رمضان الماضي تقطع الحديث بالايماض[٤]

ومن زعم ان الآية على اضمار (كان) وتقديره ربما كان يود ، فقد خرج عن قول سيبويه، لأنهم لا يضمرون على مذهبه (كان) في قول القائل: عبدالله المقتول اي كن عبدالله المقتول. واما اضمار (كان) بعد إن خيراً فخيراً، فإنما جاز ذلك،

---

(١) قائله أمية بن ابي الصلت . اللسان «فرج» وروايته «تكره» بدل «تجزع» .
(٢) قائلة جذيمة الأبرش . اللسان «شمل» . وشمالات : جمع شمال ؛ ويقصد هنا ريح الشمال
(٣) سورة النحل ١٦ اية ١٢٤
(٤) اللسان «رمض» «خصص» ومجمع البيان ٣ : ٣٢٧

لإقتضاء الحرف له، فصار اقتضاء الحرف له كذكره، فاما ما أنشده ابن حبيب، فيهان ابن مسكين :

لقد رزيت كعب بن عوف وربما فتى لم يكن يرضى بشيء يضيمها(١)

فان قوله (فتى) يحتمل ضروباً :

احدها – ان يكون لماجرى ذكر (رزيت) استغنى بجري ذكره عن اعادته، فكانه قال : ربما رزيت فتى، فأنتصب فتى برزيت المضمرة، كقوله «آلان وقد عصيت»(٢) فاستغنى بذكر آمنت المعلوم عن اظهاره بعد، ويجوز ان يكون انتصب بـ (رزيت) هذه المذكورة، كأنه قال : لقد رزيت كعب بن عوف فتى وربما لم يكن يرضى اي رزيت فتى لم يكن يضام، ويكون هذا الفصل وهو اجنبي بمنزله قوله :

ابو أمه حي أبوه يقاربه(٣)

ويجوز ان يكون رفعا بفعل مضمر كانه قال ربما لم يرضى فتى كقوله :

وقلما وصال على طول الصدود يدوم (٤)

ويجوز ان تكون (ما) نكرة بمنزلة شيء ويكون فتى وصفاً لها، كأنه قال: رب شيء فتى لم يكن كذا، فهذه الاوجه فيها ممكنة، ويجوز في الآية ان تكون (ما) بمنزلة شيء و(ودّ) صفة له، لان (ما) لعمومها تقع على كل شيء فيجوز ان يعنى بها الودّ كأنه رب ودّ يودّه الذين كفروا، ويكون يودّ في هذا الوجه حكاية حال لانه لم يكن كقوله «ارجعنا نعمل صالحاً»(٥) وقوله «يا ليتنا نردّ ولا نكذب»(٦)

«١» مجمع البيان ٣ : ٣٢٧ «٢» سورة يونس اية ٩١

«٣» البيت مشهور يستشهدون به على التعقيد المعنوي في كتب المعاني والبيان وتمامه :

وما مثله في الناس إلا مملكاً ابو أمه حي أبوه يقاربه

«٤» اللسان «طول» وتمام البيت :

صددت فأطولت الصدود وقلما وصال على طول الصدود يدوم

(٥) الم السجدة ٣٢ اية ١٢ (٦) سورة الانعام ٦ آية ٢٧

وامـــا من خفف ، فلانه حرف مضاعف والحروف المضـاعفة قـد تحذف، وان لم يحذف غـــير المضاعف ، فمن المضاعف الذي حذف (ان، وان، ولكن) قد حذف كل واحد من الحروف، وليس كل المضاعف يحذف ، لاني لا أعلم الحذف في (ثم) ، قال الهذلي :

ازهير إنْ يشب القذال فانني رب هيضل لجب لففت بهيضل[1]

واما دخول التاء في (ربتما) فان من الحروف ما يدخل عليه حرف التأنيث نحو (ثمَّ ، وثمّت ، ولا ، ولات) قال الشاعر :

ثمت لا يجزونني غير ذالكم ولكن سيجزنني المليك فيعقبا[2]

فلذلك الحق التاء في قوله « ربتما » وقال المبرد : قـال الكسائي : العرب لاتكاد توقع (رب) على أمر مستقبل ؛ وهذا قليل في كلامهم ، وإنمـا المعنى عندهم ان يوقعوها على الماضي ، كقولهم : ربما فعلت ذلك ، وربما جاءني فلان . وإنما جاء هذا في القرآن ، على ما جاء في التفسير ، ان ذلك يكون يوم القيامة . وإنما جاز هـذا ، لأن كل شيء من أمر الله خاصة فإنه وإن لم يكن وقع بعد ، فهو كالماضي الذي قد كان ، لأن وعـده آت لامحالة ، وعلى هذا عامة القرآن ، نحو قوله « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض »[3] وقوله « وسيق الذين اتقوا »[4] « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد »[5] ومع هذا يحسن ان يقال - في الكلام - اذا رأيت الرجل يفعل ما يشاء ، تخاف عليه ، ربما يندم ، وربما يتمنى ان لا تكون فعلت ، قال : وهذا كلام عربي حسن ، ومثله قال الفراء والمبرد وغيرهم .

فان قيل لم قال « ربما يود الذين كفروا » ورب للتقليل ? قلنا عنه جوابان : احدهما - انه شغلهم العذاب عن تمني ذلك الا في القليل .

---

(١) مجمع البيان ٣ : ٣٢٨ واللسان (هضل) نسبه الى ابي كبير

(٢) مجمع البيان ٣ : ٣٢٨

(٣) سورة الزمر -٣٩- آية ٦٨

(٤) سورة الزمر آية ٧٣

(٥) سورة ق ٥٠ آية ٢١

والثاني – انه أبلغ في التهديد كما تقول : ربما ندمت على هذا، وأنت تعلم أنه يندم ندماً طويلاً ، أي يكفيك قليل الندم ، فكيف كثيره .

فان قيل : لم قال « تلك آيات الكتاب وقران » والكتاب هو القرآن ؟ ولم أضاف الآيات الى الكتاب ، وهي القرآن ؟ وهل هـذا إلا اضافة الشيء الى نفسه ؟!

قلنا : إنما وصفه بالكتاب والقرآن ، لإختلاف اللفظين ، وما فيهما من الفائدتين وإن كانا لموصوف واحد ، لأن وصفـه بالكتاب يفيد انه مما يكتب ويدوّن ، والقرآن يفيـد أنه مما يؤلف ويجمع بعض حروفـه الى بعض قال الشاعر :

الى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم[1]

وقال مجاهد وقتادة : المراد بالكتاب : ما كان قبل القرآن من التوراة والانجيل ، فعلى هذا سقط السؤال . فأما إضافة الشيء الى نفسه ، فقـد بينا الوجه فيما مضى فيه ، وانه يجري مجرى قولهم مسجد الجامع وصلاة الظهر ويوم الجمعـة . وقوله تعالى « لحق اليقين »[2] وهو مستعمل مشهور وبينا الوجه فيه ، ووصف القرآن بانه مبين لانه يظهر المعنى للنفس ، والبيان ظهور المعنى للنفس بما يميزه من غيره ، لأن معنى إبانته منه فصله منه ، فاذا ظهر النقيضان في معنى الصفة فقد بانت وفهمت .

و (الود) التمني يقال : وددته اذا تمنيته ؛ ووددته اذا أحببته أود فيهما جميعاً ودّا . وقال الحسن : اذا رأى المشركون المؤمنين دخلوا الجنة تمنوا أنهم كانوا مسلمين ، وقال مجاهد : اذا رأى المشركون المسلمين يغفر لهم ويخرجون من النار يودون لو كانوا مسلمين .

---

(١) مر هذا البيت في ٢ : ٩٨ (٢) سورة الحاقة ٦٩ آية ٥١

قوله تعالى :

(ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) وَقَالُوا يَا أَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَٰئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (٩)

سبع آيات .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ على وجه التهديد للكفار: اترك هؤلاء يأكلوا ما يشتهون، ويستمتعوا في هذه الدنيا بما يريدون ويشغلهم الأمل «فسوف يعلمون » وبال ذلك فيما بعد يعني يوم القيامة ووقت الجزاء على الاعمال .

ثم اخبر تعالى انه لم يهلك أهل قرية فيما مضى على وجه العقوبة الا وكان لها كتاب معلوم يعنى أجل مكتوب قد علمه الله تعالى لا بدّ ان يبلغونه لما سبق في علمه ، ويجوز إلا ولها بالواو وبغير الواو ، لانه جاء بعد التمام ، ولو جاء بعد النقصان لم يجز ، نحو رجلاً هو قائم ، ولا يجوز وهو قائم ، وكذلك في الظرف في خبر كان ؛ وقال لم تكن أمة فيما مضى تسبق اجلها فتهلك قبل ذلك ولا تتأخر عن اجلها الذي قدر لها بل اذا استوفت أجلها اهلكها الله .

ثم قال له : ان هؤلاء الكفار يقولون لك « يا أيها الذي نزل عليه الذكر » يعنون القرآن نزل عليك على قولك ، لانهم لم يكونوا من المعترفين بذلك « انك لمجنون » في ادعائك أنه أنزل عليك الذكر بوحي الله اليك ، ولم تكن ممن يقرأ .

وقوله «لو ما تأتينا بالملائكة» معناه هلا تأتينا، وهو دعاء الى الفعل وتحضيض عليه، ومثله قوله «لو لا انزل عليه ملك» قال الشاعر :

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم بني ضو طرى لو لا الكمي المقنعا[1]

وقد جاء (لوما) في معنى (لو لا) التي لها جواب قال ابن مقبل :

لوما الحياء ولوما الدين عبتكما ببعض ما فيكما اذ عبتما عوري[2]

اي لولا الحياء. والمعنى في الآية هلا تأتينا بالملائكة إن كنت صادقاً في انك نبي، وقال ابو عبيد عن ابن جريج : فيه تقديم وتأخير يعنى قوله «ولو فتحنا» هو جواب «لو ما تأتينا» والمعنى : فلو فعلنا ذلك بهم ايضاً لما آمنوا، وما بينهما كلام مقدم والمراد به التأخير، قال المبرد : هذا الذي ذكره جائز لكن فيه بعد لانه يلبس بأن يكون فتح عليهم من انفسهم فعرج بهم. والله اعلم . وكلا الأمرين غير ممتنع الا ان العرب تمنع مما فيه لبس .

وقوله «ما ننزل الملائكة الا بالحق» قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالنون ونصب الملائكة. الباقون بالتاء ورفع الملائكة إلا أبا بكر عن عاصم فانه ضم التاء على ما لم يسم فاعله. فحجة من قرأ بالنون قوله «ولو اننا نزلنا إليهم الملائكة»[3] وحجة من قرأ «تنزل الملائكة» بفتح التاء قوله «تنزل الملائكة والروح فيها»[4]. وحجة من قرأ على ما لم يسم فاعله قوله «ما تنزل الملائكة الا بالحق» وقوله تعالى «ونزل الملائكة تنزيلا»[5].

ومعنى قوله «ما ننزل الملائكة الا بالحق» يعنى بالحق الذي لا يلبس معه الباطل طرفه عين . وقال الحسن ومجاهد : معناه إلا بعذاب الاستئصال اي لم

---

(١) مر تخريجه في ١ : ٣٠٩ ، ٤٣٥ .
(٢) شواهد الكشاف ١٢٦ ومجاز القرآن ١ : ٣٤٦ وتفسير القرطبي ١٠ : ٤ ومجمع البيان ٣ : ٣٣٠
(٣) سورة الانعام اية ١١١
(٤) سورة القدر اية ٤
(٥) سورة الفرقان اية ٢٥

يؤمنوا بالآيات ، كما كانت حال من قبلهم حين جاءتهم الآيات التي طلبوا ، فلم يؤمنوا. ومعنى «وما كانوا اذاً منظرين» أنه إن نزل عليهم الملائكة ولم يؤمنوا لم ينظرهم الله ، بل كان يعاجلهم العقوبة . وقوله « انا نحن نزلنا الذكر » يعني القرآن في - قول الحسن والضحاك ، وغيرهم - « وانا له لحافظون » قال قتادة : لحافظون من الزيادة والنقصان . ومثله قوله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه »[١] وقال الحسن : لحافظون حتى نجزي به يوم القيامة اي لقيام الحجة به على الجماعة من كل من لزمته دعوة النبي ﷺ .

وقال الفراء : الهاء في قوله « وانا له لحافظون » يجوز ان تكون كناية عن النبي ، فكأنه قال: انا نحن نزلنا القرآن وانا لمحمد لحافظون . وقال الجبائي : معناه وانا له لحافظون من ان تناله أيدي المشركين ، فيسرعون الى ابطاله ، ومنع المؤمنين من الصلاة به .

وفي هذه الآية دلالة على حدوث القرآن ، لان ما يكون منزلاً ومحفوظاً لا يكون الا محدثاً ، لان القديم لا يجوز عليه ذلك ولا يحتاج الى حفظه

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ) (١٣) أربع آيات بلا خلاف .

يقول الله (عز وجل) لنبيه محمد ﷺ تسلية له عن كفر قومه « لقد ارسلنا من قبلك في شيع الاولين » قال ابن عباس وقتادة : شيع الامم واحدهم شيعة لمتابعة بعضهم بعضاً في الاحوال التي يجتمعون عليها في الزمن الواحد من مملكة

---

(١) سورة حم السجدة ٤١ (فصلت) اية ٤٢

أو عمارة أو بادية أو نحو ذلك من الأمور الجارية في العادة ، والمرسل محذوف لدلالة (أرسلنا) عليه .

وقوله « وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن » اخبار منه تعالى أنه لم يبعث رسولاً فيما مضى الا وكانت اممهم تستهزىء بهم ، واستهزاؤهم بهم حملهم عليهم واستبعادهم ما دعوا اليه واستيحاشهم منه ، واستكبارهم له ، حتى توهموا أنه مما لا يكون ، ولا يصح مع مخالفته لما وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم واسلافهم ، فكان عندهم كأنه دعا الى خلاف المشاهدة والى ما فيه جحد الضرورة والمكابرة . والهزؤ إظهار ما يقصد به العيب على ايهام المدح ، وهو بمعنى اللعب والسخرية .

وقوله « كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين » قيل في معناه قولان :

احدهما – كذلك نسلك القرآن الذي هو الذكر باخطاره على البال ليؤمنوا به ، فهم لا يؤمنون به ، ماضين على سنة من تقدمهم ، من تكذيب الرسل ، كما سلكنا دعوة الرسل في قلوب من سلف من الامم . ذهب اليه البلخي والجبائي .

وقال الحسن وقتادة : يسلك الاستهزاء بإخطاره على البال ليجتنبوه ، ولو كان المراد أنه يسلك الشرك في قلوبهم ، لكان يقول : انهم لا يؤمنون بالشرك ولو كانوا كذلك ، كانوا محمودين غير مذمومين ، يقال : سلكه فيه يسلكه سلكاً وسلوكاً ، واسلكه اسلاكاً ، قال عدي بن زيد :

وكنت لزاز خصمك لم اعرّد ... وقد سلكوك في يوم عصيب[1]

وقال الآخر :

---

(١) انظر ٦ : ٣٨ تعليقة ١

حتى اذا سلكوهم في قتائدة شلاً كما تطرد الجمّالة الشردا[١]

ومعنى قوله : « وقد خلت سنة الاولين » اي في اهلاك من اقام على الكفر بالمعجزات بعد مجيء مـــا طلب من الآيات. ويحتمل ان يكون المراد وقد خلت سنة الاولين في تكذيب رسلهم والكفر بما جاؤوا به .

قوله تعالى :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥) آيتان .

قرأ ابن كثير وحده « سكرت » بالتخفيف . البـاقون بالتشديد . قال أبو عبيدة: (سكرت) معناه غشيت. والمعنى في الآية سكرت الابصار ، فلا ينفذ نورها ، ولا تدرك الاشياء على حقيقتها ، وكأن المعنى انقطـاع الشيء عن سننه الجاري ،فمن ذلك (سكره سكراً) إنما هو ردّه عن سننه ،وقال:السكير في الرأي قبل ان يعزم على شيء ، فاذا عزم على امر ذهب السكير وهو ان ينقطع عما عليه من المضاء في حال الصحو ، فلا ينفذ رأيه على حدّ نفـاذه في صحوه ، ووجه التثقيل ان الفعل مسند الى جماعة مثـــل قوله «مفتحة لهم الابواب»[٢] ووجه التخفيف ان هذا النحو من الفعل المسند الى الجماعة قد يخفف ، قال الشاعر :

ما زلت اغلق ابواباً وأفتحها [٣]

---

(١) قائله عبد مناف بن ربع الهذلي ديوانه٢/٢٤ وتفسير الطبري ١٨٠٧/١٤ وتفسير القرطبي ١١٩/١٢ ومجاز القران ٣٣١،٣٧/١ ومجمع البيان ٣٣٠/٣ ومعجم البلدان (قتائدة) واللسان والتاج (قتد) وقد مر في ١٤٩،١٢٨/١ من هذا الكتاب .

(٢) سورة ص ٣٨ اية ٥٠

(٣) اللسان (غلق) نسبه الى الفرزدق ولم اجده في ديوانه وروايته
ما زلت افتح ابوباً واغلقها حتى اتيت ابا عمرو بن عمار

اخبر الله تعالى نبيه ﷺ ان هؤلاء الكفار لشدة عنادهم وغلظة كفرهم وتمردهم وعتوهم «لو فتحنا عليهم باباً من السماء» فصاروا «فيه يعرجون» والعروج الصعود في الهواء تعلقاً به نحو السماء ، عِرج الملك يعرج عروجاً ، فلو عرج هؤلاء عروج الملك ، لقالوا هذا القول . والتسكير إدخال اللطيف في المسام ، ومنه السكر بالشراب ، والسكر السد بالتراب «لقالوا انما سكرت أبصارنا» بما ادخل فيها من اللطيف في مسامها ، حتى منعنا من رؤية الاشياء على حقيقتها . وأصل السكر السد بما ادخل في المسام . وقال مجاهد والضحاك وابن كثير : معنى « سكرت » سدت قال المثنى بن جندل الطهوري :

جاء الشتاء واجثألّ القنبر | واستخفت الافعى وكانت تظهر
وطلعت شمس عليها مغفر | وجعلت عين الحرور تسكر (١)

اي تسد بشدة البرد، وقنبر وقنبر ـ بضم الباء وفتحها ـ لغتان ، مثل جندب وجندب قال رؤبة :

قبل انصداع الفجر والتهجر | وخوضهن الليل حتى تسكر (٢)

اي يسد بظلمته ، وحكى الفراء : ان من العرب من يقول : سكرت الريح إذا سكنت .

وقال ابن عباس وقتادة والضحاك : المعنى « لو فتحنا عليهم بابا من السماء » فظلت الملائكة تعرج الى السماء ، وهم يرونها على ما اقترحوه ، « لقالوا : إنما سكرت أبصارنا » وقال الحسن : يظل هؤلاء المشركون يعرجون فيه .

---

(١) مجاز القران ٣٤٨/١ وتفسير الطبري ٩/١٤ واللسان والتاج (سكر ، قبر) وتفسير الطبري ٨/١٥ ومجمع البيان ٣٣٠/٣ والشوكاني (الفتح القدير) ١١٠٨/٣ (اجثأل) اجتمع ، وتقبض ، وانقبض . و(القنبر) و(القنبار) جمعه قنابر ، وتقول : العامة: قنبرة . وهم جماعة يجتمعون لجر ما في الشباك من الصيد ، وهي لغة عمانيـة . ومعنى (استخفت الافعى) اي تخبأت الحية الكبيرة . بعد ان كانت تظهر . وطلعت الشمس عليها غيوم . و(الحرور) الريح الحارة .

(٢) تفسير الطبري ٩/١٤

«بل نحن قوم مسحورون» أي يقولون: سحرنا، فنحن مسحورون، والسّحر حيلة خفيّة، توهم معنى المعجزة من غير حقيقة، ولهذا من عمل بالسّحر كان كافراً، لأنه يدّعي المعجزة للكذّابين، فلا يعرف نبوّة الصادقين.

وقال أبو عبيْدة: سكّرت أبصار القوم إذا ادير بهم، وغشيهم كالساتر فلم يبصروا.

وروى ابن خالوية عن الزّهري أنه قرأ «سَكِرت» بفتح السين وكسر الكاف، والتخفيف أي اختلطت وتغيّرت عقولهم.

قوله تعالى:

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ) (١٨) ثلاث آيات بلا خلاف.

أخبر الله تعالى أنه جعَل في السّماء بروجاً. والجعل قد يكون تصيير الشيء عن صفة لم يكن عليها. وقد يكون بالايجاد لهُ. والله تعالى قادرٌ ان يجعل في السّماء بروجاً من الوجهين، والبرْج: ظهُور منزل ممتنع بارتفاعه، فمن ذلك برج الحصْن، وبرج من بروج السّماء الإثني عشر، وهي منازل الشمس والقمر. وأصله الظهور، يقال: تبرّجت المرأة إذا أظهرت زينتها. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: المراد بالبرُوج النجوم. وقوله «وحفظناها من كل شيطان رجيم» يحتمل ان تكون الكناية راجعة الى السّماء، والى البرُوج. وحفظ الشيء جعله على ما ينفي عنه الضّياع، فمن ذلك حفظ القرآن بدرسه ومراعاته حتى لا ينسى، ومنه حفظ المال بإحرازه بحيث لا يضيع بتخطّف الأيدي له، وحفظ السماء من كل شيطان بالمنع بما أعدّ له من الشّهاب. والرّجم بمعنى المرجوم، والرجم الرمي بالشيء بالاعتماد من غير آلة مهيأة للأصابة، فإن النفوس يرمى عنها ولا ترجم.

وقوله « الا من استرق السمع » معنى (الا) (لكن) فكأنه قال : لكن من استرق السمع من الشيطان يتبعه شهـاب مبين . قال الفرّاء: أي لا يخطىء، وقال المفسّرون : قوله « إلا من استرق السمع » مثـل قوله « إلا من خطف الخطفة »[1] ومعناه معناه، والاستراق أخذ الشيء خفيّاً ، وليس طلبهم استراق السمع مع علمهم بالشهب خروج عن العادة في صفة العقلاء ، لانهم قد يطمعون في في السلامة من بعض الجهـات ، والشهاب عمود من نور يمدّ لشدة ضيائه كالنار وجمعه شهب. وقال ابن عباس: بالشهاب يخبل ويحرق، ولا يقتل. وقال الحسن: يقتل قال ذو الرمّة :

كأنه كوكب في إثر عفريةٍ مسوَّم في سواد الليل منقضبُ[2]

والاتباع إلحاق الثاني بالأول ، أتبعه اتباعاً ، وتبعه يتبعه إذا طلب اللحاق به ، وكذلك اتّبعه اتباعاً بالتشديد « مبين » اي ظاهر مبين .

وقال الفراء : قوله « إلا من استرق السمع » استثناء صحيح ، لان الله تعالى لم يحفظ السماء ممن يصعد اليها ليسترق السمع، ولكن اذا سمعه والقاه الى الكهنة اتبعه شهاب مبين ، فأما استراقهم السمع ، فقـال المفسرون: إن فيهم من كان يصعد السماء فيسمع الوحي من الملائكة، فاذا نزل الى الارض اغوى به شياطينه او ألقاه الى الكهان ، فيغوون به الخلق ، فلما بعث الله تعالى نبيه ﷺ منعهم من ذلك ، وكان قبل البعثة لم يمنعهم من ذلك تغليظـاً في التكليف . قال الزّجاج : والدليل على انه لم يكن ذلك قبل النبي ان أحداً من الشعراء لم يذكره قبل بعثة النبي ﷺ مع كثرة ذكرهم الشهب بعد ذلك .

قوله تعالى :

(وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ

---

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١٠

(٢) مجمع البيان ٣/٣٣٠ واللسان (قضب)

كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) (٢١) ثلاث آيات بلا خلاف.

قوله «والأرض مددناها» عطفاً على قوله «ولقد جعلنا في السماء بروجاً... والارض» ويجوز ان يكون ومددنا الأرض مددناها، كما قال «والقمر قدرناه»[1] ومعنى «مددناها» بسطناها، وجعلنا لها طولا وعرضا «والقينا فيها» يعني طرحنا فيها «رواسي» يعني جبالاً ثابتة. واصله الثبوت، ويقال: رست السفينة اذا ثبتت، والمراسي ما تثبت به. وقيل جعلت الجبال أوتاداً للأرض. وقيل جعلت أعلاماً يهتدي بها أهل الأرض.

وقوله «انبتنافيها» يعني أخرجنا النبات في الأرض، والنبات ظهور النامي عن غيره، حالاً بعد حال، والأغلب عليه ظهوره من الأرض، وقد يكون من غيره، كنبات الشعر على البدن والرأس.

«من كل شيء موزون» قيل في معناه قولان:

احدهما – قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والجبائي: من كل شيء مقدر معلوم.

والثاني – قال الحسن وابن زيد: من الاشياء التي توزن من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغير ذلك. والوزن وضع احد الشيئين بازاء الآخر على ما يظهر به مساواته في المقدار وزيادته، يقال وزنه يزنه وزناً فهو موزون، «وجعلنا لكم فيها معايش» جمع معيشة، وهي طلب اسباب الرزق مدة الحياة، فقد يطلبها الأنسان لنفسه بالتصرف والتكسب، وقد يطلب له فإن أتاه اسباب الرزق من غير طلب فذلك العيش الهني.

وقوله «ومن لستم له برازقين» (من) في موضع نصب عطفا على (معايش)،

---

(١) سورة يس اية ٣٩

وقال مجاهد : المراد به العبيد والاماء والدواب والانعام ، قال الفراء : العرب لا تكاد تجعل (من) الا في الناس خاصة ، قال : فان كان من الدواب والمماليك حسن حينئذ، قال وقد يجوز ان يجعل (من) في موضع خفض نسقاً على الكاف والميم في (لكم) قال المبرّد: الظاهر المخفوض لا يعطف على المضمر المخفوض نحو مررت بك وزيد إلا ان يضطر شاعر،على ما مضى ذكره في سورة النساء، وانشد الفرّاء في ذلك :

نعلق في مثل السواري سيوفنا وما بينها والكعب غوط نفانف[1]

فرد الكعب على (بينها) وقال آخر :

هلا سألت بذي الجماجم عنهم وأبا نعيم ذي اللواء المحرق [2]

فرد أبا نعيم على الهاء في عنهم. قال ويجوز ان يكون في موضع رفع ، لان الكلام قد تم، ويكون التقدير علىقوله «لكم فيها»... «ومن لستم له برازقين ». وقوله « وان من شيء الا عندنا خزائنه » فخزائن اللهمقدوراته، لانه تعالى يقدر ان يوجد ما شاء من جميع الاجناس، فكأنه قال : وليس من شيء إلا والله تعالى قادر على ما كان من جنسه الى ما لا نهاية له .

وقوله « وما ننزله الا بقدر معلوم » اي لست انزل من ذلك الشيء « إلا بقدر معلوم » اي ما يصلحهم وينفعهم دون ما يفسدهم ويضرهم ، حسب ما سبق في علمي .

قوله تعالى :

(وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ

---

(١) مر هذا البيت في ٣ : ٩٨

(٢) تفسير الطبري ١٤ : ١٢ (الطبعة الاولى) ومجمع البيان ٣ : ٣٣٣

ٱلْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)(٢٥) أربع آيات.

قرأ حمزة وحده « الريح لواقح » الباقون «الرياح» على الجمع، قال ابو عبيدة لا اعرف لذلك وجهاً، إلا ان يريد أن الريح تأتي مختلفة من كل وجه، فكانت بمنزلة رياح وحكى الكسائي أرض اغفال، وأرض سباسب. قال المبرّد: يجوز ذلك على بعد، ان يجعل الريح جنساً، وليس بجيد، لأن الرياح ينفصل بعضها عن بعض، بمعرفة كل واحدة، وليست كذلك الارض، لأنها بساط واحد. وقال الفراء: هو مثل ثوب اخلاق وانشد:

جاء الشتاء وقميصي أخلاق شراذم يضحك منه التواق[1]

ومن قراء « الرياح لواقح » احتمل ذلك شيئين.

احدهما - ان يجعل الريح هي التي تلقح بمرورها على التراب والماء، فيكون فيها اللقاح، فيقال فيها ريح لاقح، كما يقال: ناقة لاقح.

والثاني - ان يصفها باللقح وان كانت تلقح، كما قيل ليل نائم وسر كاتم.

يقول الله تعالى انه بعث « الرياح لواقح » للسحاب والأشجار تعداداً لنعمه على عباده وامتنـــانا عليهم، واحدها ريح، وتجمع ايضاً أرواحاً، لأنها من الواو، قال الشاعر:

مشين كما اهتزت رماح تسفهت أعاليها مر الرياح النواسم[2]

فاللواقح التي تلقح السحاب، حتى يحمل الماء أي تلقي اليه ما يحمل به الماء يقال: لقحت الناقة اذا حملت، وألقحها الفحل إذا ألقى اليهـــا الماء فحملته، فكذلك الرياح هي كالفحل للسحاب، (ولواقح) في موضع ملاقح. وقيل في

---

(١) تفسير الطبري ١٤ : ١٣ واللسان «خلق»، «توق».
(٢) مر هذا البيت في ٢ : ٣٧٢ من هذا الكتاب.

علـّة ذلك قولان : احدهما ، لانه في معنى ذات لقاح كقولهم : هم ناصب أي ذو نصب قال النابغة :

كليني لهم يا اميمة ناصب — وليل أقاسيه بطيء الكواكب [١]

اي منصب ، وقال نهشل بن حري النهشلي :

ليبك يزيد ضارع لخصومة — ومختبط ممـا تطيح الطوائح [٢]

اي المطاوح ، وقال قتادة وابراهيم والضحاك: معنى هذا القول : ان الرياح تلقح السحاب الماء . وقال ابن مسعود : إنها لا قحة يحملها الماء ، ملقـّحة بإلقائها إياه الى السحاب .

وقوله « فانزلنا من السماء ماء » يعني غيثاً ومطراً « فاسقيناكموه » اي جعلته سقياً ، لأرضكم تشربه ، يقـال: سقيته، فيما يشربه، تسقيه واسقيته فيما تشربه ارضه ، وقد تجيء أسقيته بمعنى سقيته ، كقوله تعالى « نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » [٣] ، وقال ذو الرمة :

وقفت على ربع لمية ناقتي — فما زلت أبكي عنده وأخاطبه
واسقيه حتى كاد مما أبثه — تكلمني احجاره وملاعبه [٤]

اي ادعو له بالسقيا . « وما انتم له برازقين » اي لستم تقدرون ان ترزقوا احداً ذلك الماء ، لولا تفضل الله عليكم . ثم اخبر تعالى انه هو الذي يحيي الخلق اذا شاء وكان ذلك صلاحاً لهم ، ويميتهم اذا اراد وكان صلاحهم ، وانه هو الذي يرث الخلق ، لأنه اذا افنى الخلق ولم يبق احد كانت الاشيـاء كلها راجعة اليـه ينفرد بالتصرف فيها وكان هو الوارث لجميع الاملاك .

---

(١) ديوانه « دار بيروت » ٩ وقد مر في ٥ : ٣٦٨ ، ٦ : ٩٥ .
(٢) مر هذا البيت في ٤ : ٣١٠
(٣) سورة النحل آية ٦٦
(٤) ديوانـه ٢١٣ وتفسير الشوكاني« الفتح القدير» ٣ : ٤٨ وتفسير الطبري ١٤ : ١٤ والمحاسن والاضداد للجاحظ ٣٣٥ ومجمع البيان ٣ : ٣٣٣ ، ٣٥٩ واللسان والتاج (سقى) وقد مر الثاني في ٤ : ١٢٩

وقوله « ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنـا المستاخرين » قيل في معناه ثلاثة اقوال :

احدها – قال مجاهد وقتادة من مضى ومن بقي .

وثانيها – قال الشعبي : اول الخلق وآخره .

وثالثها – قال الحسن : المتقدمين في الخير والمبطئين .

وقال الفرا : لما قال النبي ﷺ إن الله يصلي على الصف الاول ، أراد بعض المسلمين ان يبيع داره النائية ليدنو الى المسجد ، فيـدرك الصف الاول . فأنزل الله الآية ، وأنه يجازي فقراء الناس على نياتهم .

ثم اخبر تعالى ان الذي خلقك يا محمد هو الذي يحشرهم بعد اماتتهم ، ويبعثهم يوم القيامة ، لانه حكيم في افعاله عالم بما يستحقونه من الثواب والعقاب .

(والحشر) جمع الحيوان الى مكان ، يقال : هؤلاء الحشّار ، لانهم يجمعون الناس الى ديوان الخراج . و (الحكيم) العالم بما لا يجوز فعله ، لقبحه ، او سقوط الحمد عليه ، مع انه لا يفعله ، فعلى هذا يوصف تعـالى فيما لم يزل بانه حكيم . والحكيم المحكم لأفعاله بمنع الخلل ان يدخل في شيء منها ، فعلى هذا لا يوصف تعالى فيما لم يزل بانه حكيم .

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَٱلْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ ٱلسَّمُومِ) (٢٧) آيتان بلا خلاف.

اخبر الله تعالى أنه خلق الانسان ، والمراد به آدم بلا خلاف .

وقيل في معنى الصلصال قولان :

احدها – إنه الطين اليابس الذي يسمع له عند النقر صلصلة . ذهب اليه ابن عباس والحسن وقتادة .

والثاني – قال مجاهد : هو مثل الخزف الذي يصلصل . وقـال مجاهد :

الصلصـال المنتن - في رواية عنه - مشتق من صل اللحم وأصلّ إذا انتن ، والاول اقوى ، لقوله تعالى « خلق الانسان من صلصال كالفخار [١] » وما يبس كالفخار فليس بمنتن ، وقال الفراء : الصلصال طين الحرار إذا خلط بالرمل اذا جفّ كان صلصالاً ، واذا طبخ كان فخاراً ، والصلصلة القعقعة ، وهي صوت شديد متردد في الهواء كصوت الرعد ، يقـال لصوت الرعد صلصلة ، وللثوب الجديد قعقعة ، واصل الصلصلة الصوت يقال: صلّ يصلّ وهو صليل اذا صوّت، قال الشاعر :

رجعت الى صدر كجرّة حنتم إذا فرغت صفراً من الماء صلّت [٢]

وقيل : خلق آدم على صورة الانسان من طين ، ثم ترك حتى جف ، فكانت الريح اذا مرت به سمع له صلصلة .

وقوله « من حمإ مسنون» فالحمأ جمع حمأة ، وهو الطين المتغير الى السواد ، يقال : حمئت البئر وأحمأتها أنا اذا بلغت الحمأة . وقيـل في معنى (المسنون) قولان :

احدهما- المصبوب من قولهم: سننت الماء على الوجه وغيره اذا صببته، وعن ابن عبـاس : انه الرطب ، فعلى هذا يكون رطبـاً مصبوباً ثم يبس فيصير كالفخار .

الثـاني - انه المتغير ، من قولهم : سننت الحديدة على المسن اذا غيرتهـا بالتحديد ، والأصل الاستمرار في جهة ، من قولهم هو على سنن واحد .

ومعنى قوله « والجان خلقناه من قبل » المراد به ابليس، خلقه الله قبل آدم - في قول الحسن وقتادة - «من نار السموم» اي من النار الحارة .وقال عبدالله: هذه السموم جزء من سبعين جزء من السموم التي خرج منها الجان، وهو مأخوذ من دخولها بلطفها في مسام البدن ومنه السم القـاتل ، يقال : سم يومنا يسم سموماً اذا هبت له ريح السموم .

---

(١) سورة الرحمن آية ١٤ - ١٥

(٢) قائله عمرو بن شأس . اللسان «حنتم» ومجمع البيان ٣ : ٣٣٥

قوله تعالى :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ ٱلسَّاجِدِينَ (٣١) أربع آيات بلا خلاف.

لفظة (إذ) تدل على ما مضى من الزمان ، ولا بدّ لها من فعل متعلق به ، والتقدير واذكر يا محمد « اذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً » اي اخلقه فيما بعد ، قبل ان يخلقه ، والمراد بالبشر آدم ، وسمي بشراً لأنه ظاهر الجلد ، لا يرى فيه شعر ، ولا صوف كسائر الحيوان . ثم قال « من صلصال من حمإ مسنون » وقد فسرناه .

وقوله « فإذا سويته » معناه سويت صورته الانسانية ، والتسوية جعل واحد من الشيئين على مقدار الآخر وقد يسوى بين الشيئين في الحكم .

وقوله : « ونفخت فيه من روحي » فالنفخ الاجراء للريح في الشيء باعتماد ، نفخ ينفخ نفخاً إذا اجرى الريح باعتماد ، فلما أجرى الله الروح على هذه الصفة في البدن ، كان قد نفخ الروح فيه ، وأضاف روح آدم الى نفسه تكرمة له ، وهي اضافة الملك ، لما شرفه وكرمه ، والروح جسم رقيق روحاني فيها الحياة التي بها يحيى الحي ، فاذا خرجت الروح من البدن ، كان ميتاً في الحكم ، فاذا انتفت الحياة من الروح ، فهو ميت في الحقيقة .

وقوله « فقعوا له ساجدين » أمر من الله تعالى ، الى الملائكة ان يسجدوا لآدم . وقيل في وجه سجودهم له قولان :

احدهما - انه سجود تحية وتكرمة لآدم ، عبادة لله تعالى . وقيل : أنه على معنى السجود الى القبلة . والاول عليه اكثر المفسرين . ثم استثنى من جملتهم

ابليس انه لم يسجد ، « وأبى ان يكون مع الساجدين » لآدم . وابليس مشتق من الإبلاس ، وهو اليأس من روح الله إلا انه شبه بالاعجمي من جهة انه لم يستعمل إلا على جهة العلم ، فلم يصرف . وقال قوم : إنه ليس بمشتق ، لأنه أعجمي بدلالة انه لا ينصرف . والاباء : الامتناع ، والسجود خفض الجبهة بالوضع على بسط من الارض او غيره ، واصله الانخفاض قال الشاعر :

ترى الاكم فيها سجّد للحوافر [1]

واختلفوا في هذا الاستثناء ، فقال قوم: ان ابليس كان من الملائكة، فلذلك استثناه، وقال آخرون: إنما كان من جملة المأمورين بالسجود لآدم، فلذلك استثناه من جملتهم ، وقال آخرون : هو استثناء منقطع ومعناه (لكن) وقد بينا الصحيح من ذلك في سورة البقرة [2] .

ومن قال : لم يكن من الملائكة قال: الملائكة خلقوا من نور، وإبليس خلق من نار ، والملائكة لا يعصون ، وإبليس عصى بكفره بالله . والملائكة لا تأكل ولا تشرب ولا تنكح ، وإبليس بخلاف ذلك ، قال الحسن : إبليس أب الجن ، كما ان آدم أب الإنس .

قوله تعالى :

(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣)

آيتان بلا خلاف .

هذا خطاب من الله تعالى لإبليس يقول له : لم لا تكون مع الساجدين ، تسجد كما سجدوا . واختلفوا في كيفية هذا الخطاب ، فقال الجبائي : قال الله له

---

(١) مر هذا الشعر في : ١ : ١٤٨ ، ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٤ : ٢٣٣ ، ٣٨٣ ، ٦ : ...

(٢) انظر ١ : ١٤٧ في تفسير آية ٣٤ من سورة البقرة .

ذلك على لسان بعض رسله وهو الأليق ، لأنه لا يصح ان يكلمه الله بلا واسطة في زمان التكليف. وقال آخرون: كلمه، بالانكار عليه والاهانة له ، كما قال « اخسؤوا فيها ولا تكلمون» [١] . هذا ينبغي ان يكون حكاية عما يقوله له في الآخرة ، فقال إبليس مجيباً لهذا الكلام : ما كنت بالذي اسجد لبشر « خلقته من صلصال من حمإ مسنون » وقد فسرناه . ولم يعلم وجه الحكمة في ذلك ، لأن في ذلك قلباً للشيء عن الحالة الحقيرة في الضعة الى هذه الحالة الجليلة ، وأي ذلك كان ، فانه لا يقدر عليه غير الله ، وانه لا ينتفع للعظم في الصفة مع إمكان قلبه الى النقص في الصفة ، وكذلك لا يضر النقص في الصفة ، مع إمكان قلبه الى الاعظم ، فلو نظر في ذلك لزالت شبهته في خلقه من نار وخلق آدم من طين ، قال المبرّد : قوله « مالك ألا تكون » (لا) زائدة مؤكدة ، والتقدير ما منعك ان تسجد ، فـ (أن) في قول الخليل وأصحابه في موضع نصب، لأنه إذا حذف حرف الجر ونصب ما بعده، وقال غيره: في موضع خفض، لأن المعنى ما منعك من ان تكون ، فحذف (من)

قوله تعالى :

(قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ ٱلدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ) (٣٨)

خمس آيات بلا خلاف .

هذا خطاب من الله تعالى لابليس لما احتج لامتناعه من السجود لادم بما ليس بحجة ، بل هو حجة عليه ، فاخرج منها .

قال الجبائي : أمره بالخروج من الجنة . وقال غيره أمره بالخروج من السماء .

---

(١) سورة المؤمنون آية ١٠٩

« فانك رجيم » أي مرجوم بالذم والشتم (فعيل) بمعنى مفعول . وقد يكون (فعيل) بمعنى فاعل مثل رحيم بمعنى راحم .

« وان عليك اللعنة »اي عليك مع ذلك اللعنة ، وهي الابعاد من رحمة الله، ولذلك لايجوز ان تلعن بهيمة ، فأما لعن إبليس الى يوم الدين ، فإن الله قد لعنه، والمؤمنون لعنوه لعنة لازمة الى يوم الدين ، وهو يوم القيامة . ثم يحصل بعد ذلك على الجزاء بعذاب النار. وقيل الدين – ههنا – الجزاء، ومثله «مالك يوم الدين» اي يوم الجزاء . ويقال لفلان دين اي طاعة يستحق بها الجزاء ، وفلان يدين للملوك أي يدخل في عادتهم في الجزاء ، فقال حينئذ ابليس : يارب « انظرني الى يوم يبعثون » اي أخر في وقتي الى يوم يحشرون ، يعني القيـــامة ، يحشرهم الله للجزاء . والانظار والامهال واحد ، فقال الله تعالى له : اني انظرتك وأخرتك وجعلتك من جملة « المنظرين الى يوم الوقت المعلوم » فقال قوم :هو يوم القيامة، أنظره الله في رفع العذاب عنـــه الى يوم القيامة ، وفي التبقية الى آخر أحوال التكليف « ويوم يبعثون » يوم القيامة. وقد قيل : إن يوم الوقت المعلوم هو آخر أيام التكليف ، وأنه سأل الانظار الى يوم القيامة ، لأن لايموت ، اذ يوم القيامة لا يموت فيه احد ، فلم يجبه الله الى ذلك . وقيل له « الى يوم الوقت المعلوم » الذي هو آخر ايام التكليف . وقال البلخي : اراد بذلك الى يوم الوقت المعلوم ، الذي قدر الله أجله فيه ، وهو معلوم ، لأنه لا يجوز ان يقول تعالى لمكلف اني ابقيك الى يوم معين لان في ذلك اغراء له بالقبيح .

واختلفوا في تجويز ، إجابة دعاء الكافر، فقال الجبائي : لايجوز ، لان اجابة الدعاء ثواب، لما فيه من اجلال الداعي باجابته الى ما سأل. وقال ابن الاخشاد : يجوز ذلك ، لأن الاجابة كالنعمة في احتمالها ان تكون ثواباً وغير ثواب ، لانه قد يحسن منا ان نجيب الكافر الى ما ســـأل استصلاحاً له ولغيره ، فأما قولهم : فلان مجاب الدعوة ، فهـذه صفة مبالغة لا تصح لمن كانت إجابتـه نادرة من الكفار .

قوله تعالى :

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) (٤٠) آيتان بلا خلاف.

لما أجاب الله تعالى إبليس الى الانظار الى يوم الوقت المعلوم ، قال عند ذلك يارب « بما أغويتني » اي فيما خيبتني من رحمتك ، لان الغي الخيبة قال الشاعر .

فمن يلق خيراً يحمد الناس امره ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً[1]

وقال قوم : معناه بما نسبتني الى الغي ذماً لي ، وحكمت علي بالغي . وقال البلخي : معناه فيما كلفتني السجود لآدم الذي غويت عنده ، فسمى ذلك غواية ، كما قال « فزادتهم رجساً الى رجسهم » [2] لما ازدادوا عندها ، على ان هذا حكاية قول إبليس ، ويجوز ان يكون اعتقد ان الله خلق فيه الغواية ، فكفر بذلك ، كما كفر بالإمتناع من السجود

والباء في قوله « فبما أغويتني » قيل في معناها قولان :

احدهما - ان معناها القسم ؛ كقولك بالله لا فعلن .

والآخر - بخيبتي « لأغوينهم » كأنها سبب لاغوائهم ، كقولك بمعصيته ليدخلنّ النار ، وبطاعته ليدخلن الجنة .

والاغواء الدعاء الى الغي ، والاغواء خلاف الارشاد ، فهذا أصله ، وقد يكون الاغواء بمعنى الحكم بالغي ، على وجه الذم والتزيين جعل الشيء منقبلا في النفس من جهة الطبع والعقل ، بحق ام بباطل . واغواء الشيطان تزيينه الباطل حتى يدخل صاحبه فيه ، ويرى ان الحظ بالدخول فيه . و « لأغوينهم » اي أدعوهم الى ضد الرشاد ، ثم أستثنى من جملتهم عباد الله المخلصين الذين أخلصوا عبادتهم لله وامتنعوا من اجابة الشيطان ، في ارتكاب المعاصي ، لأنه ليس للشيطان عليهم

---

(١) مر هذا البيت في ٢ : ٣١٢ ، ٤ : ٣٩١ ، ٥ : ٥٤٨

(٢) سورة التوبة اية ١٢٦

سبيل ، كما قال تعالى « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان » يعني عبادالله الذين فعلوا ما أمرهم به وانتهوا مما نهاهم عنه .

ومن كسر اللام فلقوله « وأخلصوا دينهم لله » [١]

ومن فتحها أراد ان الله أخلصهم بأن وفقهم لذلك ، ولطف لهم فيه .

قوله تعالى :

(قَالَ هٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ) (٤٤) أربع آيات بلا خلاف .

قرأ يعقوب « صراط عليٌّ » بتنوين علي ، ورفعه على أنه صفة لـ (صراط) بمعنى رفيع ، وبه قرأ ابن سيرين وقتادة . الباقون بفتح الياء على الاضافة الى الياء . وقيل في معناه قولان :

احدهما ـ إن ذلك على وجه التهديد ، كقولك لمن تتهدده وتتوعده : على طريقك ، والى مصيرك ، كما قال « إن ربك لبالمرصاد »[٢] وهو قول مجاهد وقتادة .

الثاني – إنه يراد به الدين المستقيم ، وأن الله يبينه وينفي الشبهة عنه بهداية المستدل على طريق الدليل .

وقوله « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان » اخبار منه تعالى ان عباده الذين

(١) سورة النساء آية ١٤٦ (٢) سورة الفجر آية ١٤

يطيعونه وينتهون الى أمره ويجتنبون معاصيه ليس للشيطان عليهم سلطان ولا قدرة اكثر من ان يغويهم ، فإذا لم يقبلوا منه ولا يتبعونه ، فلا يقدر لهم على ضر ولا نفع . وقال الجبائي : ذلك يدل على ان الجن لا يقدرون على الاضرار ببني آدم ، لانه على عمومه . وقال غيره : الآية تدل على نفي السلطان بالاغواء ، لانهم اذا لم يقبلوا منه ولا يتبعونه ، فكأنه لا سلطان له عليهم ، ولا يمتنع ان يقدروا على غير ذلك من الاضرار .

ثم استثنى تعالى من جملة العباد من يتبع ابليس على إغوائه وينقاد له ويقبل منه ، لانه اذا قبل منه ، صارله عليه سلطان ، بعدوله عن الهدى الى ما يدعوه اليه من اتباع الهوى ، فيظفر به إبليس .

ثم اخبر تعالى ان جهنم موعد جميع العصاة والخارجين عن طاعتـــه ، ومن يتبع ابليس على إغوائه . و (جهنم) لا تنصرف لانها معرفة مؤنثة ، وقد يقال للنار اذا عظمت واشتدت : هذه جهنم ، تشبيهاً بجهنم المعروفة ، وهذا لم ينكر . ثم اخبر عن صفة جهنم بأن « لها سبعة ابواب » وقال علي (ع) والحسن وقتادة وابن جريج : ابوابها أطباق بعضها فوق بعض « لكل باب جزء » من المستحقين للعقوبة على قدر استحقاقهم من العقاب ، في القلة والكثرة بحسب كثرة معاصيهم وقلتها .

قوله تعالى :

(إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) أُدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) (٤٨) أربع آيات بلا خلاف.

لما اخبر الله تعالى عن الكفار ان مستقرهم جهنم ، ووصف جهنم ، اخبر – ههنا –

ما للمتقين ، فقال « ان للمتقين» الذين يتقون عقاب الله باجتناب معاصيه وفعل طاعته « جنات » وهي البساتين التي تنبع فيها المياه ؛ كما تفور من الفوارة ، ثم يجري في مجاريه، وانما يشوقهم الى الثواب بالجنان ، لانها من اسباب لذات الدنيا المؤدية اليها ، كما ان النار من اسباب الآلام لمن حصل فيها .

والفرق بين الجنة والروضة : ان الجنة لا بد ان يكون فيها شجر، لان اصلها من ان الشجر يجنها ، والروضة قد تكون بغير شجر ، يقال : روضة خضرة ورياض مونقات .

وقوله « ادخلوها » اي يقال للمتقين « ادخلوها بسلام آمنين » بسلامة وهي البراءة من كل آفة ومضرة ، كما قال « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً »[1] اي براءة منكم ، ومعنى « آمنين » اي ساكني النفس الىانتفاء الضرر . والامانة الثقة بالسلامة من الخيانة .

وقوله « ونزعنا ما في صدورهم من غل» فالغل الحقد الذي ينعقد فيالقلب، ومنه الغل الذي يجعل في العنق ، والغلول الخيانة التي تطوق عارها صاحبها ، فبين تعالى ان الاحقاد التي في صدور اهل الدنيا تزول بين اهل الجنة ويصبحون « اخواناً » متحابين « على سرر » وهي جمع سرير ، وهو المجلس الرفيع موطأ للسرور ، ويقال في جمعه : اسرة ايضاً ، وهو مأخوذ من السرور ، لانه مجلس سرور « متقابلين » اي كل واحد منهم مقابل لصاحبه ومحاذ لاخيه ، فانه بذلك يعظم سرورهم . والتقابل وضع كل واحد بازاء الآخر على التشاكل وقال قوم : ان نزع الغل يكون قبل دخول الجنة . وقال آخرون : يكون ذلك بعد دخولهم فيها .

وقوله « لا يمسهم فيها نصب » اخبار منه تعالى : ان هؤلاء المؤمنين الذين حصلوا في الجنة « اخواناً على سرر متقابلين » لا يمسهم في الجنة نصب وهو التعب والوهن الذي من العمل ، للوهن الذي يلحق . ثم اخبر انهم مع ذلك

---

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٣

لا يخرجون من الجنة بل يبقون فيها مؤبدين. و(اخواناً) نصب على الحال . وقال قوم هو نصب على التمييز .

قوله تعالى :

(نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ) (٥٠) آيتان بلا خلاف .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يخبر عباد الله الذين خلقهم لعبادته على وجه الترغيب لهم في طاعته والتخويف عن معصيته ، باني انا الذي أعفو واستر على عبادي معاصيهم ، ولا افضحهم بها يوم القيامة اذا تابوا منها ، لرحمتي وانعامي عليهم ، وان مع ذلك عذابي وعقوبتي «هو العذاب الاليم» المؤلم الموجع ، فلا تعوّلوا على محض غفراني ، وخافوا عقابي ، وكونوا على حذر باجتناب معاصي والعمل بطاعتي .

قوله تعالى :

(وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرٰهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ) (٥٤) أربع آيات بلا خلاف .

قرأ نافع « تبشرون » بكسر النون مع التخفيف بمعنى تبشرونني وحذف النون استثقالاً ، لاجتماع المثلين ، وبقيت الكسرة الدالة على الياء المفعولة ، والنون الثانية محذوفة ، لان التكرير بها وقع ، ولم تحذف الاولى لانها علامة الرفع ومثله قول الشاعر :

تراه كالثغام يعلّ مسكاً بسوء الفاليات اذا قليني [١]

أراد قلينني ، فحذف إحدى النونين . وقال اهل الكوفة : ادغم ثم حذف ، وحجتهم « وكادوا يقتلونني »[٢] وقوله « اتعدانني »[٣] فأظهر النونات ، وأما حرف المشدد نحو «تأمروني»[٤] و «أتحاجوني»[٥] وما أشبه ذلك . وشدد النون وكسرها ابن كثير . الباقون بفتح النون .

قال أبو علي : من شدد النون أدغم النون الاولى التي هي علامة الرفع في الثانية المتصلة بالياء التي للمضمر المنصوب للمتكلم ، وفتحها ، لانه لم يعدّ الفعل الى مفعول به ، كما عداه غيره . وحذف المفعول كثير . ولو لم يدغم ، وبيّن ، كان حسناً في القياس مثل (يقتلونني) في جواز البيان والادغام . ومن فتح النون جعلها علامة الرفع ، ولم يعد الفعل فيجتمع نونان .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ان يخبر من تقدم ذكره «عن ضيف ابراهيم» والضيف هو المنضوي الى غيره لطلب القرى ، وجمعه ضيوف وأضياف وضيفان «إذ دخلوا عليه » يتعلق بـ (ضيف) وضيف يقع على الواحد والاثنين والجمع ، فلذلك قال « إذ دخلوا عليه » فكنى بكناية الجمع . وسماهم ضيفاً ، وهم ملائكة ، لانهم دخلوا بصورة البشر « فقالوا سلاماً » نصبه على المصدر ، والمعنى سلمت سلاماً على وجه الدعاء ، والتحية . ومثله قوله « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً »[٦] والمعنى سلمنا منكم سلاماً ، والسلامة نقيض البلاء والآفة المخوفة ، والنجاة نقيض الهلاك .

وقوله «قال إنا منكم وجلون» اخبار عما أجاب به ابراهيم ضيفانه بأنه خائف منهم ، والوجل الخوف ، فأجابه الضيفان ، وقالوا « لا توجل » أي لا تخف انا

---

(١) قائله عمر بن معد يكرب. الكتاب لسيبويه ٢ : ٦٧ وشرح المفضليات ٧٨ والانصاف ٣٧٧ ومجاز القرآن ١ : ٣٥٢ ومجمع البيان ٣ : ٣٣٩ .

(٢) سورة ٧ الاعراف آية ١٤٩

(٣) سورة ٤٦ الاحقاف اية ١٧

(٤) سورة ٣٩ الزمر اية ٦٤

(٥) سورة الانعام اية ٨٠ ،

(٦) سورة ٢٥ الفرقان اية ٦٣

جئناك «نبشرك بغلام عليم». والتبشير الإخبار بما يسرّ، بما يظهر في بشرة الوجه سروراً به يقال: بشرته أبشره بشارة وأبشر ابشاراً بمعنى استبشر، وبشرته تبشيراً، وانما وصفه بأنه «عليم» قبل كونه؛ لدلالة البشارة به على انه سيكون بهذه الصفة، لانه إنما بشر بولد يرزقه الله اياه ويكون عليماً، فقال لهم ابراهيم «أبشرتموني على ان مسني الكبر» اي كيف يكون لي ولد وقد صرت كبيراً، لان معنى «مسني الكبر» أي غيرني الكبر عن حال الشباب التي يطمع معها في الولد، الى حال الهرم. وقيل في معناه قولان:

احدهما – انه عجب من ذلك لكبره، فقاله على هذا الوجه.

والآخر – انه استفهم فقال: أأمر الله ان تبشروني، في قول الجبائي. ومعنى (على ان مسني) أي بأن مسني، كما قال «حقيق على ان لا أقول»[1] بمعنى بأن لا أقول.

قوله تعالى:

(قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) (٥٦) آيتان بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو والكسائي «يقنط» بكسر النون، حيث وقع. الباقون بفتحها، وكلهم قرأ «من بعد ما قنطوا»[2] بفتح النون، قال ابو علي: قنط يقنط ويقنط لغتان بدلالة إجماعهم على قوله «من بعد ما قنطوا» بفتح النون وقد حكي: يقنط بضم النون، وهي شاذة، وهذا يدل على ان ماضيه على (فعَل) لانه ليس في الكلام (فعِل يفعُل). وقد حكي عن الأعمش أنه قرأ «من بعدما قنطوا» بكسر النون، وهي شاذة لا يقرأ بها.

وفي هذه الآية حكاية ما قالت الملائكة لابراهيم، حين عجب ان يكون له

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٠٤ (٢) سورة ٤٢ الشورى آية ٢٨

ولد لكبر سنه وعلو عمره، إنا بشرناك بذلك على وجه الحق والصحيح،وأخبرناك به على وجه الصدق، فلا تكن بعد ذلك من جملة القانطين، يعني الآيسين فأجابهم ابراهيم عند ذلك بأنقال: و«من» الذي «يقنط» أي ييأس «من رحمة»الله وحسن إنعامه، إلا من كان عادلاً عن الحق ضالاً عن سبيل الهدى، وهذا يقوي قول من قال: إنه راجعهم في ذلك على وجه الاستفهام دون الشك في اقوالهم .

قوله تعالى :

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ) (٦٠) أربع آيات بلا خلاف .

فقال ابراهيم (ع) بعد ذلك للملائكة « ما خطبكم » اي ما الأمر الجليل الذي بعثتم له ، والخطب الأمر الجليل ، ومثله ما شأنك ، وما أمرك ، ومنه الخطبة ، لأنها في الأمر الجليل ، فأجابته الملائكة بأنا «أرسلنا الى قوم مجرمين» وقوم الرجل : هم الذين يقيمون بنصرته ، والنفر الذين ينفرون في مهام الأمور. وقوم لوط هم الذين كان يجب عليهم القيام بنصرته ومعونته على أمره . وقال قوم : إنه يقع على الرجال دون النساء . والمجرم المنقطع عن الحق الى الباطل ، وهو القاطع لنفسه عن المحاسن الى المقابح ، والمعنى « انا أرسلنا الى » من وصفنا لنهلكهم ، وننزل بهم العقوبة . ثم استثنى من ذلك (آل لوط) وأخبر انهم ينجونهم كلهم ، يقال : نجيت فلاناً وانجيته ، فمن قرأ بالتشديد أراد التكثير . ثم استثنى من جملة آل لوط امرأته، وبين انها هالكة مع الهالكين، (وقدرنا) اي كتبنا « انها لمن الغابرين » والغابر الباقي في من يهلك . والغابر الباقي في مثل الغبرة ، مما يوجب الهلكة . قال الشاعر :

فمـــا ونى محمد مذ أن غفر له الإله ما مضى وما غبر[١]

وآل الرجل أهله الذين يرجعون إلى ولايته ، ولهذا يقـال أهل البلد ، ولا يقال آل البلد، ولكن آل الرجل اتباعه الذين يرجع أمرهم اليه بولايته ونصرته. وقيل: إن امرأة لوط كانت في جملة الباقين. ثم اهلكت فيما بعد «رقدرنا» بالتخفيف مثل (قدّرنا) بالتشديد، وكلهم قرأ -هاهنا- مشدداً إلا أبا بكر عن عاصم، فإنه خففها، ويكون ذلك من التقدير، كما قال «ومن قدر عليه رزقه»[٢]. وقال ابو عبيدة: في الآية معنى فقر ، وكان ابو يوسف يتأوله فيها ، لان الله تعالى استثنى آل لوط من المجرمين ، ثم استثنا استثناء رده على استثناء كان قبله، وكذلك كل استثناء في الكلام إذا جاء بعد آخر عاد المعنى إلى أول الكلام ، كقول الرجل : لفلان علي عشرة إلا أربعة إلا درهم ، فأنه يكون اقرار بسبعة، وكذلك لو قال : علي خمسة إلا درهماً إلا ثلثاً ، كان إقرار بأربعة وثلث، وكذلك لو قال لأمرأته أنت طالق ثلاثاً إلا اثنتين إلا واحدة كانت طالقاً إثنتين ، قال: واكثر ما يستثنى ما هو أقل من النصف ، ولم يسمع اكثر من النصف الا بيت أنشده الكسائي :

ادوا التي نقصت سبعين من مئة ثم ابعثوا حكماً بالعدل حكّاما

فجعلها مئة إلا سبعين ، وهو يريد ثلاثين ، وضعف المـبرد الاحتجاج بهذا البيت ، ولم يجز إستثناء الأكثر من الجملة لا نصفها ، وإنما جاز استثناء ما دون النصف من الجملة حتى قال : لا يجوز ان يقال : له عندي عشرة إلا نصف ولا عشرة إلا واحد ، قال : لان تسعة ونصف أولى بذلك ، وكذلك لا يجوز : له الف إلا مئة ، لأن تسعة مئة أولى بذلك ، وإنما يجوز الف إلا خمسين وإلا سبعين والا تسعين، قال: وعلى هذا النحو بني هذا الباب. والصحيح الأول ، عند اكثر العلماء من المتكلمين والفقهاء واكثر النحويين .

(١) قائله العجاج ديوانه ١٥ واللسان (ثبت)، وقد مر قسم من هذا الرجز في ٤: ٥٨٨ : ٥٨٩ تعليقة :

(٢) سورة الطلاق آية ٧

قوله تعالى :

(فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) (٦٤) أربع آيات بلا خلاف .

أخبر الله تعالى ان الملائكة الذين بعثهم الله لإهلاك قوم لوط، لما جاؤوا لوطاً وقومه ، وكانوا في صورة لا يعرفهم بها لوط ، انكرهم ، وقال لهم « انكم قوم منكرون » اي لا تعرفون مع الاستيحاش منكم ، لأنه لم يثبتهم في ابتداء مجيئهم فلما اخبروه بأنهم رسل الله جاؤوا بعذاب قومه وسؤاله الأمر ، عرفهم حينئذ ، وقالوا « بل جئناك بما كانوا فيه يمترون » اي بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه ويكذبون به ، وقد يوصف الجاهل بالشك من جهة ما يعرض له فيه من حيث لا يرجع الى ثقة فيما هو عليه . وقالوا له ايضاً انا جئناك بالحق فيما أخبرناك به من عذاب قومك ، ونحن صادقون فيه .

قوله تعالى :

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) آيتان بلا خلاف .

هذا حكاية ما قالت الملائكة للوط وأمرهم إياه بأن يسري بأهله . والإسراء سير الليل : سرى يسري سرى واسرى إسراء لغتان قال الشاعر :

سريت بهم حتى تكل مطيهم ... وحتى الجياد مايقدن بارسان[1]

(١) مر هذا البيت في ٦ : ٤٣ من هذا الكتاب .

وقوله « بقطع من الليل » معناه بقطعة تمضي منه ، كأنه جمع قطعة . مثل تمرة وتمر وبسرة وبسر ، وقيل : بقطع من الليل ببعض الليل . وقيل: بقية من الليل . وقيل : إذا بقي من الليل قطعة ومضى اكثره .

وقوله « واتبع ادبارهم » اي اقتف آثارهم يعني آثار الأهل . والاتباع اقتفاء الأثر . والاتباع في المذهب ، والاقتداء مثله ، وخلافه الابتداع . والادبار جمع دبر ، وهو جهة الخلف . والقبل جهة القدّام ، ويكنى بها عن الفرج . وجمع القبل أقبال .

ومعنى قوله « ولا يلتفت منكم احد » اي لا يلتفت الى ما خلف ، كما يقول القائل : امض لشأنك ، ولا تعرج على شيء . وقيل : لئلا يرى هو ما ينزل بهم مما لا تطيقه نفسه « وامضوا حيث تؤمرون » اي حيث تؤمرون بالمصير اليه .

وقوله « وقضينا اليه » اي أخبرناه واعلمناه « ذلك الأمر » اي ما ينزل بهم من العذاب .

وقوله « ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » والدابر الأصل . وقيل دابرهم آخرهم ، وعقب الرجل دابره « مصبحين » نصب على الحال اي في حال ما دخلوا في وقت الصبح ، ومثله قوله « فأخذتهم الصيحة مشرقين »[1] نصب على الحال .

قوله تعالى :

(وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) (٧١) خمس آيات بلا خلاف .

هذا إخبار من الله تعالى أنه حين بلغ أهل المدينة نزول من هو في صورة

---

(١) سورة الحجر آية ٧٣

الاضياف بلوط، جاؤوا إليه مستبشرين فرحين ، يقال استبشر استبشاراً وأبشر إبشاراً، بمعنى واحد وضده اكتأب اكتآباً. وانما فرحوا طمعاً في ان ينالوا الفجور منهم ، فقال لهم لوط « إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون » فيهم ، والفضيحة ظهور السيئة التي يلزم العار بها عند من عملها ، يقال: فضحه يفضحه فضيحة، وافتضح افتضاحاً وتفاضحوا تفاضحاً . ثم قال لهم « اتقوا الله » باجتناب معاصيه ،وفعل طاعته ، « ولا تخزون » والخزي الانقماع بالعيب الذي يستحيا يقال منه :خزي خزياً ، واخزاه الله إخزاء والاخزاء والاذلال والإهانة نظائر . وللضيف ذمام كانت العرب تراعيه ، وتحافظ عليه ، وتعيب من عنده ضيف ولم يقم بحقه ؛ فلذلك قال لهم «ان هؤلاء ضيفي » ، فقالوا له في الجواب عن ذلك أوليس نهيناك أن تستضيف أحداً من جملة الخلائق أو تنزله عندك،فقال لهم عند ذلك «هؤلاء» وأشار الى بناته. وقيل أنهن كن بناته لصلبه،وقيل انهن كن بنات قومه عرضهن عليهم بالترويج والاستغناء بهن عن الذكران . وقال الحسن ، وقتادة : أراد « هؤلاء بناتي » فتزوجوهن « إن كنتم فاعلين » كناية عن طلب الجماع . وقال الجبائي : ذلك للرؤساء الذين يكفون الاتباع ، وقد كان يجوز في تلك الشريعة تزويج المؤمنة بالكافر ، وقد كان في صدر شريعتنا جائزاً ايضاً، ثم حرّم. وهو قول الحسن . وقال الزجاج: أراد نساء أمته ، فهم بناته في الحكم ، قال الجبائي: وهذا القول كان من لوط لقومه قبل ان يعلم أنهم ملائكة لا يحتاج الى هذا القول لقومه .

قوله تعالى :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ

ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ) (٧٨) سبع آيات بلا خلاف .

قال ابن عباس معنى (لعمرك) وحياتك . وقال غيره : هو مدة حياته وبقائه حياً بمعنى لعمرك ومدة بقاءك حيّاً . والعَمر والعُمر واحد ، غير أنه لا يجوز في القسم إلاّ بالفتح ، قال ابو عبيدة : ارتفع لعمرك وهي يمين ، والأيمان تكون خفضاً إذا كانت الواو في أوائلها ، ولو كانت وعمرك لكانت خفضاً ، ولذلك قولهم : لحق لقد فعلت ذلك ، وإنما صارت هذه الأيمان رفعاً بدخول اللام في اولها ، لانها أشبهت لام التأكيد ، فأما قولهم : عمرك الله أفعل كذا ، فإنهم ينصبون(عمرك) وكذلك ينصبون(الله لا فعلن) . قال المبرد : لا أفتحها يميناً ، بل هي دعاء ومعناه اسأل الله لعمرك . قال المبرد : والتقدير : لعمرك ما اقسم به ، ومثله : عليّ عهدالله لأفعلن ، فعهدالله رفع بالابتداء ، وفيه معنى القسم ، وكذلك (لاها الله ذا) . قال الخليل : (ذا) معناه ما أقسم عليه . وحكي عن الاخفش أنـــه قال : (ذا) ما اقسم به ، لانه قد ذكر الله ، وكلاهما حسن جميل .

وقوله « انهم لفي سكرتهم يعمهون » فالسكرة غمور السهو للنفس وهؤلاء في سكرة الجهل « يعمهون » اي يتحيرون ، ولا يبصرون طريق الرشد .

وقوله « فأخذتهم الصيحة مشرقين » فالأخذ فعل يصير به الشيء في جهـة الفاعل ، فالصيحة كأنها أخذتهم بما صاروا في قبضتها حتى هلكوا عن آخرهم . والصيحة صوت يخرج من الفم بشدة . ويقال: إن الملك صاح بهم صيحة أهلكتهم . ويجوز ان يكون جاء صوت عظيم من فعل الله كالصيحة . والاشراق ضيـــاء الشمس بالنهار شرقت الشمس تشرق شروقاً اذا طلعت ، وأشرقت إشراقاً اذا أضاءت وصفت . ومعنى (مشرقين) داخلين في الاشراق .

وقوله «فجعلنا عاليها سافلها» والجعل حصول الشيء على وجه لم يكن بقادر عليه لولا الجعل ، ومثله التصيير ؛ والمعنى : انه قلب القرية فجعل أسفلها اعلاها

واعلاها أسفلها « وأمطرنا عليهم حجارة » اي أرسلنا الحجارة ، كما يرسل المطر « من سجيل » وقيل في معناه قولان :

احدهما - انها من طين وهو معرّب . وقيل هو من السجل ، لانه كان عليها أمثال الخواتيم بدلالة قوله « حجارة من طين مسوّمة عند ربك »(١)

والثاني - انهـا حجارة معدة عنـد الله تعالى للمجرمين ، وأصله (سجين) فابدلت النون لاماً .

فان قيل مـا معنى امطار الحجارة عليهم مع انقلاب مدينتهم ؟

قلنـــا فيه قولان :

احدهما - أنه أمطرت الحجارة أولاً ثم انقلبت بهم المدينة .

الثاني - ان الحجارة أخذت قوماً منهم خرجوا من المدينـة بحوائجهم قبل الفجر - في قول الحسن - ثم اخبر تعالى ان فيما حكاه آيات ودلالات للمتوسمين. قال مجـاهد يعنى المتفرسين . وقـال قتادة : يعنى المعتبرين . وقال ابن زيد : المتفكرين . وقال الضحاك : الناظرين . وقال ابو عبيدة : المتبصرين . والمتوسم الناظر في السمة الدالة .

وقوله « انها لبسبيل مقيم » معنـاه إن الاعتبار بها ممكن لان الآيات الـتي يستدل بها مقيمة ثابتة بها وهي مدينة سدوم، والهاء كناية عن المدينة التي أهلكها الله ، وهي مؤنثة . ثم قال ان انفيما قصّ من حكاية هذه المدينة « لآية للمؤمنين» ودلالة لهم . وقيل في وجه إضافة الآية الى المؤمنين قولان :

احدهما - انه يصلح ان يستدل بها .

والآخر - انه يفعل الاستدلال بها. وتضاف الآية الى الكافر بشرط واحد، وهو أنه يمكنه الاستدلال بها .

وقوله « وإن كان اصحاب الأيكة لظالمين » فالأيكة الشجرة في قول الحسن والجمع الايك كشجرة وشجر . وقيل : الأيكة الشجر الملتف قال امية :

---

(١) سورة الذاريات آية ٣٣ - ٣٤

كبكاء الحمام على فروع الأيـ ـك في الطير الجرائح

وقيل الايكة الغيضة واصحاب الايكة هم أهل الشجر الذين أرسل اليهم شعيب (ع) وأرسل الى اهل مدين ، فأهلكوا بالصيحة ، واصحاب الايكة فأهلكوا بالظلة التي احترقوا بنارها . في قول قتادة ، فأخبر الله تعالى انه اهلك اصحاب الأيكة بظلمهم وعتوهم وكفرهم بآيات الله وجحدهم نبوة نبيه . وقال ابن خالويه : الأيكة أسم القرية ، والايكة أسم البلد ، كما ان مكة اسم البلد ، ومكة اسم البيت . ولم يصرفوا الأيكة للتعريف والتأنيث ، ويجوز ان يكونوا تركوا صرفه ، لانه معدول عن الالف واللام ، كما ان شجر معدول عن الشجر ، فلذلك لم يصرفوه .

قوله تعالى :

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) ست آيات بلا خلاف .

لما اخبر الله تعالى عن اصحاب الايكة أنهم كذبوا رسل الله ، اخبر بأنه انتقم منهم بأن اهلكهم ودمر عليهم . وفرق الرماني بين الانتقام والعقاب ، فقال : الانتقام نقيض الانعام ، والعقاب نقيض الثواب ، فالعقاب مضمن بأنــه على المعصية ، والانتقام مطلق ، وهو - ههنا - على المعاصي ، لان الاطلاق يصلح فيه التقييد : بحذف الاضافة .

وقوله « وإنهما » يعني فريقي قوم لوط ، واصحاب الايكة ، لبطريق يؤم ويتبع ويهتدى به - في قول ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن - وقال أبو علي

الجبائي « لبإمـام » وهو الكتاب السابق الذي هو اللوح المحفوظ ، ثابت ذلك فيه ظاهر . والامام – في اللغة – هو المقدم الذي يتبعه من بعده وإنما كانا بإمام مبين ، لانهما على معنى يجب ان يتبع ، فيما يقتضيه ويـــدل عليه ، والمبين الظاهر .

وقوله « ولقد كذب اصحاب الحجر المرسلين » اخبار منه تعالى ان اصحاب الحجر ، وهي مدينة – في قول ابن شهاب ، وسموا أصحاب الحجر ، لانهم كانوا سكانه ، كما تقول : اصحـاب الصحراء. « كذبوا » ايضاً الرسل الذين بعثهم الله اليهم ، وجحدوا نبوتهم : وقال قتادة : هم اصحاب الوادي ، وهو من الحجر الذي هو الحظر .

واخبر تعالى انه اتاهم الله الدلالات والمعجزات الدالة على توحيده وصـــدق انبيائه، فكانوا يعرضون عنها ولا يستدلون بها ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ينقرون نقراً يأمنون فيها من الخراب . وقيل آمنين من سقوطها عليهم . وقيل كانوا آمنين من عذاب الله . وقيل : من الموت . ونصبه على الحال.

فأخبر تعالى ان هؤلاء « اخذتهم الصيحة مصبحين » اي جاءتهم الصيحـة وقت دخولهم في الصباح ، ولم يغنهم « ما كانوا يكسبون » من الملاذ القبيحة . والغنى وجود ما ينتفي به الضرر عنهم .

قوله تعالى :

(وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ) (٨٦) آيتان بلا خلاف .

وجه اتصال هذه بما تقدم ذكره هو ان الامم لما خالفوا الحق أهلكوا ، لان الله ماخلق « السموات والارض إلا بالحق » وعلى « ان الساعة آتية » للجزاء

وأن جمع ما خلق يرجع الى عالم به وبتدبيره. وقيل: ما أهلكناهم إلا بالحق كما خلقنا السموات والارض بالحق، فأخبر تعالى انه لم يخلق السموات والارض إلا بالحق، ولاوجه من وجوه الحكمة، وان الساعة، وهي يوم القيامة لآتية جائية بلا شك. ثم امر نبيه ﷺ ان يصفح بمعنى يعفو عنهم عفواً جميلا. واختلفوا في كونه منسوخاً:

فقال قتادة، ومجاهد، والضحاك: إنه منسوخ بوجوب الجهاد والقتال، وكان الصفح قبل ذلك.

وقال الحسن: هذا فيما بينه وبينهم، لا في ما امر به من جهة جهادهم.

وقال الجبائي: أمره بأن يحلم عنهم فيما كانوا يسفهون عليه من شتمه، وسفاهتهم عليه، فلا يقابلهم بمثله

ثم اخبر تعالى انه الخلاق لما ذكر من السموات والارض، عليم بما فيه من المصلحة لعباده ووجه الحكمة فيه.

قوله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) (٩١)

خمس آيات.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ أنه آتاه أي أعطاه سبعاً من المثاني، فقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد: هي السبع الطوال سبع سور من أول القرآن.

قال قوم: المثاني التي بعد المئتين قبل المفصل.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس وابن مسعود : أنها فاتحة الكتاب ، وهو قول الحسن وعطاء .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : (السبع المثاني أم القرآن) وهي سبع آيات بلا خلاف في جملتها ، وإنما سميت مثاني، في قول الحسن ، لأنها تثنى في كل صلاة وقراءة .

وقيل: المثاني السبع الطوال لما يثنى فيها من الحكم المصرفة قال الراجز :

نشدتكم بمنزل الفرقان ام الكتاب السبع من مثاني
ثنتين من آيٍ من القرآن والسبع سبع الطوّل الدواني[1]

وقد وصف الله تعالى القرآن كله بذلك في قوله «ألله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني»[2] فعلى هذا تكون (من) للتبعيض. ومن قال: انها الحمد قال: (من) بمعنى تبيين الصفة، كقوله «اجتنبوا الرجس من الأوثان»[3]

وقوله « والقرآن العظيم » تقديره وآتيناك القرآن العظيم سوى الحمد

وقوله « لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم » خطاب للنبي صلى الله عليه وآله والمراد به الأمّة، نهاهم الله تعالى ان يمدوا أعينهم الى ما متع هؤلاء الكفار به من نعيم الدنيا. ومعنى أزواجاً منهم أمثالاً من النعم «ولا تحزن عليهم» قال الجبائي: معناه لا تحزن لما أنعمت عليهم دونك. وقال الحسن «لا تحزن عليهم» على ما يصيرون اليه من النار بكفرهم .

ثم أمر نبيه صلى الله عليه وآله ان يخفض جناحه للمؤمنين وهو ان يلين لهم جانبه ويتواضع لهم ويحسن خلقه معهم ، وأن يقول لهم « إني أنا النذير المبين » يعني المخوف من عقاب الله من ارتكب ما يستحق به العقوبة، ومبين لهم ما يجب عليهم العمل به .

---

(١) مجاز القرآن ١ : ٧ وتفسير القرطبي ١٠ : ٥٤ وتفسير الطبري ١ : ٣٦ ومجمع البيان ٣ : ٣٤٥

(٢) سورة الزمر آية ٢٣

(٣) سورة الحج آية ٣٠

وقوله « كما انزلنا على المقتسمين » قال ابن عباس وسعيد بن جبير، والحسن: هؤلاء هم أهل الكتاب اقتسموا القرآن، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، وقال قتادة: هم قوم من قريش عضوا كتاب الله. وقال ابن زيد: هم قوم صالح « تقاسموا لنبيتنه واهله » وقال الحسن: أنزلنا عليك الكتاب، كما انزلنا على المقتسمين من قبل، قوم اقتسموا طرق مكة ينفرون عن النبي ﷺ ويقولون: إنه ساحر، وبعضهم يقول هو كاهن، وبعضهم يقول انه مجنون، فأنزل الله بهم عذابا اهلكهم به. وتقديره أنذركم بما أنزل بالمقتسمين. ذكره الفراء.

وقوله « الذين جعلوا القرآن عضين » أي جعلوه متفرقاً بالايمان ببعضه والكفر ببعض، فعضوه على هذا السبيل الذي ذمهم الله بها. وقيل جعلوه عضين، بأن قالوا سحر وكهانة - في قول قتادة - واصل عضين عضه منقوصة الواو، مثل عزة وعزين، قال الشاعر:

ذاك ديار يأزم المآزما وعضوات تقطع اللهازما[1]

وقال آخر:

للماء من عضاتهن زمزمه

وقال رؤبة:

وليس دين الله بالمعضي [2]

فالمعنى انهم عضوه أي فرقوه، كما تعضا الشاة والجزور، واصل عضه عضوه فنقصت الواو، ولذلك جمعت عضين بلا واو كما قالوا عزين جمع عزة والأصل عزوة ومثله ثبه وثبون، واصله ثبوة والعضيهة الكذب، فلما نسبوا القرآن الى الكذب وانه ليس من قبل الله فقد عضهوا بذلك.

قوله تعالى:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

«١» مجمع البيان ٣ : ٣٤٤ واللسان « عضه » وروايته:

هذا طريق يأزم المآزما وعضوات تقطع اللهازما

«٢» اللسان « عضا »

فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ ٱلسَّاجِدِينَ (٩٨) وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ (٩٩) ثمان آيات بلا خلاف .

أقسم الله تعالى بقوله « فوربّك » يا محمـــد ، وفي ذلك تشريف للنبي ﷺ وتنبيه على عظم منزلته عند الله « لنسألنهم » يعني هؤلاء الكفار « أجمعين » وانما يسألهم سؤال توبيخ وتقريع ، فيقول لهم لم عضيتم القرآن ، وما حجتكم فيه وما دليلكم عليه ، فيظهر عند ذلك خزيهم وفضيحتهم عند تعذر جواب يصح منهم .

وقوله «فاصدع بما تؤمر» أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ ان يفرّق بما أمر به، والمعنى افرق بين الحق والباطل بما تؤمر به، قال أبو ذؤيب :

وكأنهنّ ربابة وكأنه يسر يفيض على القداح ويصدع[1]

وقال مجاهد: معناه فاجهر بما تؤمر ، وانما قال بما تؤمر، ولم يقل بما تؤمر به، لأمرين: احدهما ـ انه حذف (به) كما يقال آمرك وآمر بك، وأكفرك وأكفر بك قال الشاعر :

إذا قالت حذام فصدقوها فإن القول ما قالت حذام[2]

وكما قال الآخر :

أمرتك حازماً فعصيتني وأصبحتَ مسلوب الإمارة نادما

«١» ديونه ٨١ ومجاز القران ١: ٣٥٥ وتفسير الطبري ١٤ : ٤١ واللسان «صدع» ومجمع البيان ٣ : ٣٤٦

(٢) قطر الندى (باب المعرب والمبنى) واللسان (حذم)

وقوله «أعرض عن المشركين» أمر بأن يعرض عن المشركين، ولا يخاصمهم الى ان يأمره بقتالهم.

وقوله «انا كفيناك المستهزئين» المعنى كفيناك شرهم واستهزاءهم بأن أهلكناهم وكانوا خمسة نفر من قريش: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وابو زمعة والأسود بن عبد يغوث، والحرث بن عيطلة - في قول سعيد بن جبير - وقيل الأسود بن المطلب، أهلكهم الله.

وقوله «الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر» الذين في موضع جر، لأنه بدل من المستهزئين، وصفهم بأنهم اتخذوا مع الله إلهاً آخر عبدوه، ثم قال «فسوف يعلمون» وبال ذلك يوم القيامة، وهذا غاية التهديد، ثم قال «ولقد نعلم انك» يا محمد «يضيق صدرك» ويشق عليك ما يقولون من التكذيب والاستهزاء. ثم أمره ان يحمد ربه على نعمه وان يكون من الساجدين الذين يسجدون لله، ويوجهون عبادتهم اليه، وان يعبد ربه الى الوقت الذي يأتيه اليقين، ومعناه حتى يأتيه الموت - في قول الحسن ومجاهد وقتادة - وسمي يقيناً، لأنه موقن به توسعاً وتجوزاً، لأنه مما يوقن به جميع العقلاء. ويحتمل أن يكون أراد. حتى يأتيه العلم الضروري بالموت والخروج من الدنيا الذي يزول معه التكليف.

(١٦) سورة النحل

هي مكية إلا آية هي قوله « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا» الآية . وقال الشعبي: نزلت النحل كلها بمكة إلا قوله « وان عاقبتم » إلى آخرها . وقال قتادة: من أول السورة الى قوله « كن فيكون » مكي ، والباقي مدني . وقال مجاهد: أولها مكي وآخرها مدني، وهي مئة وثمان وعشرون آية ليس فيها خلاف .

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَتَى أَمْرُ ٱللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (١) آية بلا خلاف .

قرأ نافع وعاصم وابو عمرو « يشركون » بالياء . وقرأ ابن عامر وابن كثير مثل ذلك . وقرأ حمزة والكسائي بالتاء .

من قرأ بالتاء ، فلقوله «فلا تستعجلوه » فرد الخطاب الثاني الى الأول .

ومن قرأ بالياء قال لان الله أنزل القرآن على محمد ﷺ فقال محمد تنزيها لله « سبحانه وتعالى عما يشركون »

وقرأ سعيد بن جبير «أتى أمر الله، فلا تستعجله». وروي عن عباس انه قال: المشركون قالوا للنبي ﷺ ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين، فقال الله تعالى «أتى امر الله فلا تستعجلوه»، وانما قال «أتى امر الله» ولم يقل يأتي، لان الله تعالى قرّب الساعة، فجعلها كلمح البصر، فقال «وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب»[1] وقال «اقتربت الساعة»[2] وكل ما هو آت قريب، فعبر بلفظ الماضي ليكون أبلغ في الموعظه، وإن كان قوله «فلا تستعجلوه» يدل على أنه في معنى يأتي، وأمر الله يراد به العذاب- في قول الحسن وابن جريج وغيرهما - وقال الضحاك: معناه فرائضه واحكامه. وقال الجبائي: امره القيامة والأول أصح، لانهم استعجلوا عذابه دون غيره.

والتسبيح في اللغة ينقسم أربعة أقسام:

احدها - التنزيه مثل قوله «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا»[3] وقال الشاعر:

أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر[4]

والثاني - معنى الاستثناء كقوله «لو لا تسبحون»[5] اي هلا تستثنون.

والثالث - الصلاة كقوله «فلولا انه كان من المسبحين»[6].

والرابع - النور، جاء في الحديث (فلولا سبحان وجهه) أي نوره ومعنى «تعالى»: تعاظم بأعلى صفات المدح عن ان يكون له شريك في العبادة، وجميع صفات النقص منتفية عنه.

قوله تعالى:

(يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ

---

(١) سورة النحل آية ٧٧ (٢) سورة القمر آية ١.

(٣) سورة الاسرى اية ١

(٤) مر هذا الشعر في ١: ١٣٤، ٣: ٨١، ٥: ٢٤١، ٣٩٥

(٥) سورة القلم اية ٢٨.

(٦) سورة الصافات اية ١٤٣

أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) (٢) آية بلا خلاف.

قرأ روح والكسائي عن ابي بكر « تنزل الملائكة » بالتاء وفتحها ، وفتح النون والزاي ورفع الملائكة. الباقون بالياء وضمها وفتح النون وتشديد الزاي وكسرها، ونصب الملائكة ، إلا أن ابن كثير واباعمرو ، وورشاً يسكنون النون ويخففون الزاي .

من قرأ بالياء ففاعل (ينزّل) هو الضمير العائد الى اسم الله في قوله « اتى امر الله » واسكان النون وتخفيف الزاي وتشديدها، فكلاهما جائز، قال تعالى : « إنا نحن نزّلنا الذكر » [1] وقال « وأنزلنا اليك الذكر » [2] فأما ما روي عن عاصم من القراءة بالتاء ، فلأنه انث الفعل باسناده الى الملائكة كقوله « إذ قالت الملائكة » [3] وبنى الفعل للمفعول به واسنده اليهم والأول ابين .

اخبر الله تعالى أنه ينزل الملائكة بالروح من امره ، واختلفوا في معنى الروح -ههنا- فقال ابن عباس: اراد به الوحي، وقال الربيع بن انس: اراد به كلام الله ، وقال قوم: أراد حياة النفوس، والارشاد لهم الى الدين ، وقد فسر ذلك بقوله « ان أنذروا » وهو بدل من الروح ، وموضعه الجر وتقديره بـ (أن أنذروا) لأن الموعظة والانذار للكافر حياة ، لانه تعالى شبه الكافر بالميت ، فقال « او من كان ميتا فأحييناه »[4] بالاسلام. والروح تنقسم عشرة اقسام : فالروح الارشاد والحياة ، والروح الرحمة قرأ رسول الله ﷺ «فروح وريحان»[5] والروح النبوة لقوله « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده »[6] والروح عيسى روح الله أي خلق من غير بشر ، وقال آخرون : من غير فحل . وقيل انه سمي بذلك لكونه رحمة على عباد الله بما يدعوهم الى الله، والروح جبرائيل. والروح النفخ، يقال: أحييت النار بروحي أي بنفخي ، قال ذو الرمة يصف الموقد والزندة:

---

(١) سورة الحجر اية ٩
(٢) سورة النحل اية ٤٤
(٣) سورة ال عمران اية ٤٢ ، ٤٥
(٤) سورة الانعام اية ١٢٢
(٥) سورة الواقعة اية ٨٩
(٦) سورة المؤمن (غافر) اية ١٥

فلما بدت كفنتها وهي طفلة بطلساء لم تكمل ذراعاً ولا شبرا
فقلت له ارفعها اليك وأحيها بروحك واقتته لها قيتة قدرا[١]

والروح الوحي قال الله تعالى « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا »(٢) قيل انه جبرائيل، وقيل الوحي. والروح ملك في السماء من أعظم خلقه، فاذا كان يوم القيامة وقف صفاً ، والملك كلهم صفاً ، والروح روح الانسان . وقال ابن عباس في الانسان روح ونفس ، فالنفس هي التي تكون فيها التمييز والكلام ، والروح هو الذي يكون به الغطيط والنفس ، فاذا نام العبد خرجت نفسه وبقيت روحه ، واذا مات خرجت نفسه وروحه معاً . وقوله «على من يشاء من عباده» يعني الانبياء يأمرهم أن يخبروا عباده أنه لا إله يستحق العبادة غير الله تعالى ، ويأمرهم بأن يتقوا معاصيه ويفعلوا طاعاته .

قوله تعالى :

(خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) (٤) آيتان بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي «تشركون» بالتاء في الموضعين لقوله « فلا تستعجلوه» فردّ الخطاب الى الاول. ومن قرأ بالياء فلما تقدم ذكره. احتج الله تعالى بالآية وما قبلها وما بعدها على خلقه وأعلمهم عظيم نعمه ، ودلهم على قدرته ، إذ « خلق السموات والأرض » بما فيهما من العجائب والمنافع ، و « خلق الانسان من نطفة» مهينة ضعيفة سيالة فرباها ودبرها حتى صار إنساناً يخاصم ويبين. ولو وضعنا

---

(١) اللسان (حيا) ذكر البيت الثاني فقط (طلس) ذكر الشطر الثاني من البيت الاول.
(٢) سورة الشورى آية ٥٢

النطفة بين أيدي الخلائق فاجتهدوا ، وفكروا ما قدروا على قلبها ، ولا عرفوا كيف يتمكن ويتأتى أن تقلب حالاً بعد حال حتى تصير فيها روح ، وعقل ، وسمع ، وبصر ، وحتى تنطق وتعرب عن نفسها ، وتحتج فتدفع عنها . وقيل في معنى « خصيم مبين » قولان :

أحدهما – انه أخرج من النطفة ما هذه صفته ، ففي ذلك أعظم العبرة .

والثاني – لما خلقه ومكنه خاصم عن نفسه خصومة أبان فيها عن نفسه . وقيل انه يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها – تعريف قدرة الله في اخراجه من النطفة ما هذه سبيله .

الثاني – تعريف نعم الله في تبليغ هذه المنزلة من خلق من نطفة .

الثالث – تعريف فاحش ما ارتكب الانسان من تضييع حق الله بالخصومة .

قوله تعالى :

(وَٱلْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) (٧) ثلاث آيات بلا خلاف .

الأنعام جمع نعم ، وهي الإبل ، والبقر ، والغنم ، سميت بذلك لنعومة مشيها بخلاف ذات الحافر الذي يصلب مشيها . ونصب بفعل مقدر يفسره ما بعده ، والتقدير وخلق الأنعام خلقها ، وإنما نصب لمكان الواو العاطفة على منصوب قبله . وقوله « خلقها لكم » تمام ، لأن المعنى خلق الأنعام لكم أي لمنافعكم . ثم أخبر ، فقال « فيها دفء » والدفء ما استدفأت به . وقال الحسن يريد ما استدفىء به من أوبارها ، وأصوافها ، وأشعارها . وقال ابن عباس : هو اللباس

من الأكيسة وغيرها ، كأنه سمي بالمصدر ومنه دفوء يومنا دفأ ، ونظيره (الكنّ) قال الفراء : كتبت (دفء) بغير همز ، لأن الهمزة إذا سكن ما قبلها حذفت من الكتاب ، ولو كتبت في الرفع بالواو ، وفي النصب بالألف وفي الخفض بالياء كان صواباً. وقال قتادة «فيها دفء ومنافع» معناه منفعة هي بلغة، من الألبان وركوب ظهرها « ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون » وذاك أعجب ما يكون إذا راحت عظاماً ضروعها طوالاً أسنمتها « وحين تسرحون» إذا سرحت لرعيها . فالسروح خروج الماشية إلى المرعى بالغداة . والاراحة رجوعها من المرعى عشياً : سرحت الماشية سرحاً وسروحاً وسرحها أهلها قال الشاعر :

كأن بقايا الاثر فوق متونه   مدب الدبا فوق النقا وهو سارح(١)

وقوله « وتحمل أثقالكم » يعني هذه الانعام تحمل أثقالكم ، وهو جمع ثقل ، وهو المتاع الذي يثقل حمله ، وجمعه أثقال « لم تكونوا بالغيه إلا بشق الانفس » والبلوغ المصير إلى حد من الحدود ، بلغ يبلغ بلوغاً وأبلغه إبلاغاً ، وبلّغه تبلغاً وتبلّغ تبلّغاً وتبالغ تبالغاً ، والشق المشقة ، وفيه لغتان، فتح الشين وكسرها، فالكسر عليه القراء السبعة . وبالفتح قرأ أبو جعفر المدني .

والشق أيضاً أحد قسمي الشيء الذي في احدى جهتيه ، وقال قتادة : معناه بجهد الأنفس، وكسرت الشين من شق الانفس مع أن المصدر بفتح الشين لأمرين :

احدهما - قال قوم: هما لغتان في المصدر ، قال الشاعر :

وذي إبل يسعى ويحسبها له   أخي نصب من شقها ودؤوب (٢)

بالكسر والفتح ، وقال العجاج :

اصبح مسحول يوازي شقا(٣)

لكسر والفتح بمعنى يقاسي مشقة، وقال قوم: ان المعنى إلا بذهاب شق قوى النفس

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٥٠ (الطبعة الاولى) وروايته :

كأن بقايا الاثن فوق متونه   مدب الذي فوق النقا وهو سارح

(٢) قائله النمر بن تولب . اللسان (شقق)   (٣) اللسان (شقق)

ذكره الفراء والزجاج ، واختاره الطبري . وقوله « ان ربكم لرؤوف رحيم » أي رؤوف بكم رحيم ، ومن رحمته أنه خلق لكم الأنعام لتنتفعوا بها ، على ماذكره

قوله تعالى :

(وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) (٩) آيتان بلا خلاف .

هذه الآية عطف على التي قبلها ، فلذلك نصب « والخيل » وتقديرها ، وخلق الخيل ، وهي الدواب التي تركب « والبغال » واحدها بغل « والحمير » واحدها حمار « لتركبوها » وتتزينوا بها ، ونصب (وزينة) بتقدير ، وجعلها زينة « ويخلق ما لا تعلمون » من أنواع الحيوان والجماد والنبات لمنافعكم ، ويخلق من أنواع الثواب للمطيعين ، وأنواع العقاب للعصاة ما لا تعلمون .

وحكي عن ابن عباس : أن الآية دالة على تحريم لحم الخيل ، لأنها للركوب والزينة والانعام لما ذكر قبل ، وهو قول الحكم والاسود . وقالوا : لأنه تعالى ذكر في آية الانعام « ومنها تأكلون » (١) ولم يذكر ذلك في آية الخيل بل ذكرها للركوب والزينة . وابراهيم لم يربه بأساً ، وهو قول جميع الفقهاء . وقال جابر : كنا نأكل لحم الخيل على عهد رسول الله ﷺ .

وقوله « وعلى الله قصد السبيل » قال ابن عباس : معناه بيان قصد السبيل أي بيان الهدى من الضلال « ومنها جائر » أي عادل عن الحق فمن الطريق ما يهدي إلى الحق ؛ ومنها ما يضل عن الحق ، ثم قال « ولو شاء لهداكم أجمعين » وقيل في معناه قولان :

أحدهما ـ قال الحسن والبلخي : لو شاء لهداكم بالإلجاء ، لأنه قادر على ذلك .

الثاني ـ قال الجبائي : لو شاء لهداكم إلى الجنة .

---

(١) سورة المؤمن (غافر) آية ٧٩

قوله تعالى :

(هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (١١) آيتان بلا خلاف .

قرأ أبو بكر عن عاصم إلا الأعشى والبرجمي «ننبت» بالنون. الباقون. بالياء من قرأ بالياء فلما تقدم من قوله «هو الذي أنزل من السماء ماء... ينبت لكم» وهو أشكل بما تقدم، والنون لا يمتنع ايضاً، يقال نبت البقل وانبته الله، وقد روي انبت البقل، وأنكر ذلك الأصمعي، وقال قصيدة زهير التي فيها (حتى إذا أنبت البقل) مبهمة قال أبو علي فأمّا قوله «تنبت بالدهن»(١) فيجوز أن تكون الباء زائدة، كقوله «ولاتلقوا بأيديكم» (٢) قال «وألقى في الارض رواسي أن تميد» (٣) فعدى (ألقى) مرة بالباء وأخرى بغير باء، وإذا ثبت أن (انبت) في معنى (نبت) جاز ان تكون الباء للتعدي، كما لو كانت مع (نبت) كان كذلك، ويجوز ان تكون الهمزة في (انبت) للتعدي، والمفعول محذوف، والباء للحال، كأنه قال تنبت ثمرة بالدهن، فحذف المفعول و (بالدهن) في موضع حال، كأنه قال تنبت، وفيه دهن، ويجوز في (تنبت بالدهن) ان تنبت ما فيه دهن .

اخبر الله تعالى انه الذي ينزل من السماء ماء يعني غيثاً ومطراً لمنافع خلقه، من ذلك الماء شراب تشربونه، ومن ذلك نبات الشجر، والشجر ما ينبت من الارض وقام على ساق وله ورق وجمعه أشجار، ومنه المشاجرة لتداخل بعض الكلام في بعض كتداخل ورق الشجر وقال الازهري: ما نبت من الأرض شجر،

---

(١) سورة المؤمنون آية ٢٠
(٢) سورة البقرة آية ١٩٥
(٣) سورة النحل آية ١٥ وسورة لقمان آية ١٠

قام على ساق أو لم يقم ترعاه الإبل والأنعام كلها .

وقوله « فيه تسيمون » اي ترعون ؛ يقال : اسمت الابل إذا رعيتها ، وقد سامت تسوم ، فهي سائمة اذا رعت . واصل السوم الابعاد في المرعى ، والسوم في البيع الارتفاع في الثمن ،والانبات اخراج الزرع،والانسان يزرع ، والله تعالى ينبت .

وقوله « ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات» اي ينبت بذلك المطر هذه الاشياء التي عددها لينتفعوا بها. ثم اخبر ان في ذلك لدلالة وحجة واضحة لمن يفكر فيه ، فيعرف الله به ؛ وإنما أضاف الدلالة اليهم، لانهم الذين انتفعوا بها ، ولأن من لم يفكر فيها فكأنهالم تنصب له .

قوله تعالى :

(وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) (١٣) آيتان بلا خلاف .

قرأ ابن عامر « والشمس والقمر والنجوم مسخرات » بالرفع فيهن كلهن ، وافقه حفص في رفع « والنجوم مسخرات » الباقون بالنصب فيهن كلهن ، امّا ابن عامر فانما رفع ذلك ، لانه جعل الواو ، واو حال ، وابتدأ ، (والشمس) رفع بالابتداء و(النجوم) نسق عليها ، (والقمر) نسق عليها (والمسخرات) رفع خبرها،ومن نصبها كلها جعلها منسوقة على قوله «وسخر لكم الليل والنهار» . واما حفص فانما رفع (النجوم مسخرات) فقطعها مما قبلها ، فعلى هذا حجة من نصب ان يقدر فعلا آخر ينصبه به ، وتقديره وجعل النجوم مسخرات .

ووجه تسخير الشمس والقمر والليل والنهار، ان الليل والنهار إنما يكون بطلوع الشمس وغروبها، فما بين غروب الشمس الى طلوع الفجر، وهو غياب ضوء الشمس، فهو ليل. وما بين طلوع الفجر الى غروب الشمس، فهو نهار، فالله تعالى سخر الشمس على هذا التقدير لا تختلف؛ لمنافع خلقه ومصالحهم وليستدلوا بذلك على ان المسخر لذلك والمقدر له حكيم ثم بين ان في ذلك التسخير لدلالات لقوم يعقلون عن الله ويتبينون مواضع الاستدلال بادلته.

وقوله «وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه» معنى (ما) الذي وموضعه النصب والتقدير وخلق لكم (ما).

أخبر الله تعالى ان الذي خلقه وأظهره من الاجسام المختلفة الألوان ان في ذلك دلالة لقوم يذكرون وأصله يتذكرون، فادغمت التاء في الذال. والذرء إظهار الشيء بإيجاده ذرأه يذرؤه ذرءاً. وذرأه، وفطره، وانشاءه نظائر. وملح ذرءاني ظاهر البياض والاختلاف هو الامتناع من ان يسد احد الشيئين مسد الآخر ونقيضه الاتفاق. قال قتادة: قوله «وما ذرأ لكم في الارض» معناه خلق لكم «مختلفاً ألوانه» من الدواب والشجر والثمار، نعماً ظاهرة فاشكروها لله، قال المؤرج: ذرأ بمعنى خلق بلغة قريش.

قوله تعالى:

(وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) (١٦) ثلاث آيات بلا خلاف.

وهذا تعداد لنوع آخر من نعمه، فقال «وهو الذي سخر البحر» أي ذلله لكم

وسهل لكم الطريق الى ركوبه واستخراج ما فيه من انواع المنافع فتصطادون منه أنواع السمك، فتأكلون لحمه طرياً ، ولا يجوز ان تهمز طرياً، لانه من الطراوة لا من الطراءة ، و « تستخرجوا » من البحر حلية يعني اللؤلؤ والمرجان الذي يخرج من البحار «تلبسونها» وتتزينون بها «وترى الفلك» يعني السفن «مواخر فيه» قال الحسن معناه مقبلة ومدبرة بريح واحدة ، وقال قوم : معناه منقلة، والمواخر جمع ماخرة ، والمخر شق الماء من عن يمين وشمال ، يقال : مخرت السفينة الماء تمخره مخراً ، فهي ماخرة ، والمخر ايضاً صوت هبوب الريح إذا اشتد هبوبها .

وقوله « ولتبتغوا من فضله » اي ولتكتسبوا من فضل الله ونعمه بركوب البحر، ولكي تشكروه على أياديه، والواو دخلت ليعلم ان الله خلق ذلك وأراد جميع ذلك وقصده . ثم أخبر انه القى في الأرض رواسي ، وهو جمع راسية وهي الجبل العالي الثابت «ان تميد بكم» اي لئلا تميد بكم الارض . وقال الزجاج: معناه كراهة ان تمتد ، ولم يجز حذف (لا) والميد الميل يميناً وشمالاً ، وهو الاضطراب : ماد يميد ميداً ، وهو مائد .

وقوله « وانهاراً وسبلا » تقديره وجعل لكم انهاراً، لدلالة (القى) عليه، لانه لا يجوز ان يكون عطفاً على (القى) ومثله قول الشاعر :

تسمع في اجوافهن صرداً وفي اليدين جسأة وبددا[1]

اي وترى في اليدين يبساً وتفرقاً ، ومثله قولهم : (علفتها تبناً وماء بارداً) والمعنى وسقيتها ماء ، ومثله كثير ، و (سبلا) عطف على (أنهاراً) لكي تهتدوا بها في سلوككم ، وانتقالكم في أغراضكم .

وقوله « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » اي جعل لكم علامات . وقيل انها الجبال ونحوها . قال ابن عباس : يعني الجبال يهتدى بها نهاراً، والنجم يهتدى به ليلاً ، وهو اختيار الطبري . و (العلامة) صورة يعلم بها المعنى ، من خط او لفظ او إشارة او هيئة ، وقد تكون وضعية ، وقد تكون برهانية .

---

(١) مر هذا الشعر في ٥ / ١٠٧ ، وروايته هناك (لغطاً) بدل (صرداً) .

وقوله و « بالنجم هم يهتدون » فالنجم هو الكوكب ، ويقال : نجم النبت إذا طلع تشبيهاً بطلوع النجم ، وانما قال - ههنا - و « بالنجم » فوحد ، وقال فيما تقدم « والنجوم مسخرات » لان النجوم على ثلاثة أضرب : ضرب يهتدى بها مثل الفرقدين ، والجدي ، لانها لا تزول . وضرب هي الشهب ، وضرب هي زينة السماء ، كما قال « زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب »[١] فقوله « وبالنجم » يجوز ان يريد به النجوم ، فأخبر بالواحد عن الجميع ، كما قال « او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء »[٢] والنجم في قوله « النجم الثاقب »[٣] يريد الثريا فقط « والنجم اذا هوى »[٤] يعني نزول القرآن إذا نزل به جبرائيل (ع) وقوله « والنجم والشجر يسجدان »[٥] يريد كلما نجم من الارض اي نبت ، مما لا يقوم على ساق كالبطيخ والقرع والضغابيس وهوالقثاء الصغار، ويشبه الخسيس بالضغبوس أنشد ابن عرفة :

قد جربت عركي في كل معترك غلب الاسود فما بال الضغابيس[٦]

قوله تعالى :

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (١٨) آيتان بلا خلاف .

في هذه الآية ردّ على عباد الاصنام والاوثان بأن يقال : أفمن يخلق ما تقدم ذكره من السموات والارض والشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من أنواع

---

(١) سورة الصافات آية ٦
(٢) سورة النور آية ٣١
(٣) سورة الطارق آية ٣
(٤) سورة النجم ٥٣ آية ١
(٥) سورة الرحمن آية ٦
(٦) البيت لجرير ديوانه (دار بيروت) ٢٥١ واللسان (ضغبس) وقد روي (الرجال) بدل (الاسود) .

العجائب، كمن لا يخلق ذلك من الاصنام التي هي جمادات، فكيف توجه العبادة اليها، ويسوّى بينها، وبين خالق جميع ذلك «أفلا يتفكرون» في ذلــك ويعتبرون به، فان ذلك من الخطأ الفاحش. وجعل (من) فيما لا يعقل، لما اتصلت بذكر الخالق.

ويتعلق بهذه الآية المجبرة، فقالوا: أعلمنا الله تعالى ان احداً لا يخلق، لانـه خلاف الخالق، وانه لو كان خالق غيره لوجب ان يكون مثله، ونظيره.

وهذا باطل، لان الخلق في حقيقة اللغة هو التقدير والاتقان في الصنعة وفعل الشيء لا على وجه السهو والمجازفة بدلالة قوله «وتخلقون إفكاً»[١] وقوله «واذ تخلق من الطين كهيئة الطير»[٢] وقوله «احسن الخالقين»[٣] كما لا يجوز أنه اعظم الآلهة لما لم يستحق الآلهية غيره، وقال زهير:

ولأنت تفري مـــا خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفري[٤]

وقال الحجاج: لا أعد إلا وفيت ولا أخلق إلا فريت[٥]

وقال الشاعر:

ولا يئط بأيدي الخالقين ولا أيدى الخوالق الا جيد الأدم

فعلمنا بذلك جواز تسمية غيره بأنه خالق إلا انـّا لا نطلق هذه الصفة إلا لله تعالى، لان ذلك توهم، فاذا ثبت ذلك فالوجه في الآية ما قدمنا ذكره من الرد على عباد الاصنام والجمادات التي لا تقدر على ضرر ولا نفع ولا خلق شيء ولا

---

(١) سورة العنكبوت اية ١٧
(٢) سورة المائدة اية ١١٣
(٣) سورة المؤمنون آية ١٤ وسورة الصافات آية ١٢٥
(٤) ديوانه ٢٩ (دار بيروت) واللسان (فرا)، (خلق).
(٥) وقد رواها ابن منظور في لسان العرب (خلق) قال: قال الحجاج: (ما خلقت إلا فريت ولا وعدت إلا وفيت)

استطاعة لها على فعل ، وان من سوّى بينها وبين من خلق مـا تقدم ذكره من أنواع النعم وأشرك بينهما في العبادة ، كان جاهلاً بعيداً عن الصواب عادلاً عن طريق الهدى . ويقوي ذلك انه قال عقيب هذه الآية « والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون اموات غير احياء » فعلمنا انه أراد بذلك مـا ما قدمنا من اسقاط رأيهم وتسويتهم بين الجماد والحي والفاعل ومن ليس بفاعل ، وهذا واضح .

وقوله « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » قال الحسن : لا تحصوها بأداء حقها وتعظيمها . وقال الجبائي : لا تحصوها مفصلة لكثرتها وإن صح منكم احصاؤها على وجه الجملة .

قوله تعالى :

(وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) (٢١) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ يعقوب وحفص ويحيى والعليمي «والذين يدعون» بالياء. الباقون بالتاء، قال أبو علي : هذا كله على الخطاب ، لان ما بعده خطاب كقوله بعد « أفـلا تذكرون » وقوله « وألقى في الارض رواسي ان تميد بكم » ، « وإلهكم إله واحد » فكل هذا خطاب .

فان قلت : ان فيه «والذين يدعون من دون الله» فانه لا يكون خطاباً للنبي ﷺ ولا المسلمين ، قيل : التقدير في ذلك قل لهم : والذين تدعون من دون الله ، فلا يمتنع الخطاب على هذا الوجه ، ولهذا قرأ عاصم بالياء لما كان عنده ذلك اخباراً عن المشركين ، ولم يجز ان يكون في الظاهر خطاباً للمسلمين .

يقول الله لعباده ان الله الذي يستحق العبادة هو الذي يعلم ما يظهرونه وما

يستسرون به ويخفونه ، وان الذين يدعون من دون الله من الاعنام لا يخلقون شيئاً، فضلاً عن ان يخلقوا مايستحق به العبادة، وهم مع ذلك مخلوقون مربوبون، وهم مع ذلك أموات غير احياء ، وانما قال أموات غير احياء ، لانها في حكم الأموات في انها لا تعقل شيئاً. وقيل غير أحياء على وجه التأكيد بما صارت به، كالأموات، لانه قد يقال للحيّ هو كالميت إذا كان بعيداً من ان يعلم . و(اموات) رفع بأنه خبر ابتداء ، والتقدير هن أموات غير احياء ، ويجوز ان يكون خبراً عن (الذين) والتقدير والذين يدعون أموات .

وقوله « وما يشعرون أيان يبعثون » اي هم لا يعلمون اي وقت يحشرهم الله للجزاء والحساب ، بل ذلك لا يعلمه الا الله تعالى ، ومعنى (أيان) متى و (متى) اوضح، لأنه اغلب في الاستعمال فلذلك فسر به (أيان) وهو سؤال عن الزمان كما ان (اين) سؤال عن المكان وقال الفراء : معناه هي أموات فكيف يشعرون متى تبعث يعني الاصنام . قال ويقال للكفار أيضاً وما يشعرون أيان يبعثون ، و (إيان) بكسر الهمزة لغة سليم قرأها أبو عبد الرحمن السلمي .

قوله : تعالى

(إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَاجَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) (٢٣) آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى لعباده ان « إلهكم » الذي يستحق العبادة « إله واحد » لانه لا يقدر على ما يستحق به العبادة من أصول النعم سواء . ثم قال ان الذين لا يصدقون بالآخرة وبالبعث والنشور والثواب والعقاب ، تجحد قلوبهم وتنكر ما ذكرناه، وهم مع ذلك «يستكبرون» اي يمتنعون من قبول الحق أنفة من أهله . و (الاستكبار) طلب الترفع بترك الاذعان للحق ثم قال تعالى « لا جرم » اي

حق ووجب انه يعلم ما يبطنونه ويخفونه في نفوسهم ، وما يظهرونه ، لا يخفى عليه منه شيء ، و«انه لا يحب المستكبرين» يعني لا يريد ثوابهم ولا منافعهم ، ولا يفعل ذلك بهم لكونهم مستحقين للعقاب .

قوله تعالى :

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ) (٢٥) آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى إذا قيل لهؤلاء الكفار على وجه الاستفهام: ما الذي أنزل ربكم على نبيه محمد ﷺ؟ أجابوا بأن «قالوا : أساطير الأولين » يعني أحاديث الأولين الكاذبة ، في قول ابن عباس وغيره ، وأحدها أسطورة سمي بذلك ، لانهم كانوا يسطرونها في الكتب .

وقوله « ليحملوا أوزاهم » أي أثقالهم من المعاصي ، والوزر الاثم ، والوزر الثقل ، ومنه الوزير ، لانه يحمل الاثقال عن الملك ، يقال وازره على امره أي عاونه بحمل الثقل معه ، واللام لام العاقبة ، لانهم لم يقصدوا بما فعلوه ليتحملوا أوزارهم .

وقوله « كاملة » معناه حمل المعاصي تامة على أقبح وجوهها من غير اخلال بشيء منها « ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم » معناه إنهم يتحملون مع أوزارهم من أوزار من أضلوه عن دين الله وأغووه عن اتباع الحق، بغير علم منهم بذلك بل كانوا جاهلين . والمعنى إن هؤلاء كانوا يصدون من أراد الايمان بالنبي (ﷺ) فعليهم آثامهم وآثام أبنائهم لاقتدائهم بهم.

وعلى هذا ما روي عن النبي ﷺ انه قال : (ايما داع دعا إلى الهدى فاتبع،

فله مثل اجورهم من غير ان ينقص من اجورهم شيء ، وايما داع دعا الى الضلالة فان عليه مثل اوزار من اتبعه من غير ان ينقص من اوزارهم شيء) .

والوجه في تحملهم أوزار غيرهم أحد شيئين :

احدهما ـ انه اراد بذلك إغواءهم واضلالهم، وهي اوزارهم فأضاف الوزر إلى المفعول به ، كما قال « اني اريد أن تبوء باثمي واثمك » (١)

والثاني ـ ان يكون أراد اقتداء غيرهم بهم فيستحقون على معصيتهم زيادة عقاب ، فجاز لذلك أن يضاف اليهم . ثم أخبر تعالى فقال « ألا ساء ما يزرون » أي بئس الشيء الذي يتحملونه ، لانهم يحملون ما يؤدي الى العقاب ، ومعنى يزرون يحملون ثقل الآثام .

قوله تعالى

(قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوءَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ) (٢٧) آيتان بلا خلاف .

قرأ نافع وحده «تشاقون» بكسر النون اراد تشاقونني ، فحذف النون تخفيفاً وحذف الياء اجتزاء بالكسرة ، وقد ذكر فيما مضى علة ذلك في قوله « فبم تبشرون » (٢) وقرأ الباقون بفتح النون ، لا يجعلونه مضافاً إلى الياء . والنون في هذه القراءة علامة الرفع ، والنون مع الياء المحذوفة في موضع النصب .

---

(١) سورة المائدة اية ٣٠

(٢) سورة الحجر اية ٥٤

ومعنى « تشاقون » أي يعادون الله فيهم فيجعلونها شركاء له ، والشقاق الخلاف في المعنى، ومعنى «تشاقون» تكونون في جانب ، والمسلمون في جانب، لا يكونون معهم يداً واحدة ، ومن ثم قيل لمن خرج عن طاعة الامام وعن جماعة المسلمين : شق العصا أي صار في جانب عنهم ، فلم يكن مجتمعاً في كلمتهم .

يقول الله ان الذين من قبل هؤلاء الكفار « قد مكروا» واحتالوا على رسلهم والمكر الفتل والحيلة الى جهة منكرة ، يقال مكر به يمكر مكراً ، فهو ماكر ومكار ، ثم قال : فان الله تعالى أتى أمره وعقابه « بنيانهم » التي بنوها فهدمها « فخر عليهم السقف من فوقهم » وقيل في معنى « من فوقهم » قولان :

احدهما ـ انه قال ذلك تأكيداً ، كقولك قلت انت .

الثاني ـ انهم كانوا تحته، وقد يقول القائل : تهدمت علي المنازل، وان لم يكن تحتها ، وأيضاً فليعلم انهم لم يكونوا فوق السقوف .

وقال ابن عباس وزيد بن اسلم : الذين خر عليهم السقف من فوقهم نمرود ابن كنعان . وقال غيرهم : بخت نصر، وقال الزجاج وأبو بكر بن الانباري: المعنى فأتى الله مكرهم من اصله اي عاد ضرر المكر عليهم وبهم. وذكر الاساس مثلا كالذكر السقف، مع انه لا سقف ثم ولا أساس ، وهذا الذي ذكره يليق بكلام العرب ويشبهه والمعنى إنّ الله أتى بنيانهم من القواعد اي قلعه من اصله كقولهم: أتي فلان من مأمنه اي أتاه الهلاك من جهة مأمنه وأتاهم العذاب من جهة الله « وهم لا يشعرن » أي لا يعلمون انه من جهة الله نزل بهم العذاب . ثم قال انه تعالى مع ذلك يخزيهم يوم القيامة أي يذلهم بأنواع العذاب ويقول لهم أين شركائي الذين اتخذتموهم آلهة ، فعبدتموهم يعني الذين كنتم تشاقون فيهم الله تعالى وتخرجون عن طاعة الله .

ثم أخبر ان الذين أعطوا العلم والمعرفة بالله تعالى وأوتوه يقولون لهم: ان الخزي يعني الذل والهوان « اليوم » والسوء الذي هو العذاب « على الكافرين » الجاحدين لنعمه المنكرين لتوحيده وصدق انبيائه .

قوله تعالى :

(ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَٱدْخُلُوٓا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٠)

ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة «الذين يتوفاهم» بالياء. الباقون بالتاء، من قرأ بالتاء فلتأنيث لفظة الملائكة ، ومن قرأ بالياء ، فلأن التأنيث غير حقيقي وقد مضى نظيره كثيراً.

يقول الله تعالى ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين، الذين يتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم و«الذين» في موضع الجر بأنه بدل من الكافرين وانما قال ذلك ليعلم به ان الوعيد يتناول من كان مات على كفره ، لانه ان تاب لم يتوجه الوعيد اليه ، ومعنى «تتوفاهم الملائكة» أي تقبض ارواحهم بالموت ظالمي انفسهم بما فعلوه من ارتكاب المعاصي التي استحقوا بها العقاب . والظالم من فعل الظلم ، ويصح ان يظلم الانسان نفسه كما يظلم غيره .

وقوله « فألقوا السلم» اي استسلموا للحق حين لا ينفعهم السلم، يعني الانقياد والاذعان .

وقوله « ما كنا نعمل من سوء » اي قالوا ما عملنا من سوء ، فكذبهم الله ، وقال « بلى » قد فعلتم والله عالم بما كنتم تعملون في الدنيا من المعاصي وغيرها . وقيل في معنى ذلك قولان :

احدهما - ما كنا نعمل من سوء عند انفسنا، لانهم في الآخرة ملجؤن الى ترك القبيح والكذب، ذكره الجبائي. وقال الحسن وابن الأخشاد: في الآخرة مواطن يلجؤن في بعضها دون بعض، ثم بين انه تعالى يقول لهم «ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها» اي مؤبدين فيها «فلبئس مثوى المتكبرين» قسم من الله تعالى انها بئس المأوى لمن تكبر على الله، ولم يعمل بطاعته، «وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم» اي اي شيء «انزل ربكم قالوا خيرا» على معنى ماذا، والمعنى انزل الله خيراً، وانما نصب (خيراً) ههنا بعد قوله «قالوا» ورفع «اساطير» فيما تقدم لأمرين.

احدهما - انهم جحدوا التنزيل، فقالوا إنما هي اساطير الأولين وأقر المؤمنون بالتنزيل، فقالوا أنزل ربنا خيراً.

والثاني - قال سيبويه ان يكون الرفع على تقدير ما الذي انزل ربكم فيكون ذا بمعنى الذي، وفي النصب يكون (ذا، وما) بمنزلة اسم واحد.

وقوله «الذين احسنوا الحسنى» يحتمل ان يكون من كلام من قال خيراً، ويحتمل ان يكون اخباراً من الله تعالى، وهو الاقوى، لانه ابلغ في باب الدعاء الى الاحسان، فأجاز الحسن والزجاج كلا الوجهين، والمعنى ان للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة مكافأة لهم في الدنيا قبل الآخرة خيراً «ولنعم دار المتقين» يعني الجنة التي يدخلها الذين اتقوا معاصي الله وفعلوا طاعاته.

قوله تعالى:

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلٰئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (٣٢)

آيتان بلا خلاف.

يحتمل رفع جنات وجهين :

احدهما ـ ان تكون خبر ابتداء محذوف وتقديره هي جنات يدخلونها، كأن قائلا لما قال الله «ولنعم دار المتقين» قال: ما هذه "الدار؟ فقيل: هي جنات عدن.

والثاني ـ ان يكون رفعاً بالابتداء وخبره « نعم دار المتقين» وقد قدم الخبر والتقدير جنات عدن « نعم دار المتقين » . ثم وصف هذه الجنات بما فيها ، فقال « تجري من تحتها الانهار » لان الجنة هي البستان الذي فيه الاشجار ، والانهار تجري تحت الاشجار ، وقيل لان انهار الجنة في اخاديد . ثم اخبر ان لهؤلاء الذين دخلوا الجنة لهم فيها ما يشاؤنه ويشتهونه . ثم قال مثل ذلك يجازي الله تعالى الذين يتقون معاصيه ، ويعملون بطاعاته . ثم قال « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين أي صالحين بأعمالهم الجميلة خلاف من تتوفاهم خبيثين بأعمالهم القبيحة . وأصل الطيبة حال المستلذ من الاطعمة ، يقول الملائكة لهم سلام عليكم ادخلوا الجنة جزاء على أعمالكم في الدنيا من الطاعات .

قوله تعالى :

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلٰئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّآتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) (٣٤) آيتان بلا خلاف.

قرأ اهل الكوفة إلا عاصماً « إلا أن يأتيهم » بالياء . الباقون بالتاء وقد بينا وجهه ، ومعنى قوله « هل ينظرون » ينتظرون ، يعني هؤلاء الكفار إلا أن تأتيهم الملائكة ، يعني بالموت أو الهلاك ، أو يأتي أمر ربك يعني يوم القيامة ، ذكره مجاهد وقتادة .

ثم أخبر تعالى ان الذين مضوا ـ فيما سلف من الكفار ـ فعلوا مثل فعل هؤلاء من

تكذيب الرسل ، وجحد توحيده ، وانكار رسله ، فأهلكهم الله فما الذي يؤمّن هؤلاء أن يهلكهم .

ثم اخبر تعالى انه باهلاكه اياهم لم يظلمهم ، ولكن هم الذين ظلموا انفسهم فيما مضى بالمعاصي التي استحقوا بها الهلاك .

ثم اخبر تعالى انه اصابهم يعني الكفار جزاء سيئات اعمالهم ، وهي القبائح ، « وحاق بهم » اي حلّ بهم وبال « ما كانوا به يستهزئون » أي يسخرون برسل الله وبأنبيائه .

قوله تعالى :

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ) (٣٥) آية بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن المشركين مع الله إلهاً آخر ومعبوداً سواه أنهم قالوا «لو شاء الله » اي لو أراد الله لم نكن نعبد شيئاً من دونه ، من الاصنام والاوثان ، لا « نحن ولا أباؤنا ولا حرمنا» من قبل نفوسنا شيئا ، بل اراد الله ذلك منا ، فلذلك فعلنا ، كما يقول المجبرة الضلال ، فكذبهم الله وانكر عليهم ، وقال مثل ذلك فعل الذين من قبلهم ، من الكفار الضلال كذبو رسل الله ، وجحدوا انبياءه ثم عذر انبيائه ، فقال « هل على الرسل إلا البلاغ » الظاهر اي ليس عليهم إلا ذلك . وفي ذلك ابطال مذهب المجبرة ، لأن الله انكر عليهم قولهم إنه «لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء» ومثل هذه الآية التي في الانعام [1] وقد بيناها مستوفاة .

---

(١) اية ١٤٨ من سورة الانعام في ٤ : ٣٢٣ - ٣٢٥

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (٣٦) آية بلا خلاف .

اخبر الله تعالى نبيه ﷺ بأنه قد ارسل في كل امّة من الأمم السالفة رسولا بأن « اعبدوا الله » اي امرهم أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ، وان يجتنبوا عبادة الطاغوت ، وهو كل ما يعبد من دون الله. وقيل: الطاغوت اسم الشيطان ويكون المعنى «اجتنبوا» اغواء الشيطان ، وكل داع يدعو الى الفساد . ثم اخبر عن المبعوث اليهم بأن منهم من لطف الله لهم بما علم انه يؤمن عنده ، فآمن عنده ، فسمى ذلك اللطف هداية ، ولم يرد نصب الأدلة على الحق لأنه تعالى سوى في ذلك بين المؤمن والكافر ، كما قال «فاما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى»[1] ويحتمل أن يكون المراد فمنهم من هداه الله الى الجنة بايمانه .

وقوله «ومنهم من حقت عليه الضلالة» قيل فيه قولان :

احدهما – لأنهم ضلوا عن طريق الحق وكفروا بالله ، وهو قول الحسن .

الثاني – حقت عليهم الضلالة عن طريق الجنة بما ارتكبوه من الكفر. والضلالة – ههنا – المراد به العدول عن الجنة ، وقد سمى الله العقاب ضلالا ، فقال «ان المجرمين في ظلال[2]» اي عذاب. ثم قال قل لهم «سيروا في الارض» وتعرفوا اخبار من مضى وتبينوا كيف كان عاقبة الذين كذبوا بآيات الله ، ولم يصدقوا

---

(١) سورة حم السجدة آية ١٧ (٢) سوره القمر آية ٤٧

رسله ، فان الله اهلكهم ودمر عليهم ، كقوم هود ، ولوط ، وثمود ، وغيرهم ، فان ديارهم عليها آثار الهلاك والدمار ظاهرة .

قوله تعالى :

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) (٣٧) آية بلا خلاف .

قرأ اهل الكوفة « يهدي » بفتح الياء وكسر الدال. الباقون بضم الياء وفتح الدال، ولم يختلفوا في ضم ياء يضل وكسر الضاد .

فمن فتح الياء وكسر الدال احتمل ذلك امرين :

احدهما ـ انه اراد ان الله لا يهدي من يضله .

والثاني ـ أن من اضله الله لا يهتدي

ومن ضم الياء أراد من أضله الله لا يقدر أحد ان يهديه ، وقوّوا ذلك بقراءة أُبي « لا هادي لمن اضل الله » واسم الله تعالى اسم (إن) و (يضل) الخبر.

ومعنى اضلال الله ـ ههنا ـ يحتمل امرين :

احدهما ـ ان من حكم الله بضلاله وسماه ضالاً ، لا يقدر أحد ان يجعله هاديا ويحكم بذلك .

والثاني ـ إن من أضله الله (عز وجل) عن طريق الجنة لا احد يقدر على هدايته اليها ، ولا يقدر هو ايضا على أن يهتدي اليها .

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله « ان تحرص » يا محمد على ان يؤمنوا ويهتدوا الى الجنة ، فهم بسوء اختيارهم لا يرجعون عن كفرهم ، والله تعالى قد حكم بكفرهم وضلالهم واستحقاقهم للعقاب ، فلا أحد يقدر على خلاف ذلك .

و (من) في الوجهين في موضع رفع، فمن ضم الياء رفعها لأنها لم يسّم فاعلها ،

ومن فتح الياء ، فلانها الفاعل . والمراد بالآية التسلية للنبي ﷺ في دعائه لمن لا يفلح بالاجابة، لانهماكه في الكفر، وان ذلك ليس تقصيراً من جهتك بل انه ليس الى فلاح مثل هذا سبيل .

وقوله « وما لهم من ناصرين » معناه ليس لهم ناصر ينصرهم ويخلصهم من العقاب ، وذلك يبين انه ليس المراد بالآية الضلال عن الدين ، وانما المراد ما قلناه من عدولهم عن الثواب الى العقاب .

والحرص طلب الشيء بجد واجتهاد ، تقول: حرص يحرص حرصاً، وحرص يحرص بكسر الراء في الماضي ، وفتحها في المستقبل، والاول لغة أهل الحجاز .

قوله تعالى :

(وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ) (٣٩) آيتان بلا خلاف .

يقول الله تعالى ثم ان هؤلاء الكفار حلفوا بالله على قدر طاقتهم وجهدهم انه لا يحشر الله أحداً يوم القيامة ، ولا يحييه بعد موته . ثم كذبهم تعالى في ذلك، فقال: «بلى» يحشرهم الله ويبعثهم « وعدا » وعدهم به ، ولا يخلف وعده .

ونصب «وعداً» على المصدر والتقدير وعد وعداً . وقال الفراء : تقديره بلى ليبعثهم وعداً حقاً، ولو رفع على معنى ان ذلك وعد عليه حق كان صوابا والمعنى وعد وعداً عليه حقاً ذلك الوعد ليس له خلف «ولكن» اكثر الناس لا يعلمون » صحة ذلك لكفرهم بالله وجحدهم انبياءه .

وقوله « ليبين لهم الذي يختلفون فيه » في دار الدنيا ، لأنه يخلق فيهم العلم

الضروري يوم القيامة» الذي يزول معه التكليف ويزول خلافهم فيه ، ويعلم ايضاً كل كافر انه كان كاذباً في الدنيا في قوله : إن الله لا يبعث احدا بعد موته ، هذا إن جعلنا قوله « ليبين » متعلقا بـ (بلى) يبعثهم الله. ويحتمل ان يكون متعلقاً بقوله «ولقد بعثنا في كل امة رسولا ..... لبين الذي يختلفون فيه» ويهديهم الى طريق الحق ويثيبهم عليه

قوله تعالى :

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(٤٠) آية بلا خلاف .

قرأ الكسائي وابن عباس « فيكون » نصباً . الباقون رفعا . فمن نصب جعله عطفا على «ان نقول... فيكون» ولا يجوز ان يكون نصبا على جواب الأمر لأن ما ينتصب لأجل جواب الأمر هو ما يكون فعلان، ويجب الثاني من اجل الاول ، كقولك ائتني فأكرمك فالاكرام يجب من اجل الاتيان ، وليس كذلك في الآية ، لانه انما هو فعل واحد أمر، واخبر انه يكون ، ولذلك اجمع القراء على رفع الذي في آل عمران في قوله « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » [1] وقد أجاز الزجاج النصب على ان يكون جواباً ، وهو غلط . من رفع اراد أن نقول له كن ، فانه يكون .

وقيل في معنى الآية قولان :

احدهما ــ انه بمنزلة قوله (كن) في انه يكون منا من غير كلفة ولا معاناة.

والثاني ــ ان قول «كن» علامة للملائكة تدلهم على انه سيحدث كذا وكذا عند سماعه .

....

(١) سورة ال عمران اية ٥٩

قوله تعالى :

(وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (٤٢) آيتان بلا خلاف .

موضع « الذين » رفع بالابتداء ، والخبر « لنبوّئنهم » يقول الله تعالى ان الذين هاجروا من ديارهم فرارا بدينهم ، واتّباعا لنبيهم ، من بعدان ظلمهم قومهم وآذوهم وبخسوهم حقوقهم ، فان الله تعالى يبوئهم في الدنيا حسنة .

والتبوء الاحلال بالمكان للمقام ، يقال تبوأ منزلا يتبوأ اذا اتخذه ، وبوأه غيره تبويئاً اذا احله غيره ، ومنه « بوّأنا بني اسرائيل مبوّء صدق »[1] وقال ابن عباس وقتادة والشعبي : تبوّأهم الله المدينة ، واحل لهم فيها غنيمة حسنة يأخذونها من اموال الكفار .

ثم اخبر ان ما اعدّه لهم من الأجر في الآخرة ونعيم الجنة اكثر من ذلك بكثير لو كانوا يعلمون . ثم وصف الذين هاجروا ، فقال الذين صبروا على جهاد اعدائه واحتملوا الأذى في جنب الله واسندوا أمرهم اليه تعالى وتوكلوا عليه ، فمن كان بهذه الصفة يستحق ما ذكرناه ، ومن كان بخلافه لم يستحق منه شيئاً . وقيل : إن الآية نزلت في عمار وصهيب وأمثالهم الذين كانوا يعذبون بمكة .

قوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ

---

(١) سورة ١٠ يونس اية ٩٣

ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (٤٤) آيتان بلا خلاف .

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ يقول له إنا لم نرسل من قبلك إلا رجالا امثالك من البشر « نوحي اليهم » أي يوحي الله اليهم . ومن قرأ بالنون ، وهو حفص ، أراد نوحي نحن، إخبار منه تعالى . ثم قال الله لهم « فاسألوا اهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » صحة ما اخبرناكم به من أنّا ارسلنا رجالا قبلك وأوحينا اليهم . وقال ابن عباس ومجاهد: المعني بأهل الذكر أهل الكتاب ومنهم من قال : المراد من آمن من اهل الكتاب ، ومنهم من قال : امر مشركي العرب ان يسألوا اهل الكتاب عن ذلك فانهم لا يتهمونهم . وقال ابن زيد: يريد اهل القرآن لان الذكر هو القرآن . وقال الرماني والازهري والزجاج : المعني بذلك اهل العلم بأخبار من مضى من الامم، سواء كانوا مؤمنين او كفاراً، وما آتاهم من الرسل قال: وفي ذلك دلالة على انه يحسن ان يرد الخصم - اذا التبس عليه امر - الى أهل العلم بذلك الشيء ان كان من اهل العقول السليمة من آفة الشبه .

والذكر ضد السهو وسمي العلم بذلك ، لأنه منعقد بالعلم ، وهو بمنزلة السبب المؤدي اليه في ذكر الدليل ؛ واذا تعلق هذا التعلق حسن ان يقع موقعه وينبىء عن معناه .

وروى جابر عن ابي جعفر (ع) انه قال : (نحن اهل الذكر) .

وقوله « بالبينات والزبر » العامل بالباء أحد امرين :

احدهما - قوله « أرسلنا » والتقدير مـا ارسلنا قبلك إلاّ رجالاً بالبينات نوحي اليهم .

الثاني - ان يكون على حذف (أرسلنا بالبينات) كما قال الأعشى :

وليس مجيراً إن أتى الحي خائف ولا قائل إلا هو المتعيّبا[1]

---

(١) ديوان (دار بيروت) ٨ وتفسير الطبري ١٤ : ٦٩

أي أعني المتعيبا، ومثل الأول، قول الشاعر:

نبئتهم عذبوا بالنار جارتهم وهل يعذب إلا الله بالنار[1]

وقوله «بالبينات والزبر» اي بالدلالات الواضحات والكتب المنزلة. والزبر الكتب، واحدها زبور، يقال: زبرت الكتاب أزبره زبراً إذا كتبته. ثم قال «وأنزلنا اليك» يا محمد «الذكر» يعني القرآن «لتبين للناس ما نزل إليهم» فيه من الاحكام والدلالة على توحيد الله، لكي يتفكروا في ذلك ويعتبروا، وانما قال «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً» مع انه أرسل قبله الملائكة، لأن المعنى وما أرسلنا من قبلك الى الأمم الماضية إلا رجالاً بدلالة الآية، لانها حجة عليهم في انكار رسول الله إلى الناس من الرجال.

قوله تعالى:

(أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّآتِ أَنْ يَخْسِفَ ٱللهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ) (٤٧) ثلاث آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ «أفأمن الذين مكروا» بالنبي والمؤمنين، وفعلوا السيئآت واحتالوا الفعل القبيح، على وجه الانكار عليهم، فاللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الانكار «أن يخسف الله بهم الارض» من تحتهم عقوبة لهم على كفرهم او يجيئهم العذاب من جهة، لا يشعرون بها، على وجه الغفلة «او يأخذهم في تقلبهم» وتصرفهم، بأن يهلكهم على سائر حالاتهم، حتى لا ينفلت منهم أحد،

---

(١) تفسير الطبري ١٤ : ٦٩ ومجمع البيان ٣ : ٣٦٢

فما هم بفائتين . والمعنى إن ما يريد الله بهم من الهلاك لا يمتنع عليه ما يريده منهم « او يأخذهم على تخوف » وقيل في معنى « تخوف » قولان :

احدهما – قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد : على تنقّص بمعنى انه يؤخذ الأول فالأول حتى لا يبقى منهم احد، لان تلك حال يخاف معها الفناء ويتخوف معها الهلاك ، وقال الشاعر :

تخوّف السيرُ منها تامكاً قرِداً كما تخوّف عود النبعة السفَن[1]

اي ينقص السير سنامها بعد تموكه ، كما ينحت العود فيدق بعد غلظه . وقال الآخر :

تخوف عدوهم مالي وأهلي سلاسل في الحلوق لها صليل[2]

والثاني - روي عن ابن عباس – في رواية أخرى – ان معناه على تفزيع . وقال الحسن : تهلك القرية فتخوف القرية الاخرى ، وقال الفراء : تخوّفته ، وتحوفته – بالخاء والحاء – إذا انتقصته من حافّاته . ومثله « ان لك في النهار سبحاً طويلاً »[3] بالخاء والحاء ، سمعت العرب تقول سبحي صوفك ، وهو شبيه بالندف ، والسبخ مثل ذلك ، قال المبرد : لا يقال تحوّفته ، وإنما هو تحيّفته .

قوله تعالى :

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ ٱللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَٱلْمَلٰئِكَةُ وَهُمْ لَا

---

(١) قائله ابن مقبل ، اللسان (خوف) وتفسير الطبري ١٤ : ٧٠ ومجمع البيان ٣ : ٣٦٣

(٢) تفسير الطبري ١٤ : ٧١ ومجمع البيان ٣ : ٣٦٣

(٣) سورة المزمل آية ٧

يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (٥٠) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي وخلف « او لم تروا » بالتاء ، الباقون بالياء .

من قرأ بالتاء حمله على الجمع . ومن قرأ بالياء ، فعلى ما قبله ، من قوله « ان يخسف الله بهم الأرض او يأتيهم... او يأخذهم »،وكان النبي ﷺ وأصحابه رأوا ذلك وتيقنوه ، فلذلك عدل عن الخطاب .

وقرأ ابو عمرو ويعقوب « تتفيؤا ظلاله» بالتاء . الباقون بالياء ، فمن أنث فلتأنيث الظلال ، لانه جمع ظل ، فكل جمع مخالف الآدميين ، فهو مؤنث تقول : هذه الاقطار وهذه المساجد. ومن ذكّر ، فلأن الظلال وإن كان جمعاً، فهو على لفظ الواحد مثل (جدار) ، لان جمع التكسير يوافق الواحد .

يقول الله تعالى لهؤلاء الكفار الذين جحدوا وحدانيته ، وكذبوا نبيه ، على وجه التنبيه لهم على توحيده « او لم يروا » هؤلاء الكفار « الى ما خلق الله » من جسم قائم ، شجر او جبل او غيره ، فصير ظلاله فيئاً اي تدور عليه الشمس ثم يرجع الى ما كان قبل زوال الشمس عنه . وقال ابن عباس (يتفيئو) يرجع من موضع الى موضع ويتميل ، يقال منه: فاء الظل يفيء فيئاً إذا رجع ، وتفيئاً يتفيئ تفيؤاً بمعنى واحد .

وقوله « عن اليمين والشمائل » معناه في اول النهار وآخره – في قول قتادة والضحاك وابن جريج – ينقلص الفيء عن الجبل من جهة اليمين وينقص بالعشي من جهة الشمال . وإنما قال عن اليمين – على التوحيد – والشمائل – على الجمع – لأحد أمرين :

احدهما – انه اراد باليمين الأيمان ، فهو متقابل في المعنى ، ويتصرف في اللفظ على الايجاز ، كما قال الشاعر :

بفيّ الشامتين الصخر ان كان هدّني زرية شبلي مخدر في الضراغم[١]

والمعنى بأفواه ، وقال آخر :

الواردون وتيم في ذرى سبإ قد عضّ اعناقهم جلد الجواميس[٢]

وقوله « سجداً لله وهم داخرون » معناه إنها خاضعة لله ذليلة ، بما فيها من الدلالة على الحاجة إلى واضعها ومدبرها ، بما لولاه لبطلت ، ولم يكن لها قوام طرفة عين ، فهي في ذلك كالساجد ، من العباد بفعله ، الخاضع بذاته ، كأنه من بسط الشمس عليه في أول النهار . ثم قبضها عنه الى الجهة الأخرى . ثم قبضها ايضاً عنه ، فتغيرت حاله . والتغيير يقتضي مغيراً غيّره ومدبّراً دبّره . قال الحسن : اما ذلك فيسجد لله، واما انت فلا تسجد لله ؟! بئس والله ما صنعت . و (الداخر) الخاضع الصاغر ، دخر يدخر دخراً ودخوراً، إذا ذل وخضع قال ذو الرمة :

فلم يبق إلا داخر في مخيّس ومنجحر في غير أرضك في جحر[٣]

ثم أخبر تعالىانه يسجد له جميع «ما في السموات ومافي الأرض» والسجود هو الخضوع بالعبادة او الدعاء إلى العبادة ، فكل شيء من مقدوراته تعالى يسجد بالدعاء إلى العبادة بما فيه من الآية ، الذي يقتضي الحاجة اليه تعالى، وكل محقّ من العباد فهو يسجد بالعبادة .

وقوله « من دابّة » معنى (من) ههنا هي التي تبيّن ، تبيين الصفة ، كأنه قال وما في الارض الذي هوَ دابّة تدبّ على الارض . وقوله « والملائكة » اي وتسجد له الملائكة ، وتخضع له بالعبادة ، و «هم» يعني الملائكة، غير مستكبرين،

---

(١) مجمع البيان ٣:٣٦٣ وتفسير الطبري ١٤:٧٣ . وروايته :

بفي الشامتين ان كان هدني ودية شبلي محدد في الضراغم

(٢) قائله جرير : ديوانه (دار بيروت) ٢٥٢ ، وتفسير الطبري ١٤:٧٣ ومجمع البيان ٣:٣٦٣ وروايته الديوان :

تدعوك تيم وتيم في قرى سبإ قد عض اعناقهم جلد الجواميس

(٣) اللسان (خيس) نسبه الى الفرزق خطأ

ولا طـــالبين بذلك التكبر بل مذعنـين بالحق متذللين ، غير آنفـين ، من الاذعان به .

« يخافون ربهم من فوقهم ، ويفعلون ما يؤمرون » قيل في معناه قولان :

احدهما – يخافون عقاب ربهم من فوقهم ، لانه يأتي من فوق .

الثاني – انه لمّا وصف بأنه عالٍ ومتعالٍ ، على معنى قادر ، لا قادر أقدر منه ، فقيل صفته في أعلى مراتب صفات القادرين ، حسن ان يقال « من فوقهم » ليدل على ان هذا المعنى من الاقتـــدار الذي لا يساويه قادر ، وقوله « ويفعلون ما يؤمرون » يعني الملائكة يفعلون ما يأمرهم الله به ، ولا يعصونه ، كما قال « لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون »[1]

قوله تعالى :

(وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ) (٥٢) آيتان بلا خلاف .

يقول الله تعالى ناهياً لعباده « لا تتخذوا إلهين اثنين » اي لا تعبدوا مع الله غيره ، فتشركوا بينهما في العبادة .

ثم اخبر انه إله واحد لا اكثر منه ، لان لفظة (إنما) تفيـــد ثبوت الإله الواحد ، ونفي ما زاد عليه على ما بيّناه فيما مضى .

وقوله «فأياي فارهبون» معناه ارهبوا عقـــابي وسخطي فلا تتخذوا معي إلهاً آخر ومعبوداً سواي .

وفي قوله « اثنين » بعد قوله « إلهين » قولان :

---

(١) سورة التحريم آية ٦

احدهما - أنه قال ذلك تأكيداً ، كما قال « إله واحد » تأكيداً .

والثاني - ان يكون المعنى لا تتخذوا إثنين إلهين ، فقدّم وأخّر وكلاهما جائزان .

وقوله « وله ما في السماوات والارض » معناه انه يجب علينا ان نتقي عقاب من يملك جميع ما في السموات والارض ، لانه مالك الضرّ والنفع .

ومعنى قوله «وله الدين واصباً » قال ابن عباس: يعني دائماً اي طاعته واجبة على الدّوام ، وبه قال الحسن ومجاهد والضّحاك وقتادة وابن زيد ، ومنه قوله « ولهم عذاب واصب »[1] يقال منه: وصبَ الدين يصبُ وصُوباً، ووصباً، قال أبو الاسود الدؤليّ :

لا أبتغي الحمدَ القليل بقاؤه يوماً بذم الدهر أجمع واصباً [2]

وقال حسّان :

غيّرته الريح تسفي به وهزيمٌ رعـــده واصب [3]

والوصب الألم الذي يكون عن الاعيـاء بدوام العمل مدة ، يقال : وصَب الرجل يوصَبُ وصباً ، فهو وصِب قال الشاعر :

لا يغمز الساق من اين ولا وَصب ولا يعضّ على شرسوفه الصفر [4]

وقيل : المعنى وله الطاعة ، وان كان فيها الوصب ، وهو الشدة والتعب .

قوله تعالى :

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ

---

(١) سورة الصافات آية ٩

(٢) تفسير الطبري ١٤ : ٧٤ وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ : ١٦٠ ومجمع البيان ٣ : ٣٦٥

(٣) ديوانه (دار بيروت) ٢١ وتفسير الطبري ١٤ : ٧٤

(٤) تفسير الطبري ١٤ : ٧٤

يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)
(٥٥) ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى لخلقه إن جميع النعم التي تكون بكم ولكم ، من صحة في جسم وسعة في رزق او ولد ، فكل ذلك من عند الله ، ومن جهته وبخلقه لها وبتمكينكم من الانتفاع بها . والفاء في قوله « فمن الله » قيل في معناه قولان :

احدهما – ان تكون (ما) بمعنى الذي ، وفيه شبه الجزاء ، كما قال تعالى « قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم »[١] ويقول القائل : مالك هو لي ولا يجوز ان يقول مالك فهو لي، لانه خبر ليس على طريق الجزاء .

والقول الثاني – على حذف الجزاء ، وتقديره ما يكن بكم من نعمة فمن الله .

وقوله «ثم إذا مسكم الضرّ فإليه تجأرون » معناه متى ما لحقكم ضر وبلاء ، وألم ، وسوء حال ، تضرعون اليه تعالى بالدعاء، وهو قول مجاهد . وأصل ذلك من جؤار الثور، يقال: جأر الثور يجأر جؤاراً إذا رفع صوته، من جوع اوغيره قال الاعشى :

وما أيْبليٌّ على هيكل ... بناه وصلّب فيه وصارا
يراوح من صلوات المليـ ... ـك طوراً سجوداً وطوراً جؤارا[٢]

وقال عدي بن زيد :

انني والله فاقبل حلفتي ... بابيل كلما صلّى جأر[٣]

وقوله « ثم إذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون » اخبار منه تعالى انه اذا كشف ضرّ من يجأر اليه ويخضع له ، ويرفع البلاء عنـه ، يصير – طائفة من الناس – يشركون بربهم في العبادة جهلا منهم بربهم، ومقابلة للنعمة التي

---

(١) سورة الجمعة آية ٨
(٢) ديوانه (دار بيروت) ٨٤ واللسان (أبل) ذكر البيت الاول فقط
(٣) اللسان (ابل) وروايته (فاسمع حلفي) .

هي كشف الضر بمعصية الشرك . وهذا غاية الجهل. وقوله «ليكفروا بما آتيناهم» اي ليكفروا بآيات إنعمنا عليهم، ورزقنـــا إياهم، فمعنى اللام في «ليكفروا» هو البيان عما هو بمنزلة العلة التي يقع لاجلها الفعل،لانهم بمنزلة من اشركوا في العبادة ليكفروا بما أوتوا من النعمة ، كأنه لا غرض لهم في شركهم إلا هذا ، مع ان شركهم في العبادة يوجب كفر النعمة بتضييع حقها ، فالواجب فيهذا ترك الكفر الى الشكر لله تعالى .

وقوله « فتمتعوا فسوف تعلمون » تهديد منه تعالى ، لان المعنى تمتعوا بما فيه معصية له تعالى، فسوف تعلمون عاقبة امركم من العقاب الذي ينزل بكم، وحذف لدلالة الكلام عليه ، وهو ابلغ .

قوله تعالى :

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلهِ ٱلْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) (٥٧) آيتان بلا خلاف .

يقول الله تعالى إن هؤلاء الكفا « يجعلون لما لا يعلمون نصيبا » معنـــاه إنهم يجعلون لما لا يعلمون انه يضر ، ولا ينفع « نصيبا مما رزقناهم » يتقربون اليه ، كما يجب ان يتقربوا الى الله تعالى، وهو ما حكى الله عنهم في سورة الانعام « من الحرث والانعام » وغير ذلك « فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا » [١] فجعلوا نصيباً لله ونصيباً للاصنام ، وهو قول مجاهد وقتادة وابن زيد . ثم أقسم تعالى فقال « تالله لتسئلن » سؤال التوبيخ ، لا سؤال الاستفهام «عما كنتم تعملون» في دار الدنيا لتلزموا به الحجة وتعاقبوا بعد اعترافكم على انفسكم . وانما كان سؤال التوبيخ ، لانه لا جواب لصاحبه الا ما يظهر به فضيحته .

---

(١) سورة الانعام اية ١٣٦

ثم اخبر تعالى عنهم بأنهم يجعلون لله البنات ، لانهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله ، كما قال تعالى « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا » [١] فقال تعالى تنزيهاً لنفسه عما قالوه « سبحانه » اي تنزيهاً له عن اتخاذ البنات .

وقوله « ولهم ما يشتهون » (ما) في قوله « ولهم ما » يحتمل وجهين من الاعراب :

احدهما ـ أن يكون في موضع نصب ، والمعنى ويجعلون لهم البنين الذين يشتهون .

والثاني ـ ان يكون في موضع رفع والتقدير ولهم البنون ، على الاستئناف .

قوله تعالى :

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (٦٠) ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخبراً عن هؤلاء الكفار الذين جعلوا لله البنات ولأنفسهم البنين . انهم متى بشر واحد منهم بأنه ولد له بنت « ظل وجهه مسوداً » أي يتغير لذلك وجهه و(ظل) يقال لما يعمل صدر النهار ، يقال : ظل يفعل كذا ومثله أضحى ، غير انه كثر ، فصار بمنزلة قولهم : أخذ يفعل ، تقول : ظللت أظل ظلولا ، ذكره الفراء .

وقوله « وهو كظيم » قال ابن عباس: معناه وهو حزين . وقال الضحاك:

---

(١) سورة الزخرف آية ١٩

كئيب ، وهو المغموم الذي يطبق فاه ، ولا يتكلم للغم الذي به ، مأخوذ من الكظامة وهو سد فم القربة .

وقوله « يتوارى من القوم » أي يختبىء ويختفي من القوم « من سوء مايشر به » من الانثى ، تميل نفسه بين أن « يمسكه على هون » أي على هوان ومشقة ، ومنه قوله « عذاب الهون » [١] وهي لغة قريش ، قال الشاعر :

فلست بوقّاف على هون [٢] .

وقال الحطيئة :

فلما خشيت الهون والعير ممسك   على رغمه ما أثبت الخيل حافره[٣]

وبعض تميم يجعلون الهون من الشيء اللين ، قال سمعت من بعضهم إن كان لقليل فهو هون المؤنة ، فاذا قالوا أقبل يمشي على هون ، لم يقولوا إلا بفتح الهاء ، ومنه قوله «وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا» [٤] قال المبرد : الهون بضم الهاء لا أعرفه في الرفق ، وانما هو بفتح الهاء ، كما يقال: سر عليه هونا أي رفقاً «أم يدسه في التراب» أي هو يميل بين إمساكه على مذلة او دفنه حيّاً في التراب . ثم أخبر تعالى فقال «ألا ساء ما يحكمون» اي بئس الحكم الذي يحكون ، يجعلون لنفوسهم ما يشتهون ، ويجعلون لله ما يكرهونه !!.

ثم قال تعالى « للذين لا يؤمنون » اي لا يصدقون بالبعث والنشور والدار الآخرة «مثل السوء. ولله المثل الاعلى » اي لهم بذلك وصف سوء ، ولله الوصف الأعلى ، من اخلاص التوحيد ، ولا ينافي هذا قوله « فلا تضربوا لله الامثال » [٥] لانه بمعنى الأمثال التي توجب الاشباه ، فأما الامثال التي يضربها الله للناس لما فيها من الحكمة من غير تشبيه له تعالى بخلقه ، فحق وصواب ، كما قال تعالى «وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » [٦] قال الرماني : وفي الآيات دلالة

---

(١) سورة الانعام آية ٩٣ وسورة الاحقاق اية ٢٠
(٢) لم أجده فيما رجعت اليه   (٣) مجمع البيان٣/٣٦٦
(٤) سورة الفرقان اية ٦٣   (٥) سورة النحل اية ٧٤
(٦) سورة العنكبوت اية ٤٣

على انه لا يجوز ان يضاف اليه تعالى الأدون بدلا من الأصلح ، لان اختيار الأدون على الاصلح صفة نقص ، وقد عابهم الله بإضافة ما لا يرضونه لنفوسهم الى ربهم ، وهو قولهم : الملائكة بنات الله ، فكما لا يرضى الانسان لنفسه النقص الذي فيه ، فهو ينفيه عنه ، وعظماء الناس واجلاؤهم يرفعون نفوسهم عن صفات الادنى ، دون العليا ، فينبغي ان ينزه تعالى عن مثل ذلك .

وقوله « وهو العليم الحكيم » معناه عالم بوضع الاشياء في مواضعها ، حكيم في انه لا يضعها الا في ما هو حكمة وصواب .

قوله تعالى :

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَآبَّةٍ وَلَـٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢) تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٦٣)

ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ نافع « مفرطون » بكسر الراء والتخفيف ، من الافراط في الشيء اي الاسراف ، بمعنى انهم مسرفون . وقرأ ابو جعفر مثل ذلك بالكسر غير انه شدد الراء من التفريط في الواجب . وقرأ الباقون بفتح الراء والتخفيف ، ومعناه انهم متروكون في النار منسيون فيها - في قول قتادة ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك - وقال الحسن وقتادة - في رواية اخرى - ان المعنى انهم مقدمون بالاعجال الى النار ، وهو من قول العرب : افرطنا فلان في طلب الماء ، فهو

مفرط اذا قدم لطلبه ، وفرط فهو فارط اذا تقدم لطلبه ، وجمعه فرّاط ، قال القطامي :

واستعجلونا وكانوا من صحابتنا كما تعجّل فرّاطٌ لورّاد[1]

ومنه قول النبي ﷺ (انا فرطكم على الحوض) اي متقدمكم وسابقكم حتى تردوه . ومنه يقال في الصلاة على الصبي الميت : اللهم اجعله لنا ولأبويه فرطا .

وروي عن النبي ﷺ انه قال : (انا والنبيون فرّاط العاصين) اي المذنبين، والتأويل الاول من قول العرب : ما أفرطت ورائي احداً اي ما خلفت ولا تركت . والمعنى يرجع الى التقدم اي ما تقدمت احداً ورائي .

اخبر الله تعالى انه لو كان ممن يؤاخذ الكفار والعصاة بذنوبهم ، ويعاجلهم بعقوباتهم واستحقاق جناياتهم وظلمهم « لما ترك » على وجه الارض احداً ممن يستحق ذلك من الظالمين . وانما يؤخرهم تفضلاً منه ليراجعوا التوبة ، او لما في ذلك من المصلحة لباقي المكلفين والاعتبار بهم، فلا تغتروا بالامهال ، انكم مثلهم في استحقاق العقاب على ظلمكم . وقيل في وجه تعميمهم بالهلاك مع ان فيهم مؤمنين قولان :

احدهما – ان الاهلاك وان عمهم فهو عذاب الظالم دون المؤمن ، لان المؤمن يعوض عليه .

الثاني – ان يكون ذلك خاصة . والتقدير ما ترك عليها من دابة من اهل الظلم . وقيل ان المعنى انه لو هلك الآباء بكفرهم لم يوجد الابناء .

وقوله « ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى » يعني الاجل الذي قدره لموتهم وهلاكهم ، فاذا جاء ذلك الاجل ، لا يتقدمون عليه لحظة ولا يتأخرون .

وقوله « عليها » يعني على الارض لدلالة قوله « ما ترك عليها من دابة » اي دابة عليها لأنها تدب على الأرض .

وقوله « يجعلون لله ما يكرهون » يعني يضيفون الى الله البنات مع كراهية

---

(١) تفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣/١٦٥ وتفسير الطبري ١٤/٧٩ واللسان (عجل)

ذلك لنفوسهم «وتصف ألسنتهم الكذب ان لهم الحسنى» فقول (ان) بدل من الكذب ، وموضعه النصب . وقيل في معناه قولان :

احدهما – قال الحسن : فيما حكاه الزجاج : ان لهم الجزاء الحسنى .
الثاني – قال مجاهد : ان لهم البنين مع جعلهم لله البنات اللاتي يكرهونهن .

ثم قال تعالى « لا جرم أن لهم النار » ومعناه حقاً أن لهم النار ، في اقوال المفسرين . وقيل : معناه لا بد ان لهم النار ، فجرم على هذا اسم ، كأنه قال : قطع ان لهم النار وقال بعضهم « جرم » فعل ماض و (لا) ردّ لكلام متقدم ، فكأنه قيل : قطع الحق أن لهم النار . وقيل: وجب قطعاً ان لهم النار .وقيل: كسب فعلهم أن لهم النار ، وانهم مفرطون مقدمون ومعجلون الى النار .وقال الخليل : « لا جرم » لا يكون الا جواباً ، تقول : فعلوا كذا وكذا ، فيقال : لا جرم انهم سيندمون قال الشاعر :

ولقد طعنت ابا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها انيغضبوا[1]

اي بعثتهم على ذلك ومثله «لا يجر منكم شقاقي»[2] اي لا يبعثكم عداوتي «على ان يصيبكم» ومثله «لا يجر منكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا»[3]

ثم اقسم تعالى ، فقال « لقد ارسلنا » يعني رسلا إلى امم من قبلك يا محمد « فزين لهم الشيطان اعمالهم » يعني كفرهم وضلالهم وتكذيب رسل الله زينه الشيطان لهم .

وقوله « فهو وليهم اليوم » قيل في معناه قولان :
احدهما – انه ناصرهم في الدنيا ، لأنه يتولى اغواءهم وسبب هلاكهم « ولهم عذاب اليم » يوم القيامة .

الثاني – انه يوم القيامة وليّهم ، لأنه لا يمكنه ان يتولى صرف المكروه عن

---

(١) مر هذا البيت في ٣/٤٢٣ ، ٥/١٧٣ ، ٥٣٤
(٢) سورة هود آية ٨٩ (٣) سورة المائدة آية ٩

نفسه ، فكيف يتولى صرفه عنهم .

ثم اخبر تعالى ان لهم عنده عذاباً أليماً موجعاً مؤلماً جزاء على كفرهم ومعاصيهم .

قوله تعالى :

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) (٦٥) آيتان بلا خلاف .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ إنَّا « ما انزلنا عليك الكتاب » يعني القرآن « إلا » وأردنا منك ان تبين « لهم » وتكشف لهم « الذي اختلفوا فيه » من دلالة التوحيد والعدل وصدق الرسل وما أوجبت فيه من الحلال والحرام «وهدى ورحمة » اي أنزلته هدى ودلالة على الحق لقوم يؤمنون . « وهدى ورحمة » نصب على انه مفعول له ، ويجوز ان يكون رفعا على الابتداء ، وانما اضافه الى المؤمنين خاصة لانتفاعهم بذلك ، وان كان دليلا وحجة للجميع ، كما قال في موضع آخر « هدى للمتقين »[١] وقال « انما انت منذر من يخشاها »[٢] وان انذر من لم يخشاها .

ثم اخبر تعالى على وجه ، من نعمه على خلقه ، فقال «والله» المستحق للعبادة هو الذي « انزل من السماء ماء » يعني غيثاً ومطراً « فأحيا به » يعني بذلك الماء « الأرض بعد موتها » اي احياها بالنبات بعد جدوبها وقحطها ، ففي ذلك اعظم دلالة واجل آية « لقوم يسمعون » ذلك ويفكرون فيه ويعتبرون به .

---

(١) سورة البقرة اية ٢ (٢) سورة النازعات اية ٤٥

قوله تعالى :

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (٦٧) آيتان بلا خلاف .

قرأ نافع وابن عامر وابو بكر عن عاصم « نسقيكم » بفتح النون الباقون بضمها . والفرق بين اسقينا وسقينا أنّ معنى اسقيناه جعلنا له شراباً دائماً من نهر أو لبن او غيرهما ، وسقيناه شربة واحدة، ذكره الكسائي قال لبيد :

سقى قومي بني مجد وأسقى نميراً والقبائل من هلال [1]

فعلى هذا هما لغتان ، والأظهر ما قال الكسائي . عند اهل اللغة . وقال قوم : سقيته ماء كقوله « وسقاهم ربهم شراباً طهورا » [2] واسقيته سألت الله ان يسقيه وانشد لذي الرّمة :

وقفت على ربع لمية ناقتي فما زلت أبكي عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد ممـا أبثّه تكلمني أحجاره وملاعبه [3]

وقيل ان ما كان من الأنهار وبطون الأودية ، فبالضم. وقال ابو عبيدة : إذا سقاه مرة يقال سقيته ، واذا سقاه دائماً يقال أسقيته .

يقول الله تعالى لخلقه المكلفين « إن لكم في الانعام » يعني الابل والبقر والغنم « لعبرة » ودلالة لأنّا « نسقيكم مما في بطونه » وقيل في تذكيره ثلاثة اقوال :

«١» ديوانه ١ : ١٢٨ ونوادر ابي زيد ٢١٣ ومجاز القران ١ : ٣٥٠ واللسان والتاج « سقى » ومجمع البيان ٣ : ٣٧٠ .

«٢» سورة الدهر اية ٢١

«٣» ديوانه ٢١٣ ونوادر ابي زيد ٢١٣ والمحاسن والاضداد للجاحظ ٣٣٥ ومجمع البيان ٣ : ٣٣٣ ، ٣٥٩ وتفسير الطبري ١٤ : ١٤ والتاج واللسان « سقى » .

احدها – انه ردّ الى واحد . لان النعم والانعام بمعنى، قال سيبويه: والاسم الواحد يجيء على (افعال) يقال هو الانعام . قال تعالى « في بطونه » ذهب الى أنه اسم واحد بلفظ الجمع ، كما أن الخيل اسم مؤنث ، لا واحد له ، والنعم اسم مذكر للجماعة ، لا واحد له ، وقال الراجز :

وطاب ألبان اللقاح فبرد[١]

رده الى اللبن .

الثاني – انه حمل على المعنى ، والتقدير بطون ما ذكرنا ، كما قال الصلتان العبدي :

إن السماحة والمروءة ضمنا قبراً بمرو في الطريق الواضح[٢]

كأنه قال شيئان ضمنا .

الثالث – لأنه في موضع (اي) كأنه قـال « نسقيكم مما في بطونه » اي من اي الانعام وكان في بطونه اللبن ، لأنه ليس كلها مما فيه لبناً .

وقوله « من بين فرث ودم لبناً خالصا »فالفرث الثفل الذي ينزل الى الكرش فبين انه تعالى يخرج ذلك اللبن الصافي ، اللذيذ ، المشهى من بين ذلك ، وبين الدم الذي في العرق النجس « سائغاً للشاربين » أي مريئاً لهم لا ينفرون منه ، ولا يشرقون بشربه ، وذلك من عجيب آيات الله ولطف تدبيره وبديع حكمته ، الذي لا يقدر عليه غيره ، ولا يتأتى من احد سواه .

ثم قال « ومن ثمرات » وهو جمع ثمرة ، وهو ما يطعمه الشجر ، ما فيه اللذة والثمرة خاصة طعم الشجر مما فيه اللذة يقال : اثمرت الشجرة إثماراً اذا حملت كالنخلة والكرمة وغيرهما من اصناف الشجر .

وقوله « يتخذون منه سكراً » قيل في معنى السكر قولان :

---

(١) تفسير الطبري ١٤ : ٨١ واللسان (جبه) ، (خرت) وقبله :

اذا رأيت انجماً من الاسد جبهته او الخرات والكتد
بال سهيل في الفضيخ ففسد وطاب ألبان اللقاح فبرد

(٢) تفسير الطبري ١٤ : ٨٤ ومجمع البيان ٣ : ٣٧٠

احدهما – تتخذون منه مـا حل طعمه من شراب او غيره ، ذكره الشعبي وغيره .

وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير وأبي رزين والحسن ومجاهد وقتادة: ان السكر ما حرم من الشراب ، والرزق الحسن ما احل منه . والسكر في اللغة على اربعة اقسام : احدها ما اسكر ، والثاني ما طعم من الطعام كما قال الشاعر:

جعلت عيب الاكرمين سكرا [١]

اي طعماً ، الثالث السكون قال الشاعر :

وجعلت عين الحرور تسكر [٢]

والرابع ، المصدر من قولك سكر سكراً ، واصله انسداد المجاري بما يلقى فيها ، ومنها السكر . وقوله « منه » الكناية راجعة الى محذوف ، قال قوم : تقديره ومن ثمرات النخيل والاعناب ما تتخذون منه ،فالهاء كناية عن (ما) المحذوفة وقال آخرون : تقديره ومن ثمرات النخيل والاعناب شيء تتخذون منه .

وقد استدل قوم بهذه الآية على تحليل النبيذ بأن قالوا: امتن الله علينا به وعدّه من جملة نعمه علينا أن خولنا الثمار نتخذ منها السكر ، والرزق الحسن . وهو لا يمتنّ بما هو محرم . وهذا لا دلالة فيه لأمور :

احدها – انه خلاف ما عليه المفسرون، لأن احداً منهم لم يقل ذلك، بل كلّ التابعين من المفسرين، قالوا: اراد ما حرم من الشراب؛ وقال الشعبي منهم: انه أراد ما حل طعمه من شراب وغيره .

والثاني إنه لو اراد بذلك تحليل السكر ، لما كان لقوله « ورزقاً حسناً » معنى، لأن ما احله واباحه ، فهو ايضا رزق حسن ، فلم فرق بينه وبين الرزق الحسن والكل شيء واحد?? وانما الوجه فيه انه خلق هذه الثمار لتنتفعوا بهـا

(١ – ٢) تفسير الشوكاني ٣ : ١٦٨ وتفسير الطبري ١٤ : ٨٤ (واللسان سكر)

فاتخذتم انتم منها ما هو محرم عليكم ، وتركتم ما هو رزق حسن. واما وجه المنّة فبالامرين معاً ثابتة ، لأن ما اباحه واحله فالمنّة به ظاهرة لتعجل الانتفاع به وما حرمه الله فوجه المنّة ايضا ظاهر به ، لانه إذا حرّم علينا ،واوجب الامتناع منه ضمن في مقابلته الثواب الذي هو اعظم النعم، فهو نعمة على كل حال .

والثالث - اذا كان مشتركاً بين المسكر وبين الطعم، وجب أن يتوقف فيه ولا يحمل على احدهما إلا بدليل ، وما ذكرناه مجمع على أنه مراد ، وما ذكروه ليس عليه دليل ، على انه كان يقتضي ان يكون ما اسكر منه يكون حلالاً ، وذلك خلاف الاجماع ، لانهم يقولون : القدر الذي لا يسكر هو المباح ، وكان يلزم على ذلك أن يكون الخمر مباحاً، وذلك لا يقوله احد؛ وكذلك كان يلزم ان يكون النقيع حلالاً ، وذلك خلاف الاجماع .

وقوله « إن في ذلك لآية لقوم يعقلون » معناه إن فيما ذكره دلالة ظاهرة للذين يعقلون عن الله ويتفهمون ويفكرون فيه .

قوله تعالى :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (٦٩) آيتان بلا خلاف .

قرىء «يعرشون» بضم الراء وكسرها ، وهما لغتان ومعناه : وما يبنونه من السقوف. وقال ابن زيد: يعني الكروم ، قال ابن عباس ومجاهد: يعني «واوحى ربك الى النحل » ألهمها الهاماً ، وقال الحسن : جعل ذلك في غرائزها اي ما

يخفى مثله عن غيرها ، وذلك الحاء في اللغة . وقال ابو عبيد : (الوحي) على وجوه في كلام العرب : منها وحي النبوة ، ومنها الإلهام ، ومنها الإشارة ، ومنها الكتاب ، ومنها الأسرار :

فالوحي في النبوة ما يوحي الله إلى الانبياء ، كقوله « إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه » (١)

والوحي بمعنى الإلهام ، قوله « واوحى ربك إلى النحل » وقوله « واوحينا إلى ام موسى » (٢) وفي الارض « بأن ربك اوحى لها » (٣)

ووحي الاشارة كقوله « فأوحى اليهم أن سبحوا » (٤) قال مجاهد : اشار اليهم ، وقال الضحاك : كتب لهم .

واصل الوحي عند العرب هو إلقاء الانسان إلى صاحبه شيئا للاستتار والاخفاء .

ووحي الاسرار مثل قوله « يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً (٥) »
فاما ما روي عن ابن عباس انه قال : لا وحي إلاّ القرآن اراد ان القرآن هو الوحي الذي نزل به جبرائيل على محمد ﷺ ، دون ان يكون انكر ما قلناه .
ويقال : أوحى له وأوحى اليه قال العجاج :

أوحى لها القرار فاستقرت (٦)

قال المبرد : ما روي عن ابن عباس إنما قاله لما سئل عما كان وضعه المختار وسماه الوحي ، فقال ابن عباس : لا وحي إلا القرآن جواباً عما أحدثه المختار وادعى تنزيله اليه .

وواحد « النحل » نحلة ، والمعنى ان الله تعالى ألهم النحل اتخاذ المنازل والاوكار ، والبيوت في الجبال ، وفي الشجر وغير ذلك « ومما يعرشون » يعني

---

(١) سورة الشورى آية ٥١
(٢) سورة القصص آية ٧
(٣) سورة الزلزال آية ٥
(٤) سورة مريم آية ١١
(٥) سورة الانعام آية ١١٢
(٦) مر هذا الرجز في ٢ : ٤٥٩ ، ٣ : ٨٤ ، ٤ : ٦١

سقوف البيوت « ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا » معناه انه تعالى ألهمها ايضاً أن تأكل من الثمرات وسائر الاشجار التي تحويها ؛ والذلل جمع ذلول ، وهي الطرق الموطأة للسلوك . وقيل : طرق لا يتوعّر عليها سلوكها عن مجاهد . وقال قتادة : معنى « ذللا » اي مطيعة ، ويكون من صفة النحل. وقال غيره : هو من صفات الطريق ومعنى « ذللا » إنه قد ذللها لك وسهل عليك سلوكها وفي ذلك اعظم العبر واظهر الدلالة علىتوحيده تعالىوأنه لا يقدر عليه سواه .

ثم قال « يخرج من بطونها » يعني بطون النحل « شراب مختلف ألوانه » من أصفر وأبيض وأحمر، مع أنها تأكل الحامض والمر فيحيله الله عسلا حلواً لذيذاً « فيه شفاء للناس » لما شفاؤها فيه ، واكثر المفسرين على ان (الهاء) راجعة إلى العسل ، وهو الشراب الذي ذكره ، وأن فيه شفاء من كثير من الأمراض ، وفيه منافع جمة . وقال مجاهد (الهاء) راجعة إلى القرآن « وفيه شفاء للناس » ، لما فيه من بيان الحلال ، والحرام ، والفتيا ، والأحكام ، والأول أوثق .

ثم اخبر تعالى ان فيما ذكره آيات واضحات ، ودلالات بينات ، لمن يتفكر فيه ويهتدي بهديه ، وانما قال « من بطونها » وهو خارج من فيها ، لان العسل يخلقه الله في بطون النحل ويخرجه إلى فيه . ثم يخرجه من فيه ، ولو قال : من فيها لظن أنها تلقيه من فيها ، وليس بخارج من البطن .

قوله تعالى :

(وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (٧٠) آية بلا خلاف .

هذه الآية فيها تعديد لنعم الله تعالى على عباده ، شيئاً بعد شيء ، ليشكروه عليها، وبحسبها يقول الله: إني أنا الذي خلقتكم وأخرجتكم من العدم إلى الوجود

وأنعمت عليكم بضروب النعم، دينيّة ودنياوية، ثم الذي خلقكم يتوفاكم ويقبضكم أي يميتكم «ومنكم من يرد إلى أرذل العمر» وهو أرداه وأوضعه، يقال منه: رذل الشيء يرذل رذالة، وأرذلته انا ارذالاً يريد به حال الذم. وقيل انه يصير كذلك في خمس وسبعين سنة – في قول علي (ع).

وقوله «لكي لا يعلم بعد علم شيئاً» اخبار منه تعالى انه إنما يردّه إلى أرذل العمر، ليرجع إلى حال الطفولية بنسيان ما كان علم للكبر، فكأنه لا يعلم شيئاً، مما كان علم. وفي ذلك أعظم دلالة وأبين اعتبار على قادر مصرف للخلق من حال إلى حال. ثم أخبر «ان الله عليم» بمصالح عباده، قادر على ما يشاء من تدبيرهم وتغيير أحوالهم.

قوله تعالى:

(وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ) (٧١) آية بلا خلاف.

قرأ أبو بكر عن عاصم «تجحدون» بالتاء على معنى: قل لهم يا محمد أمن أجل ما انعم الله عليكم، أشرتم وبطرتم وجحدتم. وقرأ الباقون بالياء.

وبّخهم الله تعالى على جحودهم نعمه، فيقول الله تعالى لخلقه، بأنه فضل بعضهم على بعض في الرزق، لانه خلق فيهم غنيّاً وفقيراً وقادراً وعاجزاً، وفضل بني آدم على سائر الحيوان في لذيذ المآكل، والمشرب، وجعل بعضهم مالكاً لبعض، وبعضهم رقّاً مملوكا.

وقوله «فما الذين فضلوا برادّي رزقهم على ما ملكت ايمانهم» قيل في معناه قولان:

احدهما – انهم لا يشركون عبيدهم في اموالهم وازواجهم حتى يكونوا فيه

سواء ، لانهم لا يرضون بذلك لانفسهم ، وهم يشركون عبيدي فيملكي وسلطاني ويوجهون العبادة والقربات اليهم ، مثل قربهم الى الله تعالى . ذكره ابن عباس وقتادة ومجاهد .

الثاني – انهم سواء في أني رزقت الجميع ، وأنه لا يمكن احد أن يرزق عبيده إلا برزقي إياه ، أفبهذه النعم التي عددتها وذكرتها « يجحدون » هؤلاء الكفار .

قوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٢) آية بلا خلاف .

يقول الله تعالى: إني أنا الذي جعلت لكم ازواجاً « من انفسكم » يعني من البشر ، والذين يلدونهم ليكون ذلك آنس لهم وأليق بقلبهم ،وخلقت من هؤلاء الأزواج بنين تسرون بهم وتتزينون بهم و « حفدة » اي.وخلق لكم حفدة . وقيل في معناه اقوال :

قال مجاهد وطاووس : هم الخدم، وقال ابن عباس: هم الخدم والاعوان ، وانشد قول جميل :

حفد الولائد حولها واستمسكت بأكفهن أزمّة الأجمال [1]

وفي رواية اخرى عن ابن عباس : إنهم البنون وبنو البنين . وفيرواية اخرى أنهم بنو امرأة الرجل من غيره . وقال الحسن : من أعانك ، فقد حفدك من

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٨٨ ، ٨٩ رواه مرتين مع اختلاف يسير ، ومجمع البيان ٣/٣٨٣ . ولم أجده في ديوان جميل بثينة ، (دار بيروت) وهو في اللسان (حفد) غير منسوب وروايته (حولهن واسلمت) بدل (وحولها واستمسكت) .

البنين وبني البنات والاعوان والاهل . وقال ابن مسعود ،وابوالضحى، وابراهيم وسعيد بن جبير : هم الاختان ، وهم ازواج البنات .

وأصل الحفد الاسراع في العمل ، ومنه يسعى ويحفد ، ومر البعير يحفد حفداناً إذا مر يسرع في سيره ، وحفد يحفد حفداً وحفداناً ، قال الراعي :

كلفت مجهولها نوقاً يمانية إذا الحداة على أكسائها حفدوا[1]

والحفدة جمع حافد ، مثل كامل وكملة . وقوله « ورزقكم من الطيبات » اي جعل لكم أشياء تستطيبونها وأباحها لكم .

وانما دخلت (من) لانه ليس كل ما يستطعمه الانسان رزقاً له ، وانما رزقه ما له التصرف فيه ، وليس لغيره منعه منه .

ثم قال « أفبالباطل » يعني عبادة الأوثان والاصنام، وماحرم عليهم الشيطان من البحائر والسائبة والوصيلة يصدقون ، وبنعمة الله التي عددها لهم «يكفرون» اي يجحدون ما أحله الله ، وما حرم عليهم .

قوله تعالى :

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلاَ تَضْرِبُوا لِلهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) (٧٤) آيتان بلا خلاف .

اخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم بأنهم يجحدون نعم الله ،بأنهم يوجّهون عبادتهم من دون الله إلى « ما لا يملك لهم رزقاً » أي لا يقدر عليه،يعني بها الأصنام التي لا تقدر لهم على نعمة ، ولا على ما يستحق به العبادة ، ولا على

---

(١) تفسير الطبري ١٤/٩٠ ومجمع البيان ٣/٣٧٣ واللسان (كسأ) وروايته (الحداد) بدل (الحداة) .

رزق يرزقونهم من السموات والأرض ، ولا يستطيعون شيئاً مما ذكرنا. ويتركون عبادة من يقدر على جميع ذلك ويفعله بهم ، ورزق السماء الغيث الذي يـأتي من جهتها ، ورزق الأرض النبات والثمار التي تخرج منها

وقوله «فلا تضربوا لله الأمثال» معناه لا تجعلوا لله الأشباه والأمثال في العبادة فإنه لا شبه له ولا مثيل ، ولا أحد يستحق معه العبادة ، وذلك في اتخـاذهم الأصنام آلهة ، ذكره ابن عباس وقتادة .

وقوله « شيئاً » نصب على أحد وجهين :

أحدهما - أن يكون بدلا من (رزقاً) والمعنى ما لا يملك لهم رزقاً قليلا ، ولا كثيراً .

والثاني - أن يكون منصوباً بـ«رزقاً» كما قال « أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً »[1] كأنه قال لا يملك لهم رزق شيء .

وقوله « ان الله يعلم » أي يعلم أنه لا تحق العبـادة إلا له «وأنتم لا تعلمون» ذلك بل تجهلونه ، ولكن يجب عليكم أن تنظروا لتعلموا صحة ما قلناه .

قوله تعالى :

(ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاه مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (٧٥) آية بلا خلاف .

قيل في معنى هذه الآية قولان :

أحدهما - أنه مثل ضرب للكافر الذي لا خير عنده ، والمؤمن الذي يكتسب الخير ، للدعاء إلى حال المؤمن ، والصرف عن حال الكافر ، وهو قول ابن عباس وقتادة .

---

(١) سورة البلد آية ١٤ - ١٥

الثاني ـ قال مجاهد : إنه مثل ضربه لعبادتهم الأوثان التي لا تملك شيئاً ، والعدول عن عبادة الله الذي يملك كل شيء ، والمعنى أن الإثنين المتساويين في الخلق إذا كان أحدهما قادراً على الإنفاق مالكاً ، والآخر عاجزاً لا يقدر على الإنفاق لا يستويان ، فكيف يسوّى بين الحجارة التي لا تتحرك ، ولا تعقل ، وبين الله تعالى القادر على كل شيء ، الرازق لجميع خلقه ، فبين بذلك لهم أمر ضلالتهم وبعدهم عن الحق في عبادة الأوثان . ثم قال « الحمد لله » أي الشكر له تعالى ، على نعمه ، لا يستحقه من لا نعمة له ، « ولكن أكثرهم لا يعلمون » ذلك .

وفي هذه الآية دلالة على أن المملوك لا يملك شيئاً ، لأن قوله « مملوكاً لا يقدر على شيء » ليس المراد به نفي القدرة ، لأنه قادر على التصرف ، وإنما المراد أنه لا يملك التصرف في الأموال ، وذلك عام في جميع ما يملك ويتصرف فيه .

قوله تعالى :

(وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (٧٦) آية بلا خلاف .

قيل في معنى ضرب هذا المثل قولان :

أحدهما انه مثل ضربه الله في من يؤمّل الخير من جهته ، وفي من لا يؤمّل ؛ فيؤمل الخير كله من الله تعالى ، لا من جهة الأوثان والعباد ، فلا ينبغي أن يسوّى بينهما في العبادة .

الثاني ـ انه مثل للكافر والمؤمن ، ووجه التقابل في ضرب المثل بهذين الرجلين أنه على تقدير : ومن هو بخلاف صفته « يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » في تدبير الأمور بالحق ، وهذا زيادة في ضرب المثل من الله تعالى ، فإنه يقول : ان الرجلين إذا كان أحدهما أبكم لا يقدر على شيء ، وهو الذي لا يسمع

شيئاً ولا يبصر ، ولا يعقل ، وهو مع ذلك « كلٌّ على مولاه » أي وليّه « أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل » مع كونه « على صراط مستقيم » والمراد أنهما لا يستويان قط . والأبكم الذي يولد أخرس لا يفهم ولا يفهم . وقيل : أنه ضرب المثل للوثن مع إنهماكهم على عبادته ، وهو بهذه الصفة. وقيل: الأبكم هو الذي لا يمكنه أن يتكلم. والكَلّ الثقل: كلَّ عن الأمر يكل كلاً إذا ثقل عليه ، فلم ينبعث فيه ؛ وكلت السكين كلولا إذا غلظت شفرتها ، وكل لسانه إذا لم ينبعث في القول لغلظه وذهاب حده ، فالأصل الغلظ الذي يمنع من النفوذ في الأمر .

وقوله « وهو على صراط مستقيم » أي هو مع أمره بالعدل ، على طريق من الحق في دعائه إلى العدل فأمره به مستقيم لا يعوّج ولا يزول عنه .

قوله تعالى :

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (٧٨) آيتان بلا خلاف .

أخبر الله تعالى أن له غيب السموات والأرض ومعناه أنه المختص بعلم ذلك، وهو ما غاب عن جميع العالمين ، مما يصح أن يكون معلوماً ، فإنه تعالى يختص بالعلم به وقال الجبائي : ويحتمل أن يكون المعنى ، ولله ملك ما غاب مما في السموات والأرض. ثم قال «وما أمر الساعة» أي مجيئها وهي يوالقيام مة ، في السرعة وقرب المجيء « إلا كلمح البصر أو هو أقرب» من ذلك مبالغة في ضرب المثل به في السرعة ، وأنه قادر عليه. ودخول «أو» في قوله «أو هو أقرب» لأحد أمرين .

أحدهما – الإبانة عن أنه ، على إحدى منزلتين إما كلمح بالبصر أو اقرب من ذلك .

والثاني – انه قال ذلك لشكّ المخاطب ، وإنما قرب امرها ، لأنه بمنزلة «كن فيكون» فمن ههنا صح انها كلمح البصر او أقرب ، ثم ذكر نعمه التي انعم بها على خلقه ، فقال «هو» تعالى «الذي اخرجكم من بطون امهاتكم» وانعم عليكم بذلك وانتم في تلك الحال «لا تعلمون شيئاً» ولا تعرفونه ، فتفضل عليكم بالحواس الصحيحة التي هي طريق العلم بالمدركات ، وجعل لكم قلوباً تفقهون بها الأشياء ، لأنها محل المعارف ، لكي تشكروه على ذلك وتحمدوه على نعمه .

قوله تعالى :

(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَٱللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ (٨٠) وَٱللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) (٨١) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ نافع وابن كثير وابو عمر «ويوم ظعنكم» بتحريك العين. الباقون بتسكينها وهما لغتان ، مثل نهر ونهر ، وسمع وسمع . وقرأ ابن عامر وحمزة وخلف ويعقوب «ألم تروا» بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على وجه التذكير لما تقدم ذكره ، والتنبيه لهم .

يقول الله تعالى منبهاً لخلقه على وجه الاستدلال على وحدانيته «ألم يروا» يعني هؤلاء الكفار الجاحدين لربوبيته « الى الطير » قد سخرها الله « في جوّ السماء » وسط الهواء، حتى مكنها ان تتصرف في جوّ السماء على حسب إرادتها، ويعلمون أن لها مسخّراً ومدبّراً، لا يشبه الاشياء ، لان من المعلوم ان احداً من البشر لا يقدر على مثل ذلك، ولا يتأتى منه ذلك ، وأن من مكّن الطير من تلك الحال قد كان يجوز ان يمكنها منه ابتداء واختراعاً ، من غير اسباب ادّت الى أن صارت على تلك الأوصاف ، لأنه قادر لا يعجزه شيء ، ولا يتعذر عليه شيء ، وأنه إنما خلق ذلك ليعتبروا به وينظروا فيه، فيصلوا به الى الثواب الذي عرّضهم له ، ولو كان فعل ذلك لمجرد الانعام به على العبد كان حسناً ، لكن ضم الى ذلك التعريض للثواب على ما قلناه .

وانما قال « ما يمسكهنّ الا الله » وهي تستمسك بالقدرة التي اعطاها الله مبالغة في الصفة بأن الله يمكّنها بالهواء الذي تتصرف فيه، لأنه ظاهر انها بالهواء تستمسك عن السقوط ، وأن الغرض من ذلك تسخير ما سخر لها. ثم قال « ان في » خلق « ذلك » ، على ما وصفه ، لدلالات لقوم يصدقون بتوحيد الله ، ويصدقون انبياءه وخص المؤمنين بذلك لامرين :

احدهما - من حيث هم المنتفعون بها دون غيرهم .

الثاني - لانهم يدلّلون بها على مخالفي التوحيد، وهي دلالة من الله للجميع، والجو - بالفتح - ما بين السماء والارض ، قال الانصاري :

ويل امها في هواء الجوّ طالبة ... ولا كهذا الذي في الارض مطلوب [(١)]

ثم عدد في الآية الأخرى نعمه ، فقال : « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً » أي مواضع تسكنون فيها « وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها » اي يخف عليكم حملها « يوم ظعنكم » أي ارتحالكم من مكان

---

(١) مجاز القرآن ١/٣٦٥ وخزانة الادب ٢/٢١٢ نسبة الى امرىء القيس بن حجر الكندي وهو موجود في ديوانه ٦٩ وروايته (لا كالتي) والطبري ١٤ / ٩٣ نسبة الى ابراهيم بن عمران الانصاري .

الى مكان « ويوم اقامتكم » يعني اليوم الذي تنزلون موضعاً تقيمون فيه ، ثم قال « وجعل لكم من أصوافها » من أصواف الضأن وأوبار الابل واشعار المعز « أثاثاً » يعني متاع البيت الكثير، من قولهم شعر أثيث اي كثير، وأثّ النبت يئث أثّاً إذ كثر والتف، وكذلك الشعر، ولا واحد للاثاث، كما لا واحد للمتاع، قال الشاعر :

اهاجتك الظعائن يوم بانوا بذي الرّئيّ الجميل من الاثاث[1]

وقوله « إلى حين » معناه . الى وقت يهلك فيه ، ثم قال « والله جعل لكم مما خلق ظلالا » يعني من الشجر وغيره ، ما تسكنون فيه من أذى الحر والبرد « وجعل لكم سرابيل » يعني قمصاً من القطن والكتان - في قول قتادة - واحدها سربال ، ويقال للدروع سرابيل، وهي التي تقي البأس ، وقال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال .

وقوله « تقيكم الحر » اي تمنعكم من الحرّ ، وخص الحر بذلك مع ان وقايتها للبرد اكثر لامرين :

احدهما - إن الذين خوطبوا بذلك أهل حرّ في بلادهم فحاجتهم الى مايقي الحر أشدّ في قول عطاء.

الثاني - انه ترك ذلك لانه معلوم ، كما قال الشاعر :

وما ادري اذا يممت وجهاً اريد الخير ايهما يليني[2]

فكنى عن الشر ، ولم يذكره ، لانه مدلول عليه ذكره الفراء .

وقوله « كذلك يتم نعمته عليكم » اي كما انعم عليكم بهذه النعم ينعم عليكم بجميع ما تحتاجون اليه ، وهو إتمام نعمه في الدنيا ، وبين انه فعل ذلك لتسلموا

---

(١) قائله محمد بن نمير الثقفي . تفسير القرطبي ١٠/١٥٣ ومجاز القرآن ١/٣٦٥ والكامل للمبرد ٣٧٦ واللسان والتاج (رأى) وروايته (اشاقتك) .

(٢) قائلة المثقب العبدي. اللسان (أمم) وتفسير القرطبي ١٠/١٦٠ وقد مر في ٢/١١٣، ٥/٥٢٩ من هذا الكتاب .

وتؤمنوا . وقرأ ابن عـــامر بفتح التـــاء ، والمعنى لتسلموا بتلك الدروع من الجراحات .

قوله تعالى :

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) (٨٣) آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه التسلية له عما كان يلحقه عند تولي الكفار عن الحق الذي يلزمهم ، واعراضهم عن القبول منه « فأن تولى » هؤلاء الكفار، وأعرضوا عنك فانه لا يلزمك تقصير من اجل ذلك ، لان الذي يلزمك « البلاغ المبين » يعني الظاهر الذي يتمكنون معه من معرفته ، وقد فعلته ، وقد حذف جميع ذلك لدلالة الكلام عليه ، ثم اخبر عنهم بأن قال هؤلاء الكفار « يعرفون نعمة الله » عليهم ، مما يجدون من خلق نفوسهم ، واقدارهم ، واكمال عقولهم وما خلق الله من انواع المنـــافع ، التي ينتفعون بها ، ثم انهم مع ذلك ينكرون تلك النعم ان تكون من جهة الله ومنسوبة اليه ، وينسبونها الى الاصنام ثم قال : « واكثرهم الكافرون » وانما قال اكثرهم مع ان جميعهم كفار لامرين :

احدهما – لأن فيهم من لم يكن الكفر ، ممن لم يبلغ حد التكليف لصغره ، ولم تقم الحجة عليه ، أو من هو ناقص العقـــل مأووف [1] فلا يحكم عليهم بالكفر .

الثاني – إن منهم من ينكر النعمة ، في حال لم يقم عليه حجة للشواغل في قلبه التي تلهيه عن تأمل امره ، والفكر في حاله ، فيكون في حال حكم الساهي والصبي ، وإن كان مكلفاً بغير ذلك من الامور ، فلا يكون كافراً بالانكار في

---

(١) معنى مأووف فيه آفة اي مرض في عقله .

تلك الحال . وقال الجبائي : هو وإن كان لفظاً خاصاً ، فهو عام في المعنى . وقال الحسن : المعنى ان جميعهم الكافرون ، وانما عزل البعض إحتقاراً له أن يذكره .

وفي الآية الثانية ـ دلالة على فساد مذهب المجبرة : من أنه ليس لله على الكافر نعمة ، وقولهم : إن جميع ما فعله بهم نقمة وخذلان ، حتى ارتكبوا المعصية ، لان الله تعالى قد بين خلاف ذلك نصاً في هذه الآية .

قوله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ (٨٥) آيتان بلا خلاف .

يقول الله تعالى إن اليوم الذي يبعث فيه « من كلّ أمّة شهيداً » يشهد عليهم بكفرهم وضلالهم وجميع معاصيهم هو يوم القيامة ، والشهيد في كل امة رسوله ، ويجوز أن يكون قوم من المؤمنين المرضيين عند الله ، وانما يقيم الشهادة عليهم مع أنه عالم بأحوالهم من حيث ان ذلك اهول في النفس واعظم في تصور الحال ، واشد في الفضيحة إذا قامت به الشهادة بحضرة الملأ التي يكون من الله التصديق لها مع جلالة الشهود عند الله بالحق .

وقوله « ثم لا يؤذن للذين كفروا ، ولا هم يستعتبون » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ انه لا يؤذن لهم في الاعتذار ، على أن الآخرة مواطن : فيها ما يمنعون وفيها ما لا يمنعون .

الثاني ـ انهم لم يؤذن لهم في الاعتذار بما ينتفعون ، ولا يعرضون للعتبى الذي هو الرضا . وقال الجبائي : المعنى ان الله يخلق فيهم العلم الضروري بانهم ان

اعتذروا لم تقبـــل معذرتهم ، وإن استعتبوا لم يعتبوا ولم يرد أنهم لا يؤمرون بالاعتذار ، ولا يمكنون منه ، لأن الأمر والتكليف قد زالا عنهم .

ثم اخبر تعالى أن الظالمين إذا رأوا العذاب يوم القيامة وشاهدوه ، فلا يخفف عنهم ذلك العذاب اذا حصلوا فيه « ولا هم ينظرون » اي لا يؤخرون الى وقت آخر ، بل عذابهم دائم في جميع الأوقات ، ووقت التوبة والندم قد فات

قوله تعالى :

(وَإِذَا رَأَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَـــالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) (٨٨) ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخبراً عن حال المشركين والكفار في الآخرة وأنهم إذا رأوا شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله . وقيل انمـــا سموا « شركاءهم » لأمرين :

احدهما - لانهم جعلوا لهم نصيباً في أموالهم .

الثاني - لانهم جعلوهم شركاء في العبادة .

ومعنى قوله « هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك » اعتراف منهم على انفسهم بأنهم كانوا يشركون مع الله غيره في العبادة .

وقوله « فالقوا اليهم القول إنكم لكاذبون » قيل في معناه قولان :

احدهما - ألقى المعبودون القـــول « انكم لكاذبون » في أنا نستحـــق العبادة .

والثاني – « انكم لكاذبون » في قولكم إنا دعوناكم الى العبادة .

وقيل : انكم لكاذبون بقولكم إنا آلهة .

والقاء المعنى الى النفس إظهاره لها ، حتى تدركه متميزاً من غيره ، فهؤلاء ألقوا القول حتى فهموا عنهم انهم كاذبون .

وقوله « وألقوا الى الله يومئذ السلم » معناه استسلموا بالذل لحكم الله – في قول قتادة – «وضل عنهم ما كانوا يفترون» اي يضل ما كانوا يأملونه ويقدرون من ان آلهتهم تشفع لهم. ثم أخبر تعالى ان الذين يكفرون بالله ويجحدون وحدانيته، ويكذبون رسله ، ويصدون غيرهم عن اتباع الحق الذي هو سبيل الله « زدناهم عذاباً فوق العذاب » . قال ابن مسعود : أفاعي وعقارب النار لها أنياب كالنخل الطوال جزاءاً «بما كانوا يفسدون» في الارض.

قوله تعالى :

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (٨٩) آية بلا خلاف .

يقول الله تعالى إن اليوم الذي « نبعث في كلّ أمة شهيداً » اي من يشهد « عليهم من أنفسهم » اي من أمثالهم من البشر . ويجوز ان يكون ذلك نبيّهم الذي بعث اليهم ، ويجوز ان يكونوا مؤمنين عارفين بالله ونبيه ، ويشهدون عليهم بما فعلوه من المعاصي .

وفي ذلك دلالة على ان كل عصر لا يخلو ممن يكون قوله حجة على اهل عصره، عدل عند الله ، وهو قول الجبائي، وأكثر أهل العدل ، وهو قولنا وإن خالفناهم في من هو ذلك العدل والحجة .

« وجئنابك» يا محمد « شهيداً »على هؤلاء يعني كفار قريش وغيرهم ، من الذين كفروا بنبوته . ثم قال « ونزلنا عليك الكتاب » يعنى القرآن « تبياناً لكل شيء » اي بياناً لكل أمر مشكل . والتبيان والبيان واحد. ومعنى العموم في قوله « لكل شيء» المرادبه من أمور الدين : إمّا بالنص عليه او الاحالة على ما يوجب العلم من بيان النبي ﷺ والحجج القائمين مقامه ، او اجماع الأمة او الاستدلال ، لان هذه الوجوه أصول الدين وطريق موصلة الى معرفته .

وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال : الكلام لا يدل على شيء ، لان كلام الحكيم يدل من وجهين :

احدهما- أنه دليل على نفس المعنى الذي يحتاج اليه .

والآخر- أنه دليل على صحة المعنى الذي يحتاج الى البرهان عليه. ولو لم يكن كذلك لخرج عن الحكمة وجرى مجرى اللغو الذي لا فائدة فيه .

وقوله « وهدى ورحمة وبشرى » يعنى القرآن دلالة ورحمة وبشارة للمسلمين بالجنة .

قوله تعالى :

(إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) (٩١) آيتان

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه « ان الله يأمر بالعدل » يعنى الانصاف بين الخلق ، وفعل ما يجب على المكلف و« الاحسان » الى الغير، ومعناه يأمركم بالاحسان ، فالأمر بالاول على وجه الإيجاب ، وبالاحسان على وجه الندب . وفي

ذلك دلالة على ان الامر يكون أمراً بالندوب اليه دون الواجب ، « وإيتاء ذي القربى » اي وأمرك باعطاء ذي القربي ، ويحتمل امرين :

احدهما – صلة الارحام ، فيكون ذلك عاماً في جميع الخلق .

والثاني – ان يكون أمراً بصلة قرابة النبي ﷺ وهم الذين أرادهم الله بقوله « فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى »[1] على ما بيناه فيما قبل

وقوله « وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي » انما جمع بين الاوصاف الثلاثة في النهي عنها مع ان الكل منكر فاحش ، ليبين بذلك تفصيل ما نهى عنه ، لان الفحشاء قد يكون ما يفعله الانسان في نفسه مما لا يظهر أمره ويعظم قبحه . والمنكر ما يظهر للناس مما يجب عليهم إنكاره ، والبغي ما يتطاول به من الظلم لغيره ، ولا يكون البغي إلا من الفاعل لغيره ، والظلم قد يكون ظلم الفاعل لنفسه . وروي عن ابي عيينة ، أنه قال: العدل هو استواء السريرة والعلانية ، والاحسان ان تكون سريرته أحسن من علانيته ، والفحشاء والمنكر ان يكون علانيته أحسن من سريرته .

ثم بين تعالى أنه يعظ بما ذكره خلقه ، لكي يتذكروا ويتفكروا ، ويرجعوا الى الحق .

ثم أمر تعالى خلقه بأن يفوا بعهده اذا عاهدوا عليه ، والعهد الذي يجب الوفاء به : هو كل فعل حسن اذا عقد عليه ، وعاهد الله ليفعله بالعزم عليه ، فانه يصير واجباً عليه ، ولا يجوز له خلافه ، ثم يكون عظم النقض بحسب الضرر به ، فأما اذا رأى غيره خيراً منه فليأت الذي هو خير وليكفّر ، عند الفقهاء . وقال اصحابنا : اذا وجد خيراً منه فعل الخير ، ولا كفارة عليه ، وهذا يجوز فيما كان ينبغي ان يشرط ، فأما اذا أطلقه وهو لا يأمن ان يكون غيره خير منه فقد أساء باطلاق العقد عليه .

---

(١) سورة الانفال آية ٤١ وقد بين معناها في ٥ : ١٤٣

ثم قال « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » نهي منه تعالى عن حنث الأيمان بعد عقدها وتأكيدها ، يقال أكدته تأكيداً ووكدته توكيداً ، والأصل الواو . وانما أبدلت الهمزة منها كما قالوا : وقيت في أوقيت .

وفي الآية دلالة على ان اليمين على المعصية غير منعقدة ، لانها لو كانت منعقدة لما جاز نقضها ، وأجمعوا على أنه يجب نقضها ، ولا يجوز الوفاء بها ، فعلم بذلك ان اليمين على المعصية غير منعقدة .

والنقض في المعاني يمكن في ما لا يجوز ان يصح مع خلافه، بل إن كان حقاً فخلافه باطل ، وإن كان باطلاً فخلافه حق ، نحو إرادة الشيء وكراهته ، والأمر بالشيء والنهي عنه والتوبة من الشيء والعود فيه وما أشبه ذلك .

وقوله « وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » اي حسيباً فيما عاهدتموه عليه « إن الله يعلم ما تفعلون» من نقض العهد والوفاء به ، وذلك تهديد ووعيد بأن يجازي على ما يكون منكم على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب.

وقيل: إن الآية نزلت في الذين بايعوا النبي ﷺ على الاسلام . وقال بعضهم نزلت في الحلف الذي كان عليه أهل الشرك ، فأمروا في الاسلام بالوفاء به ذكره ابن زيد .

قوله تعالى :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣) آيتان بلا خلاف.

هذا نهي من الله تعالى للمكلفين ان يكونوا « كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً » فواحد الانكاث نكث ، وكل شيء نقض بعد الفتل فهو أنكاث : حبلا كان او غزلاً ، يقال منه: نكث فلان الحبل ينكثه نكثاً ، والحبل منتكث اذا انتقضت قواه . و (الدخل) ما أدخل في الشيء على فساد ، والمعنى تدخلون الايمان على فساد للغرور ،وفي نيتكم الغدر بمن حلفتم له،لأنكم أكثرعدداًمنهم أو ، لان غيركم اكثر عدداً منكم وقيل الدخل الدغل والخديعة ، وإنما قيل الدخل ، لأنه داخل القلب على ترك الوفاء والظاهر على الوفاء . وقيل (دخلا) غلاً وغشاً ، ويقال : انا اعلم دخل فلان ودخله ودخلته ودخيلته ، والمعنى لا تنقضوا الايمان لكثرتكم ، وقلة من حلفتم له او لقلتكم وكثرتهم ، فاذا وجدتم اكثر منهم نقضتم بل احفظوا عهدكم. و«دخلا» منصوب بأنه مفعول له .

وقوله « ان تكون أمة هي أربا من أمة » اي اكثر عدداً لطلب العز بهم مع الغدر بالأقل ، وهو (أفعل) من الربا، قال الشاعر :

واسمر خطيّ كأن كعوبه نوى العسيب قد اربا ذراعاً على عشر[1]

ومنه أربا فلان للزيادة التي يزيدها على غريمه في رأس ماله (واربى) في موضع رفع . واجاز الفراء ان تكون في موضع نصب ، وتكون هي عماداً . وقال الزجاج : لا يجوز ذلك ، لان العماد لا يكون بين نكرتين ، لأن « امة » نكرة ، ويفارق قوله « تجدوه عند الله هو خيراً »[2] لأن الهاء في تجدوه معرفة.

وقوله « انما يبلوكم الله به » معناه إنما يختبركم الله بالامر بالوفاء ، فالهاء في (به) عائدة على الأمر ، وتحقيقه يعاملكم معاملة المختبر ليقع الجزاء بالعمل «وليبين لكم» أي ويفصل لكم ويظهر لكم « ما كنتم تختلفون » في صحته يوم القيامة.

والتي نقضت غزلها من بعد إبرام قيل : إنها ريطة بنت عمرو بن كعب ابن سعيد بن تيم بن مرة ، وكانت حمقاء، فضربه الله مثلا ، فقال «اوفوا بعهد الله إذا

---

(١) تفسير الطبرى ١٤ : ١٠٢ ومجمع البيان ٣ : ٣٨١

(٢) سورة المزمل آية ٢٠ .

عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، فتكونوا إن فعلتم ذلك كإمرأة غزلت غزلاً ، وقوت قوته وأبرمت ، فلما استحكم نقضته ، فجعلته أنكاثاً أي انقاضاً ، وهو ما ينقض من اخلاق بيوت الشعر والوبر ليغزل ثانية ، ويعاد مع الجديد ، ومنه قيل: لم بايع طائعاً ثم خرج عليك ناكثاً؟ لأنه نقض ما وكـّـده على نفسه بالايمان والعهود كفعل الناكثة غزلها .

ومعنى « أن تكون » لأن تكون « أمة » أعزّ من أمّة ، وقوم أعلى من قوم ، يريد لا تقطعوا بأيمانكم حقوقاً لهؤلاء ، فتجعلوها لهؤلاء . وقال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ، فإذا وجدوا أكثر منهم نقضوا حلف هؤلاء ، وحالفوا اولئك الذين هم أعزّ ، فنهاهم الله عن ذلك .

وقوله «ولو شاء الله لجعلكم أمّة واحدة » أخبار منه تعالى عن أن العباد إذا خالفوا أمره لم يعاجزوه ، ولم يغالبوه تعالى عن ذلك ، لأنه لو يشاء لأكرههم على أن يكونوا أمة واحدة ، لكنه يشاء أن يجتمعوا على الايمان ، على وجه يستحقون به الثواب . ومثله قوله «ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض» [(١)] كذلك قال سبحانه - ههنا - ولكن ليمتحنكم ويختبركم لتستحقوا النعيم الذي أراده لكم ، فيضل قوم ، ويستحقوا الاضلال عن طريق الجنة ، والحكم عليهم بأنهم ضالون . ويهتدي آخرون ، فيستحقوا الهدى يعني الحكم لهم بالهداية ، وإرشادهم إلى طريق الجنة . ثم قال « ولتسألن » يا معشر المكلفين « عما كنتم تعملون » في الدنيا من الطاعات والمعاصي ، فتجازون عليه بقدره .

قوله تعالى

(وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)

---

(١) سورة ٤٧ محمد آية ٤

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللهِ ثَمَناً قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ ٱللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ ٱللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (٩٦) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير ، وعاصم « ولنجزين الذين صبروا » بالنون . الباقون بالياء . من قرأ بالنون فحجته إجماعهم على قوله « ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانوا يعملون » أنه بالنون . ومن قرأ بالياء ، فلقوله « وما عند الله باق » وليجزين الله الذين صبروا .

نهى الله عباده المكلفين ان يتخذوا ايمانهم دخلاً بينهم ، وقد فسرنا معنى دخلاً ، وبيّن تعالى انه متى خالفوا ذلك زلت اقدامهم بعد ثبوتها ، وهو مثل ضربه الله، والمعنى أنهم يضلّ بعد ان كان على الهدى . وقال قوم: الآية نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام والنصرة ، نهوا عن نقض عهده ، وترك نصرته .

وقوله : « وتذوقوا السوء » يعني العذاب ، جزاء على معاصيكم وما صددتم عن اتباع سبيل الله ، ولكم مع ذلك عذاب عظيم تعذبون به . ثم نهاهم ، فقال : « ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً » أي لا تخالفوا عهد الله بسبب شيء يسير تنالونه من حطام الدنيا ، فيكون قد بعتم ما عند الله بالشيء الحقير ، وبيّن ان الذي عند الله هو خير ، وأشرف لكم إن كنتم تعلمون حقيقة ذلك وتحققونه، ثم قال : إن الذي عند الله لا ينفد ، هو باق ، والذي عندكم من نعيم الدنيا ينفد ويفنى ، ثم أخبر بأنه يجزي الصابرين على بلائه وجهاد اعدائه أجرهم وثوابهم « بأحسن ما كانوا يعملون » وإنما قال بأحسن ما كانوا ، لأن احسن أعمالهم هو الطاعة لله تعالى، وما عداه من الحسن مباح ليس بطاعة، ولا يستحق عليه أجر

ولا حد ، وذلك يدل على فساد قول من قال : لا يكون حسن احسن من حسن .

قوله تعالى :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجرَهُمْ بِأَحسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَٱلَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) (١٠٠) أربع آيات .

هذا وعد من الله تعالى بأن من عمل صالحاً من الطاعات سواء كان فاعله ذكراً او أنثى ، وهو مع ذلك مؤمن بتوحيد الله ، مقرّ بصدق أنبيائه ، فأن الله يحييه حياة طيبة . وقال ابن عباس : الحياة الطيبة هو الرزق الحلال . وقال الحسن : هي القناعة . وقال قتادة : حياة طيبة في الجنة . وقال قوم : الأولى ان يكون المراد بها القناعة في الدنيا ، لأنه عقيب ما توعد غيرهم به من العقوبة فيها مع ان اكثر المؤمنين ليسوا بمتسعي الرزق في الدنيا .

ثم أخبر انه يجزيهم زيادة على الحياة الطيبة « أجرهم » وثوابهم « بأحسن ما كانوا يعملون » وقد فسرّناه ، وإنما قال : «ولنجزينهم» بلفظ الجمع ؛ لان (مَنْ) يقع على الواحد والجميع ، فردّ الكناية على المعنى ، ثم خاطب نبيه ، فقال: يامحمد «إذا قرأت القرآن» والمراد به جميع المكلفين «فاستعذ بالله» والمعنى إذا اردت قراءة القرآن «فاستعذ بالله» كما قال: «إذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا»[1] والمعنى اذا اردتم القيام

---

(١) سورة المائدة اية ٦

اليها، لأن بعد القراءة لا يجب الاستعاذة إلا عند من لا يعتد بخلافه . وقال قوم: هوعلى التقديم والتأخير، وهذالايجوز لانه ضعيف، لانه لا يجوز التقديم، والتأخير في كل شيء، ولذلك حدود في العربية لا تتجاوز . وإنما يجوز ذلك مع ارتفاع اللبس والشبهة. والاستعاذة عند التلاوة مستحبة غير واجبة – بلا خلاف – «من الشيطان الرجيم » أي استعذ بالله من المبعّد من رحمة الله المرجوم، من سخطه .

ثم أخبر أنه « ليس » للشيطـــان سلطان ولا حجة « على الذين آمنوا » بالله وحده ولم يشركوا به سواه . وفوضوا أمرهم اليه وتوكلوا عليه . وإنما سلطانه وقدرته على الذين يتولونه ويقبـــلون منه ، وعلى الذين يشركون في عبـــادة الله سواه .

وقال الجبائي : في الآية دلالة على ان الصرع ليس من قبل الشيطان ، قال : لانه لو امكنه أن يصرعه ، لكان له عليهم سلطـان . وأجازه أبو الهذيل وابن الاخشاد، وقالا: إنه يجري مجرى قوله «كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ»[1] ولأن الله تعالى قال : « إنما سلطانه على الذين يتولّونه» وإنما أراد سلطان الاغواء والاضلال عن الحق .

ومعنى قوله « والذين هم به مشركون » فيه قولان :

احدهما – قال الربيع : من أن الذين يطيعونه فيما يدعو اليه من عبادة غير الله مشركون ، فلما كان من اطاعه فيما يدعو اليه من عبادة غير الله مشركا ، كان به مشركاً ، وهو من الايجاز الحسن .

والثاني – قال الضحاك : الذين هم بالله مشركون .

قوله تعالى :

(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا

---

(١) سورة البقرة اية ٢٧٥

أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (١٠٢) آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى: مخبراً عن احوال الكفّار بأنّا متى «بدّلنا آية مكان آية» بأن رفعنا آية ونسخناها، وأتينا بأخرى بدلها، نعلم في ذلك من مصلحة الخلق، وقد يكون تبديلها برفع حكمها مع ثبوت تلاوتها [وقد يكون برفع تلاوتها دون حكمها][1] وقد يكون برفعها. والتبديل - في اللغة - رفع الشيء مع وضع غيره مكانه، تقول: بدله تبديلاً وأبدله إبدالاً، واستبدل به استبدالاً. ثم قال: «والله أعلم بما ينزل» مما فيه صلاح الخلق من غيره. وقوله: «قالوا إنما انت مفتر» معناه يقول هؤلاء الذين جحدوا نبوتك وكفروا بآيات الله: إنما أنت يا محمد مفتر كذاب في إدعائك الرسالة من الله. ثم أخبر عنهم، فقال: «بل اكثرهم لا يعلمون» انك نبي، لتركهم النظر في معجزاتك، ولشبه داخلة عليهم، وان علمه بعضهم وكابر، وجحد ما يعلمه. ثم امره بأن يقول لهم «نزله روح القدس» يعني القرآن نزله جبريل (ع) «ليثبت الذين آمنوا» وتثبيته لهم هو استدعاؤه لهم به وبالطافه ومعونته الى الثبات على الاسلام وعلى تصديق محمد ﷺ. ثم بيّن أن القرآن هدى ودلالة وبشارة للمسلمين.

قوله تعالى:

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (١٠٣) آية بلا خلاف.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة.

قرأ حمزة والكسائي «يلحدون» بفتح الياء والحاء. والباقون بضم الياء وكسر الحاء، وهما لغتان، يقال: ألحد يلحد إلحاداً، فهو ملحد، ولحد يلحد فهو ملحود، وقيل لحد في القبر وألحد في الدين، والإلحاد الميل عن الصواب ويقال للذي يميل عن الحق ملحد، ومنه اللحد في جانب القبر.

ويقول الله تعالى لنبيه ﷺ إنا «نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه» يعني الرسول «بشر» مثله. وقال ابن عباس الذي مالوا اليه بأنه يعلم محمداً ﷺ وكان اعجمياً هو (بلعام) وكان قيناً بمكة رومياً نصرانياً. وقال الضحاك: أرادوا به (سلمان الفارسي). وقال قوم: أرادوا به إنساناً يقال له: عايش او يعيش، كان مولى لحويطب بن عبد العزى، أسلم وحسن إسلامه، فقال الله تعالى رداعليهم «لسان الذي» يميلون اليه آعجمي «وهذا» القرآن «لسان عربي مبين» كما تقول العرب للقصيدة هذا لسان فلان، قال الشاعر:

لسان السوء تهديها الينا وحنت وما حسبتك ان تحينا [٢]

والاعجمي الذي لا يفصح، والعجمي منسوب الى العجم، والاعرابي البدوي والعربي منسوب إلى العرب «ومبين» معناه ظاهر بيّن لا يشكل.

قوله تعالى:

(إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ) (١٠٥) آيتان بلا خلاف.

يقول الله تعالى «إن الذين» لا يصدقون «بآيات الله» التي اظهرها، والمعجزات التي يصدق بها قولك يا محمد «لا يهديهم الله» إلى طريق الجنة «ولهم»

---

(٢) تفسير الشوكاني ٣ : ١٨٨ ومجمع البيان ٣ : ٣٨٥ وتفسير الطبري ١٤ : ١١١

مع ذلك « عذاب أليم » في النار . ويحتمل ان يكون المراد : لا يحكم الله تعالى بهدايتهم ، لأنهم كفار .

ثم اخبر إن الذي يتخرص الكذب ، ويفتري على الله ، هو الذي لا يؤمن بآيات الله ، ويجحدها ، وهم الكاذبون ، وانما خص الذين لا يؤمنون بالله بالافتراء لانه لا يردعهم عن الكذب ايمان بالجزاء، « واولئك هم الكاذبون» على رسوله فيما ادعوا عليه . وقيل : المعنى في ذلك تعظيم كذبهم ، كما يقول القائل : هؤلاء هم الرجال .

قوله تعالى :

(مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (١٠٦) آية بلا خلاف .

نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر (رحمه الله) اكرهه المشركون بمكة بأنواع العذاب ، وقيل : إنهم غطوه في بئر ماء على ان يلفظ بالكفر ،وكان قلبه مطمئنا بالايمان ، فجاز من ذلك ، وجاء الى النبي ﷺ جزعاً فقال له النبي ﷺ كيف كان قلبك ؟ قال كان مطمئناً بالإيمـان ، فأنزل الله فيه الآية . واخبر ان الذين يكفرون بالله بعد ان كانوا مصدقين به بأن يرتدوا عن الاسلام « فعليهم غضب من الله » ثم استثنى من ذلك من كفر بلسانه ، وكان مطمئن القلب بالايمان في باطنه ، فانه بخلافه . و « من كفر » رفع بما دل عليه خبر الثاني الذي هو قوله « ولكن من شرح بالكفر صدراً » كأنه قيل فعليه غضب من الله ، كما تقول من يأتنا فمن يحسن نكرمه ، فجواب الاول محذوف كفى فيه الثاني ، وقال الزجاج « من كفر » رفع بأنه بدل من قوله « واولئك هم الكافرون» وقال ابو علي: هذه معاريض يحسن من الله مثلها ، ولا يحسن من الخلق إلا عند التقية ، قال : إلا ان على أهل العقول أن يعلموا ان الله لم يفعل ذلك الا على ما يصح ويجوز ، وليس

ذلك للانسان الا في حال التقية ، لانه لا دليل يؤمن من الخطأ عليه ، فعلى هذا يلزمه في النبي ان يحسن منه من غير تقية، لكونه معصوماً لا يكذب في اخباره ولا خلاف بين أهل العدل أنه لا يجوز اظهار كلمة الكفر إلا مع التعريض بأن ينوي بقلبه ما يخرجه عن كونه كاذباً ، فأمّا على وجه الاخبار ، فلا يجوز أصلا لانه قادر على التعريض الذي يخرج به عن كونه كاذباً .

قوله تعالى :

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (١٠٩) ثلاث آيات بلا خلاف .

قوله « ذلك » اشارة إلى ما تقدم ذكره من العذاب العظيم . أخبر الله تعالى ان ذلك العذاب العظيم إنما أعدّه لهم، لأنهم آثروا الحياة الدنيا ، والتلذذ فيها ، والركون اليها على الآخرة ،والمعنى انهم فعلوا ما فعلوه للدنيا طلباً لها دون طلب الآخرة . والعمل يجب أن يكون طلباً للاخرة ، أو للدنيا والآخرة. فأما أن يكون لمجرد الدنيا دون الآخرة فلا يجوز، لأنه إذا طلب الدنيا ترك الواجب من الطاعات لا محالة ، وكذلك لا ينبغي أن يختار المباح على النافلة لان النافلة طاعة لله . والمباح ليس بطاعة له . ثم أخبر تعالى « أن الله لا يهدي القوم الكافرين » ومعناه أحد شيئين :

احدهما – إنه لا يهديهم الى طريق الجنة والثواب، لكفرهم .

الثاني – إنه لا يحكم بهدايتهم لكونهم كفاراً . وأما نصب الدلالة ، فقد هدى الله جميع المكلفين ، كما قال « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى»[1] وقيل: إنهم لم يهتدوا بتلك الادلة، فكأنها لم تكن نصبت لهم، ونصبت

---

(١) سورة حم السجدة (فصلت) آية ١٠٧

للمؤمنين الذين اهتدوا بها ، فلذلك نفاها عنهم فكأنها لم تكن لهم ، ويجوز ان يكون المراد انه لا يهديهم بهدى المؤمنين من فعل الألطاف والمدح بالاهتداء ، لكونهم كفاراً . ثم اخبر ان اولئك الكفار هم «الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم واولئك هم الغافلون » وبينا معنى الطبع على القلوب والسمع والابصار في سورة البقرة [٢] وان ذلك سمة من الله جعلها للملائكة ليفرقوا بين الكافر والمؤمن ، جزاء وعقوبة على كفرهم ، وان ذلك غير محيل بينهم وبين اختيار الايمان لو ارادوه ، وانما وصفهم بعوم الغفلة مع الخواطر التي تزعجهم لأمرين :

احدهما ـ انهم بمنزلة الغافلين ذمّاً لهم .

الثاني - لجهلهم عما يؤدي اليه حالهم ، وان كانت الخواطر الى النظر تزعجهم.

وقوله «لا جرم انهم» معناه حقّ لهم «انهم في الآخرة هم الخاسرون» الذين خسروا صفقتهم لفوات الثواب وحصول العقاب وموضع (انهم) يحتمل أمرين من الاعراب :

احدهما ـ النصب على معنى : لا بد انهم اي لا بد من ذا ، ويجوز على جرم فعلهم أن لهم النار اي قطع بذا وتكون (لا) صلة .

والثاني - الرفع والمعنى وجب قطعاً أن لهم النار و(لا) صلة أو ردٌ لكلام من قال : ماذا لهم ؟ فقيل وجب لهم النار .

قوله تعالى :

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي

---

(١) في ١ : ٦٣ - ٦٧ . وفي ١ : ٩٠ من هذا الكتاب .

كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (١١١) آيتان بلا خلاف .

قرأ ابن عامر وحده « فَتنوا » جعل الفعل لهم . الباقون « فُتنوا» على ما لم يسم فاعله ، يقال : فتنت زيداً ، وهي اللغة الجيدة ، وحكي افتنت . وحجة من قرأ على ما لم يسم فاعله أن الآية نزلت في المستضعفين المفتنين بمكة : عمار وبلال ، وصهيب ، فانهم حملوا على الارتداد عن دينهم ، فمنهم من اعطى ذلك تقية منهم : عمار ، فانه اظهر ذلك تقية ، ثم هاجر . ومعنى قراءة بن عامر : انه فتن نفسه ، والمعنى من بعد ما فتن بعضهم نفسه باظهار ما اظهره بالتقية قال الرماني : في الآية دلالة على انهم فتنوا في دينهم بمعصية كانت منهم ، لقوله « ان ربك من بعدها لغفور رحيم » لأن المغفرة الصفح عن الخطيئة ، ولو كانوا أعطوا التقية على حقها لم تكن هناك خطيئة . وهذا الذي ذكره ليس بصحيح ، ولا في الكلام دلالة عليه ، وذلك ان الله تعالى إنما قال « ان ربك من بعدها » يعني بعد الفتنة التي فتنوا بها « لغفور رحيم » أي ساتر عليهم ، لان ظاهر ما اظهروه يحتمل القبيح والحسن ، فلما كشف الله عن باطن امورهم ، واخبر انهم كانوا مطمئنين بالايمان كان في ذلك ستر عليهم ، وازالة الظاهر المحتمل إلى الآمر الجلي ، وذلك من نعم الله عليهم .

يقول الله تعالى: إن هؤلاء الذين هاجروا بعد ما فتنوا عن دينهم ، وجاهدوا في سبيله وصبروا على الأذى في جنب الله، فان الله اقسم انه ضمن لهم أن يفعل بهم الثواب ، وساتر عليهم ، ورحيم بهم منعم عليهم .

وقوله «يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها» (يوم) منصوب بأحد شيئين :
احدهما – على معنى إن ربك من بعدها لغفور رحيم (يوم) .

الثاني – على معنى واذكر يوم ، لان القرآن عظة وتذكير ، ومعنى تجادل عن نفسها تخاصم كلُّ نفس عن نفسها ، وتحتج بما ليس فيه حجة عند الحساب ،

كما قال تعالى حكاية عنهم : « والله ربنا ما كنا مشركين »[١] وقال الأتباع « ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار »[٢] فهم يجادلون الملك السائل لهم بين يدي الله ، وقيـــل : تحتج عن نفسها بما تقدّر به ازالة العقاب عنها .

ثم اخبر الله ان كلّ نفس توّفى جزاء ما عملته على الطاعة الثواب وعلى المعصية العقاب ، ولا يظلم احد في ذلك اليوم أحداً .

قوله تعالى :

(وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (١١٢) آية بلا خلاف .

التقدير ضرب الله مثلاً مثل قرية ، وقيل في القرية التي ضرب الله بها هذا المثل قولان :

احدهما – قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : إنها مكة ، لأنها كانت بهـــذه الصفات التي ذكرها الله . وقال آخرون : اي قرية كانت على هذه الصفة ، فهذه صورتها .

وقوله « كانت آمنة مطمئنة » أي يأمن الناس فيها على نفوسهم واموالهم لا يخافون الغارة والنهب ، كما يخاف سائر العرب ، ويطمئنون فيها ، لا يحتاجون فيها ان ينتجعوا الى غيرها ، كما يحتاج غيرهم اليه ؟ وكان مع ذلك يجيؤها رزقها ، اي رزق اهلها من كل موضع ، لأنه كان يجلب اليها تفضلا منه تعالى « فكفرت بانعم الله » والمراد كفر اهلها ، « وبانعم الله » . وانما اضاف الكفر الى القرية مجازا ، ولذلك أنث الفعل . وقيل في واحد انعم الله ثلاثة اقوال :

---

(١) سورة الانعام آية ٢٣ (٢) سورة الاعراف آية ٣٧

احدها – يقال نعمة وانعم كشدة وأُشدّ .

الثاني – في جمع النعم كما قالوا أيام طعم ونعم ومثله ودّ وأودّ .

الثالث - نعماء كما جمعوا بأساء وابؤس وضراء واضر؛ وقالوا أُشد جمع ُشدّ قال الشاعر .

وعندي قروض الخير والشر كله فبؤس لدى بؤسى ونعمى بأنعم

وقوله « فأذاقها الله لباس الجوع » انما سماه لباس الجوع ، لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوب اللون وسوء الحال ما هو كاللباس . وقيل انهم شملهم الجوع والخوف كما شمل اللباس البدن . وقيل ان القحط دام بهم سنين وبلغ بهم الى ان اكلوا القد والطهن ، وهو الوبر يخلط بالدم والقراد ، ثم يؤكل ، وانما يقال لصاحب الشدة : ذق ، لانه يجده وجدان الذائق في تفقده له ، ولانه يتجدد عليه إدراكه كما يتجدد على الذائق، وهم مع ذلك خائفون وجلون من النبي صلى الله عليه وآله واصحابه يغيرون على قوافلهم وتجاراتهم « جزاء بما كانوا يصنعون » من الكفر والشرك وتكذيب الرسل ، واجرى الخطاب من أول الآية الى ههنا على التأنيث إضافة إلى القرية ، ثم قال – ههنا – « بما كانوا يصنعون » على المعنى أي بما كان أهلها يصنعون . وروي عن ابي عمرو انه قرأ «لباس الجوع والخوف» بالنصب ، كأنه ضمن فعل إرزاقهم الله لباس الجوع، قاذفاً في قلوبهم الخوف، لأن الله تعالى لم يبعث النبي بالقحط والجوع والخوف ، فقد قذف في قلوبهم الرعب من النبي وسراياه .

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ

ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَالًا طَيِّباً وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (١١٤) آيتان بلا خلاف .

قوله « ولقد جاءهم رسول منهم » يعني اهل مكة بعث الله منهم رسولاً من صميمهم ، لا من غيرهم «فكذبوه» وجحدوا نبوته « فأخذهم العذاب وهم ظالمون» أي في حال كفرهم ظالمين اخذهم العذاب ، وعذابهم هو ما سلط الله تعالى النبيّ والمؤمنين حتى قتلوهم يوم بدر وغيره من الايام ، وما حل بهم من أنواع العذاب من جهته من الخوف والجوع الذي تقدم ذكره . ومن قال : المراد بالقرية غير مكة قال: هو صفة تلك القرية التي بعث الله رسولاً منهم ، ثم خاطب المؤمنين ، فقال «كلوا» فصيغته وإن كان صيغة الأمر ، فالمراد به الإباحة ، لأن الأكل غير واجب إلاّ عند الخوف من تلف النفس ، ولا مندوب اليه إلا في بعض الاحوال «ممّا رزقكم الله » أي ملككم التصرف فيه على وجه ليس لاحد منعكم منه «حلالاً» إي جعله لكم « حلالا طيبا واشكروا نعمة الله » واعترفوا بها « ان كنتم إياه تعبدون» اي ان كنتم تعبدون الله دون غيره وليس المعنى ان كنتم تعبدون غيره ، فلا تشكروه ، بل المعنى انه لا يصح لأحد أن يشكره إلاّ بأن يوجه العبادة اليه تعالى وحده .

قوله تعالى :

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (١١٥) آية بلا خلاف .

قد بينا تفسير مثل هذه الآية في سورة البقرة [١] وهو ان الله حرم الميتة ،

---

(١) انظر ٢ : ٨٣ – ٨٦

وهوما لم يذكّ مما فيه نفس سائلة . «ولحم الخنزير» وبينا أن الخنزير جميعه حرام، وانما خص اللحم تغليظاً ، « وما أهل لغير الله به » والمعنى ما ذكر غير الله على تذكيته ، لانهم كانوا يذبحونها للاصنام ، ثم استثنى المضطر الى تناول ذلك خوف التلف ، فأباح جميع ذلك له ، واستثنى من المضطرين البغاة ، فلم يبحها لهم ، وقد بينا الخلاف فيه، وان قول مجاهد وما ذهب اليه أصحابنا هو من خرج على امام عادل . وقال قوم : معناه غير باغ بذلك الشبع والتقوي به على معصية « ولا عاد» اي يتعدى فيه ما يجوز له . وفي تفسيرنا : أن معنى ولا عاد ما ذهب اليه الحسن ، وغيره ان الذي يخرج للاعتداء على الناس من قطـــاع الطريق ، فانهم لا يرخّصون ان يأكلوا ، ذلك على وجه . ثم اخبر « ان الله غفور رحيم » اي ستار على عباده معاصيهم «رحيم» بهم بأن يغفرها لهم، بالتوبة تارة وتفضلا منه ابتداء تارة أخرى ، والمعنى إنه لا يعاقب من تناول ما حرّم عليه في حـــال الضرورة .

والاهلال رفع الصوت بالكلام ، ومنه الهلال لرفع الصوت بالتكبير عند رؤيته وشبه به صوت الصبي عند الولادة وكل ما ذكر عليه اسم معبود غير الله لا يحل أكله .

قوله تعالى :

(وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَـــلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (١١٨) ثلاث آيات .

(ما) في قوله «لما تصف» مصدرية، والتقدير : ولاتقولوا لوصف ألسنتكم الكذب

« هذا حلال وهذا حرام » وقال الزجاج : قرىء «الكُذُب» على أنــه نعت الألسنة، يقال لسان كذوب وألسنة كُذُب، وحكي أيضاً بكسر الباء رداً على (ما) وتقديره للذي تصفه ألسنتكم الكَذب ، وهذا إنما قيل لهم لما كانوا حرموه وأحلوه ، فقالوا « ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا»[١] وقدبيناه فيما تقدم. ثم أخـبر عن هؤلاء الذين يقولون على الله الكذب بأنهم «لا يفلحون » أي لا ينجون ولا يفوزون بثواب الله .

وقوله تعالى « متاع قليل » معناه متاعهم هذا الذي فعلوه وتمتعوا به « متاع قليل » ويجوز في العربية (متاعاً) أي يتمتعون بذلك متاعاً قليلا « ولهم عذاب أليم» أي في مقابلة ذلك يوم القيامة. وقوله «وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل » يعني ما ذكره في سورة الانعام في قوله « وعلى الذين هـــادوا حرمنا...»[٢] الآية، في قول قتادة والحسن وعكرمة. ثم أخبر تعالى أنه لم يظلمهم بذلك ولا يبخسهم حظهم « ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » بكفرهم بنعمة الله وجحودهم لأنبيائه ، فاستحقوا بذلك تحريم هذه الأشياء عليهم لتغيير المصلحة عند كفرهم وعصيانهم.

قوله تعالى :

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (١١٩)

آية بلا خلاف.

يقول الله تعالى إن الذي خلقك يا محمد « للذين عملوا السوء » يعني المعصيــة « بجهالة » أي بداعي الجهل ، لانه يدعو إلى القبيح ، كما أن داعي العلم يدعو إلى.

---

(١) سورة الانعام آية ١٣٩ ، انظر ٤:٣١٢ - ٣١٦

(٢) سورة الانعام آية ١٤٦ ، انظر ٤:٣٢٩ - ٣٣٢

الخير ، فقد يكون ذلك للجاهل بالشيء وقد يكون للغافل الذي يعمل عمل الجاهل بتغليب هواه على عقله .

وقوله « ثم تابوا » يعني رجعوا عن تلك المعصية ، وندموا عليها ، وعزموا على أن لا يعودوا إلى مثلها في القبح «واصلحوا» نياتهم وافعالهم ، فإن الذي خلقك من بعد فعلهم ما ذكرناه من التوبة « غفور » لهم ستّار عليهم « رحيم » بهم ، منعم عليهم . وإنما شرط مع التوبة فعل الصلاح استدعاء إلى فعل الصلاح ولئلا يغترّوا بما سلف من التوبة حتى يقع الإهمال لما يكون من الاستقبال .

قوله تعالى :

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (١٢٤) خمس آيات بلا خلاف .

اخبر الله تعالى عن ابراهيم (ع) انه « كان أمّة » واختلفوا في معناه ، فقال ابن مسعود : معناه إنه معلم الخير قدوة « قانتاً لله » مطيعاً . قال بعضهم : كان ذا أمّة « قانتاً لله » . وقال قتادة : معناه إنه امام هدى . والقانت الذي يدوم على العبادة لله ، وقيل: جعل « امة » لقيام الامة به . والحنيف المستقيم على طريق الحق . وقوله « ولم يك » يعني ابراهيم « من المشركين » الذين يعبدون مع الله غيره ، بل كان موحداً « شاكراً لانعمه » اي بل كان شاكراً لنعمه

معترفاً بها « اجتباه » يعني اختاره الله واصطفاه « وهداه الى صراط مستقيم » اي حكم بأنه على صراط مستقيم اي لطف له حتى اهتدى الى طريق الحق .

وقوله « وآتيناه في الدنيا حسنة » اي اعطيناه جزاء على هدايته في هذه الدنيا حسنة ، وهي : تنويه الله بذكره في الدنيا بطاعته لربه ، ومسارعته الى مرضاته ، وإخلاصه لعبادته ، حتى صار إماماً يقتدى به ، وعلماً يهتدى بسنته . قال قتادة : حتى ليس من اهل دين إلا وهو يتولاه ويرضاه . وقال الحسن : معنى « حسنة » يعني نبوته . وقوله « وإنه في الآخرة لمن الصالحين » اخبار منه تعالى انه مع إيتائه الحسنة في الدنيا هو في الآخرة من جملة الصالحين. وانما لم يقل: لفي اعلى منازل الصالحين ، مع اقتضاء حاله ذلك، لمدح من هو منهم، والترغيب في الصلاح ليكون صاحبه في جنب ابراهيم ، وناهيك هذا الترغيب في الصلاح ، وهذا المدح لابراهيم أن يشرف جملة هو منها، حتى يصير الاستدعاء اليها بأنه فيها.

وقوله «اوحينا اليك ان اتبع ملة ابن إبراهيم حنيفا» أي أمرناك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا مستقيم الطريق ، في الدعاء الى توحيد الله ، وخلع الانداد، والعمل بسنته ، « وما كان » يعني ابراهيم « من المشركين » بعبادة الله غيره .

وقوله « انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه » اختلفوا في معناه ، قال الحسن : معناه انه جعله عليهم بأن لعنهم بالمسخ لاعتدائهم فيه . واختلافهم فيه كان بأن قال بعضهم: هو اعظم الايام حر[illegible] ، لانه تعالى فرغ فيه من خلق الاشياء كلها . وقال آخرون: بل الاحد أفضل ، لانه ابتدا أخلق الاشياء فيه . وقال مجاهد ، وابن زيد : عدلوا عمّا أمروا به من تعظيم الجمعة .

ووجه اتصال هذه الاية بما تقدم أنه لما أمر باتباع الحق ، حذّر من الاختلاف فيه ، بما ذكره من حال المختلفين في السبت ، بما ليس لهم ان يختلفوا فيه ، فشدد عليهم فرضه، وضيق عليهم أمره وقال قوم: معنى «اختلفوا فيه» اي خالفوا فيه ، لأنهم نهوا عن الصيد فيه فنصبوا الشباك يوم الجمعة ، ودخل فيها السمك يوم السبت ، فأخذوه يوم الاحد. ثم قال « وان ربك » يا محمد «ليحكم بينهم» أي يفصل بينهم يوم القيامة في الذي كانوا مختلفين فيه ، ويبين لهم الصحيح من الفاسد

قوله تعالى :

(أدْعُ إلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحسَنُ إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلَّا بِٱللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَٱلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) (١٢٨) أربع آيات بلا خلاف .

قرأ ابن كثير وإسماعيل عن نافع « ضيق » بكسر الضاد . الباقون بفتحها ، فمن فتح اراد « ضيق » فخفف مثل سيد وسيد ، وميت وميت وهين وهين . ويجوز ان يكون أراد جمع ضيقة كما قال الشاعر :

كشف الضيقة عنا وفسح

ومن كسر يجوز أن يجعله لغتين، ويجوز أن يكون الضَّيق إسماً والضِيق مصدراً والاختيار ان يقال : الضِيق في المكان والمنزل، والضَّيق في غير ذلك، فان كان كذلك « فالاختيار ولاتك في ضَيق » لأنه تعالى لم يرد ضيق المعيشة ، ولا ضيق المنزل . وأصل « ولاتك » ولا تكن ، فاستثقلوا الضمة على الواو فنقلوها إلى الكاف، فالتقى ساكنان: الواو، والنون؛ فحذفوا الواو؛ لالتقاء الساكنين، ومن حذف النون أيضاً ، فلان النون ضارعت حروف المدّ واللين ، وكثر استعمال (كان يكون) فحذفوها كذلك ألا ترى أنك تقول: لم يكونا . والأصل يكونان فأسقطوا النون بالجزم وشبهوا لم يك في حذف النون بلم يكونا .

أمر الله تعالى نبيه محمد ﷺ أن يدعو عباده المكلفين بالحكمة ، وهو أن

يدعوهم إلى أفعالهم الحسنة التي لها مدخل في استحقاق المدح والثواب عليها ، لأن القبائح يزجر عنها ، ولا يدعو اليها ، والمباح لا يدعو إلى فعله ؛ لأنه عبث ، وإنما يدعو إلى ما هو واجب أو ندب ، لانه يستحق بفعله المدح والثواب ، والحكمة هي المعرفة بمراتب الافعال في الحسن والقبح والصلاح والفساد . وقيل لها : حكمة ، لانها بمنزلة المانع من الفساد ، وما لا ينبغي أن يختار ، والاصل المنع كما قال جرير :

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا[1]

أي امنعوهم من السفه ، والفرق بين الحكمة والعقل : أن العاقل هو العاقد على ما يمنع من الفساد ، والحكيم هو العارف بما يمنع من الفساد ، والحكمة مشتركة بين المعرفة وبين العقل المستقيم ، لان كل واحد منهما ممتنع من الفساد عار منه . والقديم تعالى لم يزل حكيماً بمعنى لم يزل عالماً ، ولا يجوز لم يزل حكيما فيما يستحق لاجل الفعل المستقيم ، وكل حكمة يكون بتركها مضيعاً لحق النعمة يجب على المكلف طلبها . معرفة كانت أو فعلا . والموعظة الحسنة . معناه الوعظ الحسن وهو الصرف عن القبيح على وجه الترغيب في تركه والتزهيد في فعله . وفي ذلك تليين القلوب بما يوجب الخشوع . وقيل : ان الحكمة النبوة . والموعظة القرآن « وجادلهم بالتي هي أحسن » فالجدال فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج « بالتي هي أحسن » وفيه الرفق والوقار والسكينة مع نصرة الحق بالحجة . ثم أخبر « ان ربك » يا محمد « اعلم بمن ضل عن سبيله » بأن عدل عنها و «أعلم» من غيره بمن اهتدى اليها وليس عليك غير الدعاء .

وقوله « وان عاقبتم فعاقبوا » قيل : في سبب نزول هذه الآية قولان :

احدهما ـ ان المشركين لما مثّلوا بقتلى أُحد . قال المسلمون: متى اظهرنا الله عليهم لنمثلن بهم اعظم مما مثلوا بنا . ذكره الشعبي وقتادة وعطاء .

---

(١) مر هذا البيت في ١ : ١٤٢ ، ٢ : ١٨٨ ، ٤ : ٤٩٦ ، ٥ : ٥١٢

الثاني ـ قال مجاهد وابن سيرين وابراهيم : انه في كل ظالم بغصب او نحوه . فإنما يجازى بمثل ما عمل .

وقيل: إن هذه الآية منسوخة بآية القتال، لان هذا قبل ان يؤمروا بالجهاد. ثم قال « ولئن صبرتم » اي إن تركتم المجازاة والقصاص وتجرعتم مرارته « لهو خير للصابرين » في العاقبة. ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته معه « واصبر » يا محمد وليس صبرك «إلا بالله» اي إلا بتوفيق الله وإقداره وترغيبه فيه «ولا تحزن عليهم» يعني على المشركين ، لإعراضهم عنك . وقيل المراد لا تحزن على قتلى أُحد لما اعطاهم الله من الخير « ولاتك في ضيق مما يمكرون » اي لا يكن صدرك ضيقاً مما يمكر به المشرك من الخديعة وغيرها ، وما فعلوا بقتلى أُحد من المثلى «إن الله مع الذين اتقوا » معاصيه خوفاً من عقابه ، بالنصر لهم والتأييد، ومع« الذين هم محسنون» في افعالهم ، غير فاعلين للقبائح يقذف في قلوب اعدائهم الرعب ، خوفاً من رسول الله وسراياه

(١٧) سورة الاسراء

هي مكية في قول مجاهد وقتادة، وهي مئة واحدى عشرة آية في الكوفي ومئة وعشر آيات في البصري والمدني .

بسم الله الرحمن الرحيم

(سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (١) وَآتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً) (٣) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ ابو عمرو وحده « ألاّ يتخذوا » بالياء . الباقون بالتاء ، والمعنى فيهما قريب ، والتقدير ، « وجعلناه هدى لبني اسرائيل ألاّ تتخذوا » وقلنا لهم : لا تتخذوا ، كما تقول : قلت لزيد قم ، وقلت له ان يقوم . وقال تعالى « قل للذين

كفروا ستغلبون [١] » بالتاء والياء . ومعنى « من دوني وكيلا » أي كافياً وربا، ونصب «ذرّيّة» على النداء، وهو خطاب لجميع الخلق، لأن الخلق كله من نسل نوح من بنيه الثلاثة : حام : وهو ابو السودان ، ويافث : وهو أبو البيضان : الروم والترك والصقالبة وغيرهم ، وسام : وهو ابو العرب والفرس . وتقديره يا ذرّيّة من حملنا، ووزن « ذرية » فعلية، من الذر، ويجوز ان يكون (فعولة) من الذر واصله (ذروية) فقلبت الواو ياء وادغمت في اليـــاء ، قال أبو علي النحوي : ويجوز ان يكون نصبا على انـــه مفعول الاتخاذ لأنه فعل يتعدى إلى مفعولين كقوله « واتخذ الله ابراهيم خليلا »[٢] وقال « اتخذوا أيمانهم جنة »[٣] وعلى هذا يكون مفعولا ثانياً على القراءتين ، ومتى نصبته على النداء ، فانما يتأتى ذلك في قراءة من قرأ بالتاء ، والاسهل أن يكون على قراءة من قرأ بالياء ، لأن اليـاء للغيبة ، والنداء للخطاب ، و(أن) في قوله « ألا تتخذوا » يحتمل ثلاثة أوجه :

احدها أن تكون (أن) الناصبة للفعل، والمعنى جعلناه هدى، كراهة أن تتخذوا ، أو لان لا تتخذوا .

والثاني - أن تكون (أن) بمعنى أي ، لانه بعد كلام تام والتقدير أي لا تتخذوا .

والثالث - أن تكون (أن) زائدة ، ويضمر القول .

والوكيل لفظه واحد ، والمراد به الجمع ، لأن معناه حينئذ(فعيلا) فيكون مفرد اللفظ والمراد به الجمع ، نحو قوله « وحسن اولئك رفيقاً »[٤] . قال أبو عبيد : أهل المدينة يقولون في نصب (سبحان) أنه اسم في موضع مصدر سبحت الله تسبيحاً، والتسبيح هو المصدر، وسبحان اسم منه ، كقولك كفّرت اليمين تكفيراً ، أو كفراناً ، والتكفير المصدر ، والكفران الاسم ، قال أميـــة ابن أبي الصلت :

---

(١) سورة آل عمران اية ١٢
(٢) سورة ٤ النساء اية ١٢٥
(٣) سورة ٥٨ المجادلة اية ١٦
(٤) سورة النساء اية ٦٩

سبحانه ثم سبحاناً يعود له وقبلنا سبح الجودي والجمد [١]

وقال بعضهم انه يجوز أن يكون نصباً على النداء، يريد: يا سبحان ومعناه: التنزيه لله والتبعيد له من كل ما لا يليق به ، والتسبيح يكون بمعنى الصلاة ، كقوله « فلولا انه كان من المسبحين [٢] أي من المصلين – ذكره اكثر المفسرين – ومنه السبحة وهي النافلة. وروي أنه كان ابن عمر يصلي سبحته في موضعه الذي يصلي فيه المكتوبة ويكون بمعنى الاستثناء ، كقوله « فلولا تسبحون » أي فلولا تستثنون ، وهي لغة لبعض أهل اليمن ، ولا وجه للكلام غيره ، لأنه قال « انا بلوناهم كما بلونا اصحاب الجنة » الى قوله « ولا يستثنون » ثم « قال: أوسطهم الم أقل لكم لولا تسبحون »[٣] فذكَّرهم تركهم الاستثناء . فأما سبحة النور التي دون الله ، قال المبرد : لا يعرف إلا من الخبر الذي روي (لولا ذلك لاحرقت سبحات وجهه) بمعنى نور وجهه أي الذي إذا رأى الرائي قال سبحان الله . وقال سيبويه (سبحان) براءة الله من السوء وهذا اسم لهذا المعنى معرفة وقال الاعشى :

أقول لما جاء ني فخزه سبحان من علقمة الفاخر [٤]

اي براءة منه ولا ينزه بلفظ سبحان غير الله ، وانما ذكره الشاعر نادراً على الاصل واجراه كالمثل في قوله « وان من شيء الا يسبح بحمده » [٥] معناه ليس شيء إلاّ وفيه دلالة على تنزيه الله مما لا يليق به ، وقولهم : سبح تسبيحاً أي قال سبحان الله ، والسبح في التعظيم الجري فيه . والاسراء سير الليل، اسرى اسراء وسرى يسرى سرى لغتان ، قال الشاعر :

وليلة ذات دجى سريت ولم يلتني عن سراها ليت [٦]

---

(١) مر هذا البيت في ٣ : ٨٢ ، ٥ : ٥٦٣ (٢) سورة ٣٧ الصافات اية ١٤٣

(٣) سورة ٢٧ القلم اية ١٧ – ٢٩

(٤) ديوانه (دار بيروت) ٩٤ وقد مر في ١: ١٢٤ ، ٨١ ، ٥ : ٢٤١ ، ٣٩٥

(٥) سورة ١٧ الاسرى آية ٤٤

(٦) تفسير القرطبي ١٠ : ٢٠٥ وروايته (ندى) بدل (دجى) وتفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٥ : ٣ ، واللسان (ليت) ولم يعرف قائله . والمعنى : سرت في ليلة ذات دجى ، ولم يؤخرني ، ولا منعني عن السير مانع .

وقوله « ليلا » معناه بعض الليل ، على تقليل وقت الاسراء ، ويقوي ذلك قراءة حذيفة ، وعبد الله « من الليل » وروت أم هاني بنت ابي طالب : أن النبي ﷺ كان في منزلها ليلة أسري به . وقال الحسن وقتادة : كان في نفس المسجد الحرام . وروي عن أم هاني أن الحرم كله مسجد . والمسجد الاقصى هو بيت المقدس ، وهو مسجد سليمان بن داود - في قول الحسن وغيره من المفسرين - وانما قيل له : الأقصى ، لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام . وقال الحسن : صلى النبي ﷺ المغرب في المسجد الحرام . ثم أسري به الى بيت المقدس في ليلة ثم رجع ، فصلى الصبح في المسجد الحرام ، فلما اخبر به المشركين كذبوا ذلك ، وقالوا : يسير مسيرة شهر في ليلة واحدة ؟! وجعلوا يسألون عن بيت المقدس وما رأى في طريقه ، فوصفه لهم شيئاً شيئاً بما يعرفونه ثم اخبرهم انه رأى في طريقه قعباً مغطاً مملوءاً ماء فشرب الماء كله ثم غطاه كما كان ، ووصف لهم صفة إبل كانت لهم في طريق الشام تحمل المتاع ، فقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق ، فقعدوا في ذلك اليوم يستقبلونها ، فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد أشرقت ، ولم تأت . وقال آخر هذا والله العير يقدمها جمل اورق ، كما ذكر محمد ، فكان ذلك معجزة له باهرة ، ودلالة واضحة لولا العناد ، وكان نفس الاسراء حجة له ﷺ لا انه يحتاج إلى دلالة كغيره ، ولذلك قال تعالى « لنريه من آياتنا » فكان الاسراء من جملة الآيات التي تأكد بها يقينه وازدادت به بصيرته ، لأنه كان قد علم نبوته بما تقدم له من الآيات ، فكان هذا على وجه التأكيد لذلك .

وعند أصحابنا وأكثر أصحاب التأويل ، وذكره الجبائي ايضاً : انه عرج به في تلك الليلة الى السماء وأت حتى بلغ سدرة المنتهى في السماء السابعة ، واراه الله من آيات السموات والارض ما ازداد به معرفة ويقيناً ، وكان ذلك في يقظته دون منامه ، والذي يشهد به القرآن الاسراء من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، والباقي يعلم بالخبر .

وقوله « الذي باركنا حوله » يعني بالثمار ومجاري الانهار ، وقيل « باركنا »

حوله بمن جعلنا حوله من الانبياء والصالحين، ولذلك جعله مقدساً. «لنريه من آياتنا» من العجائب التي فيها اعتبار.

وروي أنه كان رأى الأنبياء حتى وصفهم واحداً واحداً.

وقوله «إنه هو السميع البصير» اخبار منه تعالى أنه يجب أن يدرك المبصرات والمسموعات اذا وجدت، لأنه حي ولا يجوز عليه الآفات.

وقوله «وآتينا موسى الكتاب» يعني التوراة «وجعلناه» يعني التوراة التي انزلها «هدى» ودلالة لبني اسرائيل، وقلنا لهم «لا تتخذوا من دوني وكيلا» أي ربّاً تتوكلون عليه وكافياً تسندون اموركم اليه. وقال مجاهد: معنى «وكيلا» شريكا، قال المبرد: هذا لا شاهد له في اللغة. وقلنا يا «ذرّيّة من حملنا مع نوح» في سفينته وقت الطوفان «انه كان عبداً شكورا» يعني نوحاً كان عبداً كان لله شاكراً له على نعمه.

وروي انه اذا كان اراد أكل طعام أو شراب قال: بسم الله، وإذا شبع قال الحمد لله، ومن قال: هو نصب على أنه مفعول، فانه قال تقديره لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح وكيلاً من دوني.

قوله تعالى:

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً) (٦) ثلاث آيات بلا خلاف.

القضاء على أربعة أقسام: بمعنى الخلق والاحداث، كما قال «فقضاهن سبع

سموات »[١] وبمعنى فصل الحكم كقوله « والله يقضي بالحق[٢] وبمعنى الأمر كقوله « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا اياه »[٣] وبمعنى الاخبار كقوله « وقضينا إلى بني اسرائيل » اي اخبرناهم واعلمناهم بما يكون من الامر المذكور، من انهم سيفسدون في الارض مرتين ، ويعلون علواً كبيراً، اي عظيماً اي يتجبرون على عباد الله .

قال ابن عباس وقتادة : المبعوث عليهم في المرة الاولى جالوت الى ان قتله داود ، وكان ملكهم طالوت .

وقال سعيد ابن المسيب : هو بخت نصر ، وقال سعيد بن جبير : هو سنحاريب وقال الحسن : هم العمالقة ، وكانوا كفاراً .

والفساد الذي ذكره : هو قتلهم الناس ظلماً وتغلبهم على اموالهم قهراً واخراب ديارهم بغيا .

والآية تدل على ان قضاء الله بالمعاصي هو اخباره انها تكون .

وقوله « فلما جاء وعد أولاهما » يعني وقت فناء آجالهم ووقت عقوباتهم . والوعد هو الموعود به - ههنا - ووضع المصدر موضع المفعول به .

وقوله « بعثنا عليكم عباداً لنا اولي بأس شديد » قيل في معنى (بعثنا) قولان :

احدهما - قال الحسن : انا خلّينا بينهم وبينكم ، خاذلين لكم ، جزاء على كفركم ، ومعاصيكم ، كما قال : « انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم ازّاً »[٤]

الثاني - قال ابو علي : امرناهم بقتالكم . وقوله « فجاسوا خلال الديار » اي تردّدوا وتخللوا بين الدور ، يقال : جست أجوس جوساً وجوساناً ، قال حسان :

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ١٢ (٢) سورة ٤٠ المؤمن (غافر) آية ٢٠
(٣) سورة ١٧ الاسرى آية ٢٣ (٤) سورة ١٩ مريم آية ٨٤

ومنا الذي لاقى بسيف محمد فجاس به الاعداء عرض العساكر [١]

معناه تخللهم قتلا بسيفه ، وقيل: الجوس طلب الشيء باستقصاء. وقوله «وكان وعداً مفعولا » أي كائناً لا محالة على ما أخبرنا به، ثم قال لهم « رددنا لكم الكرة عليهم » يعني الرجعة والنصرة عليهم « وأمددناكم بأموال وبنين » أي أعناكم وكثرناكم « وجعلناكم اكثر نفيرا » اي اكثر انصاراً ، ونصبه على التمييز ، قال الزجاج : يجوز أن يكون (نفيراً) جمع نفير كعبيد وضنين ومعين. قال الفراء: زعموا أن رجلاً من همدان بعثه الله على بخت نصر ، فقتله وعاد الملك إلى بني إسرائيل فعاشوا .

قوله تعالى :

(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً) (٧) آية بلا خلاف .

قرأ الكسائي « لنسو وجوهكم » بالنون وفتح الواو ، كما يقال : لن ندعو ، فعلامة النصب فتحة الواو . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم بالياء على واحد « ليسوي » الباقون بالياء والمد ، وعلامة النصب ـ ههنا ـ حذف النون ، وإنما مدوا ، لتمكين الهمزة ، لأن كل واو سكنت وانضم ما قبلها وثبتت بعدها همزة، فلا بد من مدّ، في كلمة كانت أو كلمتين ، نحو « قالوا آمنا » [٢] وفي

---

(١) تفسير الطبري (الطبعة الاولى) ١٥ : ٢١ وتفسير الشوكاني ٣ : ٢٠٢ ولم اجده في ديوان حسان المطبوع في بيروت (دار صادر ، دار بيروت) . وهو ايضاً في تفسير القرطبي ١٠ : ٢١٦ .

(٢) سورة ٢ البقرة اية ١٤

كلمة واحدة نحو « تبوء بإثمي » [١] « وتبوء بحمله » وفي قراءة أبي « ليسؤن وجوهكم » بنون خفيفة للتأكيد ، كقوله « لنسفعاً بالناصية » [٢] .

قال أبو علي الفارسي: لما قال « لتفسدن في الأرض مرتين » وبيّن المرة الأولى قال « فإذا جاء وعد الآخرة » أي المرة الآخرة بعثناهم « ليسوءوا وجوهكم » فحذف (بعثناهم) لأنه تقدم ذكره ، لانه جواب (إذا) ، وشرطها يقتضيه ، فحذف للدلالة عليه فأما معنى «ليسؤوا» فقال أبو زيد: يقال: سؤته سأة وساءة ومساءة ومسائية وسوأية ، وقال «وجوهكم» على أن الوجوه مفعولا لـ «يسؤوا» وعدّي إلى الوجوه ، لان الوجوه قد يراد بهـا ذوو الوجوه كقوله « وكل شيء هالك إلا وجهه » [٣] وقال « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة» [٤]وقال « ووجوه يومئذ ناضرة» [٥] وقال النابغة :

أقارع عوفاً لا أحاول غيرهـا وجوه قرود تبتغي من تجادع [٦]

فكأن الوجوه إنما خصت بذلك ، لانها تدل على ما كان من تغير الوجوه من الناس ، من حزن أو مسرة ، وبشارة وكآبة .

وحجة من قرأ بالياء والجمع انه أشبه بما قبله وما بعده ، لان الذي جاء قبله «بعثنا عليكم رجالاً» وبعده «وليدخلوا المسجد» وهو بيت المقدس، والمبعوثون في الحقيقة هم الذين يسؤونهم لقتلهم إياهم وأسرهم لهم ، فهو وفق المعنى.

ومن قرأ بالياء والتوحيد ، ففاعل « ليسوءوا » أحد شيئين .

أحدهما ـ أن يكون اسم الله ، لأن الذي تقدم « بعثنا » « ورددنا لكم » و «امددناكم» .

والآخر ـ ان يكون البعث والوعد ، ودل عليه « بعثنا» المتقدم كقوله « لا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم » [٧] اي البخل .

---

(١) سورة ٥ المائدة اية ٣٠ (٢) سورة ٩٦ العلق اية ١٥
(٣) سورة ٢٨ القصص اية ٨٨ (٤) سورة ٨٠ عبس اية ٤٠
(٥) سورة ٧٥ القيامة اية ٢٣ (٦) ديوانه (دار بيروت) ٨٠ واللسان (جدع)
(٧) سورة ٣ آل عمران اية١٨٠

ومن قرأ بالنون كان المعنى كقول من قدر أن الفعل ما تقدم من اسم الله وجاز ان تنسب المساءة الى الله ، وإن كانت من الذين جاسوا خلال الديار في الحقيقة ، لانهم فعلوها بقدرة الله وتمكينه ، فجاز ان تنسب اليه ، كما قال « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » [1] ويجوز ان يكون اللام في قوله «ليسؤوا» «وليدخلوا» «وليتبروا» لام العاقبة ، لان الله لا يريد منهم ذلك من حيث كان ذلك ظلماً وفساداً.

يقول الله تعالى لخلقه من المكلفين « إن أحسنتم » اي فعلتم الافعال الحسنة من الإنعام الى الغير ، والافعال الجميلة التي هي طاعة « أحسنتم لانفسكم » ، لان ثواب ذلك ، واصل اليكم « وإن أسأتم » إلى الغير وظلمتموه «أسأتم» لانفسكم لأن وبال ذلك وعقابه واصل اليكم ، وإنما قال « فلها » ليقابل قوله « احسنتم لانفسكم » والمعنى ان اسأتم فإليها ، كما يقال : احسن إلى نفسه ليقابل اساء الى نفسه ، على ان حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض اذا تقاربت معانيها ، قال تعالى « بأن ربك اوحى لها » [2] والمعنى اوحى اليها . ومعنى انت في منتهى الاساءة ، وانت المختص بالاساءة ، متقارب .

« فإذا جاء وعد الآخرة » يعني وعد المرة الآخرة « ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد » يعني المبعوثين عليكم « كما دخلوه » في المرة الاولى يعني غيرهم ، لان هؤلاء بأعيانهم لم يدخلوها في الدفعة الاولى « وليتبروا ما علوا تتبيرا » فالتبار والهلاك ، والدمار واحد ، وكل ما انكسر من الزجاج والحديد والذهب تبر . ومعنى «ما علوا تتبيرا» ما غلبوا عليه ، وجواب (اذا) محذوف وتقديره : فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم . وقيل: بعثناهم ليسؤوا .

قوله تعالى :

(عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ

---

(١) سورة ٨ الانفال اية ١٧ (٢) سورة ٩٩ الزلزال اية ٥

لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً (٨) إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (٩) وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) (١٠)

ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيه ﷺ : بأن قل لبني اسرائيل «عسى ربكم أن يرحمكم » إن أقمتم على طاعته وترك معاصيه (وعسى) من الله واجبة ، ويجوز ان يكون بمعنى الايهام على المخاطب . وقوله « وإن عدتم » يعني في معاصي الله، والكفر به وجحد أنبيائه « عدنا » في عذابكم ، والتسليط عليكم ، كما فعلناه أول مرة ، وقال ابن عباس وقتادة : عادوا فبعث الله عليهم المسلمين يذلونهم بالجزية والمحاربة إلى يوم القيامة . قوله « وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » قال ابن عباس ومجاهد وابن زيد وقتادة : محبساً، والحصير الحبس ، ويقال للملك حصير ، لأنه محجوب ، قال لبيد :

وقماقم غلب الرقاب كأنهم جنّ لدى باب الحصير قيام[1]

وقال الحسن: يعني مهاداً، كما قال « لهم من جهنم مهاد »[2] والحصير البساط المرمول ، يحصر بعضه على بعض بذلك الضرب من النسج ، ويقال للجنبين : الحصيران ، لحصرهما ما أحاطا به من الجوف وما فيه . وقيل لأن بعض أضلاعه حصر مع بعض، ويسمى البساط الصغير حصيراً، وحصير بمعنى محصور، كرضي بمعنى مرضي .

ثم أخبر تعالى أن هذا القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ « يهدي » اي يدل

---

(١) ديوانه ٢/٣٩ وتفسير القرطبي ١٠/٢٢٤ ومجاز القرآن١/٣٧١وتفسير الطبري ١٥/ ٣٠: وسمط اللالي ٩٥٥ وروح المعاني ١٥/٢١ والصحاح، والتاج، واللسان (حصر)

(٢) سورة ٧ الاعراف آية ٤١

« للتي هي أقوم » قال الفراء : لشهادة أن لا إله إلا الله . ويحتمل أن يكون المراد يهدي لجميع سبل الدين ، التي هي أصوب من غيرها : من توحيد الله ، وعدله ، وصدق انبيائه ، والعمل بشريعته ، وفعل طاعاته ، وتجنب معاصيه « ويبشر المؤمنين » يعني القرآن يبشرهم « بأن لهم أجراً كبيراً » وثواباً عظيماً ، على طاعاتهم ، ويبشرهم أيضاً بـ « أن الذين لا يؤمنون بالآخرة » ويجحدون البعث والنشور أعد الله لهم « عذاباً أليماً » يعني مؤلماً موجعاً ، « واعتدنا » أصله أعددنا فقلبت إحدى الدالين تاء ، فراراً من التضعيف إلى حرف من مخرج الدال ، وتكون البشارة قد أوقعت على أن لهم الجنة ، وأن لعدوهم النار ، فلذلك نصب (أن) في الموضعين . ويحتمل أن يكون نصب (أن) الثانية على حذف اللام ، والتقدير ، لأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ، ولو كسرت على الاستئناف جاز غير أنه لا يقرأ به احد .

قوله تعالى :

(وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا) (١٢) آيتان بلا خلاف.

قيل في معنى قوله « ويدع الانسان » قولان :

احدهما - ما ذكره ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، ومجاهد انه يدعو على نفسه وولده عند غضبه ، فيقول: اللهم العنه واغضب عليه وما اشبهه ، فيمنعه الله ، ولو اعطاه لشق عليه .

والثاني- قال قوم: انه يطلب ما هو شرّ له لتعجيل الانتفاع به مثل دعائه بما هو خير له ، ويقوي ذلك قوله « وكان الانسان عجولا » ومعنى قوله « وكان

الانسان عجولا » قال مجاهد : لأنه يعجل بالدعاء بما لا يجوز . وقال ابن عباس: على طبع آدم لمـــا نفخ فيه الروح فبلغت إلى رجليه ، قبل ان تجري فيها ، رام النهوض .

والعجلة طلب الشيء قبل وقته الذي لا يجوز تقديمه عليه او ليس بأولى فيه والسرعة عمل الشيء في أول وقته الذي هو أولى به .

ثم أخبر أنه تعالى جعل « الليل والنهار آيتين » يريد الشمس والقمر في هذا الموضع - عند قوم - وقال الجبائي: هما الليل والنهار، وهو الظاهر، وهما دليلان على توحيد الله ، لأن احداً لا يقدر على الاتيان بالنهار، ولا على اذهابه والاتيان بالليل ، وانما يقدر عليه القادر لنفسه الذي لا يتعذر عليه شيء .

ثم اخبر انه جعل احدى الآيتين ممحوة وهي الليل اي لا تبصر فيها المرئيات كما لا يبصر ما يمحى من الكتاب ، وهو من البلاغة العظيمة

وقال ابن عباس : محو آية الليل السواد الذي في القمر ، وروي عن علي(ع) أنه اللطخة التي في القمر .

وقوله « وجعلنا آيه النهار مبصرة » قيل في معناه قولان :

أحدهما - مضيئه للابصار .

الثاني - جعلنا أهله بصراء فيه كما يقال : رجل مخبث أي أهله خبثاء ورجل مضعف أي أهله ضعفاء ، فكذلك النهار مبصراً أي أصحابة بصراء . ثم بين الغرض بذلك ، وانما جعله كذلك « لتبتغوا فضلا » أي تطلبوا فضلا من ربكم « ولتعلموا عدد السنين والحساب » في موافيتكم ومعاملاتكم ومعرفة سنينكم وغير ذلك ، فيكثر بذلك انتفاعكم « وكل شيء فصلناه تفصيلا » أي ميزنا كل شيء تمييزاً ظاهراً بيناً لا يلتبس ، وبيناه بياناً لا يخفى .

قوله تعالى :

(وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً (١٣) إِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) مَنِ ٱهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) (١٥) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ أبو جعفر « ويخرج » بضم الياء ، وفتح الراء ، وقرأ يعقوب بالياء وفتحها وضم الراء . الباقون بالنون ، وضمها ، وكسر الراء . واتفقوا على نصب « كتاباً » وقرأ ابن عامر وأبو جعفر « يلقاه » بضم الياء ، وفتح اللام وتشديد القاف . الباقون بفتح الياء وسكون اللام وفتح القاف وتخفيفها ، ونصب كل انسان بفعل يفسره « ألزمناه » وتقديره ألزمنا كل انسان ألزمناه ، كما قال « والقمر قدرناه »[1] فيمن نصب . ومعنى طائره قال ابن عباس ، ومجاهد وقتادة : عمله من خير أو شر كالطائر الذي يجيء من ذات اليمين ، فيتبرك به ، والطائر الذي يجيء من ذات الشمال فيتشاءم به ، وطائره عمله . والزام الله طائره في عنقه : الحكم عليه بما يستحقه من ثواب أو عقاب . وقيل : معناه ان يحكم بأن عمله كالطوق في عنقه . ثم اخبر تعالى أنه يخرج للانسان المكلف يوم القيامة كتاباً فيه جميع أفعاله مثبتة ما يستحق عليه ثواب او عقاب .

وقوله « يلقاه » قرأه ابن عامر بضم الياء وفتح اللام ، وتشديد القاف ، بمعنى ان الملائكة يستقبلونهم . الباقون بفتح الياء والقاف ، بمعنى أنهم يلقونه ويرونه .

فمن قرأ بالتخفيف ، فمن لقيت الكتاب ، فاذ ضاعفت قلت لقانيه ، وقد يتعدى بتضعيف العين الى مفعولين بعد ان كان متعدياً الى مفعول واحد ، فاذا بني للمفعول به نقص مفعول واحد من المفعولين ، لأن أحدهما يقول مقام الفاعل ،

---

(١) سورة يس آية ٣٩

لاسناد الفعل اليه، فيبقى متعدياً الى مفعول واحد ، وعلى هذا قوله « ويلقّـون فيها تحية وسلاماً »[١] وفي البناء للفاعل «ولقّاهم نضرة وسروراً»[٢] وحكي عن الحسن ومجاهد أنهما قرءا « ويخرج » بفتح الياء وضم الراء، والمعنى يخرج طائره له « كتاباً » نصب على التمييز، وقيل في (طائره) أنه عمله . وقيل : أنه حظه، وما قدّمه من خير او شرّ قال المؤرج : الطائر العمل، بلغة الانصار ، ويكون المعنى على هذا ويخرج عمله له كتاباً أي ذا كتاب ، ومعناه أنه مثبت في الكتاب الذي قال فيه « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها »[٣] وقال « هاؤم اقرؤا كتابيه »[٤] وانما قيل لعمله طائره ـ وطيره في بعض القراءات ـ على تعارف العرب، يقولون: جرى طائره بكذا ، ومثله قوله « قالوا طائركم معكم »[٥] وقوله « انما طائرهم عند الله »[٦] وقال ابو زيد: ما مر من طائر أو ظبي أو غيره ، كل ذلك عندهم طائر ، قال ابو زيد : قولهم : سألت الطير ، وقلت للطير ، انما هو زجر ، وقولهم زجرني الظباء والطير معناه وقع زجري عليهما ، على كذا وكذا ، من خير أو شرّ ، ومنه قول الكميت :

ولا أنا ممن يزجر الطير همّـه ... أصاح غراب أو تعرّض ثعلب[٧]

وقال حسان :

ذريني وعلمي بالامور وشيمتي ... فما طائري فيها عليك بأخيلا[٨]

اي ليس رأيي بمشوم ، وقال كثير :

أقول إذا ما الطير مرّت مخيلة ... لعلك يوماً فانتظر ان تنالها[٩]

معنى مخيلة مكروهة من الاخيل ، ومعنى « في عنقه » لزوم ذلك له، وتعلقه

---

(١) سورة الفرقان آية ٧٥ (٢) سورة الدهر آية ١١
(٣) سورة الكهف آية ٥٠ (٤) سورة الحاقة اية ١٩
(٥) سورة ٣٦ يس اية ١٩ (٦) سورة الاعراف ١٣١
(٧) امالي الشريف المرتضى ١ : ٦٧ ومجمع البيان ٣ : ٤٠٣
(٨) ديوانه ٢٠٦ واللسان (خيل) ومجمع البيان ٣ : ٤٠٣
(٩) مجمع البيان ٣ : ٤٠٣

به ، ومثله قولهم : طوقتك كذا ، وقلدتك كذا اي الزمته إياك ومثله ، قلده السلطان كذا ، اي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ، وإنما خصّ إلزام الطائر بالعنق ، لأنه إضافة ما يزين من طوق ، او ما يشين من عمل يضاف الى الاعناق، ولأن في عرف الناس ان يقولوا: هذا في رقبتك. وقد يضاف العمل الى اليد ايضاً كما قال « ذلك بما قدمت ايديكم » [1] وإن كان كسبه بفرجه ولسانه ، وغير ذلك ، وإنما يذم بذلك على وجه التقريع والتبكيت بما فعله من المعاصي ، ويكون في العلم بذلك لطف في دار الدنيا ، وان كان الله عالماً بتفصيل ما فعلوه .

وقوله « كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » اي حسبك نفسك اليوم حاكماً عليك في عملك وما تستحقه من ثواب على الطاعة ومن عقاب على المعصية ، لانه أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك بعملك . وقيل معنى « حسيباً » شاهداً وشهيدا .

وقوله « من اهتدى » يعني فعل الخيرات والطاعات وانتفع بهداية الله إياه « فإنما يهتدي لنفسه » وأن ثواب ذلك واصل اليه « ومن ضلّ » اي جار عن الحق وعدل عن الصواب وارتكب المعاصي « فإنما يضل عليها » اي يجور عليها لأن عقاب ذلك ووباله واصل اليه ، لأن الله تعالى قال « لا تزر وازرة وزر أُخرى» اي لا يأخذ احداً بذنب غيره، والوزر الإثم، وقيل معناه لا يجوز لأحد أن يعمل الإثم ، لأن غيره عمله ، والأول أقوى .

وقوله « وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا » اخبار من الله أنه لا يعاقب احداً على معاصيه ، حتى يستظهر عليه بالحجج وانفاذ الرسل ينبهونه على الحق ، ويهدونه اليه ويرشدونه الى سلوكه ، استظهاراً في الحجة ، لانه اذا اجتمع داعي العقل وداعي السمع الى الحق ، تأكد الامر وزال الريب فيما يلزم العبد ، وليس في ذلك دلالة على انه لو لم يبعث رسولا لم يحسن منه ان يعاقب اذا ارتكب العبد

---

(١) سورة آل عمران اية ١٨٢

القبائح العقلية، اللهم إلاّ أن يفرض أن في بعثه الرسول لطفاً، فإنه لا يحسن من الله تعالى مع ذلك أن يعاقب احداً إلاّ بعد أن يعرّفه ما هو لطف له ومصلحة لتزاح علته. وقيل: معناه «وما كنا معذّبين» بعذاب الاستئصال والاهلاك في الدنيا «حتى نبعث رسولا».

وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبرة: من ان الله يعذب اطفال الكفار بكفر آبائهم، لانه بين أنه لا يأخذ احداً بجرم غيره.

قوله تعالى:

(وإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً) (١٦) آية بلا خلاف.

قرأ يعقوب «آمرنا» بمد الهمزة. وعن الحسن «أمّرنا» بالتشديد، وروي عنه «أمِرنا» بكسر الميم خفيفة وهي ردية.

ذكر في هذه الآية وجوه أربعة:

أحدها ــ ان مجرد الاهلاك لا يدل على أنه حسن أو قبيح، بل يمكن وقوعه على كل واحد من الأمرين، فإذا كان واقعاً على وجه الظلم، كان قبيحاً، وإذا كان واقعاً على وجه الاستحقاق أو على وجه الامتحان، كان حسناً، فتعلق الارادة به لا يقتضي تعلقها على الوجه القبيح. وإذا علمنا أن القديم لا يفعل القبيح، علمنا أن إرادته الاهلاك على الوجه الحسن.

وقوله «أمرنا مترفيها» المأمور به محذوف، وليس يجب أن يكون المأمور به هو الفسق وان وقع بعده الفسق، بل لا يمتنع أن يكون التقدير: وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرناهم بالطاعة، ففسقوا فيها فحق عليها القول، وجرى ذلك مجرى قولهم: أمرته فعصى ودعوته فأبى، والمراد أمرته بالطاعة ودعوته إلى الاجابة والقبول، فعصى.

فإن قيل : أيّ معنى لتقدم الارادة ؟ فإن كانت متعلقة بإهلاك يستحق بغير الفسق المذكور في الآية ، فلا معنى لقوله « إذا أردنا ... أمرنا » ، لأن أمره بما يأمر به لا يحسن إرادته للعقاب المستحق بما تقدم من الأفعال، وإن كانت الارادة متعلقة بالاهلاك المستحق بمخالفة الأمر المذكور في الآية، فهو الذي تأبونه ، لأنه يقتضي أنه تعالى مريد لإهلاك من لم يستحق العقاب !!.

قلنا: لم تتعلق الارادة إلا بالإهلاك المستحق بما تقدم من الذنوب، وإنما حسن قوله « إذا أردنا ... أمرنا » أن في تكرار الأمر بالطاعة بالايمان إعذاراً للعصاة وإنذاراً لهم وإيجاباً للحجة عليهم ، ويقوي ذلك قوله قبل هذه الآية « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » منبهاً بذلك أنه أراد إثبات الحجة وتكررها عليهم

الثاني ـ أن يكون قوله « أمرنا مترفيها » من صفة القريةوصلتها ، ولايكون جواباً لقوله « وإذا أردنا » ويكون تقدير الكلام : وإذا أردنا أن نهلك قرية من صفتها أنا « أمرنا مترفيها ففسقوا فيها » ولا يكون لـ (إذا) جواب ظاهر في اللفظ ، للاستغناء عنه بما في الكلام من الدلالة عليه، ومثله قوله « حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم » إلى قوله « فنعم أجر العاملين »[1] ولم يأت لـ (إذا) جواب في طول الكلام للاستغناء عنه ، وقال الهذلي :

حتى إذا أسلكوهم في قتائدة شلاً كما يطرد الجمالة الشردا[2]

فحذف جواب (إذا) ولم يأت به ، لأن هذا البيت آخر القصيدة .

الثالث ـ أن يكون الكلام على التقديم والتأخير ، وتقديره إذا أمرنا مترفي قرية بالطاعة ، فعصوا ، واستحقوا العقاب ، أردنا إهلاكهم ،ويشهدبهذاالتأويل قوله « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم»[3] فالطهارة انما

---

(١) سورة ٣٩ الزمر اية ٧٣ - ٧٤

(٢) تفسير روح المعاني ١٥:٣ وقد مر في ١:١٢٨ ، ١٤٩

(٣) سورة ٥ المائدة اية ٦

تجب قبل القيام الى الصلاة . ومثله قوله « واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك »[١] وقيام الطائفة معه يجب أن يكون قبل إقامة الصلاة لأن إقامتها هو الاتيان بجميعها على الكمال . ومثله قوله « ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوّة »[٢] والتقدير ما إنّ مفاتحه لتنوء بها العصبة أي يثقلونها، ومثله قول الشاعر :

ذعرت القطا ونفيت عنـــه مقام الذئب كالرجل اللعين[٣]

أراد مقام الذئب اللعين ، وقد فصلوا بين المضاف والمضاف اليه قال الشاعر :

بين ذراعي وجبهة الأسد[٤]

اراد بين ذراعي الأسد وجبهته .

والرابع ـ أن يكون ذكر الارادة في الآية مجازاً واتساعاً وتنبيهاً على المعلوم من حال القوم وعاقبة أمرهم ، وأنهم متى أمروا فسقوا وخالفوا ، وجرى ذلك مجرى قولهم : إذا أراد التاجر أن يفتقر أتته النوائب من كل وجـــه ، وجاء الخسران من كل طريق، وإذا اراد العليل ان يموت خلط في مأكله ، ومعلوم أن احداً ممن ذكرناه لم يرد ذلك ؛ لكن لما كان المعلوم من حال هذا الخسران، ومن حال ذاك الهلاك ، حسن هذا الكلام ، وكان أفصح وأبلغ ، لما فيه من الاستعارة والمجاز الذي لا يكون الكلام بليغاً من دونهما . ويكون تلخيص الكلام : إذا اردنا اهلاك قرية كقوله « جداراً يريد ان ينقض »[٥] أمرناهم بالطاعة ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول .

وانما خصّ المترفون بذكر الأمر ، لأنهم الرؤوساء الذين من عداهم تبع لهم، كما أمر فرعون ومن عداه تبع له من القبط . ومن حمله على ان المراد به أكثرْنا قال : لأن الأمر بالطاعة ليس بمقصور على المترفين ، بل هو عام لجميعهم ،فلذلك شدّد الميم أو مدّ الهمزة .

---

(١) سورة ٤ النساء اية ١٠٢
(٢) سورة ٢٨ القصص اية ٧٦
(٣) مر هذا البيت في ١: ٣٤٣ ، ٢: ٧ ، ٤
(٤) تفسير الطبري ١٥ : ٣٤ (الطبعة الاولى)
(٥) سورة ١٨ الكهف اية ٧٧

وانما قال « ففسقوا فيها » ولم يقل : فكفروا ، لأن المراد فتمردوا في كفرهم لأن الفسوق في الكفر الخروج إلى افحشه ، فكأنه قال ففسقوا بالخروج عن الأمر الى الكفر .

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : المعنى أمرناهم بالطاعة ، ففسقوا ، ومثله امرتك فعصيتني .

ومن قرأ « آمّرنا مترفيها » بتشديد الميم من التأمير بمعنى التسليط ، وقد يكون بمعنى أكثرْنا . ويجوز ان يكون المعنى أكثرْنا عددهم أو مالهم ، وقرىء (آمرنا) ممدوداً ، والمعنى اكثرْنا مترفيها ، وإنما قيل في الكثرة آمر القوم ، لأنهم يحتاجون إلى أمير يأمرهم وينهاهم ، فقد آمروا لذلك ، قال لبيد :

ان يغبطوا يهبطوا وان آمروا   يوماً يصيروا للهلاك والفند [1]

وروى والكند وقال بعضهم أمرنا بمعنى اكثرنا ، وقال ابو عمرو : ولا يكون من هذا المعنى (أمرنا) قال ابو عبيد : يدل على هذه اللغة قولهم : سكة مأبورة ومهرة مأمورة ، أي كثيرة الولد . ومن قال بالأول قال هذا لمكان الازدواج ، كما قالوا الغدايا والعشايا ، والغداء لا يجمع على غدايا ، ولكن قيل ذلك ليزدوج الكلام مع قولهم : العشايا ، وقال قوم : يقال أمر الشيء وآمّرته اي كثر وكثّرته لغتان ، مثل رجع ورجعته . والمشهور الاول . وإنما تعدى اما بالتضعيف او الهمزة ، وإذا كان مخففاً فهو من الأمر الذي هو خلاف النهي ، على ما بيناه . وقال المبرد « أمرنا » خفيفة بمعنى اكثرنا ، وروى الجرمي : فعلت وأفعلت [2] عن ابي زيد بمعنى واحد ، قال وقرأته على الاصمعي . « ودمرنا » معناه أهلكنا ، والدمار الهلاك .

---

(١) تفسير الطبري ١٥ : ٦١ والشوكاني (الفتح القدير) ٣ : ٢٠٧ ولكن الكذب والفند الهلاك .

(٢) هذا ما في المخطوطة ، وكان في المطبوعة (ثقلت واثقلت) .

قوله تعالى:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧) مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً) (١٩) ثلاث آيات بلا خلاف.

اخبر الله تعالى بأنه اهلك من القرون من بعد نوح، أُمماً كثيرة، لإن «كم» يفيد التكثير ضد (ربّ) الذي يفيد التقليل، (والقرن) قيل: مئة وعشرون سنة - في قول عبدالله ابن أبي أوفى - وقال محمدبن القاسم المازني: هو مئة سنة، وقال قوم: هو اربعون سنة. وادخلت الباء في قوله «كفى بربك» للمدح: كما تقول: ناهيك به رجلاً، وجاد بثوبك ثوباً، وطاب بطعامك طعاماً واكرم به رجلاً، وكل ذلك في موضع رفع، كما قال الشاعر:

ويخبرني عن غائب المرء هديه كفى الهدى عمّا غيّب المرؤ مخبرا[1]

فرفع لما اسقط الباء. والمعنى: كفى ربك عالماًوحسيباًبذنوب عباده بصيراً بها، ثمّ قال «من كان يريد» المنافع «العاجلة» في الدنيا «عجلنا له فيها» يعني في الدنيا القدر الذي نريده لمن نريد، لا على قدر ما يريدون، لأن ما يريدونه ربما كانت فيه مفسدة، لا يجوز إعطاؤهم إياه، ثم بين انهإذا اعطاهم ما طلبوه عاجلاً جعل لهم جهنم جزاء، على معاصيهم وكفرهم يصلونها مذمومين مدحورين، اي في حال ذمنا إياهم، يقال: ذأمته، وذمته، وذممته بمعنى واحد

---

(١) مجمع البيان ٣: ٤٠٧ وتفسير الطبري ١٥: ٤٢

فهو مذؤم ومذيم ومذموم، ويكون ذأمته اي طردته، فهومذؤم. و «مدحوراً» اي متباعداً من رحمة الله دحرته أدحره دحراً اي باعدته .

ثم قال « ومن أراد الآخرة » اي خير الآخرة، ثواب الجنة « وسعى لهـــا سعيها» بأن فعل الطاعات وتجنب المعاصي، وهو مع ذلك مؤمن مصدق بتوحيد الله ومقر بأنبيائه، فإن أولئك يكون « سعيهم مشكورا » اي تكون طاعاتهم مقبولة . وقال قتادة : شكر الله حسناتهم، وتجاوز عن سيآتهم. والمعنى أحلهم محلا يشكر عليه في حسن الجزاء كما قال: « من ذا الذي يقرض الله قرضـــا حسناً » [١] .

قوله تعالى :

(كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلَاءِ وَهؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠) أُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولًا (٢٢) ثلاث آيات بلا خلاف .

قوله « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء » نصب (كلا) بـ « نمد » (وهؤلاء) بدل منه والمعنى إنا نمطي البرَّ والفاجر، والمؤمن والكافر في الدنيا. واما الآخرة فللمتقين خاصة « وما كان عطاء ربك محظوراً » اي لم يكن عطاء الله ممنوعاً، ثم قـال لنبيه والمراد به أمته معه « انظر كيف فضّلنا بعضهم على بعض » بأن جعلنـــا بعضهم اغنياء، وبعضهم فقراء، وبعضهم موالي، وبعضهم عبيداً، وبعضهم اصحاء وبعضهم مرضى، بحسب ما علمنا من مصالحهم . ثم قال « وللآخرة اكبر درجات واكبر تفضيلاً » لانهم معطون على مقدار طاعتهم؛ فمن كان كثير الطاعة

---

(١) سورة البقره اية ٢٤٥

حصلت له الدرجات العالية من الثواب . وإنما اراد يبين أن التفاضل في الدنيا إذا كان يتنافس عليه ، فالتفاضل في الجنة اولى بأن يرغب فيه .

ثم قال لنبيه والمراد به امته « لا تجعل مع الله إلهاً آخر » توجه إليه عبادتك وتستدعي الحوائج من قبله فإنك إن فعلت ذلك قعدت مذموماً مخذولاً ، واذا كان الخطاب عاماً كان التقدير ، فلا تجعل ايها الانسان مع الله إلهاً آخر . ونصب « فتقعد » لأنه جواب النهي .

قوله تعالى :

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً) (٢٤) آيتان بلا خلاف .

قرأ حمزة والكسائي وخلف « يبلغان » بألف وكسر النون على التثنية . الباقون يبلغن على الوحدة . وقرأ ابن كثير ، وابن عباس ، ويعقوب « افَّ » بفتح الفاء من غير تنوين . وقرأ اهل المدينة وحفص بكسر الفاء مع التنوين . الباقون بكسر الفاء من غير تنوين . ومثله في الاحقاف .

قال ابو علي الفارسي قوله « احدهما » مرتفع بالفعل ، وقوله « اوكلاهما » معطوف عليه ، والذكر الذي عاد من قوله « احدهما » يغني عن إثبات علامة الضمير في (يبلغنّ) ، فلا وجه لمن قال : إن الوجه إثبات الالف ، لتقدم ذكر الوالدين . ويجوز ان يكون رفع (احدهما) على البدل من الضمير في (يبلغان) ويجوز ان يرفعه بفعل مجدد على تقدير إما يبلغان عندك الكبر . يبلغ احدهما او كلاهما ،

ويكون رفعاً على السؤال والتفسير كقوله « واسروا النجوى الذين ظلموا »[1] ومن اثبت الألف ، فعلى وجه التأكيد ، ولو لم يذكر لم يخلّ بالكلام نحو قوله « أموات غير أحياء »[2] فقوله « غير أحياء »توكيد ، لأن قوله «اموات» دل عليه » قال : وقول ابن كثير (أفّ) يبني الفاء على الفتح ، لأنه وان كان في الأصل مصدراً من قولهم (أفه وتفه) يراد به نتناً وذفراً، لقد سمي الفعل به فبني، وهذا في البناء على الفتح كقولهم (سرعان ذا إهالة) لما سار اسماً لـ (سرع) ، فكذلك (أفّ) لما كان اسماً لـ (كره) ، ومثله رويداً، في أنه سمي به الفعل، فبني ولم يلحق التنوين إلا ان هذا للأمر والنهي ، واف في الخبر . وقول نافع في البناء على الكسر مع التنوين، مثل (أف) في البناء على الفتح: إلا أنه بدخول التنوين دل على التنكير مثل إيه ومه وصه ، ومثله قولهم صه ، فبنوه على الكسر ، وإن كان في الأصل مصدراً ، كما كان (أف) في الأصل كذلك ، ومن كسر ولم ينون جعله معرفة ، فلم ينون ، كما أن من قال : صه وضاف ، فلم ينون اراد به المعرفة .

وموضع (أف) على اختلاف القراءات موضع الجمل، مثل (رويد) في أن موضعه موضع الجمل وكذلك لو قلت : هذا فدا[3] قال أبو الحسن . وقول من قال (اف) اكثر وأجود ولو جاء (أفاً لك) أحتمل أمرين : احدهما – أن يكون الذي صار إسماً للفعل لحقه التنوين لعلامة التنكير . والآخر أن يكون نصباً معرباً ، وكذلك الضمير ، فإن لم يكن معه لك كان ضعيفاً ، كما انك لا تقول ويل حتى تقرن به لك ، فيكون في موضع الخبر و (أف) كلمة يكنى بهـا عن الكلام القبيح وما يتأفف به ، لأن التف وسخ الظفر و (الاف) وسخ الاذن . وقيل التف كل ما رفعت بيدك من حقير من الأرض ، وقيل معنى الأف النوم ، وقيل

---

(١) سورة ٢١ الانبياء اية ٣ (٢) سورة ١٦ النحل اية ٢١

(٣) في المخطوطة (هذا قفا) ونسخة اخرى (هذا فداء لك) وقد تركنا ما في المطبوع على حاله فلم نغير فيه شيء .

الشر"، وقد جرى مجرى الاصوات ، فزال عنه الاعراب مثل (صه) ومعناه اسكت، ومه ومعناه كفّ وهيهات هيهات اي بعيد بعيد ، فاذا نوّنت أردت النكرة أي سكوتا وقبحاً، واذا لم تنون أردت المعرفة. وإنما جاز تحريك الفاء بالضم والفتح والكسر، لان حركتها ليست حركة إعراب، وانما هي حركة التقاء الساكنين فتفتح لخفة الفتحة ، وتضم اتباعاً للضم قبله ، وقيل تضم تشبيهــاً بقبل وبعد وتكسر على أصل حركة التقاء الساكنين .

وفي (أف) سبع لغات: أفّ وافٍ وافّ وافٌ وافّا وأفي مهاله، وزاد ابن الانباري بسكون الفاء . وروى عن الرضا عن أبية عن جعفر بن محمد (ع) انه قال (لو علم الله لفظ أوجز في ترك عقوق الوالدين من (أف) لاتى به) . فان قيل هل اباح الله أن يقال لهما أف قبل أن يبلغا الكبر؟ قلنا: لا، لأن الله أوجب على الولد إطاعة الوالدين على كل حال ، وحظر عليه أذاهما وإنما خصّ الكبر ، لأن وقت كبر الوالدين مما يضطر فيه الوالدان إلى الخدمة اذا كانا محتاجين عند الكبر، وفي المثل يقال فلان أبر من النسر، لان النسر إذا كبر ولم ينهض للطيران جاء الفرخ فزقه، كما كان أبواه يزقانه ، ومثله قوله « ويكلم الناس في المهد وكهلا »[1] والوجه في قوله « وكهلا » مع ان الناس يكلمون كلهم حال الكهولة ان الله اخبر أن عيسى يكلم في المهد أعجوبة وأخبر أنه يعيش حتى يكتهل ويتكلم بعد الكهولة ، ونحوه قوله « والامر يومئذ لله »[2] وانما خصّ ذلك اليوم بأن الأمر لله، لأن في الدنيا مع أنه يملك، قد ملك اقواماً جعلهم ملوكاً وخلفاء ، وذلك اليوم لا يملك سواه .

معنى قوله «وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إياه» أمر، في قول ابن عباس والحسن وقتادة وابن زيد . فإن قيل: الامر لا يكون أمراً بألاّ يكون الشيء، لأنه يقتضي إرادة المأمور به، والإرادة لا تتعلق بألاّ يكون الشيء ، وإنما تتعلق بحدوث الشيء .

قلنا : المعنى انه كره ربكم عبادة غيره وأراد منكم عبادته على وجه الإخلاص

---

(١) سورة ٣ ال عمران اية ٤٦ (٢) سورة ٨٢ الانفطار اية ١٩

وسمى ذلك أمراً بـ « أن لا تعبدوا إلاّ إياه » لأن معناهما واحـــد . وقوله « وبالوالدين احسـاناً » العامل في الباء يحتمل شيئين: أحدهما – وقضى بالوالدين إحسـاناً . والثاني – وأوصى ، وحذف لدلالة الكلام عليه ، والمعنى متقارب ، والعرب تقول : أمر به خيراً وأوصى به خيراً، وقال الشاعر :

عجبت من دهماء إذ تشكونا ومن أبي دهماء اذ يوصينا
خيراً بها كأننا جافونا [١]

فأعمل «يوصينا» في الخير ، كما أعمل في الاحسان . وقوله « إمّا يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما » معناه متى بلغ واحد منهما أو هما الكبر « فلا تقل لهما أف » أي لا تؤذهما بقليل ولا كثير « ولا تنهرهما » أي لا تزجرهما بإغلاظ وصياح يقال: نهره ينهره نهراً، وانتهره انتهاراً إذا أغلظ له « وقل لهما قولا كريماً» أي شريفاً تكرمهما به . وتوقّرهما « واخفض لهما جنـــاح الذلّ » أي تواضع لهما واخضع لهما .

وقرأ سعيد بن جبير « الذل » بكسر الذال . والذل والذلة مصدر الذليل ، والذل مصدر الذلول ، مثل الدابة والارض تقول : جمل ذلول ، ودابـــة ذلول « وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً» أي ادع لهما بالمغفرة والرحمة كما ربّياك في حال صغرك . وقال قوم الاستغفار لهما منسوخ إذا كانا مشركين بقوله « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » [٢] . وقال البلخي : الآية تختص بالمسلمين .

قوله تعالى :

(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ

---

(١) تفسير الطبري ١٥ : ٤٤ (الطبعه الاولى)
(٢) سورة ٩ التوبة آية ١١٤

لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً) (٢٧) ثلاث آيات .

يقول الله تعالى مخاطباً للمكلفين من عباده إنه أعلم بهم ، ومعناه إن معلوماته أكثر من معلوماتكم ، وقد يقال: أعلم بمعنى أثبت فيما به يعلم، فيجيء من هذا إن الله تعالى أعلم بأن الجسم حادث من الانسان العالم به . وكذلك كل شيء يمكن ان يعلم على وجوه متغايرة ، فالله تعالى عالم به على تلك الوجوه وإن خفي على الواحد منا بعضها .

ومعنى « بما في نفوسكم » اي بما تضمرونه وتخفونه عن غيركم ، فالله أعلم به منكم ، وفي ذلك غاية التهديد . ثم قال « ان تكونوا صالحين » اي تفعلون الأفعال الصالحة الحسنة الجميلة ، فان الله « كان للأوابين غفورا » معنى «الأوابين» التوابين وهم الذين يتوبون مرة بعد مرة - في قول سعيد بن المسيب - كلما أذنب ذنباً بادر بالتوبة . وقال سعيد بن جبير ، ومجاهد: الأواب هو الراجع عن ذنبه بالتوبة . وأصله الرجوع يقال : آب يؤوب أوباً إذا رجع من سفره ، قال عبيد بن الأبرص .

وكل ذي غيبة يؤب وغائب الموت لا يؤب[1]

ثم قال « وآت ذا القربى حقه » وهو أمر من الله لنبيه صلى الله عليه وآله ان يعطي ذوي القربى حقوقهم التي جعلها الله لهم ، فروي عن ابن عباس والحسن : انهم قرابة الانسان . وقال علي بن الحسين (ع) : هم قرابة الرسول ، وهو الذي رواه ايضاً اصحابنا . وروي انه لما نزلت هذه الآية استدعى النبي صلى الله عليه وآله فاطمة (ع) وأعطاها فدكاً وسلمه اليها ، وكان وكلاؤها فيها طول حياة النبي صلى الله عليه وآله ، فلما مضى النبي صلى الله عليه وآله

(١) ديوانه (دار بيروت) ٢٦ وتفسير الطبري ١٥ : ٤٨

أخذها ابو بكر ، ودفعها عن النحلة . والقصة في ذلك مشهورة ، فلما لم يقبل بيّنتها، ولا قبل دعواها طالبت بالميراث، لأن من له الحق إذا منع منه من وجه جاز له ان يتوصل اليه بوجه آخر، فقال لها : سمعت رسول الله ﷺ يقول (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة) فمنعها الميراث أيضاً وكلامهما في ذلك مشهور ، لا نطول بذكره الكتاب .

وقوله « والمسكين وابن السبيل » أي واعطوا هؤلاء أيضاً حقوقهم التي جعلها الله لهم من الزكوات وغير ذلك . ثم نهاهم عن التبذير بقوله « ولا تبذر تبذيرا » والتبذير التفريق بالاسراف . وقال عبد الله : التبذير إنفاق المال في غير حقه ، وهو قول ابن عباس وقتادة . وقال مجاهد لو انفق مدّاً في باطل كان تبذيرا .

ثم قال « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين » وقيل في معناه قولان .

احدهما – إن الشيطان أخوهم باتباعهم آثاره وجريهم على سنته .

والثاني – انهم يقرنون بالشيطان في النار . ثم أخبر عن حال الشيطان بأنه كفور لنعم الله تعالى وجاحد لآلائه .

قوله تعالى

(وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) (٣٠)

ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى « وإمّا تعرضنّ » وتقديره ، وإن تعرض و (ما) زايدة . والمعنى : ومتى ما صرفت وجهك عنهم ، يعني عن الذين أمروا بإعطائهم حقوقهم ممن تقدم ذكره ، لأنه قد يعرض عند عوز ما طلبوه ، ليبتغي الفضل من الله ، والسعة التي يمكنه معهـا البذل ، والتقدير وإذا أتتك قرابتك أو سواهم من المحتاجين يسألونك فأعرضت عنهم ، لأنه لا شيء عندك، فقل لهم قولا حسناً ، اي عدهم عدة جميلة . والاعراض صرف الوجه عن الشيء ، وقد يكون عن قلى ، وقد يكون للاشتغال بما هو الاولى ، وقد يكون لاذلال الجاهل مع صرف الوجه عنه ، كما قال « واعرض عن الجاهلين »[1] وقوله « ابتغاء رحمة من ربك ترجوها » والابتغاء الطلب . وقوله « ترجوها » معناه تأملهـا ، والرجاء تعلق النفس بطلب الخير ممن يجوز منه ، ومن يقدر على كل خير وصرف كل شر ، فهو أحق بأن يرجا ، ولذلك قال أمير المؤمنين (ع) (ألا لا يرجون احدكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه) .

وقوله : « وقل لهم قولاً ميسوراً » المعنى إذا أعرضت ابتغاء رزق من ربك، فقل لهم قولا ليناً سهلا، مثل: رزقنا الله تعالى ، وهو قول الحسن ومجاهد وابراهيم وغيرهم . وقال ابن زيد : تعرض عنهم إذا خشيت أن ينفقوا بالعطية على معاصي الله ، فيكون تبتغي رحمة من الله لهم بالتوبة ، وأصل التيسير التسهيل ، واليسر خلاف العسر ، وقد يكون التيسير بالتقليل ، فيسهل عليه لقلته ، ويكون بمنزلة المعونة على عمله .

ثم قال تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك » أي لا تكن ممن لا يعطي شيئاً ولا يهب ، فتكون بمنزلة من يـده مغلولة إلى عنقه ، لا يقدر على الاعطاء وذلك مبالغة في النهي عن الشحّ والامساك « ولا تبسطها كل البسط » أي ولا تعط ايضاً جميع ما عندك ، فتكون بمنزلة من بسط يده حتى لا يستقر فيها شيء وذلك كناية عن الاسراف . وقوله « فتقعد ملوماً محسوراً » معناه إن امسكت

---

(١) سورة ٧ الاعراف اية ١٩٩

قعدت ملوماً عند العقلاء مذموماً ، وإن اسرفت بقيت محسوراً، أي مغموماً متحسراً ، وأصل الحسر الكشف من قولهم ، حسر عن ذراعيه يحسر حسراً ، إذا كشف عنها . والحسرة الغم لا نحسار ما فات، ودابة حسير إذا كلت لشدة السير ، لانحسار قوتها بالكلال . وكذلك قوله « ينقلب اليك البصر خاسئاًوهو حسير»[1] والمحسور المنقطع به لذهاب ما في يده، وانحساره انقطاعه عنه ، قال الهذلى :

إن العسير بها داء مخامرها فشطرها نظر العينين محسور[2]

ثم قال « إن ربك » يا محمد « يبسط الرزق لمن يشاء » فيوسعه عليه على حسب ما يعلم له من المصلحة فيه « ويقدر » أي يضيق عليه لعلمه بما فيه من الصلاح ، كما قال « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض[3] » وقوله « انه كان بعباده خبيراً بصيراً » أي وهو عالم بأحوالهم ، لا يخفى عليه ما يصلحهم ، وما يفسدهم ، فيفعل معهم بحسب ذلك .

قوله تعالى :

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً) (٣٣) ثلاث آيات .

---

(١) سورة ٦٧ الملك (تبارك) اية ٤

(٢) الشاعر هوقيس بن خويلد الهذلي ، الكامل ١٠٩ ، ٤١٠ واللسان والتاج (حسن). (شطر)ومجاز القران ١ : ٣٧٥ (٣) سورة ٤٢ الشورى اية ٢٧

قرأ ابن كثير «خطاء» بكسر الخاء وبألف بعد الطاء ممدوداً . وقرأ ابو جعفر وابن ذكوان - بفتح الخاء والطاء - من غير ألف بعدها وبغير مد . الباقون بكسر الخاء من غير مد ، إلا ان الداجوني عن هشام روى وجهين : أحدهما - مثل أبي عمرو ، والآخر - مثل أبي جعفر . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً « فلا تسرف » بالتاء . الباقون بالياء . قال ابو علي الفارسي : قول ابن كثير (خطاء) يجوز ان يكون مصدر خاطأ ، وان لم يسمع (خاطأ) ولكن قد جاء ما يدل عليه ، لأن ابا عبيدة انشد :

تخاطأت النبل أحشاءه[1]

وانشدنا محمد بن السدي في وصف كمأة :

وأشعث قد ناولته أحرس القرى أدرّت عليه المدجنات الهواضب
تخاطاه القنّـاص حتى وجدته وخرطومه من منقع الماء راسب[2]

فتخاطأت مما يدل على خاطأ ، لأن (تفاعل) مطاوع (فاعل) كما ان (تفعّل) مطاوع فعّل ، وقول ابن عامر (خطأ) ، فان الخطأ ما لم يتعمد ، وما كان المأثم فيه موضوعاً عن فاعله ، وقد قالوا : اخطأ في معنى خطيء ، كما ان خطيء في معنى اخطأ ، قال الشاعر :

عبادك يخطئون وأنت ربّ كريم لا تليق بك الذّموم[3]

ففحوى الكلام أنهم خاطئون ، وفي التنزيل «لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا» فالمؤاخذة من المخطيء موضوعة ، فهذا يدل على ان اخطأ في قوله :

يا لهف هند إذ خطئن كاهلا[4]

«١» تفسير القرطبي ١٠ : ٢٥٣ واللسان « خطىء » وعجزه :
واخر يوم فلم اعجل

«٢» تفسير القرطبي ١٠ : ٢٥٣ وتفسير روح المعاني ١٥ : ٦٧ (٣) اللسان «خطا»

(٤) قائله امرؤ القيس : ديوانه « الطبعة الرابعة » ١٧٥ واللسان « خطأ » . وهو مطلع رجز قاله عند ما اغار على بني اسد لما نزلوا على بني كنانة وبعده :

تالله لا يذهب شيخي باطلا حتى ابير مالك وكاهلا
القاتلين الملك الحلاحلا

وفي قول آخر :

والناس يلحون الأمير اذا هم خطئوا الصواب ولا يلام المرشد[١]

اي اخطؤه، وكذلك قول ابن عامر (خطأ) في معنى أخطأ، وجاء الخطأ في معنى الخطاء، كما جاء خطىء في معنى اخطأ . وقال ابو الحسن : هذا خطاء من رايك؛ فيمكن أن يكون خطأ لغة فيه أيضاً. ومن قرأ «خطأ» فلانه يقال خطىء يخطأ خطأ إذا تعمد الشيء حكاه الاصمعي ، والفاعل منه خاطىء ، وقد جاء الوعيد فيه في قوله « لا يأكله إلا الخاطئون »[٢] ويجوز أن يكون الخطأ لغة في الخطأ مثل المثل والمثل ، والشبه والشبه، والبدل والبدل ، قال الفراء: لغتان مثل قتب وقتب ، وبدل وبدل، وحكى ابن دريد عن أبي حاتم ، قال تقول : مكان مخطؤ فيه من خطئت ومكان مخطأ فيه من اخطأ يخطىء ، ومكان مخطو بغير همزة من تخطى الناس فيخطى ، ومن همزه تخطئت النـــاس، فقد غلط وقال المبرد: خطئاه وخطاه بمعنى ، عند ابي عبيدة والفراء والكسائي ، إلا ان (الخطأ) بكسر الخاء أكثر في القرآن (والخطأ) بالفتح افشى في كلام الناس ولم يسمع الكثير في شيء من اشعارهم الا في بيت قاله الشاعر :

الخطأ فاحشة والبر فـــاضلة كعجوة غرست في الأرض توبير[٣]

قال ابو عبيد : وفيه لغتان، خطئت وأخطأت، فمن قال : خطئت قال خطأ الرجل يخطأ خطأ ، وخطاء، يكون الخطأ بفتح الخاء هو المصدر ، وبكسرها الاسم . ومن قال اخطأت كان الخطأ بالفتح والكسر ، جميعاً اسمين والمصدر الإخطـاء .

وقال أبو علي: قوله « فلا يسرف في القتل » فاعل يسرف يجوز أن يكون أحد شيئين :

أحدهما ـ أن يكون القاتل الأول، فيكون التقدير فلا يسرف القاتل في القتل

---

(١) قائله عبيد ابن الابرص . ديوانه « دار بيروت » ٥٨ وروايته (إذا غوى خطب) وقد مر في ٢ : ٣٨٧

(٢) سورة ٦٩ الحاقة آية ٣٧ (٣) تفسير الطبري ١٥ : ٥٤

وجاز أن يضمر ، وإن لم يجر له ذكر ، لأن الحال تدل عليه ، ويكون تقديره بالاسراف جارياً مجرى قوله في أكل مال اليتيم « ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا »[١] وإن لم يجز أن تأكل منه لا على الاقتصاد ولا على غيره ، لقوله «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نـاراً »[٢] فحظر أكل مال اليتيم حظراً عاماً وعلى كل حال ، فكذلك لا يمتنع أن يقال للقـاتل الأول لا تسرف في القتل ، لأنه يكون بقتله مسرفاً، ويؤكد ذلك قوله «ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم »[٣] فالقاتل داخل في هذا الخطاب ـ بلا خلاف ـ مع جميع مرتكبي الكبائر ، ويكون الضمير على هذا في قوله «انه كان منصوراً» على قوله «ومن قتل مظلوماً» [وتقديره ، فلا يسرف القاتل الأول بقتله في القتل ، لأن من قتل مظلوماً كان منصوراً][٤] بأن يقتص له وليه أو السلطان إن لم يكن له ولي غيره ، فيكون هذا ردعاً للقاتل عن القتل ، كما أن قوله « ولكم في القصـــاص حياة »[٥] كذلك ، فالولي إذا اقتص ، فإنما يقتص للمقتول ، ومنه انتقـل إلى الولي بدلالة أن المقتول يبرىء من السبب المؤدي إلى القتل ، ولم يكن للولي أن يقتص ، ولو صالح الولي من العمد ـ على مال كان ـ للمقتول أن يؤديه منه ديناً عليه أن يقتص منه دون المقتول ، ولا يمتنع أن يقال في المقتول منصور ، لانه قد جاء قوله « ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا » .

والآخر ـ أن يكون في يسرف ضمير الولي ، وتقـديره فلا يسرف الولي في القتل ، وإسرافه فيه أن يقتل غير من قتل او يقتل اكثر من قاتل وليه ، لان مشركي العرب كانوا يفعلون ذلك ، والتقدير فلا يسرف في القتـل ان الولي كان منصوراً بقتل قاتل وليه . والاقتصاص منه .

ومن قرا بالتاء احتمل ايضاً وجهين :

---

(١) سورة ٤ النساء اية ٥
(٢) سورة النساء اية ٩
(٣) سورة ٣٩ الزمر اية ٥٣
(٤) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة
(٥) سورة البقرة اية ١٧٩

احدهما - ان يكون المستثنى القاتل ظلماً، فقيل له لا تسرف ايها الإنسان «فقتل ظلماً من ليس لك قتله، اذ من قتل مظلوماً كان منصوراً بأخذ القصاص له.

والآخر - ان يكون الخطاب للولي، والتقدير لا تسرف في القتل ايها الولي فتتعدى قاتل وليك الى من لم يقتله، لان المقتول ظلماً كان منصوراً، وكل واحد من المقتول ظلماً ومن ولي المقتول قد تقدم في قوله «ومن قتل مظلوماً» الآية.

وقوله «ولا تقتلوا» يحتمل موضعه شيئين من الاعراب:

احدهما - ان يكون نصباً بـ «قضى ربك ان لا تعبدوا إلا إياه... ولاتقتلوا»

ويحتمل ان يكون جزماً على النهي، فيكون الله تعالى نهى الخلق عن قتل اولادهم خشية الاملاق.

و (الاملاق) الفقر، وهو قول ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وانما نهاهم عن ذلك لانهم كانوا يئدون البنات بدفنهم احياء فنهاهم الله عن ذلك.

وقوله «نحن نرزقهم وإياكم» إخبار منه تعالى انه الذي يرزق الاولادوالآباء فلا ينبغي قتلهم خوف الفقر، واخبر ان قتلهم في الجاهلية «كان خطأ كبيراً» وهو الآن خطأ وإثم كبير، ثم قال «ولا تقربوا الزنى» ومعناه لا تزنوا، والزنا هو وطؤ المراة حراماً بلا عقد ولا شبهة عقد مختاراً، ثم اخبر ان الزنا فاحشة اي معصية كبيرة «وساء سبيلا» اي بئس الطريق ذلك. وفي الناس من قال: الزنا قبيح بالعقل لما في ذلك من ابطال حق الولد على الوالد، وفسادالانساب. وقوله «ولا تقتلوا النفس التي حرم الله» نهي من الله تعالى عن قتل النفوس المحرم قتلها، واستثنى من ذلك من يجب عليه القتل إمّا لكفره، اوردّته، او قتله قصاصاً، فان قتله كذلك حق، وليس بظلم، وقد فسرنا تمام الآية.

والسلطان الذي جعله الله للولي، قال ابن عباس، والضحاك: هو القَود أو الدّية او العفو. وقال قتادة الهاء في قوله «انه كان منصوراً» عائدة على الولي. وقال مجاهد عائدة على المقتول. ونصرة الله له بذلك حكمه له بذلك. وقيل نصرة النبي والمؤمنين، ان يعينوه. وقيل الولي هم الوراث من الرجال من الاولاد الذكور ومن الاقارب من كان من قبل الاب.

قوله تعالى :

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلًا (٣٤) وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا) (٣٦) ثلاث آيات .

قرأ اهل الكوفة إلا ابا بكر عن عاصم « بالقسطاس » بكسر القاف. الباقون بالضم ، وهما لغتان . وقال الزجاج : القسطاس هو الميزان صغر او كبر . وقال الحسن : هو القبان . وقال مجاهد : هو العدل بالرومية وهو القرصطون . وقال قوم: هو الشاهين . وقرأ ابو بكر عن عاصم « بالقصطاس » بالصاد قلبت السين صاداً مثل (صراط ، وسراط) لقرب مخرجها .

في الآية الاولى نهي من الله تعالى لجميع المكلفين ان يقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي احسن ، وهو ان يحفظوا عليه ويثمروه او ينفقوا عليه بالمعروف على ما لا يشك انه اصلح له ، فأمّا لغير ذلك ، فلا يجوز لاحد التصرف فيه . وانما خصّ اليتيم بذلك وان كان التصرف في مال البالغ بغير اذنه لا يجوز ايضاً ، لان اليتيم الى ذلك احوج والطمع في مثله اكثر .

وقوله «حتى يبلغ اشده» قال قوم: حتى يبلغ ثمانية عشرة سنة. وقال آخرون: حتى يبلغ الحلم . وقال آخرون – وهو الصحيح – حتى يبلغ كمال العقل ويؤنس منه الرشد .

وقوله « واوفوا بالعهد » امر من الله تعالى بالوفاء بالعهود ، وهو العقد الذي يقدم للتوثق من الامر ، ومتى عقد عاقد على ما لا يجوز ، فعليه نقض ذلك العقد

الفاسد والتبرؤ منه . وانما يجب الوفاء بالعقد الذي يحسن . وقيل المعنى في الآية اوفوا بالعهد في الوصية بمال اليتيم وغيرها. وقيل كل ما امر الله به ونهى عنه، فهو من العهد ، وقد يجب الشيء للنذر ، وللعهد، والوعد به ، وان لم يجب ابتداء ، وانما يجب عند العقد .

وقوله « ان العهد كان مسؤولا » قيل في معناه قولان :

احدهما ـ انه كان مسؤولاً عنه للجزاء عليه، فحذف (عنه) لانه مفهوم .

والثاني ـ كأن العهد يسأل فيقال له : لم نقضت ؟ كما تسأل الموؤدة بأي ذنب قتلت . ثم امرهم ان يوفوهم الكيل اذا كالوا هم ؛ ولا يبخسوهم ولا ينقصوهم، وان يوفوا، بالميزان المستقيم الذي لا غبن فيه ؛ فإن ذلك خير واحسن تأويـــلا ، اي احسن عاقبة ، وهو ما يرجع اليه امره . ثم نهى نبيه ﷺ ان يقفو ما ليس له به علم، وهو متوجه الى جميع المكلفين، ومعناه لا تقل: سمعت ،ولم تسمع ؛ولا رايت ولا علمت ،ولم تر ،ولم تعلم ـ في قول قتادة ـ واصل القفو اتباع الاثر، ومنه القيافة ، وكأنه يتبع قفا الاثر المتقدم قال الشاعر :

ومثل الدمى سم العرانين ساكن بهن الحيا لايشعن التقافيـــا[1]

أي التقاذف . وقال أبو عبيد والمبرد: القفو العضيهة ، « ولا تقف » ـ بضم القاف وسكون الفاء ـ من قاف يقوف ، ويكون من المقلوب مثل جذب وجبذ. « ومسؤولاً » نصب على أنه خبر كان .

واستدل بهذه الآية ، على أنه لا يجوز العمل بالقياس ولا بخبر الواحد ، لأنهما لا يوجبان العلم، وقد نهى الله تعالى أن يتبع الانسان ما لا يعلمه. وقوله «ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا » أي يسأل عما يفعل بهذه الجوارح من الاستماع لما لا يحل ، والإبصار لما لا يجوز . والارادة لما يقبح . وإنما قال «كل اولئك » ولم يقل كل ذلك ، لأن اولئك وهؤلاء للجمع القليل من المذكر والمؤنث فإذا أراد الكثير جاء بالتأنيث . فقال : هذه وتلك ، قال الشاعر:

---

(١) قائله النابغة الجعدي . شواهد الكشاف ٧ ٢ ٣ وتفسير الطبري ١٥ /٨٠ ومجاز القرآن ١/ ٣٧٩

ذم المنازل بعد منزلة اللّوى والعيش بعد أولئك الأيام[١]

قوله تعالى :

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً) (٣٩) ثلاث آيات .

قرأ ابن كثير وأبوعمرو ونافع «سيء» منوناً غير مضاف. الباقون على الاضافة

فمن قرأ على الاضافة قال : لأنه قد تقدم ذكر حسن وسيء في قوله « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » فخصّ من ذلك السيء بأنه مكروه عند الله، لانه تعالى لا يكره الحسن، وقوّوا ذلك بقراءة أُبي «كان سيئاته» بالجمع مضافاً . وقال آخرون إنما أراد بذلك المنهي عنه فقط ، وقالوا : ليس فيما نهى الله تعالى عنه حسن بل جميعه مكروه، «وكل» وإن كان لفظه لفظ الواحد فمعناه معنى الجميع ، فلذلك قال كان بلفظ الواحد . ومثله قوله « وكل أتوه داخرين »[٢] وقال « ان كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا »[٣] و(مكروهاً) على هذه القراءة نصب على الحال من الضمير في « عند ربك » أو يكون بدلاً من قوله « سيئه » .

وفي ذلك دلالة على بطلان مذهب الجبرة من أنّ الله تعالى يريد المعاصي، لان هذه الآية صريحة بأن السيء من الافعال مكروه عند الله .

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/٢٦٠ وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣/٢١٩ وروح المعاني ١٥ : ٧٤

(٢) سورة ٢٧ النمل آية ٨٧ (٣) سورة ١٩ مريم آية ٩٤

وقوله « ولا تمش في الارض مرحا » نهي للنبي ﷺ والمراد به الأمة أن يمشوا في الأرض مرحين .

وقيل في معنى المرح أربعة أقوال : اولها - انه البطر والأشر. والثاني - التبختر في المشي والتكبر. الثالث - تجاوز الانسان قدره مستخفاً بالواجب عليه والرابع - شدة الفرح بالباطل .

وقوله « انك لن تخرق الارض » مثل ضربه الله بانك يا إنسان لن تخرق الأرض من تحت قدمك بكبرك « ولن تبلغ الجبال » بتطاولك . والمعنى انك لن تبلغ بما تريد كثير مبلغ، كما لا يمكنك ان تبلغ هذا، فما وجه المكابرة على ما هذه سبيله مع زجر الحكمة عنه . وأصل الخرق القطع ، خرّق الثوب تخريقا أي قطعه ورجل خرق أي يقطع الأمور التي لا ينبغي ان يقطعها . والخرق الفلاة، لانقطاع اطرافها بتباعدها قال رؤبة :

وقاتم الاعماق خاو المخترق   مشتبه الاعلام لماع الخفق[1]

أي خاو المنقطع ، والمرح شدة الفرح ، مرح يمرح مرحاً ، فهو مرح . وقال قتادة : مرحاً خيلاء وكبراً . وقوله « ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة » أي ذلك الذي ذكرناه وقصصناه من جملة ما اوحى اليك يا محمد ربك من الحكمة أي الدلائل التي تؤدي إلى المعرفة بالحسن والقبيح ، والفرق بينهما ، والواجب مما لا يجب ، وذلك كله مبين في القرآن ، فهو الحكمة البالغة. ثم نهاه ان يتخذ مع الله معبوداً آخر يشركه في العبادة مع الله، فانك متى فعلت ذلك ألقيت في «جهنم ملوماً » أي مذموماً « مدحوراً » مطروداً - في قول ابن عباس .

قوله تعالى :

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ

---

(١) ديوانه ١٠٨ وقد مر قسم من هذا الرجز في ١ : ٢٩٦ وفي ٤ : ٢٩٧

قَوْلًا عَظِيماً (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا ٱلْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا) (٤٢) ثلاث آيات بلا خلاف .

الألف في « أفأصفاكم » ألف استفهام ، والمراد بها الإنكار لانه لا جواب لمن سئل إلا بما فيه أعظم الفضيحة ، وفي ذلك تعليم سؤال المخالفين للحق ، وهذا خطاب لمن جعل لله بنات ، وقال الملائكة بنات الله ، فقال الله تعالى لهم : أأخلص لكم البنين واختار لكم صفوة الشيء دونه؟ وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه ، فاختصكم بالأرفع وجعل لنفسه الادون؟!! ثم أخبر أنهم يقولون في ذلك «قولا عظيماً » أي عظيم الوبال والوزر .

وقوله « لقد صرفنا في هذا القرآن ليتذكّروا » وقرأ حمزة والكسائي في جميع القرآن خفيفاً، من ذكر يذكر . والباقون بالتشديد في جميع القرآن بمعنى ليتذكروا، فادغموا التاء في الذال . وفي ذلك دلالة على بطلان مذهب المجبرة لأنه أراد التصريف في القرآن، ليذكر المشركون ما يردهم إلى الحق ، وهذا مما علقت الارادة الفعل فيه بالمعنى من التذكر . ولولاها لم يتعلق . ثم اخبر انه وان اراد منهم الإيمان والهداية بتصريف القرآن لا يزدادون هم إلا نفورا عنه .

فان قيل كيف يجوز أن يفعل تعالى ما يزدادون عنده الكفر ؟ وهل ذلك الا استفساد ومنع اللطف ؟!

قلنا: ليس في ذلك منع اللطف، بل فيه إظهار الدلائل، مما لا يصح التكليف إلا معه ولو لم تظهر الدلائل، لازدادوا فسادا بأعظم من هذا الفساد، وفي إظهار الدلائل صلاح حاصل لمن نظر فيها وأحسن التدبر لها . وإنما جاز أن يزدادوا بما يؤنس من الدلائل نفوراً، باعتقاد هم أنها حيل وشبه ، فنفروا منها أشد النفور لهذا الاعتقاد الفاسد ، ومنعهم ذلك من التدبر لها وادراك منزلتها في عظم الفائدة ، وجلالة المنزلة .

ثم قال لنبيه ﷺ « قل » يا محمد لهؤلاء المشركين «لو كان مع الله آلهة» أخرى كما يزعمون « لابتغوا » مـــا يقربهم اليه لعـــلوّه عليهم وعظمته عندهم - في قول قتادة والزجاج - وقال الحسن والجبائي : لا تبغوا سبيلا إلى مغالبته ومضادّته ، كما قال « لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا » [1]

قوله تعالى :

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمٰوَاتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤) وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً) (٤٥) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ أهل العراق إلا أبا بكر « تسبح » بالتاء . وقرأ ابن كثير وحفص « عمّا يقولون» بالياء . وقرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر « عما تقولون » بالتاء .

قال ابو علي: فمن قرأ «عما يقولون» بالياء فالمعنى على ما يقول المشركون. ومن قرأ بالتاء يحتمل شيئين :

احدهما - أن يعطف على قوله « كما تقولون » كما عطف قوله «يحشرون » على « ستغلبون » .

والثاني - ان يكون نزه نفسه عن دعواهم، فقال «سبحانه عما يقولون» . وقرأ عاصم ونافع وابن عامر وابن عباس: بالياء عطف على ماتقدم. وقوله «عما يقولون»

(١) سورة ٢١ الانبياء اية ٢٢

على أنه نزه نفسه عن قولهم أو على معنى قل لهم سبحانه عما يقولون فأمّا قوله «يسبح» بالياء والتاء، فحسنان. وقد بينا في غير موضع معناه، ويقوّي التأنيث قراءة عبدالله فسبحت له السموات .

لما اخبر الله تعالى أنه « لو كان معه آلهة » سواء على ما يدعيه المشركون « ليبتغوا الى ذي العرش سبيلاً » ونزه نفسه عن ذلك ،فقال « سبحانه » ويحتمل أن يكون أمر نبيه أن يقول « سبحانه » أي تنزيهاً له تعالى « عما يقولون » أى عن قولهم ، ويجوز ان يكون المراد عن الذي يقولونه من الأقوال الشنيعة فيه بأن معه آلهة « علوّاً كبيراً » وإنما لم يقل تعاليا ، لأنه وضع مصدراً مكان مصدر نحو «وتبتل اليه تبتيلا» [1] ومعنى «تعالى» اي صفاته في أعلى المراتب ، فانه لا مساوي له فيها ، لأنه قادر ، ولا أحد أقدر منه ، وعالم لا أحد أعلم منه ، ولا مساوي له في ذلك .

ثم أخبر أنه «يسبح له» اي ينزهه عن ذلك «السموات السبع والأرض ومن فيهن » يعني في السموات والارض من العقلاء ، وتنزيه السموات والارض هو ما فيها من الدلالة على توحيده وعدله ، وأنه لا يشركه في الإلهية سواه . وجرى ذلك مجرى التسبيح باللفظ ، وتسبيح العقلاء يحتمل ذلك: تسبيحهم باللفظ ، غير أن ذلك يختص بالموحدين منهم دون المشركين .

وقوله « وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده » اي ليس شيء من الموجودات إلا يسبح بحمد الله ؛ يعني كل شيء يسبح بحمده ، من جهة خلقته ، او معنى صفته إذ كل موجود سوى القديم تعالى حادث ، يدعو الى تعظيمه لحاجته إلى صانع غير مصنوع ، صنعه أو صنع من صنعه ، فهو يدعو إلى تثبيت قديم غني بنفسه عن كل شيء سواه ، لا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات ، وما عداه الحادث يدل على تعظيمه بمعنى حدثه من معدوم لا يصح الا به ، لدخوله في مقدوره او مقدور

---

(١) سورة ٧٣ المزمل آية ٨

مقدوره ومما سبحه من يسبح بحمده من جهته، معنى صفة في قوله ، فهو على العموم في كل شيء .

وقال بعضهم : سل الارض من شق أنهارك ؟ وغرس أشجارك ؟ وجنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً .

وقال الحسن : المعنى وإن من شيء من الاحياء إلا يسبح بحمده . وقال علي ابن ابراهيم وغيره من اهل العلم : كل شيء على العموم يسبح بحمده حتى صرير البـــاب .

وقوله « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » اي لستم تفقهون تسبيح هذه الاشياء ، من حيث لم تنظروا فيها ، فتعلموا كيفية دلالتها على توحيده .

وقوله «إنه كان حليماً غفوراً » اي كان حليماً حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على كفركم ، وأمهلكم إلى يوم القيامة ، وستره عليكم ، لأنه ستار على عباده ، غفور لهم إذ تابوا وأنابوا اليه

وقوله « وإذا قرأت القرآن » خطاب لنبيه محمد ﷺ انه متى قرأ القرآن «جعلنا بينك » يا محمد « وبين » المشركين «حجاباً مستوراً» اي كأن بينك وبينهم حجاباً من أن يدركوا ما فيه من الحكمة وينتفعوا به . وقيـــل : « مستوراً » عن أبصار الناس . وقيل « مستوراً » – ههنا – بمعنى ساتراً عن إدراكه ، كما يقال : مشؤم عليهم أو ميمون في موضع شائم ويامن ، لأنه من شؤمهم ويمنهم . والأول أظهر وقيل قوله « وجعلنـــا بينك» وبينهم « حجاباً مستوراً » نزل في قوم كانوا يأذونه باللسان إذا تلا القرآن، فحال الله بينهم وبينه حتى لا يؤذوه. والأول – قول قتادة : والثاني – قول ابو علي ، والزجاج. وقال الحسن: معناه إن منزلتهم فيما أعرضوا عنه منزلة من بينك وبينه حجاب .

قوله تعالى :

(وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا

ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً (٤٧) أُنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) (٤٨) ثلاث آيات .

معنى قوله « وجعلنا على قلوبهم أكنة » أي حكمنا بأنهم بهذه المنزلة ذماً لهم على الامتناع من تفهم الحق، والاستماع اليه، لتأمل معانيه، مع الإعراض عنه عداوة له ونفوراً منه . وقال الجبائي : إنه تعالى منعهم من ذلك وحال بينهم وبينه في وقت مخصوص، لئلا يؤذوا النبي ﷺ وإنما قال « وجعلنا » ولم يقل وجعلناهم « على قلوبهم أكنة » لأنه ابلغ في الذمّ مع قيام الدليل من جهة التكليف أنه ليس على جهة المنع ، وانما لم يجز المنع والحيلولة بينهم وبين ان يفقهوه ، لأن ذلك تكليف مالا يطاق ، وذلك قبيح لا يجوز ان يفعله الله تعالى ، على انه لا يصح ان يريد تعالى ما يستحيل حدوثه ، وإنما يصح ان يراد ما يصح ان يحدث او يتوهم ذلك منه ، لأن استحالته صارفة عن ان يراد ، ولا داع يصح أن يدعو إلى ارادته ، وتجري استحالة ذلك مجرى استحالة ان يريد كون الشيء موجوداً معدوماً في حال واحده .

(والأكنة) جمع كنان ، وهو ما ستر . وقوله « وفي آذانهم وقراً » أي وجعلنافي آذانهم وقراً . (والوقر) - بفتح الواو - الثقل في الأذن، وبالكسر الحمل . والأصل فيه الثقل إلا انه خولف بين البنائين للفرق .

وقوله « وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده » يعني إذا ذكرته بالتوحيد وانه لا شريك له في الإلهية « ولوّا » عنك ولم يسمعوه « على ادبارهم نفوراً » نافرين عنك . وقال بعضهم : إذا سمعوا بسم الله الرحمن الرحيم ولّوا .

ثم اخبر تعالى عن نفسه انه « اعلم » من غيره « بما يستمعون اليك » في حال ما «يستمعون اليك» اي يصغون إلى سماع قراءتك ويعلم أي شيء غرضهم فيه

وقوله: «وإذ هم نجوى» معناه اذ يتناجون بأن يرفع كل واحد سره الى الآخر، ووصفوا بالمصدر، لأن نجوى مصدر، ونجواهم زعمهم انه مجنون، وانه ساحر وانه اتى بأساطير الأولين - في قوله قتادة - وكان من جملتهم الوليد بن المغيرة.

وقوله «إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً» قيل في معناه قولان:

أحدهما - إنكم ليس تتبعون إلا رجلاً قد سحر، فاختلط عليه أمره، يقولون ذلك للتنفير عنه، كما يقال: سحر فلان، فهو مسحور إذ اختلط عقله. وقيل «مسحوراً» أي مصروفاً عن الحق، يقال: ما سحرك عن كذا؟ أي ما صرفك.

الثاني - ان له سحراً أي رئة، لا يستغني عن الطعام والشراب، فهو مثلكم. والعرب تقول للجبان: انتفخ سحره قال لبيد:

فان تسلينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسحر(١)

وقال آخر:

ونسحر بالطعام وبالشراب(٢)

وقيل: إن «نفوراً» جمع نافر، كقاعد وقعود، وشاهد وشهود، وجالس وجلوس. وقيل: مسحور معناه مخدوع. ومعنى الآية البيان عما يوجبه حال الجاحد للحق المعادي لأهله وذمه بأن قلبه كأنه في أكنَّة عن تفهمه، وكأن في أذنيه وقراً عن استماعه فهو مولٍّ على دبره، نافر عنه بجهله يناجي بالانحراف عنه جهالاً مثله، قد تعبوا بالحجة حتى نسبوا صاحبها إلى أنه مسحور، لما لم يكن إلى مقاومة ما أتى به سبيل، ولا على كسره دليل.

---

(١) ديوانه ١/٨٠ وتفسير القرطبي ١٠/٢٧٢ ومجاز القرآن ١/٣٨١ وتفسير الطبري ١٥/٦٣ واللسان (سحر) وروح المعاني ١٥: ٩٠ وقد مر في ١: ٣٧٢

(٢) قائله امرؤ القيس. ديوانه (الطبعة الرابعة) ٦٣ القصيدة ٣ وهو مطلعها. وتفسير القرطبي ١٠: ٢٧٣ ومجاز القرآن ١: ٣٨٢ واللسان (سحر) وتفسير الشوكاني ٣: ٢٢٣ وتفسير روح المعاني ١٥: ٩٠ وغيرها، وقد مر في ١: ٣٧٢، ٥: ٢٦٨ من هذا الكتاب، وصده:

ارانا موضعين لامر غيب

وقوله « انظر » أمر للنبي ﷺ بأن ينظر « كيف ضربوا لك الامثال » أي كيف ضرب هولاء المشركون له المثل بالمسحور وغير ذلك ، فجاروا بذلك عن طريق الحق ، فلا يسهل عليهم ولا يخف الرجوع اليه ولا اتباع سبيل الدين ، ويحتمل أن يكون المعنى إنهم لا يقدرون على تكذيبك ، وإن ما ذكروه فيك من قولهم مسحور وكذاب صرفهم ولا يستطيعون على ذلك .

قوله تعالى :

(وَقَالُوا ءإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً ءإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً (٥٠) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً) (٥١) ثلاث آيات بلا خلاف .

حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين أنكروا البعث والنشور ، والثواب والعقاب : أنهم يقولون « أإذا كنا عظاماً » أي إذا متنا وأنتثرت لحومنا وبقينا « عظاماً ورفاتاً » قال مجاهد : الرفات التراب . وبه قال الفراء وقال : لا واحد له من لفظه ، وهو بمنزلة الدقاق ، والحطام ، قال المبرد : كل شيء مدقوق مبالغ في دقه حتى انسحق ، فهو رفات ، يقال : رفت رفتاً ، فهو مرفوت إذا صير كالحطام .

و(إذا) في موضع نصب بفعل يدل عليه « لمبعوثون » وتقديره أنبعث « إذا كنا عظاماً . ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً » وصورته صورة الاستفهام وإنما هم منكرون لذلك متعجبون منه وكلما تحطم وترضض يجيء أكثره على (فعال) مثل (حطام ، ورضاض ودقاق وغبار وتراب) والخلق الجديد : هو المجدد أي يبعثهم الله أحياء بعد أن كانوا أمواتاً ، أنكروا ذلك وتعجبوا منه ، فقال الله لنبيه ﷺ « قل » لهم « كونوا حجارة أو حديداً » أي لو كنتم حجارة أو حديداً

بعد موتكم لأحياكم وحشركم ولم تفوتوا الله ، إلا أنه خرج مخرج الأمر ، لأنه أبلغ في الإلزام ، كأن أكثر ما يكون منهم مطلوب حتى يروا أنه هين حقير « أو خلقاً مما يكبر في صدوركم » فقيل في معناه ثلاثة أقوال :

قال مجاهد: السموات والأرض والجبال . وقال قتادة : أيُّ شيء استعظموه من الخلق . وقال ابن عباس . وسعيد بن جبير والفراء : انه الموت . قال الفراء قالوا للنبي ﷺ أرأيت لو كنا الموت من كان يميتنا؟! فأنزل الله «او خلقاً مما يكبر في صدوركم » يعني الموت نفسه اي ليبعث الله عليكم من يميتكم ثم يحييكم .

« فسيقولون من يعيدنا » اخبار منه حكاية عن هؤلاء الكفار انهم يقولون من يعيدنا احياء ؟ فقال الله لنبيه ﷺ « قل الذي فطركم اوّل مرة » اي الذي خلقكم ابتداء يقدر على إعادتكم ، لأن أبتداء الشيء اصعب من إعادته ، كما قال « وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه »[1] وقال لما قالوا « من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم »[2] وإنما قال لهم ذلك ، لانهم كانوا يقرون بالنشأة الأولى .

وقوله « فسينغضون اليك رؤوسهم » معناه انهم إذا سمعوا هذا حركوا رؤوسهم مستبعدين لذلك . وقال ابن عباس يحركون رؤوسهم مستهزئين ، يقال: انغضت رأسي انغضه انغاضاً ، ونغض براسه ينغض نغضاً إذا حركه والنغض تحريك الراس بارتفاع وانخفاض . ومنه قيل للظليم نغض ، لانه يحرك رأسه في مشيه بارتفاع وانخفاض قال العجاج :

اصك نغضاً لا يني مستهدجا[3]

ونغضت سنه إذا تحركت من اصلها قال الراجز :

ونغضت من هرم اسنانها[4]

---

(١) سورة ٣٠ الروم آية ٢٧ (٢) سورة ٣٦ يس آية ٧٩

(٣) تفسير الطبري ١٥ : ٦٥ وتفسير الشوكاني ٣ : ٢٢٦

(٤) تفسير الطبري ١٥/٦٥ وتفسير الشوكاني ٣ : ٢٢٦ وتفسير القرطبي ١٠ : ٢٧٤ ومجاز القرآن ١ : ٣٨٢

وقال آخر :

لما رأتني أنغضت لي الرأسا[١]

« ويقولون » هؤلاء الكفار « متى هو » يعنون بعثهم وإعادتهم أحياء فقال الله تعالى « قل » لهم يا محمد « عسى ان يكون قريباً » وعسى من الله واجبة ، وكل ما هو آت قريب ، ومن كلام الحسن انه قال : كأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل .

قوله تعالى :

(يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) (٥٤) ثلاث آيات بلا خلاف .

« يوم » يتعلق بقوله « قل عسى ان يكون » بعثكم ايها المشركون « قريباً يوم يدعوكم » وقيل في معني قوله « يوم يدعوكم » قولان :

احدهما - انهم ينادون بالخروج إلى ارض المحشر بكلام تسمعه جميع العباد ، وذلك يكون بعد ان يحييهم الله ، لأنه لا يحسن ان ينادى المعدوم ولا الجماد .

الثاني - انهم يسمعون صيحة عظيمة ، فتكون تلك داعية لهم إلى الاجتماع إلى ارض القيامة ، ويجوز أن يكون ذلك عبارة عن البعث ويكون اجرى صرخة ثانية

---

(١) مجاز القرآن ١:٣٨٢ وتفسير الطبري ١:٦٥٥ والشوكاني ٣:٢٢٦

بسرعة فأجرى مجرى، دعي فأجاب في الحال « فيستجيبون بحمده » قيل في معناه قولان :

احدهما - تستجيبون حامدين ، كما يقول القائل: جاء فلان بغضبه اي جاء غضبان .

الثاني - تستجيبون على ما يقتضيه الحمد لله (عزوجل) ، وقيل : معناه يستجيبون معترفين بأن الحمد لله على نعمه ، لا ينكرونه ، لأن معارفهم هناك ضرورة قال الشاعر :

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة اتقنع[1]

والاستجابة موافقة الداعي فيما دعا اليه بفعله من اجل دعائه، وهي والإجابة واحدة إلا ان الاستجابة تقتضي طلب الموافقة بالإرادة بأوكد من الإجابة .

وقوله « وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً » قيل في معناه قولان :

احدهما - انهم لما يرون من سرعة الرجوع يظنون قلة اللبث .

الثاني - انه يراد بذلك تقريب الوقت ، كما حكي عن الحسن انه قال : كأنك بالدنيا لم تكن ، وبالآخرة لم تزل . وقال قتادة : المعنى احتقاراً من الدنيا حين عاينوا يوم القيامة . وقال الحسن ان «لبثتم إلا قليلاً » في الدنيا لطول لبثكم في الآخرة .

وقوله «وقل لعبادي يقول التي هي احسن» قال الحسن: معناه «قل» يا محمد «لعبادي» يأمروا بما امر الله به ، وينهوا عما نهى عنه . وقال الحسن : معناه قل لعبادي يقل بعضهم لبعض أحسن ما يقال، مثل رحمك الله ويغفر الله لك. ثم أخبر تعالى فقال« إن الشيطان ينزغ بينهم» اي يفسد بينهم ويلقي بينهم العداوة والبغضاء وقال « إن الشيطان كان » في جميع الأوقات عدواً مبايناً « للانسان » آدم وذريته .

وقوله « وربكم أعلم بكم » معناه التحذير لعباده من إضمار القبيح ، والترغيب

(١) تفسير القرطبي ١٠:٢٦٦ وتفسير الشوكاني ٣:٢٢٦ وتفسير روح المعاني ١٥:٩٣

في الجميل ، لأنه عالم به يقدر أن يجازي على كل واحد منه بما هو حقه « إن يشأ يرحمكم » بالتوبة « وإن يشأ يعذبكم » بالاقامة على المعصية .

وقوله « وما أرسلناك عليهم وكيلا » معناه إنا ما وكّلناك بمنعهم من الكفر بل أرسلناك داعياً لهم إلى الايمان وزاجراً عن الكفر ، فإن أجابوك ، وإلاّ فلا شيء عليك واللائمة والعقوبة يحلان بهم .

قوله تعالى :

(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (٥٥) قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً) (٥٧) ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى لنبيه « إن ربّك » يا محمد « أعلم بمن في السموات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » وانما قال ذلك ليدل على أن تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض وقع موقع الحكمة ، لأنه من عالم بباطن الأمور ، واذا ذكر ما هو معلوم فانما يذكره ليدل به على غيره والانبياء وان كانوا في أعلى مراتب الفضل ، لهم طبقات بعضهم أعلى من بعض ، وإن كانت المرتبة الوسطى لاتلحق العليا ولا يلحق مرتبة النبي من ليس بنبيّ أبداً . وقوله «وآتينا داود زبوراً» اي خصصناه بالذكر ، وفيه لغتان فتح الزاي ، وضمها . والفتح أفصح . ثم قال لنبيه « قل » لهم « ادعوا الذين زعمتم من دونه » يعني الذين زعمتم انهم أرباب وآلهة من دون الله ادعوهم اذا نزل بكم ضرر ،فانظروا هل يقدرون على دفع ذلك ام لا .

وقال ابن عباس والحسن « الذين من دونه » الملائكة والمسيح وعزير . وقال ابن مسعود : أراد به ما كانوا يعبدون من الجن : وقد أسلم اولئك النفر من الجن لان جماعة من العرب كانوا يعبدون الجن ، فأسلم الجن وبقي الكفار على عبادتهم. وقال أبو علي: رجع الى ذكر الانبياء في الآية الاولى. والتقدير إن الأنبياء يدعون الى الله يطلبون بذلك الزلفة لديه ويتوسلون به اليه والى رضوانه وثوابه ، أيهم كان أفضل عند الله ، واشد تقرباً اليه بالأعمال . ثم قال « فلا يملكون » يعني الذين تدعون من دون الله « كشف الضر » والبلاء « عنكم » ولا تحويله الى سواكم .

ثم قال « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب... »الاية

قوله « اولئك » رفع بالابتداء و« الذين » صفة لهم و « يبتغون الى ربهم » خبر الابتداء . والمعنى الجماعة الذين يدعون يبتغون الى ربهم «أيهم» رفع بالإبتداء و «اقرب» خبره . والمعنى يطلبون الوسيلة ينظرون ايهم اقرب فيتوسلون به ، ذكره الزجاج . وقال قوم : الوسيلة هي القربة والزلفة . وقال الزجاج: الوسيلة والسؤال والسؤل والطلبة واحد ، والمعنى إن هؤلاء المشركين يدعون هؤلاء الذين اعتقدوا فيهم انهم ارباب ويبتغي المدعوون أرباباً الى ربهم القربة والزلفة لأنهم اهل إيمان به . والمشركون بالله يعبدونهم من دون الله ، ايهم اقرب عندالله بصالح اعماله واجتهاده في عبادته ، فهم يرجون بأفعالهم رحمته ويخافون عذابه بخلافهم إياه « إن عذاب ربك كان محذوراً » اي متقى .

قوله تعالى :

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عذَاباً شَدِيداً كَانَ ذٰلِكَ فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُوراً (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (٥٩)

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً (٦٠) ثلاث آيات .

اخبر الله تعالى انه ليس «من قرية إلا» والله تعالى مهلكها «قبل يوم القيامة» . بكفر من فيها من معاصيهم جزاء على افعالهم القبيحة «او معذبوها عذابا شديداً» والمعنى ان يكون إما الإهلاك والإستئصال أو العذاب ، والمراد بذلك قرى الكفر والضلال دون قرى الإيمان . وقيل إن ذلك يكون في آخر الزمان ، فيهلك الله كل قرية بعقوبة بعض من فيها ، ويكون امتحاناً للمؤمنين الذين فيها . وقيل: ان المعنى ما من قريه إلا والله مهلكها إما بالموت لأهلها او عذاب يستأصلهم ثم اخبر أن ذلك كائن لا محالة ، ولا يكون خلافه ، لان ذلك مسطور في الكتاب يعني في اللوح المحفوظ ، والمسطور هو المكتوب يقال: سطر سطراً ، قال العجاج:

واعلم بأن ذا الجلال قد قدر في الصحف الاولى التي كان سطر[1]

ثم قال « وما منعنا ان نرسل بالآيات » يعني الآيات التي اقترحتها قريش من قولهم : حول لنا الصفا ذهباً وفجر لنا من الارض ينبوعا ، وغير ذلك ، فأنزل الله الآية إني إن حولته ، فلم يؤمنوا لم امهلهم كسنتي فيمن قبلهم ، وهو قول قتادة وابن جريج . والمنع وجود مالا يصح معه وقوع الفعل من القادر عليه فكأنه قد منع منه ، ولا يجوز إطلاق هذه الصفة في صفات الله والحقيقة إنا لم نرسل بالآيات لئلا يكذب بها هؤلاء كما كذّب من قبلهم ، فيستحقوا المعاجلة بالعقوبة . وقال قوم : يجوز أن يكون قوله تعالى « إلا أن كذب بها الأولون » تكون (إلا) زايدة ، وتقديره ما منعنا ان نرسل بالآيات « ان كذب بها الاولون » أي لم يمنعنا ذلك من إرسالها بل أرسلناها مع تكذيب الاولين . ومعنى « ان كذب »

(١) ديوان ١٩ ومجاز القرآن ١ : ٣٨٣ وتفسير الطبري ١٥ : ٩٩ واللسان والتاج (نثر)

هو التكذيب ، كما تقول : أريد ان تقوم بمعنى أريد قيامك .ويحتمل ان يكون « إلا » بمعنى (الواو) كما قال « لئلا يكون للناس عليكم حجة ، إلا الذين ظلموا »[١] معناه والذين ظلموا منهم ، فلا حجة لهم عليهم . ويكون المعنى وما منعنا أن نرسل بالآيات وإن كذب بها الأولون أي لسنا نمتنع من إرسالها ، وإن كذبوا بها و (أن) الاولى في موضع نصب بوقوع « منعنا » عليها . و (أن) الثانية رفع والمعنى ، وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الاولين من الامم ، والفعل لـ (أن) الثانية .

وقوله « وآتينا ثمود الناقة مبصرة » معناه مبصرة تبصر الناس بما فيها من العبر ، والهدى من الضلالة والشقاء من السعادة ، ويجوز أن يكون المراد انها ذات إبصار ، حكى الزجاج : مبصرة بمعنى مبينة ، وبالكسر معناه تبين لهم ، قال الفراء : مَبصرة مثل مَجبنة ومَنحلة ، وكل (مَفعلة) وضعته موضع (فاعل) أغنت عن الجمع والتأنيث ، تقول العرب : هذا عشب ملبنة ، مسمنة . والولد مجبنة منحلة . وان كان من الياء والواو ، فاظهرهما ، تقول سراب مبولة ، وكلام مهينة للرجال قال عنترة :

والكفر مخبثة لنفس المنعم[٢]

ومعنى مبصرة مضيئة ، قال الله تعالى « والنهار مبصراً »[٣] اي مضيئاً .

وقوله « فظلموا بها » يعني بالناقة [لأنهم نحروها وعصوا الله في ذلك ، لانه نهاهم عن ذلك ، فخالفوا ونحروها . وقيل : ظلموا بها][٤] معناه ظلموا بتكذيبهم إياها بانها معجزة باهرة .

وقوله « وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً » اي لم نبعث الآيات ونظهرها إلا

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٠

(٢) من معلقته المشهورة ديوانه (دار بيروت) ٢٨ وصدره :

نبئت عمراً غير شاكر نعمتي

(٣) سورة ١٠ يونس آية ٦٧ وسورة ٢٧ النمل اية ٨٦ وسورة ٤٠ المؤمن (غافر) اية ٦١

(٤) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة .

لتخويف العباد من عقوبة الله ومعاصيه .

وقوله « واذا قلنا لك » اي اذكر الوقت الذي قلنا لك يا محمد « ان ربك احاط بالناس » اي احاط علماً باحوالهم ، وما يفعلونه من طاعة او معصية ، وما يستحقونه على ذلك من الثواب والعقاب ، وقادر على فعل ذلك بهم ، فهم في قبضته ، لا يقدرون على الخروج من مشيئته .

وقوله « وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس » قيل في معنى ذلك قولان :

احدهما انه اراد رؤية عين، ليلة الاسراء الى البيت المقدس ، فلما اخبر المشركين بما رأى كذبوا به ، ذكره ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، وابراهيم ، وابن جريج ، وابن زيد ، والضحاك ، ومجاهد .

الثاني- في رواية اخرى عن ابن عباس: انه رؤيا نوم ، وهي رؤيا انه سيدخل مكة ، فلما صده المشركون في الحديبية شك قوم ودخلت عليهم الشبهة ، فقالوا يا رسول الله: أو ليس قد اخبرتنا انا ندخل المسجد؟ فقال: قلت لكم انكم تدخلونها السنة ؟! . فقالوا : لا ، فقال سندخلنها إن شاء الله ، فكان ذلك فتنة وامتحاناً وروي عن ابي جعفر وابي عبدالله (ع) ان ذلك رؤيا رآها في منامه أن قروداً تصعد منبره وتنزل ، فساءه ذلك وروى مثل ذلك سهل بن سعد الساعدي عن أبيه ان رسول الله ﷺ رأى ذلك . ومثله عن سعد بن بشار ،[1] فأنزل الله عليه جبرائيل واخبره ما يكون من تغلب أمر بني أمية على مقامه وصعودهم منبره.

وقوله « والشجرة الملعونة في القرآن » قال ابن عباس والحسن وأبو مالك وسعيد بن جبير وابراهيم ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد : إنها شجرة الزقوم التي ذكرها الله في قوله «ان شجرة الزقوم طعام الاثيم» [2] والمعنى ملعون آكلها ، وكانت فتنتهم بها قول ابي جهل وذويه النار تأكل الشجرة وتحرقها ، فكيف ينبت فيها الشجر . وعن أبي جعفر ان الشجرة الملعونة هم بنو امية ،

---

(١) في المخطوطة (سعيد بن يسار)   (٢) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٣

وقال البلخي: يجوز ان يكون المراد به الكفار . وقوله «ونخوفهم» أي نرهبهم بما نقصّ عليهم من هلاك من مضى بها، فما يزدادون عند ذلك «إلا طغياناً كبيراً» أي عتوّاً عظيماً وتماديا وغيّاً .

قوله تعالى :

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيس قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ ٱذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً) (٦٣) ثلاث آيات .

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ واذكر «إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس» وقد بينا أنّ امر الله تعالى بأن اسجدوا لآدم تعظيم لآدم وتفضيله عليهم وإن كانت القربى[1] بذلك السجود الى الله تعالى ، وفي الناس من قال : انه كان بمنزلة القبلة لهم وإن كان فيه تشريف له .

ثم اخبر تعالى ان الملائكة امتثلت امر الله فسجدت له «إلا إبليس» فقد قلنا ان اخبارنا تدل على ان ابليس كان من جملة الملائكة ، وانما كفر بامتناعه من السجود ، ومن قال ان الملائكة معصومون فان إبليس لم يكن من جملة الملائكة والاستثناء في الآية استثناء منقطع و (إلا) بمعنى (لكن) وانما ضمه الى الملائكة من حيث جمعهم في الأمر ، والتكليف بالسجود ، فلذلك استثناه من جملتهم .

ثم اخبر تعالى عن إبليس أنه قال «أأسجد لمن خلقت طيناً» على وجه الإنكار

---

(١) في المخطوطة (وان كان الغرض)

لذلك ، وأن من خلق من نار أشرف وأعظم ، من الذي خلق من طين ، وآدم اذا كان مخلوقاً من طين كيف يسجد له من هو مخلوق من نار ، وهو ابليس ، وذلك يدل على ان إبليس فهم من ذلك الأمر تفضيله عليه ، ولو كان بمنزلة القبلة لما كان لامتناعه عليه وجه ، ولا لدخول الشبهة بذلك مجال .

و« طيناً » نصب على التمييز ، ويجوز ان يكون نصباً على الحال. والمعنى إنك انشأته في حال كونه من طين .

ووجه الشبهة الداخلة على إبليس ان الفروع ترجع الى الاصول فتكون على قدرها في التكبر أو التصغر ، فلما اعتقد أن النار اكرم أصلا من الطين جاء منه انه أكرم ممن خلق من طين ، وذهب عليه بجهله أن الجواهر كلها متماثلة ، وان الله تعالى يصرفها بالاعراض كيف شاء مع كرم جوهر الطين وكثرة ما فيه من المنافع التي تقارب منافع النار او توفى عليها .

وانما جاز ان يأمره بالسجود له ، ولم يجز ان يأمره بالعبادة له ، لأن السجود يترتب في التعظيم بحسب ما يراد به ، وليس كذلك العبـــادة التي هي خضوع بالقلب ليس فوقه خضوع ، لأنه يترتب في التعظيم بحسب نيته؛ يبين ذلك أنه لو سجد ساهياً لم يكن له منزلة في التعظيم على قياس غيره من افعـال الجوارح . قال الرماني : الفرق بين السجود لآدم والسجود الى الكعبة ، ان السجود لآدم تعظيم له باحسانه ، وهذا يقارب قولنا في أنه قصـــد بذلك تفضيله بأن امره بالسجود له .

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن المعنى ما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً محققين ظن إبليس فيهم مخالفين موجب نعمة ربهم على أمتهم وعليهم. ثم حكى تعالى عن إبليس أنه قال « ارأيتك هذا الذي كرمت عليّ » ومعناه اخبرني عن هذا الذي كرّمته عليّ لم كرّمته علي؟ وقد خلقتني من نار وخلقته من طين! فحذف لدلالة الكلام عليه .

وإنما قال «أأسجد » بلا حرف عطف ، لأنــه على قوله « أأسجد لمن خلقت طيناً » والكاف في قوله « أرأيتك» لا موضع لها من الاعراب ، لأنها ذكرت في

المخاطبة توكيداً ، و(هذا) نصب بـ (أرأيتك) ، والجواب محذوف . والمعنى ما قدمناه .

وقوله « لئن اخرتنِ الى يوم القيامة لاحتنكنّ ذريّته إلاّ قليلا » ، ومعنى لاحتنكن لاقطعنهم الى المعاصي ، يقال منه : احتنك فلان ما عند فلان من مال أو علم او غير ذلك ، قال الشاعر :

أشكو اليك سنة قد أجحفت جهداً إلى جهد بنا وأضعفت
واحتنكت أموالنا وجلفت [1]

وقال ابن عباس: معنى « لاحتنكنّ » لأستولينّ ، وقال مجاهد: لأحتوين ، وقال ابن زيد: لاضلنهم ، وقال قوم : لاستأصلن ذريته بالاغواء، وقال آخرون: لأقودنهم إلى المعاصي ، كما تقاد . الدابّة بحنكها إذا شدّ فيها حبل تجرُّ به .

وقوله « الا قليلا » استثناء من ابليس القليل من ذرّيه آدم الذين لا يتبعونه ولا يقبلون منه. فقال الله تعالى عند ذلك « اذهب » يا ابليس « فمن تبعك » من ذرية آدم واقتفى أثرك وقبل منك « فان جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً » أي كاملا ، يقال منه : وفرته أفره وفراً ، فهو موفور ، وقال زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم [2]

ووفـّرته توفيراً ، ويقال : موفوراً بمعنى وافر ، في قول مجاهد ، كأنه ذو وفر ، كقولهم : لابن أي ذو لبن ، وقد دل على انهم لا ينقصون من عقـابهم الذين يستحقونه شيئاً ، وفي ذلك استخفاف به وهوان له . وانما ظن ابليس هذا الظن الصادق، بأنه يغوي اكثر الخلق، لان الله تعالى كان قد أخبر الملائكة أنه سيجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، فكان قد علم بذلك . وقيل :

---

(١) تفسير الطبري ١٥ : ٧٥

(٢) ديوانه (دار بيروت) ٨٧ وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣/٢٣٣ وتفسير روح المعاني ١٥/١١٠

انما قال ذلك ، لانه وسوس الى آدم فلم يجد له عزماً،فقال: بنو هذا مثله في ضعف العزيمة ، ذكره الحسن . وهذا الوجه لا يصح على اصلنا ، لان عندنا ان آدم لم يفعل قبيحاً ، ولا ترك واجباً ، فلو ظن ابليس ان اولاده مثله لانتقض غرضه ، ولم يخبر بما قال .

و (لئن) حرف شرط، ولا يليه الا الماضي، والشرط لا يكون الا بالمستقبل والعلة في ذلك ان اللام في (لئن) تأكيد يرتفع الفعل بعده و (ان) حرف شرط ينجزم الفعل بعده ، فلما جمعوا بينهما ، لم يجز ان يجزم فعل واحد ويرفع ، فغير المستقبل الى الماضي ، لان الماضي لايبين فيه الاعراب ، ذكر هذه العله ابن خالوية .

قوله تعالى :

(وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) رَبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) (٦٦) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ حفص وحده « ورجلك » بكسر الجيم . الباقون بتسكينها

من سكّن أراد جمع (راجل) مثل صاحب وصحب،وراكب وركب.ومن كسر اراد قولهم : رجل يرجل، فهو راجل .

قوله:«واستفزز... واجلب»صورته صورة الأمر والمراد به التهديد،وجرى

مجرى قوله « اعملوا ما شئتم »[1] وكما يقال للانسان : اجهد جهدك ، فسترى ما ينزل بك ، وانما جاء التهديد بصيغة الامر ، لأنه بمنزلة من امر باهانة نفسه ، لان هذا الذي يعمله هوان له وهو مأمور به. ومعنى (استفزز) استزل ، يقال : استفزه واستزله بمعنى واحد ، وتفزز الثوب اذ تمزق ، وفززه تفززاً ، وأصله القطع ، فمعنى استفزه استزله بقطعه عن الصواب « من استطعت منهم » فالاستطاعة قوة تنطاع بها الجوارح للفعل ، ومنه الطوع والطاعة ، وهو الانقياد للفعل .

وقيل في الصوت الذي يستفزهم به قولان :

احدهما - قال مجاهد : صوت الغناء واللهو .

الثاني - قال ابن عباس : هو كل صوت يدعا به الى معصية الله . وقيل : كل صوت دعي به الى الفساد ، فهو من صوت الشيطان .

وقال : « واجلب عليك بخيلك » فالاجتلاب السوق بجلبة من السائق . وفي المثل (اذا لم تغلب فاجلب) يقال : جلب يجلب جلباً واجلب إجلاباً، واجتلب اجتلاباً ، واستجلب استجلاباً ، وجلّب تجليباً مثل صوّت، واصل الجلبة شدة الصوت ، وبه يقع السّوق .

وقوله : « بخيلك ورجلك » قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : كل راكب او ماش في معصية الله من الانس والجن ، فهو من خيل ابليس ورجله ، والرجل جمع راجل مثل تجر وتاجر ، وركب وراكب .

وقوله : «وشاركهم في الاموال والاولاد»فمشاركته إياهم في الاموال كسبها من وجوه محظورة او إنفاقها في وجوه محظورة ، كما فعلوا في السائبة والبحيرة والحام ، والاهلال به لغير الله ، وغير ذلك . ومشاركته في الاولاد، قال مجاهد والضحاك : فهم اولاد الزنا . وقال ابن عباس : الموؤدة . وقيل:من هوّدوا ونصّروا ، في قول الحسن وقتاده . وقال ابن عباس في رواية : هو تسميتهم عبد

---

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٤٠

الحارث ، وعبد شمس ، وما اشبه ذلك . وقيل : ذلك واحد من هذه الوجوه، وهو أعم .

وقوله: «وعدهم» اي منّهم البقاء وطول الأمل. ثم قال تعالى « وما يعدهم الشيطان » أي ليس يعدهم الشيطان «الا غروراً» ونصب على انه مفعول له[اي ليس يعدهم الشيطان الا لأجل الغرور][١] . ثم قال تعالى « ان عبادي » يعني الذين يطيعوني ويقرّون بتوحيدي ويصدقون أنبيائي،ويعملون بما اوجبه عليهم، وينتهون عن معاصيّ « ليس لك » يا ابليس « عليهم » حجة ولا سلطان . قال الجبائي : معناه ان عبادي ليس لك عليهم قدرة ، عـلى ضرّ ونفع اكثر من الوسوسة، والدعاء الى الفساد ، فأمّا على كفر أو ضرر، فلا ، لانه خلق ضعيف متخلخل ، لا يقدر على الاضرار بغيره .

ثم قال « وكفى بربك » اي حسب ربك « وكيلا » اي حافظاً، ومن يسند الامر اليه ويستعان به في الامور .

ثم خاطب تعالى خلقه فقال : « ربكم الذي خلقكم » هو الذي « يزجي لكم الفلك في البحر » قال ابن عباس : معناه يجريها ، وبه قال قتادة ، وابن زيد يقال : أزجى يزجي ازجاء إذا ساق الشيء حالاً بعد حال « لتبتغوا من فضله » اي لتطلبوا فضل الله في ركوب البحر من الارياح وغيرها «انه كان بكم رحيماً » اي منعماً عليكم راحم لكم ، يسهل لكم طرق ما تنتفعون بسلوكه ديناً ودنيا .

قوله تعالى :

(وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ كَفُوراً (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ

---

(١) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً) (٦٩) ثلاث آيات .

قرأ ابن كثير وابو عمرو « أن نخسف... او نرسل ... أن نعيدكم... فنرسل» بالنون فيهن. الباقون بالياء . الا ابا جعفر ، وورش ، فانهما قرأا «فتغرقكم» بالتاء يردّانه الى الريح . ومن قرأ بالنون اراد الاخبار من الله عن نفسه . ومن قرأ بالياء اراد أن محمداً اخبر عن الله،والمعنيان متقاربان. وقال ابو علي: من قرأ بالياء فلانه تقدم «ضل من تدعون الا اياه،فلما نجاكم الى البر... أفامنتم ان يخسف بكم» ومن قرأ بالنون ، فلان مثله قد ينقطع بعضه عن بعض . والمعنى واحد ، يقول الله تعالى لخلقه : انه اذا نالكم الضر ، وانتم ركاب البحر بان أشرفتم على الهلاك وخبّ بكم البحر وماجت الامواج «ضل من تدعون » اي يكون بمنزلة من يضل عنكم، ولا ينجيكم من اهواله الا الله تعالى . وانما خص البحر بذكر النجاة ، لان له اهوالاً هيجانية وخبة ، لا يطمع عاقل في ان ينجيه احد منه الا الذي خلق النفس وانعم بما وهب من العقل والسمع والبصر . وقال : اذا دعوتموه في تلك الحال ، ونجاكم ، وخلصكم ، واخرجكم منه الى البر اعرضتم عن ذكر الله ، والاعتراف بنعمه .

ثم قال تعالى : «وكان الانسان كفوراً» لنعم الله تعالى ، ثم قال مهدداً لهم : «أفأمنتم» اي هل أمنتم اذا ضربتم في البرّ «أن يخسف بكم» جانبه ويقلب اسفله اعلاه فتهلكون عند ذلك ، كما خسفنا بمن كان قبلكم من الكفار نحو قوم لوط وقوم فرعون «أو يرسل عليكم حاصباً » بمعنى حجارة تحصبون بها او ترمون بها. والحصباء الحصى الصغار ، ويقال : حصب الحصى يحصبه حصباً اذ رماه رمياً متتابعاً ، والحاصب ذو الحصب. والحاصب فاعل الحصب « ثم لا تجدوا لكم وكيلاً » أي من يدفع ذلك عنكم .

ثم قال: «أم» اي هل «أمنتم أن يعيدكم» في البحر دفعة اخرى بان يجعل لكم الى ركوبه حاجة «فيرسل عليكم قاصفاً من الريح» فالقاصف الكاسر بشدة قصفه يقصفه قصفاً، فهو قاصف، وتقصف شعره تقصفاً، وانقصف الرجل انقصافاً. وقصّف الشيء تقصيفاً، «فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً» اي من يتبع إهلاككم للمطالبة بدمائكم او يأخذ بثأركم، وقيل ان القاصف الريح الشديدة تقصف الشجر بشدّتها. وانما قيل: حاصب على وزن فاعل لامرين:

احدهما - ريح حاصب أي تحصب الحجارة من السماء، قال الشاعر:

مستقبلين شمال الشام يضربنا ... بحاصب كنديف القطن منثور (١)

وقال الآخر:

ولقد علمت إذا العشار تروحت ... حتى تبيت على العصاة حفالا (٢)

الثاني - حاصب ذو حصب.

قوله تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) (٧٢) ثلاث آيات بلا خلاف.

---

(١) قائله الفرزدق ديوانه (دار بيروت) ١: ٢١٣ وتفسير الطبري ١٥/٧٩ وتفسير القرطبي ١٠/٢٩٢ والشوكاني ٣/٢٣٥ وروح المعاني ١٥/١١٦

(٢) تفسير الطبري ١٥/٩٧

اخبر الله تعالى : انه كرّم « بني آدم » وانما عنى بني آدم بالتكرمة مع ان فيهم كفاراً ، لان المعنى كرمناهم بالنعمة على وجه المبالغة في الصفة . وقال قوم : جرى ذلك مجرى قوله « كنتم خير أمة اخرجت للناس [١] » فاجرى الصفة على جماعتهم من اجل من فيهم على هذه الصفة . ثم بين تعالى الوجوه التي كرّم بها بني آدم بأنه حملهم في البرّ والبحر على ما يحملهم من الابل وغيرها ، كما قال: « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة» [٢] والبحر، والسفن التي خلقها لهم واجراها بالرياح فوق الماء ليبلغوا بذلك حوائجهم « ورزقناهم من الطيبات» يعني من الثمار والفواكه وطيبات الاشياء ، وملاذها التي خص بها بني آدم ولم يشرك شيئاً من الحيوان فيها من فنون الملاذ . وقيل : من تفضيل بني آدم ان يتناول الطعام بيديه دون غيره ، لان غيره يتناوله بفيه ، وانه ينتصب ، وما عداه على اربع او على وجهه .

وقوله: «وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» وليس المراد بذلك تفضيلهم بالثواب ، لان الثواب لا يتفضل به ابتداء ، وانما فضلهم ابتداء بان خلق لهم من فنون النعم وضروب الملاذ ما لم يجعله لشيء من الحيوان ، وانما فعل ذلك تفضلاً منه تعالى ، ولما في ذلك من اللطف للعاقل ، والصلاح الذي ينتظم ويتم بهذا التأويل ، واستدل جماعته بقوله « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا » على تفضيل الملائكة على الانبياء ، قال لان قوله « على كثير ممن خلقنا » يدل على ان ههنا من لم يفضلهم عليهم ،وليس الا الملائكة، لان ابن آدم افضل من كل حيوان سوى الملائكة بلا خلاف. وهذا باطل بما قلناه من ان المراد بذلك تفضيلهم بالنعم الدنياوية، والالطاف ، وليس المراد بذلك الثواب بدلالةابتدائهم بهذا التفضيل. والثواب لا يجوز الابتداء به .

وقوله « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » قال الزجاج: يتعلق بقوله «يعيدكم... يوم ندعو » وقيل : تقديره اذكر يوم . وقيل انه يتعلق بقوله « وفضلناهم على

(١) سورة آل عمران آية ١١٠ (٢) سورة ١٦ النحل آية ٨

كثير ممن خلقنا تفضيلا... يوم ندعو »، لان ما فعله بهم من الالطاف في الدنيا، لان يطيعوا ويفعلوا من الافعال ما يدعون به يوم القيامة .

واختلفوا في الإمام الذي يدعون به يوم القيامة ، فقال مجاهد وقتادة: إمامه نبيه . وقال ابن عباس : إمامه كتاب عمله. وروي عنه ايضاً أن إمامهم كتابهم الذي انزل الله اليهم فيه الحلال والحرام والفرائض والاحكام . وقال البلخي : بما كانوا يعبدونه ، ويجعلونه إماماً لهم . وقال ابو عبيد : بما كانوا يأتمون به في الدنيا . وهو قول ابي جعفر وابي عبد الله (ع) .

وقوله «فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم... » الاية، جعل الله تعالى إعطاء الكتاب باليمين من علامة الرضا والخلاص ، وأن من أعطي كتابه باليمين تمكن من قراءته وسهل له ذلك ، وكان فحواه أن من أعطي كتابه بشماله أو وراء ظهره ، فإنه لا يقدر على قراءة كتابه ، ولا يتأتى له ، بل يتلجلج فيه ، لما يراه من المعاصي الموبقات .

وقوله « ولا يظلمون فتيلا » معناه لا يبخس أحد حقه ، ولا يظلم شيئاً ، سواء كان مستحقاً للثواب أو العقاب ، فإن المستحق للثواب لا يبخس منه شيئاً والمستحق للعقاب لا يفعل به أكثر من استحقاقه ، فيكون ظلماً له . (والفتيل) هو المفتول الذي في شق النواة - في قول قتادة - وقيل الفتيل في بطن النواة ، والنقير في ظهرها ، والقطمير قشر النواة ، ذكره الحسن .

وقوله « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » قرأ أهل العراق إلا حفصاً والأعشى « ومن كان في هذه أعمى » بالأمالة . الباقون بالتفخيم وقرأ حمزة والكسائي إلا نصيراً، وخلفاً ، وأبا بكر إلا الأعشى والبرجمي « فهو في الآخرة أعمى » بالأمالة : الباقون بالتفخيم .

وقيل في معنى الآية قولان :

أحدهما - قال ابن عباس ، ومجاهد وقتادة ، وابن زيد : من كان في أمر هذه

الدنيا، وهي شاهدة له من تدبيرها وتوثقها وتقلب النعم فيها أعمى عن اعـتماد[١] الصواب الذي هو مقتضاها ، فهو في الآخرة التي هي غائبة[٢] عنه « أعمى وأضل سبيلا » وقال قوم : من كان في هذه الدنيا أعمى عن طريق الحق ، فهو في الاخرة أعمى عن الرشد المؤدي إلى طريق الجنة . وقال أبو علي : فهو في الآخرة أعمى عن طريق الجنة . ومن فخم في الموضعين ، فلأن الياء فيها قد صارت ألفاً لانفتاح ما قبلها . والأصل فمن كان في هذه اعمى ، فهو في الآخرة أعمى ، ومن كان فيما وصفناه من نعيم الدنيا اعمى، فهو في نعيم الآخرة اعمى. واما تفريق ابي عمرو بين اللفظين فلاختلاف المعنى ، فقال ومن كان في هذه اعمى ممالاً ، فهو في الاخرة اعمى بالفتح اي أشدّ عمى ، فجعل الأول صفة بمنزلة أحمر وأصفر، والثاني بمنزلة أفعل منك، كقوله «وأضل سبيلا » اي اعمى قلباً . والعمى في العين لا يتعجب منه بلفظة (أفعل)، ولا يقال ما أعماه ، بل يقال ما أشدّ عماه، وفي القلب ما أعماه بغير أشدّ ، لأن عما القلب حمق، كما قال الشاعر لمرور ما أحمره وأبيضه، فقال:

أمّا الملوك فأنت اليوم ألأمهم   لؤماً وأبيضهم سربال طباخ[٣]

وقال بعضهم : لا وجه لتفريق ابي عمرو، لأن الثاني، وإن كان بمعنى (أفعل منك) فلا يمنع من الامالة ، كما لم يمنع بالذي هو ادنى ، قال ابن خالويه ابو عبدالله إنما اراد ابو عمرو ان يفرق بينهما لما اختلف معناهما ، واجتمعا في آية واحده ، كما قرأ « ويوم القيامة يردون » يعني الكفار، ثم قال في آخرها « عما تعملون »[٤] اي أنتم وهم، ولو وقع مفرداً ، لأجاز الامالة والتفخيم فيهما، قال ابو علي : ومن أمال الجميع كان حسناً ، لانه ينحو نحو الياء بالالف ليعلم انها منقلبة الى الياء وان كانت فاصلة او مشبهة للفاصلة ، فالامالة حسنة فيها ، لأن الفاصلة موضع

---

(١) في المخطوطة (اعتقاد)
(٢) أثبتنا ما في المخطوطة، وكان في المطبوعة (غايته)
(٣) تفسير القرطبي ٢٩٩/١٠ وتفسير الشوكاني ٢٣٨/٣
(٤) سورة البقرة آية ٨٥

وقف، والالف تخفى في الوقف، فأمّا إذا أمالها، نحا بها نحو الكسرة وليكون أظهر لها وأبين.

قوله تعالى

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا (٧٤) إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيٰوةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً) (٧٥) ثلاث آيات .

قال الزجاج : معنى الكلام كادوا يفتنونك، ودخلت (ان واللام) للتوكيد ومعنى (كاد) المقاربة . وقوله « وإن كادوا » قال الحسن : معناه قارب بأن همّ من غير عزم. وروي عن النبي ﷺ (ان الله وضع عن أمّتي ما حدثت به نفسها إلا من عمل شيئاً او تكلم به) وقيل انهم قالوا : لا ندعك تستلم الحجر حتى تلم بآلهتنا . وقال مجاهد ، وقتادة : الفتنة التي كاد المشركون ان يفتنوا النبي ﷺ بها الإلمام بآلهتهم ان يمسها في طوافه ، لما سألوه في ذلك ، ولاطفوه .

وقال ابن عباس : همّ بإنظار ثقيف بالإسلام حتى يقبضوا ما يهدى لآلهتهم ثم يسلموا فيها .

امتن الله تعالى على نبيه محمد ﷺ بأنه لولا انه ثبته بلطفه ، وكثرة زواجره وتواتر نهيه ، لقد كاد يركن اي يسكن ، ويميل إلى المشركين قليلاً ، على ما يريدون يقال : ركَن يركن، وركَن يركن، ثم قال «إذاً لأذقناك ضعف الحياة، وضعف المماة » اي لو فعلت ذلك ، لاذقناك ضعف عذاب الحياة ، وضعف عذاب المماة لعظم ذلك منه او فعله، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك. وإنما كان يعظم عذابه بالركون اليهم لكثرة زواجره وفساد العباد به .

وقيل لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ (اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين) روى ذلك قتادة . ومعنى الفتنة ـ ههنا ـ الضلال ، والتقدير وإن كادوا ليفتنونك ليضلوك عن الذي اوحينا اليك، في قول الحسن وأصل الفتنة المحنة التي يطلب بها خلاص الشيء مما لابسه ، فطلبوا إخراجه إلى الضلالة .

وقوله « لتفتري علينا غيره » اي لتكذب علينا غير ما اوحينا اليك وإن فعلت ذلك لاتخذوك خليلا ودیداً .

وقوله « ثم لا تجد لك علينا نصيراً » اي لو فعلت الركون اليهم لأذقناك ما قلناه من العذاب ، ثم لا تجد لك علينا ناصراً يدفع عنك ما نريد فعله بك .

قوله تعالى :

(وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسِقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً) (٧٨) ثلاث آيات .

قرأ ابن عامر واهل الكوفة الا ابا بكر « خلافك » . الباقون « خلفك » فمن قرأ « خلفك » فلقوله « فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها »[1] . وقوله « بمقعدهم خلاف رسول الله »[2] اي لمخالفتهم إياه ، ومن قرا « خلافك » قال بعدك وخلفك وخلافك بمعنى واحد ، يقول الله تعالى « وإن كادوا » يعني المشركين « ليستفزونك من الارض » قال الحسن: معناه ليقتلونك ، وقال غيره: الاستخفاف بالانزعاج.

(١) سورة البقرة آية ٦٦ (٢) سورة ٩ التوبة آية ٨٢

وقال ابو علي : همّوا بأن يخرجوه من ارض العرب لا من مكة فقط ، إذ قد أخرجوه من مكة ، وقال المعتمر ابن ابي سليمان عن ابيه : الارض التي ارادوا استزلاله منها : هي ارض المدينة ، لان اليهود قالت له : هذه الارض ليست ارض الانبياء ، وانما أرض الانبياء الشام . وقال قتادة ومجاهد : هي مكة ، لان قريشاً همّت بإخراجه منها . ثم قال تعالى : انهم لو اخرجوك من هذه الارض لما لبثوا ، لما اقاموا بعدك فيها إلا قليلا . وقال ابن عباس والضحاك : المدة التي لبثوا بعده هو ما بين خروج النبي من مكة ، وقتلهم يوم بدر . ومن قرأ خلافك اراد بعدك ، كما قال الشاعر :

عقب الرذاذ خلافها فكأنما بسط الشواطب بينهن حصيرا[1]

الرذاذ المطر الخفيف ، يصف روضة وأرضاً غبّ مطرها ، وكانت حضراء وقال الحسن الاستفزاز - ههنا - الفتل .

وقوله « وإذاً لا يلبثون » بالرفع ، لان (إذاً) وقعت بعد الواو ، فجاز فيها الالغاء ، لانها متوسطة في الكلام ، كما انه لا بد من ان تلغى في آخر الكلام .

وقوله « سنة من قد ارسلنا » انتصب (سنة) بمعنى لا يلبثون . وتقديره : لا يلبثون لعذابنا إياهم كسنة من قبلك ، إذ فعلت امهم مثل ذلك . ثم قال « لا تجد لسنتنا تحويلا » اي تغييراً وانتقالاً من حالة إلى حالة اخرى . بل هي على وتيرة واحدة . ثم امر نبيه ﷺ فقال « اقم الصلاة » والمراد به أمّته معه « لدلوك الشمس » اختلفوا في الدلوك ، فقال ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن زيد : هو الغروب والصلاة المأمور بها - ههنا - هي المغرب ، وقال ابن عباس في رواية اخرى والحسن ، ومجاهد ، وقتادة : دلوكها زوالها ، وهو المروي عن ابي جعفر وابي عبد الله (ع) . وذلك ان الناظر اليها يدلك عينيه ، لشدة شعاعها . واما عند غروبها فيدلك عينيه لقلة تبينها ، والصلاة المأمور بها عند هؤلاء الظهر ، وقال الراجز :

---

(١) مجاز القرآن ١/٣٨٧ وتفسير الطبري ١٠/١٢٧ ، ١٥/٨٤ واللسان والتاج (خلف) وتفسير الشوكاني ٣:٢٣٩ وقد روي (عقب الربيع) وفي راوية اخرى (عفت الديار).

هذا مقـــام قدمي ربـــاح للشمس حتى دلكت براح [١]

ورباح اسم ساقي الابل . من روى بكسر الباء اراد براحته ، قال الفراء : يقال: بالراحة على العين ، فينظر هل غابت الشمس بعد ، قال الفراء هكذا فسروه لنا ، ومن رواه بفتح الباء جعله اسماً للشمس مبنياً على (فعال) مثل قطام وحذام وقال العجاج :

والشمس قد كادت تكون دنفا ادفعهـا بالراح كي تزحلفا [٢]

وغسق الليل ظهور ظلامه ، ويقال غسقت القرحة إذا انفجرت ، فظهر ما فيها . وقال ابن عباس وقتادة: هو بدؤ الليل ، قال الشاعر :

إن هذا الليل اذ غسقا [٣]

وقال الجبائي غسق الليل ظلمته، وهو وقت عشاء الآخرة . وقوله «وقرآن الفجر » قال قوم يعني قرآن الفجر في الصلاة ، وذلك يدل على أن الصلاة ،لاتتم إلا بالقراءة ، لأنه أمر بالقراءة وأراد بها الصلاة ، لأنها لا تتم إلا بها .

وقوله : « إن قرآن الفجر كان مشهوداً » معنـــاه يشهده ملائكة الليل ، وملائكة النهار، ذهب اليه ابن عباس،وقتادة ومجاهد وابراهيم .وروي عن امير المؤمنين (ع) وأُبي بن كعب أنها الصلاة الوسطى، وقال الحسن: «لدلوك الشمس» لزوالها : صلاة الظهر ، وصلاة العصر الى «غسق الليـل » صلاة المغرب والعشاء

---

(١) البيت من نوادر ابي زيد . تفسير القرطبي ١٠: ٣٠٣ ومجاز القرآن ١: ٣٨٧ وتهذيب الالفاظ ٣٩٣ والمجالس للثعالبي ٣٧٣ وتفسير الشوكاني ٣: ٢٤١ وتفسير الطبري ١٥: ٨٥ وغيرها . وقد روى (عدوة) بدل (للشمس) وروي ايضاً (ذبيب) في رواية اخرى .

(٢) ديوانه ٨٢ وتفسير القرطبي ١٠: ٣٠٣ وتفسير الطبري ١٥: ٨٦ وتفسير القرطين ١: ٢٦١

(٣) قائله عبد الله بن قيس الرقيات . ديوانه (دار بيروت) ١٨٨ وتفسير روح المعاني ١٥: ١٣٢ وتفسير القرطبي ١٠: ٣٠٤ وتفسير الطبري ١٥: ٨٧ ومجـــاز القران ١: ٣٨٨ واللسان والتاج (غسق) وتفسير الشوكاني ٣: ٢٤١ وعجزه :

واستكن الهم والارقا

الآخرة، كأنه يقول من ذلك الوقت الى هذا الوقت على ما يبين لك من حال الصلوات الأربع، ثم صلاة الفجر، فأفردت بالذكر. وقال الزجاج: سمى صلاة الفجر «قرآن الفجر»، لتأكد أمر القراءة في الصلاة، ومعنى «لدلوك الشمس» أي عند دلوها. واستدل قوم بهذه الآية على أن وقت الاولى موسع الى آخر النهـــار، لأنه أوجب إقامة الصلاة من وقت دلوك الشمس الى وقت غسق الليل، وذلك يقتضي ان ما بينها وقت. وهذا ليس بشيء، لأن من قال: إن الدلوك هو الغروب لا دلاله فيها عليه عنده، لان من قال ذلك يقول: انه يجب إقامة المغرب من عند المغرب الى وقت اختلاط الظـلام الذي هو غروب الشفق، وما بين ذلك وقت المغرب. ومن قال: الدلوك هو الزوال يمكنه أن يقول: المراد بالآية البيـــان لوجوب الصلواة الخمس على ما ذكره الحسن، لا بيـــان وقت صلاة واحدة، فلا دلالة له في الآية.

و(مشهوداً) قيل في معناه قولان:

احدهما – تشهده ملائكة الليل، والنهار.

والثاني – قال الجبـــائي: فيه حث للمسلمين على ان يحضروا هذه الصلاة ويشهدوها للجماعة.

قوله تعالى:

(وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً (٨٠) وَقُــلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً) (٨١) ثـــلاث آيات.

هذا خطاب للنبي ﷺ يقول الله تعـالى له: «ومن الليل فتهجّد والتهجّد

التيقظ بما ينفي النوم ، والهجود النوم ، وهو الأصل ، هجد يهجد هجوداً ، فهو هاجد إذا نام ، قال لبيد :

قلت هجدنا فقد طال السرى [١]

وقال الشاعر :

ألا طرقتنا والرفاق هجود فباتت بعلاّت النوال تجود [٢]

وقال الحطيئة :

ألا طرقت هند الهنود وصحبتي بحوران حوران الجنود هجود [٣]

وقال علقمة ، والاسود : التهجد يكون بعد نومة . وقال المبرّد : – التهجد عند أهل اللغة – السهر للصلاة ، أو لذكر الله ، فاذا سهر للصلاة قبل تهجد ، واذا أراد النوم قال هجدت . والنافلة فعل ما فيه الفضيلة مما رغّب الله فيه ، ولم يوجبه . والنافلة . الغنيمة ، قال الشاعر :

إن تقوى ربنا خير نَفَل وباذن الله ريثي والعجل [٤]

اي خير غنيمة . والحسن من افعال العباد على ثلاثة أقسام: واجب، وندب، ومباح . وقال الرماني : يجوز ان يكون نافلة اكثر ثواباً من فريضة إذا كان ترك الفريضة صغير ، لأن نافلة النبي ﷺ أعظم من هذه الفريضة، من فرائض غيره. وقد تكون نعمة واجبة أعظم من نعمة واجبة ، كنعم الله تعالى ، لانه يستحق بها العباد من نعمة الانسان التي يستحق بها الشكر فقط .

وقوله : « نافلة لك » وجه هذا الاختصاص هو أنه أتمّ، للترغيب لما في ذلك من صلاح أُمته في الابتداء به والدعاء الى الاستنان بسنته . وروي أنها فرضت عليه ، ولم تفرض على غيره ، فكانت فضيلة له ، ذكره ابن عباس ، فيجوز ذلك

---

(١) ديوانه ٢/١٣ ومجاز القرآن ١/٣٨٩ والاقتضاب ٤٠٨ وروح المعاني ١٥/١٣٨ واللسان (هجد)
(٢) تفسير القرطبي ١٠ : ٣٠٨ وتفسير الشوكاني (الفتح القدير) ٣ : ٢٤٢ وتفسير الطبري ١٥ : ٨٩
(٣) تفسير الطبري ١٥ : ٨٩
(٤) قائله لبيد بن ربيعة وقد مر هذا الرجز في ٥ : ٨٦ من هذا الكتاب

بترغيب يخصّه في شدته . وقال مجاهد : لانها فضيلة له ولغيره كفّارة ، لان الله تعـالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا ايضاً من اختصـاصه بما ليس لغيره .

وقوله : « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » معناه متى فعلت ما ندبناك اليه من التهجد يبعثك الله مقاماً محموداً ، وهي الشفاعة ، في قول ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة . وقال قوم : المقـام المحمود إعطاؤه لواء الحمد . و(عسى) من الله واجبه . وقد أنشد لابن مقبل في وجوبها :

ظني بهم كعسى وهم بتنوفة يتنازعون جوائز الامثال [١]

يريد كيقين ، ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يقول : « ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق » قال ابن عباس ، والحسن، وقتادة : إدخاله المدينة حين أخرج من مكة . وقيـل ادخلني فيما أمرتني واخرجني عما نهيتني بلطف من ألطافك . وقال الفراء : قال ذلك حين رجع من معسكره الذي أراد أن يخرج الى الشام، حين قالوا له: ليست المدينة أرض الانبياء ، و«أخرجني مخرج صدق» يعني الى مكة .

وقال أيضاً : يا محمد قل « واجعل لي من لدنك سلطانا نصيراً » قال الحسن وقتادة : معناه اجعل لي عزّاً امتنع به ممن يحاول صدي عن إقامة فرائض الله في نفسه وغيره . وقـال مجاهد : حجة بينة . ثم قال : « وقل جاء الحق » يعني التوحيد وخلع الانداد والعبادة لله وحده لا شريك له « وزهق الباطل » قال ابن عباس : معناه ذهب الباطل ، وزهقت نفسه زهوقاً إذا خرجت ، فكأنه خرج الى الهلاك. وقيل امر بهذا الدعاء إذا دخل في أمر او خرج من امر. ثم قال تعالى وأخبر « ان الباطل كان زهوقاً » باطلاً هالكاً لا ثبات له ، وانه يضمحل ويتلاشى . وروي عن ابن مسعود أنه قـال : دخل النبي ﷺ يوم الفتح مكة ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود ، ويقول: « جاء الحق

(١) اللسان (ظنن)

وزهق الباطل إن البـاطل كان زهوقا » وجاء الحق وما يبدي البـــاطل وما يعيد .

قوله تعالى :

(وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَآ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَؤُساً (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا) (٨٤) ثلاث آيات بلا خلاف.

أخبر الله تعـــالى : أنه أنزل القرآن وفيه شفاء ، ووجه الشفـــاء فيه من وجوه :

أحدها – ما فيه من البيان الذي يزيل عمى الجهل وحيرة الشك .

وثانيها – أنه من جهة نظمه وتأليفـه يدل على انه معجز دال على صدق من ظهر على يده .

وثالثها – انه يتبرك به فيدفع به كثيراً من المكاره والمضار ، على ما يصح ويجوز في مقتضى الحكمة .

ورابعها – ما في العبادة بتلاوته من الصلاح الذي يدعو الى امثاله بالمشاكلة التي بينه وبينه الى غير ذلك. ثم قال: «ولا يزيد الظالمين» يعني القرآن لا يزيد الظالمين بمعنى انهم لا يزدادون عنده « الا خساراً» يعني يخسرون ثوابهم ويستحقون العقاب لكفرهم به وحرمان أنفسهم تلك المنافع التي فيه ، صار كأنه يزيد هؤلاء خسراناً بدل زيادة المؤمنين تقى وايماناً . ثم قال : « واذا أنعمنا على الانسان أعرض »

أي ولـّى عرضه، كأنه لم يقبل علينا بالدعاء والابتهال، وباعد عن انعامنا عليه بضروب النعم، فلا يشكرها، كما اعرض عن النعمة بالقرآن.

وقوله: «ونأى بجانبه» أي بعد بنفسه عن القيام بحقوق نعم الله. وقال مجاهد: معناه تباعد منا «واذا مسه الشر كان يؤساً» يعني اذا لحق الانسان شر وبلاء «كان يؤساً» اي قنوطاً من رحمة الله، فقال الله لنبيه ﷺ قل لهم: «كلٌ يعمل على شاكلته» أي على طريقته التي تشاكل اخلاقه. وقال مجاهد: على طبيعته. وقيل على عادته التي ألفها. والمعنى انه ينبغي للانسان ان يحذر إلف الفساد فلا يستمر عليه، بل يرجع عنه. ثم قال: «وربكم اعلم بمن هو أهدى سبيلاً» يعني انه عالم بمن يهتدي الى الحق ممن يسلك طريق الضلال، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

وأمال حمزة والكسائي «ونأى بجانبه» بكسر النون والهمزة، وأمالوا الياء، وأمالوا النون لمجاورة الهمزة، لأنها من حروف الحلق، كما يقولون: رغيف وشعير وبعير بكسر أولهن. وقرأ ابن عامر «وناء بجـــانبه» من ناء ينوء، فانقلبت الواو الفاً لانفتاح ما قبلها، ومدّت الالف تمكيناً للهمزة.

وقرأ ابو عامر عن عاصم وابو عمرو – في رواية عياش – «ونئي» بفتح النون وكسر الهمزة ممالاً ومثل ذلك رأى ورئي، وراء ورأه في القلب، فاذا قالوا فعلت، قالوا رأيت بلا خلاف. وانشد المبرد حاكياً عن ابي عبيد:

أغلام معلل راء رؤياً فهو يهذي بما رأى في المنام [1]

قوله تعالى:

(وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ

---

(١) تفسير الطبري ١٥ : ٩٦

كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً) (٨٧) ثلاث آيات .

يقول الله تعـالى لنبيه ﷺ « يسألونك عن الروح » يا محمد . واختلفوا في الروح الذي سألوا عنه . فقال ابن عباس : هو جبرائيل . وروي عن علي (ع) أن الروح ملك من الملائكة له سبعون الف وجه في كل وجه سبعون الف لسان يسبح الله بجميع ذلك . وقيـل : هو روح الحيوان ، وهو الاظهر في الكلام . وقال قتادة: الذي سأله عن ذلك قوم من اليهود . وقيل : الروح هو القرآن ، ذكره الحسن ، لقوله : « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا » [1] واختاره البلخي ، وقوى ذلك بقوله بعدها : « ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا اليك » يعني القرآن،فقال الله تعالى لنبيه ﷺ قل لهم«الروح من أمر ربي» فعلى قول من قال: انهم سألوا عن القرآن أو عن جبرائيل او الملك أو روح الحيوان، فقـد أجاب عنه لانه قال : « من أمر ربي » أي من خلق ربي وفعله . وعلى قول : من قال انهم سألوه عن ماهية روح الانسان ، لم يجب ، وانما عدل عن جوابهم ، لانهم وجدوا في كتابهم انه إن أجاب عن الروح ، فليس بنبيّ، فاراد ﷺ ان يصدق نبوته بموافقة امتناعه من الجواب ، لما في كتابهم . ويقوي ذلك قوله : « وما اوتيتم من العلم إلا قليلاً » اي لم أُعط من العلم الا شيئاً يسيراً ، والاكثر لا اعلمه ، لان معلومات الله تعالى لا نهاية لها . والروح من الامور المتروكة التي لا يصلح النص عليها ، لانه ينافي الحكمة ، لما فيه من الاستفساد . وانما اعلم ما نص لي عليه مما يقتضي المصلحة ، وهو قليل من كثير .

وقيل ايضاً انهم لم يجابوا عن الروح ، لان المصلحة اقتضت ان يحالوا على ما في عقولهم من الدلالة عليه ، لما في ذلك من الرياضة على استخراج الفائدة ، وان ما طريقه السمع ، فقد اتى به ، وما طريقه العقل ، فانما يأتي به مؤكداً لما في العقل اضرب من التأكيد ، ولما فيه من المصلحة . والروح جسم رقيق هوائي على بنية حيوانية في كل جزء منه حياة ، ذكره الرماني . وقال : كل حيوان ،

---

(١) سورة الشورى آية ٥٢

فهو روح وبدن الا أن فيهم من الاغلب عليه الروح ، وفيهم من الاغلب عليه البدن . ثم قال : « ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا اليك » ومعناه اني اقدر ان آخذ ما أعطيك ، كما منعته من غيرك ، لكني دبرتك بالرحمة لك ، فأعطيتك ما تحتاج اليه ومنعتك ما لا تحتاج اليه والى النص عليه . وان توهّم قوم أنه مما يحتاج اليه ، فتدبر أنت بتدبير ربك وارض بما اختاره لك ، ولو فعلنا ذلك لم تجد لك علينا وكيلا يستوفي ذلك منا . وقال قوم : معنى « وان شئنا لنذهبنّ » اي لنمحونّ - هنا - القرآن من صدرك وصدر أمتك. وقوله: «الا رحمة من ربك» اعطاك ما اعطاك من العلوم ومنعك ما منعك منها « إن فضل الله كان » فيما مضى وفيما يستقبل «عليك كبيراً» عظيماً، فقابله بالشكر .

قوله تعالى :

(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (٨٩) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً) (٩٠) ثلاث آيات .

قرأ اهل الكوفة « تفجر » بالتخفيف. الباقون بالتشديد، يقال : فجر يفجر بالتخفيف إذا شق الأنهار ، ومن شدد ، فلقوله « وفجّرنا خلالها نهراً »[1] اي مرة بعد مرة ، ولقوله « فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً » فالتفجير لا يكون إلا من فجر .

في الآية الاولى ، تحدي للخلق ان يأتوا بمثل هذا القرآن وأنهم يعجزون عن

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٣٤

ذلك ولا يقدرون على معارضته، لأنه تعالى قال «قل» يا محمد لهؤلاء الكفار «لئن اجتمعت الانس والجن» متعاونين متعاضدين «على أن يأتوا بمثل هذا القرآن» في فصاحته وبلاغته ونظمه، على الوجه الذي هو عليه، من كونه في الطبقة العليا من البلاغة وعلى حد يشكل على السامعين ما بينهما من التفاوت، لما أتوا بمثله، ولعجزوا عنه «ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً» اي معيناً، والمثلية التي تحدوا بالمعارضة بهـا معتـادة بينهم، كمعارضة علقمه لامرىء القيس، ومعـارضة الحرث ابن حلزة عمرو بن كلثوم، ومعارضـة جرير الفرزدق. وما كان ذلك خافياً عليهم.

ثم قال «ولقد صرّفنا في هذا القرآن من كل مثل» وتصريفه إياه هو توجيهه إياه في معانٍ مختلفة. وقال الرماني: هو تصيير المعنى دائراً فيما كان من المعاني المختلفة. وذلك أنه لو أدير في المعاني المتفقة لم يعد ذلك تصريفاً، فالتصريف تصيير المعنى دائرا في الجهات المختلفة.

وقوله «لا يأتون بمثله» انما رفعه لانه غلب جواب القسم على جواب (إن) لوقوعه في صدر الكلام، وقد يجوز أن يجزم على جواب (إن) إلا أن الرفع الوجه، وقال الاعشى:

لئن منيت بنا عن غب معركة   لاتلقنا من دماء القوم ننتقل[1]

وقوله «فأبى أكثر الناس إلا كفوراً» معناه إنما «صرّفنا في هذا القرآن من كل مثل» ليستدلوا به على كونه من قبل الله تعالى ومع ذلك يأبى أكثر الناس إلا الجحد به، وإنكاره، فالكفور - ههنا - هو الجحود للحق بالاستكبار. ويقولون مع ذلك «لن نؤمن لك» يا محمد «حتى تفجر لنـا من الارض ينبوعاً» ومعناه حتى تشقق من الارض عيناً ينبع بالماء أي يفور، فهو على وزن

---

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٤٩ وروايته (تلفنا) بدل (تلقنا) والمعنى واحد. وهو في تفسير روح المعاني ١٥ : ١٣٦ وتفسير الطبرى ١٥ : ١٠٠

(مفعول) من (نبع)، يقال نبع الماء ينبع ، فهو نابع ، وجمعه ينابيع ، وانما طلبوا عيوناً ببلدهم - في قول قتادة - والتفجير التشقيق عما يجري من ماء او ضياء ، ومنه سمى الفجر ، لانه ينشق عن عمود الصبح ، ومنه الفجور ، لأنه خروج الى الفساد لشق عمود الحق .

قوله تعالى :

(أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰئِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنَ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي ٱلسَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا) (٩٣) ثلاث آيات بلا خلاف .

قرأ ابن عامر «قال سبحان ربي» . الباقون «قل سبحان ربي» وقرأ اهل المدينة وابن عامر وعاصم « كسفاً » بفتح السين . الباقون باسكانها من قرأ « قال سبحان » معناه إن الرسول قال ذلك عند إقتراحهم ما تقدم ذكره ، مما لايدخل تحت مقدور البشر . ومن قرأ « قل » فعلى أنه أُمر بأن يقول لهم ذلك ويقويه قوله « قل إنما انا بشر مثلكم »[١]

قال ابو زيد : يقال: كسفت الثوب أكسفه كسفاً إذا قطعة قطعاً ، والكسف القطع واحده كسفة مثل قطعة . قال ابو عبيد : كسفاً قطعاً . ومن فتح السين جعله جمع كسفة ، قال كسَفاً مثل قطعة وقطع . ومن سكنه جاز ان يريد

---

(١) سورة ١٨ الكهف آية ١١٠

الجمع ، مثل وسدرة. ويجوز ان يريد به المصدر . والمعنى اطبق علينـــا السماء كسفاً اي طبقاً .

نزلت هذه الآية في أقوام اقترحوا على النبي ﷺ هذه الآيات ، قالوا « لن نؤمن لك » اي لن نصدقك في أنك رسول الله ﷺ حتى تأتي بها ، وهم كانوا جماعة من قريش، منهم عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة، وابو سفيان، والاسود ابن المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وابو جهـل ابن هشام ، وعبدالله بن أبي أميّة ، وأميّة بن خلف ، والعاص بن وابل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان . على ما ذكر ابن عباس .

فمن الآيات التي اقترحوها ما ذكره في الآية المتقدمة بأن قالوا « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً » اي تشقق لنا من الارض عيون ماء في بلادنا « او تكون لك جنة » يعني بستاناً من نخيل وعنب، وتشقق الانهار خلالها اي في خلالها ، ووسطها تشقيقاً « او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً » وقرىء بسكون السين ، وفتحها ، والكسف القطع ، في قول ابن عباس ومجـــاهد وقتادة . ويحتمل وجهين :

احدهما – ان يكون جمع كسفة وكسف بسكون السين كسدرة وسدر بسكون الدال ، وهو للجنس يصلح ، للكثير والقليل، ويقول العرب : اعطني كسفة من هذا الثوب أي قطعة منـه ، حكى ذلك الفراء ، انه سمعه من بعض العرب ؛ ومن ذلك الكسوف ، لانقطاع نوره .

والثاني – يجوز ان يكون الكسف مصدراً من كسفت الشيء إذا غطيته بالغطاء عمّن يراه ، فكأنهم قالوا : تسقطها طبقاً علينا .

وقوله « أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً » فيه دلالة على أنهم كانوا مشبهة ، لأن العارف بالله على الحقيقة لا يقول هذا ، لأنه لا يجوز عليه تعالى المقابلة ، ولا لهم إستعمال هذا على معنى دلائل وآيات الله إذ لادلائل تدل على ذلك، فلا يشرط في الظاهر ما ليس فيه ، لانه لم يثبت معرفتهم وحكمتهم ، فيصرف ذلك عن

ظاهره . ومعنى «قبيلا» قال الفراء : معناه كفيلاً بذلك ؛ يقال قبلت وكفلت، وزعمت وحملت َقبِلَـه . وقال غيره : يعني مقابلة . وقال قتادة وابن جريج والزجاج: معناه نعاينهم معاينة ، قال الشاعر :

نصالحكم حتى تبؤوا بمثلها كصرخة حبلى بشّرتها قبيلها [١]

اي قابلتها ، وهي مقابلة لها ، والعرب تجريه في هذا المعنى مجرى المصدر فلا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث .

وقوله « او يكون لك بيت من زخرف » قال ابن عباس، ومجاهد ، وقتادة، والفراء: يعني بيتاً من ذهب « او ترقى في السماء » اي تصعد إليها أمامنا بحذائنا بسلم ، قال الفراء إنما قال في السماء ، ولم يقل الى ، لأن المراد او ترقى في سلم الى السماء ، فأتى بـ(في) ليدل على ما قلناه يقال : رقيت في السلم أرقى رقياً ، ورقيت من الرقيا أرقوه رقياً ورقية « ولن نؤمن لرقيّك » اي لصعودك حتى تنزل علينا كتاباً مكتوباً نقرأه كما أنزل عـلى موسى الالواح ، فقال الله تعالى له « قل » يا محمد « سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً » وإنما أجابهم بذلك ، لان المعنى انكم تقترحون علي الآيات وليس أمرها اليّ وإنما أمرها الى الذي أرسلني والذي هو أعلم بالتدبير مني وما ينص عليه من الدليل، فلا وجه لطلبكم هذا مني مع ان هذه صفتي ، لاني رسول أؤدي اليكم ما أوحي اليّ وأمرت بان أؤديه اليكم . ومن قرأ «قال سبحان» حمله على أن النبي ﷺ قال ذلك ابتداء من قبل نفسه ، قبل ان يؤمر به ، لعلمه بأن الآيات لا تتبع الشهوات ، والاقتراحات ،

---

(١) قائله الاعشى ديوانه (دار بيروت) ١٣٥ وقد مر تخريجه في ١ : ٣٥٠ ورواية الديوان

أصالحكم حتى تبوءوا بمثلها كصرخة حبلى يسرتها قبولها

وكان علىهامش المطبوعة حاشية هي (كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها، ويروى قبولها اي يئست منها والقبيل والقبول كلاهما بمعنى القابلة ـ هنا ـ سميت بذلك لقبولها الولد ، وتلقيها اياه عند الولادة) نتهى . وعلى هذه الحاشية المذكورة علامة تدل على انها وجدت في بعض المخطوطات .

وانما تتبع المصالح ، ولو تبعت الشهوات لكان كل واحد يقترح غير ما يقترحه الآخر فيؤدي الى الفساد .

قوله تعالى :

(وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَراً رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلٰئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى بِٱللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) (٩٦)
ثلاث آيات بلا خلاف .

يقول الله تعالى وما صرف الناس، يعنى المشركين الذين لم يؤمنوا، وانما أخبر عنه بالمنع مبالغة له في الصرف ، لان المنع يستحيل معه الفعل ، والصرف يمكن معه الفعل، لكنه لشدّة صرفه شبّه بالمنع . وقوله « أن يؤمنوا » اي ما صرفهم عن التصديق بالله ورسوله حين جاءهم الهدى، يعنى الحجج والبينات، وطريق الحق إلا قولهم « أبعث الله بشراً رسولاً » فدخلت عليهم الشبهة في أنــه لا يجوز من الله أن يبعث رسولاً إلا من الملائكة ، كما دخلت عليهم الشبهة في أن عبادتهم لا تصلح لله ، فوجّهوها إلى الاصنام، فعظموا الله تعالى بجهلهم، بما ليس فيه تعظيم . وهذا فاسد ، لأن تعظيم الله إنما يكون بأن يشكر على نعمته بغاية الشكر ويحمد غاية الحمد ، ويضاف اليه الحق دون الباطل ، وهم عكسوا فأضافوا الباطل اليــه وما يتعالى عن فعله أو إرادته . وإنما عدلوا عن الهدى إلى الضلال تقليداً لرؤسائهم . واعتقاداً للجهل بالشبهة .

فان قيل لم جاز ان يرسل الله إلى النبي – وهو من البشر – ملكاً ليس من جنسه ? ولم يجز أن يرسل إلى غير النبي مثل ذلك ?!

قلنا : لانه صاحب معجزة ، وقد اختير للهداية والمصلحة ، فصارت حاله بذلك مقاربةً لحال الملك ، وليس كذلك غيره من الأمة ، مع ان الجماعة الكثيرة ينبغي ان يتخير لها ما تجتمع عليه هممها بما لا يحتاج اليه في الواحد منا إذا اريد صلاح الجميع. وقيل: لأنهم لا يجوز ان يروا الملك ، وهم على هذه الهيئة التي هم بها ، على أنه يلزمهم على الامتناع من اتباع النبيّ - لأنه بشر مثلهم - الامتناع من اتباع الملك ، لانه عبد ومحدث مثلهم في العبودية والحدوث ، فان جاز ذلك ، لان الله تعالى عظمه وشرّفه واختاره ، جاز ايضاً في البشر لمثل هذه العلة .

ثم قال لنبيه ﷺ « قل » لهم «لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين » قال الحسن معنى « مطمئنين » قاطنين فيها. وقال الجبائي : « مطمئنين » عن امر الله الذي يلزم بالاعراض عنه الذم ، كما قال تعالى « ولكنه أخلد إلى الارض واتبع هواه »[1]. ثم قال له «قل» لهم كفى بالله ، أي حسبي الله شهيداً وعالماً بيني وبينكم « انه كان بعباده خبيراً بصيراً » أي عالماً بكم وبي ، مدركاً لنا. ونصب « شهيداً » على التمييز ، وتقديره حسبي الله من الشهداء ، ويجوز ان يكون نصبا على الحال ، وتقديره كفى الله في حال شهادته . وإنما قال هذا جوابا لهم حين قالوا : من يشهد لك بأنك رسول الله ؟ فقال الله له « قل كفى بالله شهيدا » .

قوله تعالى :

(وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا ءَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (٩٨) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ

---

(١) سورة الاعراف اية ١٧٥

قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً) (٩٩) ثلاث آيات .

قيـــل في معنى قوله « من يهد الله فهو المهتد » قولان :

أحدهما ـ من يحكم الله بهدايته وتسميته بها بإخلاصه الطاعة ، فهو المهتدي في الحقيقة ، وفيه دعاء الى الاهتداء ،وترغيب فيه وحث عليه . وفيه معنى الامر به .

الثاني – من يهديه الله الى طريق الجنة ، فهو المهتدي اليها .

وقوله « ومن يضلل » يحتمل ايضاً أمرين :

احدهما – من يحكم الله بضلاله وتسميته ضالاً بسوء اختياره للضلالة فإنه لا ينفعه ولاية وليّ له، فلو تولاّه لم يعتد بتوليه ، لأنه من اللغو الذي لا منزلة له ، ولذلك حسن أن ينفى، بمنزلة ما لم يكن .

والثاني – من يضله الله عن طريق الجنة ، وأراد عقابه على معاصيه لم يوجد له ناصر يمنعه من عقابه .

ثم أخبر عن صفة حشرهم الى أرض القيامة، يعنى الكفار، إنه يحشرهم « يوم القيامة » مجرورين « على وجوههم عمياً » كما عموا عن الحق في الدنيا « بكماً » جزاء على سكوتهم عن كلمة الاخلاص « وصماً » لتركهم سماع الحق واصغائهم إلى الباطل « كلما خبت » النار ، والخبوة هدوء النار عن الالتهاب خبت النار تخبو خبواً اذا سكنت،والمعنى: كلما سكنت التهبت واستعرت، وذلك من غير نقصان آلام أهلها ، قال عدي بن زيد :

وسطه كالسراج أو سرح الجدل حيناً يخبو وحيناً ينير [٢]

فان قيل: كيف يحشرهم الله يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، مع قوله «ورأى المجرمون النار، فظنوا انهم مواقعوها» [٣] وقوله «سمعوا لها تغيظاً

---

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٦

(٢) تفسير الطبري ١٥ : ١٠٥

(٣) سورة ١٨ الكهف آية ٥٣

وزفيرا [١] » وقوله « دعوا هنالك ثبورا » [٢]

قلنا عنه جوابان :

احدهما- انهم يحشرون كذلك، ثم يجعلون يبصرون ويشهدون وينطقون .

الثاني- قال ابن عباس والحسن: إنهم عمي عمّا يسرهم، بكم عن التكلم بماينفعهم صم عما يمتعهم « مأواهم جهنم » أي مستقرهم .

فإن قيل : لم جاز أن يكونوا عمياً عن العذاب يوم القيامة ، ولم يجز أن يكونوا جهالاً به ؟.

قلنا : لان الجاهل به لا يجد من ألمه ما يجده العالم ، ولأن الحكمة تقتضي إعلامه أن عقابه من أجل جرمه ، لانه واقع موقع التوبيخ له ، وموقع الزجر في الخبر به .

وقوله « ذلك » يعني ما قدم ذكره من العقاب « جزاؤهم » استحقوه بكفرهم بآيات الله .

وقوله « إذا كنّا عظاماً ورفاتاً » مثل التراب متحطمين مترّضضين « أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً » وإنما قالوا ذلك ، لانكارهم الحشر والبعث يوم القيامة والثواب والعقاب . ثم قال « أو لم يروا » يعني هؤلاء الكفار « ان الله الذي خلق السموات والأرض » لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها ، « قادر على ان يخلق مثلهم » لأن القادر على الشيء قادر على أمثاله إذا كان له مثل وأمثال في الجنس « وجعل لهم أجلاً » يعيشون اليه ويحشرون عنده ، لا شك فيه . وقال الجبائي : جعل الله لهم أجلاً لمعادهم وحشرهم لا شك فيه .

ثم أخبر تعالى فقال « فأبى الظالمون » لنفوسهم الباخسون حقها بفعل المعاصي « إلاّ كفوراً » أي كفروا وجحدوا بآيات الله ونعمه .

وفي الآية دلالة على ان القادر على الشيء قادر على جنس مثله إذا كان له مثل. وفيه دلالة على أنه يجب أن يكون قادراً على ضده ، لأن منزلته في المقدور منزلة

(١ ، ٢) سورة ٢٥ الفرقان آية ١٢ - ١٣

مثله . وفيه دلالة على انه يقدر على إعادته إذا كان مما يبقى وتصح عليه الاعادة .

قوله تعالى :

(قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً) (١٠٠) آية بلا خلاف .

يقول الله لنبيه ﷺ «قل» لهؤلاء الكفار: لو انكم ملكتم «خزائن رحمة ربي» أي ما يقدر عليه من النعم قدرتم على مثله لما انفقتموه في طاعة الله،وامسكتموه خوفا من الفقر . ثم اخبر بأن الانسان كان قتورا ، يعني مضيقاً سيء الظن بالله وبالخلف عن الانفاق ، وهو جواب لقولهم « لن نؤمن لك حتى تفجر لنـــا من الأرض ينبوعاً » [١] فاعلمهم الله أنهم لو ملكوا خزائن الله ، لأمسكوا بخلا بها وشحاً خشية نفادها ، يقال : نفقت نفقات القوم إذا نفدت ، وانفقها صاحبهـا أي انفدها حتى افتقر ، وقال قتادة : خشية الانفاق أي خشيـة الفقر . والمراد بالانسان في الآية . – قول ابن عبـاس والحسن : هو الكافر . والقتور المضيق للنفقة ، يقال قتر يقتر وأقتر إذا قدّر النفقة . و(أنتم) مرفوع بفعل مضمر ، والمعنى قل لو تملكون أنتم ، لأن (لو) يقع بعدها الشيء ، لوقوع غيره ، فلا يليها إلا الفعل ، وإذا وليها اسم يعمل فيه الفعل المضمر قال الشاعر :

لو غيركم علق الزبير بحبله أدى الجوار الى بني العوّام [٢]

والقتور البخيل – في قول ابن عباس – قال أبو داود :

لا أعدّ الاقتار عدماً ولكن فقد من قد رزئته الأعدام [٣]

وظاهر قوله «وكان الانسان قتوراً» العموم، وقد علمنا أن في الناس الجواد، والوجه فيه أحد أمرين :

---

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٩١
(٢) مر هذا البيت في ٤ : ٣٥١
(٣) تفسير الطبري ١٥ : ١٦

أحدهما - ان الأغلب عليهم من ليس بجواد ، ومن مقتصد أو بخيل ، فجاز تغليب الأكثر .

والثاني - أنه لا أحد إلا وهو يجر إلى نفسه نفعاً بما فيه ضرر على الغير ، فهو بخيل بالإضافة إلى جود الله تعالى .

قوله تعالى :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْئَلْ بَنِي اسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً) (١٠٢) آيتان بلا خلاف.

قرأ الكسائي وحده « لقد علمتُ » بضم التاء . الباقون بفتحها .

حجة من فتح أنه قال : إن فرعون وملأه ممن تبعه قد علموا صحة أمر موسى وأن ما أتى به ليس بسحر بدلالة قوله « لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك[1] » وقوله « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً » [2] وقولهم « يا أيها الساحر ادع لنا ربك »[3]

ومن قرأ بضم التاء فمن علم موسى .

فان قيل له كيف يصح الاحتجاج عليهم بعلمه ، وعلمه لا يكون حجة على فرعون وملائه؛وانما يكون علم فرعون ما علمه من صحة أمر موسى حجة عليه؟.

نقول : إنه لما قيل له «إن رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون»[4] كان ذلك قدحاً في علمه ، لأن المجنون لا يعلم ، فكأنه نفى ذلك ، فقال لقد علمت صحة

---

(١) سورة الاعراف اية ١٣٣
(٢) سورة ٢٧ النمل اية ١٣ - ١٤
(٣) سورة ٤٣ الزخرف اية ٤٩
(٤) سورة ٢٦ الشعراء اية ٢٧

ما أتيت به ، وأنه ليس بسحر ، علماً صحيحاً كعلم العقلاء، فصارت الحجة عليه من هذا الوجه . ورويت هذه القراءة عن أمير المؤمنين (ع)

يقول الله تعالى مخبراً عمّا أعطى موسى من الآيات وذكر أنها تسع آيات معجزات بينات ظاهرات دالات على صحة نبوتة . واختلفوا في هذه التسع : فقال ابن عباس والضحاك : هي يد موسى ، وعصاه ، ولسانه ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم «آيات مفصلات» . وقال محمد ابن كعب القرطي : الجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والبحر ، وعصاه والطمسة ، والحجر . والطمسة دعاء موسى وتأمين هرون ، فقال الله تعالى « قد اجيبت دعوتكما[1] » وفي رواية عكرمة عن ابن عباس ، ومطر الوراق : الطوفان والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد ، والسنون ، ونقص من الثمرات . وبه قال الشعبي ومجاهد . وقال الحسن مثل ذلك ، غير أنه جعل الأخذ بالسنين ونقص الثمرات آية واحدة . وجعل التاسعة تلقف العصا ما يأفكون .

وقال صفوان ابن عسال: سأل يهودي رسول الله ﷺ عن التسع آيات، فقال: (هن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرمها الله الا بالحق ، ولا تمشوا ببريء إلى السلطان يقتله ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربو ، ولا تقذفوا المحصنة ، ولا تولوا الفرار يوم الزحف ، وعليكم خاصة يا يهود أن لا تعتدوا في السبت)[2] فقبل يده، وقال أشهد أنك نبيُّ الله . وقوله «فاسأل بني اسرائيل » أمر النبي أن يسأل بني إسرائيل « اذ جاءهم موسى» . وقال الحسن عن ابن عباس ، قال : معناه سؤالك إياهم ، نظرك في القرآن . وروي عن ابن

---

(١) سورة ١٠ يونس اية ٨٩

(٢) في بعض المخطوطات (لا تسخروا في السبت) وفي بعضها (لا تصيدوا في السبت) وقد اثبتنا ما في المطبوعة لموافقته لقوله تعالى « لا تعدوا في السبت » في سورة النساء آية ١٥٤ ، وفي سورة البقرة آية ٦٥ « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت » وفي سورة الاعراف اية ١٦٢ « اذ يعدون في السبت »

عباس أنه كان يقرأ «فسأل بني اسرائيل» يعني فسأل موسى فرعون بني إسرائيل أن يرسلهم معه .

وقوله « فقال له فرعون » حكاية عما قال فرعون لموسى « إني لأظنك يا موسى مسحوراً » أي معطاً علم السحر بهذه العجائب التي تفعلها من سحرك ، وقد يجوز أن يكون المراد « إني لأظنك يا موسى » ساحراً ، فوضع (مفعول) موضع (فاعل) ، مثل مشؤم وميمون موضع شائم ويامن . وقيل معناه : إنك سحرت ، فانت تحمل نفسك على ما يقوله السحر الذي بك وقيل مسحور بمعنى مخدوع .

وقوله « قال لقد علمت » حكاية عما أجاب به موسى فرعون فإنه قال « لقد علمت » يا فرعون أنّ ما جئت به ليس بسحر وإني صادق . ومن قرأ بضم التاء معناه إنه لما قال له فرعون « إني لأظنك يا موسى مسحوراً » قال له موسى «لقد علمت » اني لست كذلك وأنه ما أنزل هذه الآيات «إلا رب السموات والارض» الذي خلقهن وجعلهن « بصائر » أي حججاً واضحة واحدها بصيرة « واني لاظنك يا فرعون مثبوراً» اي ملعوناً ممنوعاً من الخير ، تقول العرب ما ثبرك عن هذا الأمر أي ما منعك منه ، وما صرفك عنه ، وثبره الله ، فهو يثبِره ويثبُره لغتان . ورجل مثبور محبوس عن الخيرات . قال الشاعر :

إذا جارى الشيطان في سنن الـــــغي فمن مال ميله مثبور [١]

وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير ، وقال قوم : معناه مغلوباً ، روي ذلك عن ابن عباس في رواية أخرى ، وبه قال الضحاك . وقال مجاهد : هالكاً ، وبه قال قتادة . وقال عطية العوفي : مغيراً مبدلاً . وقال ابن زيد : معناه مخبولاً لاعقل له .

قوله تعالى :

(فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (١٠٣)

---

(١) تفسير الطبري ١٥ : ١٠٩

وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً) (١٠٤) آيتان بلا خلاف .

قوله «فأراد» يعني فرعون «أن يستفزهم» يعني موسى وبني اسرائيل «من الأرض» أي يخرجهم منها بالنفي والقتل والازعاج كرهاً ، من أرض مصر . وأصله القطع بشدة ، فزّز الثوب إذا قطعه بشدة تخريق .

فأخبر الله تعالى إنا أغرقناه عند ذلك في البحر ، «ومن معه» من جنده وأتباعه ونجينا بني اسرائيل مع موسى (ع) وقلنا لهم من بعد هلاك فرعون « اسكنوا الأرض» يعني أرض الشام ، «فإذا جاء وعد الآخرة» يعني يوم القيامة وهي الكرة الآخرة «جئنا بكم لفيفاً» أي حشرناكم إلى أرض القيامة ، مختلطين من كل قوم ومن كل قبيلة ، قد التف بعضكم على بعض لا تتعارفون ، ولا ينحاز منكم أحد إلى قبيلة ، ومن ذلك قولهم : لففت الجيوش إذا ضربت بعضها ببعض فاختلط الجميع ، وكل شيء اختلط بشيء فقد لف به ، وقال مجاهد: معناه جئنا بكم من كل قوم . وقال قتادة: جئنا بكم أجمع أولكم وآخركم ، وهو قول ابن عباس ومجاهد – في رواية – والضحاك . و (لفيف) مصدر تقول لففته لفاً ولفيفاً ، فلذلك أخبر به عن الجميع ولفيفاً نصب على الحال .

قوله تعالى :

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً (١٠٥) وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (١٠٦) آيتان بلا خلاف .

قوله « وبالحق أنزلناه » يعني القرآن أنزله الله يأمر فيه بالعدل وبالانصاف ، والأخلاق الجميلة والأمور الحسنة الحميدة ، وينهى فيه عن الظلم وأنواع القبائح والأخلاق الذميمة . « وبالحق نزل » معناه بما ذكرناه من فنون الحق نزل القرآن من عند الله على نبيه ﷺ . قال البلخي: يجوز أن يكون أراد موسى ، ويكون ذلك كقوله « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد »[١] ويجوز أن يكون أراد الآيات فكنى عنها بالهاء وحدها ، دون الهاء والألف ؛ ويريد أنزلنا ذلك ، كما قال أبو عبيدة قال أنشدني رؤبة :

فيه خطوط من سواد وبلق كأنه في العين توليع البهق[٢]

فقلت له: إن أردت الخطوط فقل كأنها ، وإن أردت السواد والبياض فقل كأنهما ، قال : فقال لي : كأن ذلك وتلك .

ثم قال « وما أرسلناك » يا محمد « إلا مبشراً » للمطيعين بالجنة « ونذيراً » أي مخوفاً للعصاة من النار .

وقوله « وقرآناً فرقنا » قرأه أهل الأمصار بالتخفيف. وحكي عن ابن عباس بتشديد الراء، بمعنى نزلناه شيئاً بعد شيء ، آية بعد آية، وقصة بعد قصة. ومعنى « فرقناه » فصلنا فيه الحلال والحرام ، وميزنا بينهما ، وهو قول ابن عباس. وقال أبي بن كعب معناه بيناه. وقال الحسن وقتادة: فرق الله فيه بين الحق والباطل. ومن قرأ بالتشديد ، قال ابن عباس وقتادة وابن زيد : إن معناه أنزل متفرقاً لم ينزل جميعاً، وكان بين أوله وآخره نحو من عشرين سنة. ونصب «قرآناً» على معنى وأحكمنا قرآناً « فرقناه » أو آتيناك قرآناً. وقال بعضهم: نصب بمعنى ورحمة كأنه قال « وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً » ورحمة ، قال لأن القرآن رحمة .

وقوله «لتقرأه على الناس على مكث» معناه على تؤدة، فترتله وتبينه ولا تعجل

(١) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٥

(٢) مر هذا الرجز في ٢٩٦/١

في تلاوته ، فلا يفهم عنك ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وابن زيد ، ويقال في المكث لغات : مكث بضم الميم وعليه القراء ، وبفتح الميم وسكون الكاف ، وبفتح الميم وكسر الكاف ، وحكي مكثى مقصور ومكاثاء ممدود .

وقوله « ونزلناه تنزيلاً » أي أنزلناه شيئاً بعد شيء ، وهو قول الحسن وقتادة

وقوله « ونزلناه تنزيلا » يدل على أن القرآن محدث ، لأن القديم لا يجوز وصفه بالمنزل والتنزيل ، لأن ذلك من صفات المحدثين .

وقيل في معنى «على مكث» أنه كان ينزل منه شيء ثم يمكثون ماشاء الله وينزل شيء آخر .

قوله تعالى :

(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً) (١٠٩) ثلاث آيات في الكوفي خاصة ، تمام الأولى سجداً ، وآيتان فيما سوى ذلك .

يقول الله تعالى لنبيه « قل » لهؤلاء الذين اقترحوا عليك الآيات ، وقالوا «لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً»[1] على وجه التبكيت لهم في عدولهم عن نبيه وكفرهم به ، وأنه لا يستضر بترك إيمانهم ، لأن عيبه راجع عليهم «آمنوا» بهذا القرآن الذي لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله ، وتعاونوا عليه لما

---

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٩٠

قدروا عليه «أولا تؤمنوا» وتجحدوه ، فإن إيمانكم لن يزيد في خزائن الله شيئاً ، ولا تركم الايمان به ينقص ذلك، وإن تكفروا به، فإن الذين اوتوا العلم بالله وآياته من قبل نزوله من مؤمني أهل الكتاب ، وهم الذين أسلموا «إذا يتلى عليهم» من القرآن «يخرون» تعظيماً له وتكريماً، لعلمهم بأنه من عند الله، لاذقانهم سجداً بالأرض واختلفوا في المعني بقوله « يخرون للاذقان » فقال بعضهم : أراد بـــه الوجوه روى ذلك عن ابن عباس وقتادة . وقال قوم يعني بذلك اللحى، حكي ذلك عن الحسن . وقوله « ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً » حكاية من الله عن هؤلاء الذين أوتوا العلم من قبل نزول هذا القرآن خروا للاذقان سجوداً عند استماعهم القرآن يتلى عليهم تنزيها لله تعالى وتبرئة له مما يضيف اليه المشركون ، ويقولون لم يكن وعد ربنا من ثواب وعقاب إلا مفعولا حقاً يقيناً إيماناً بالقرآن وتصديقاً له . والأذقان جمع ذقن ، وهو مجمع اللحيين . وقال مجاهد وابن زيد: « الذين أوتوا العلم من قبله » إلى قوله « خشوعاً » ناس من أهل الكتاب حيث سمعوا ما أنزل الله على محمد « قالوا سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً »وقال ابن جريج: إذا يتلى عليهم كتابهم. وقال قوم «الذين أوتوا العلم» يعني به محمداً ﷺ والمؤمنين . ويراد بقوله « إذا يتلى عليهم » يعني القرآن ، لانه من سيـــاق ذكر القرآن ، ولم يكن يجري لغيره من الكتب ذكر ، وهو الاقوى ، لأن الآية فيها مدح لمن وصف بما فيها ، وذلك لا يليق بالكفار إلا أن يراد بذلك من آمن منهم وكان عالماً قبل ذلك بصحة القرآن اذ علموا بما أنزل الله على محمد ﷺ من التوراة والإنجيل ويحتمل ذلك اذاً على ما بيناه .

وقوله « ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعـاً » يقول الله يخرّ هؤلاء الذين أوتوا العلم من مؤمني أهل الكتابين من قبل نزول الفرقان اذا يتلى عليهم القرآن «لاذقانهم يبكون ويزيدهم» ما في القرآن من المواعظ والعبر «خشوعاً» يعني خضوعاً لأمر الله وطاعته واستكانة له .

قوله تعالى :

(قُلِ ٱدْعُوا ٱللهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلأَسْمَاءُ ٱلحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ ٱلحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي ٱلمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً) (١١١)

آيتان بلا خلاف .

هذا أمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن «قل» يا محمد لمشركي قومك المنكرين لنبوّتك الجاحدين لدعائك وتسميتك الله تعالى بالرحمن «ادعوا الله أو ادعوا الرحمن» أيها القوم «أيّاما تدعوا فله الاسماء الحسنى» معناه بأي أسمائه تعالى تدعون ربكم به، وانما تدعون واحد ، فله الاسماء الحسنى، وانما أمره بذلك؛ لان مشركي قومه لما سمعوا النبي ﷺ يدعو الله تارة بأنه الله وتارة بأنه الرحمن، فظنوا أنه يدعو إلهين حتى قال بعضهم: الرحمن رجل باليمامة ، فأنزل الله هذه الآية احتجاجاً لنبيه ﷺ بذلك ، وانه شيء واحد، وإن اختلفت أسماؤه وصفاته ، وبه قال ابن عباس ومكحول ومجاهد وغيرهم .

(وما) في قوله «أيّاً ما» يحتمل أن يكون صلة ، كقوله « عمّا قليل ليصبحن نادمين »[1] ، ويحتمل أن يكون بمعنى أي كررت لاختلاف لفظها ، كما قالوا : ما رأينا كالليلة ليلة .

وقوله « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » نهي من الله تعالى عن الجهر العظيم في حال الصلاة، وعن المخافتة الشديدة وأمر بأن يتخذ بين

---

(١) سورة ٢٣ المؤمنون اية ٤٠ .

ذلك سبيلاً. وحدّ أصحابه الجهر فيما يجب الجهر فيه بأن يسمع غيره، والمخافتة بأن يسمع نفسه .

واختلفوا في الصلاة التي عنى بها بالآية في قوله « ولا تجهر بصلاتك » فقال الحسن لا تجهر بإشاعتها عند من يؤذيك ، ولا تخافت بها عند من يلتمسها منك. وقال قوم : لا تجهر بدعائك ولا تخافت ، ولكن بين ذلك، قالوا: والمراد بالصلاة الدعاء ، ذهبت اليه عائشة ، وابن عباس ، وأبو عياض ، وعطاء ، ومجاهــد ، وسعيد بن جبير ، وعبد الله بن شداد ، والزبير ، ومكحول . وروي عن ابن عباس -في رواية أخرى- أن النبيّ كان إذا صلى يجهر في صلاته، فسمعه المشركون فشتموه وآذوه وآذوا أصحابه ، فأمر الله بترك الجهر ، وكان ذلك بمكة في اول الامر ، وبه قال سعيد بن جبير . وقال قوم : أراد لا تجهر بتشهدك في الصلاة ولا تخافت به ، روي ذلك عن عائشة - في رواية أخرى - وبه قال ابن سيرين. وقــال قوم : كان النبي ﷺ يصلي بمكة جهراً فأمر بإخفاتها ، ذهب اليه عكرمة والحسن البصري ، وقال قوم : معناه لا تجهر بصلاتك تحسنها مراآة ، في العلانية ، ولا تخافت بها، تثني في القيام بها في السريرة، روي ذلك عن الحسن وقتادة وابن عباس في رواية . وبه قال ابن زيد وابن وهب . وقال الطبري : يحتمل أن يكون المراد لا تجهر بصلاتك صـلاة النهـار العجماء، ولا تخافت بها ، يعني صلاة الليل التي تجهر فيها بالقراءة، ق ل: وهذا محتمل غير انه لم يقل به أحد من أهل التأويل .

ثم قال لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد « الحمد لله الذي لم يتخــذ ولداً » فيكون مربوباً لا ربّاً، لأن ربّ الأرباب لا يجوز أن يكون له ولد «ولم يكن له شريك» في ملكه فيكون عاجزاً محتاجاً الى غيره ليعينه فيكون ضعيفاً ، ولا يجوز أن يكون الإله بهذه الصفة « ولم يكن له وليّ من الذل » معنـاه لم يكن له حليف حالفه لينصره على من يناوئه ، لان ذلك صفة ضعيف عاجــز ، ولا يجوز أن يكون الإله بهذه الصفة ، ثم أمره بأن يعظمه تعظيماً لا يساويه تعظيم، ولا يقاربه لعلوّ منزلته .

وروي عن النبي ﷺ أنه كان يعلم أهله هذه الآية . وما قلناه هو قول مجاهد وسعيد بن جبير وابن عباس . وقال محمد بن كعب القرطي : في هذه الآية ردّ على اليهود والنصارى حين قالوا اتخذ الله الولد – وعلى مشركي العرب حيث قالوا: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك. وعلى الصابئين والمجوس حين قالوا : لولا اولياء الله لذل الله . فأنزل الله رداً لقولهم أجمعين .

وليس لأحد أن يقول : كيف يحمد الله على ان لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك، والحمد إنما يستحق على فعل ماله صفة التفضل، وذلك أن الحمد في الآية ليس هو على أن لم يفعل ذلك . وإنما هو حمد على أفعاله المحمودة ،ووجه الى من هذه صفته، لا من أجل أن ذلك صفته، كما تقول: أنا أشكر فلاناً الطويل الجميل ، ليس انك تشكره على جماله وطوله ، بل على غير ذلك من فعله .

ومعنى « وكبره تكبيراً » صفه بصفاته التي لا يشركه فيها أحد .

وقيل : كبره عن كل ما لا يليق وصفه به .

تمّ المجلد السادس من تفسير التبيان
ويليه المجلد السابع وأوله :

اول سورة الكهف

في ربيع الأول سنة ١٣٨١ هـ . آب سنة ١٩٦١ م

١ ـ فهرس الآيات المستشهد بها في غير موضعها

(٤) سورة النساء

(٥) سورة المائدة

صفحة | آيـة

(٢٠) سورة طه

(٢١) سورة الانبياء

(٢٢) سورة الحج

(٢٣) سورة المؤمنون

صفحة | آيـة

(٢٤) سورة النور

(٢٥) سورة الفرقان

٢ ــ فهرس الأحاديث

صفحة

صفحة

٣ ـ فهرس الردود والاجوبة والادلة

صفحة

صفحة

٤ ـ فهرس المباحث اللغوية

صفحة

صفحة

صفحة

٥ ــ فهرس الأَمثال

٦ — فهرس المواضيع

(١١) سورة هود

(١٢) سورة يوسف

(١٣) سورة الرعد

(١٤) سورة إبراهيم

(١٥) سورة الحجر

١٦ ـ سورة النحل

(١٧) سورة الاسراء